بهجة النفوس

وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها

شرح مختصر صحيح البخارى

المسمى جمع النهاية فى بدء الخير والغاية

للامام الحافظ المحدث الورع ابى محمد عبدالله بن ابى جمرة الازدى الاندلسى رضى الله عنه

المتوفى سنة ٦٩٩ هجرية

(الجزء الرابع)

الطبعه الأولى سنة ١٣٥٤ هجرية

(مطبعة الصدق الخيرية بجوار الأزهر بمصر)
لصاحبها الشيخ اسماعيل عبد الله الصاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

(١٦٩) ﴿ حديث النهى عن الصلاة حين طلوع الشمس وغروبها ﴾

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إِذَا طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمْسِ فَدَعُوا الصَّلَاةَ حَتَّى تَبْرُزَ وَإِذَا غَابَ حَاجِبُ الشَّمْسِ فَدَعُوا الصَّلَاةَ حَتَّى تَغِيبَ وَلَا تَحَيَّنُوا بِصَلَاتِكُمْ طُلُوعَ الشَّمْسِ وَلَا غُرُوبَهَا فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ أَوِ الشَّيْطَانِ لَا أَدْرِي أَيُّ ذَلِكَ قَالَ

ظاهر الحديث يدل على النهى عن الصلاة عند ظهور حاجب الشمس حتى تبرز وعند غروب حاجبها أيضا حتى تغيب والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ هل هذا النهى على عمومه فى المكتوبة وغيرها أو فى النافلة لا غير أو هذا فى النافلة مطلقا ما كان منها مأمورا به ومرغبا فيه أو ما كان منها بنفل دون أمر به وترغيب فيه مثال المأمور به تحية المسجد وما أشبههما والمرغب فيه مثل سجود التلاوة وما أشبه ذلك وهل إذا بدت كلها تجوز الصلاة أو حتى ترتفع ﴿فالجواب﴾ عن الأول وهو قولنا هل ذلك فى المكتوبة أو غيرها أما المكتوبة فلا يخلو أن يكون نسيها أو نام عنها أو غير ذلك فان كان تركها عن نوم أو نسيان فليصلها متى ما ذكر فى ذلك الوقت المنهى عنه وغيره لقوله صلى الله عليه وسلم «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فذلك وقتها» وأما إن كان تأخيرها لعذر شرعى مثل الحائض تطهر والغلام يحتلم فذلك وقت أدائها فى حقهما ومن أشبههما من أهل الاعذار الشرعية وإن كان تأخيرها لذلك الوقت مع الذكر والقدرة فقد اختلف العلماء فيه فمنهم من قال أنه مؤد واقتدى فى ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم «من أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر» وأما إن كانت الصبح فقد خرج الوقت وهو آثم بلا خلاف ومنهم من قال أنه فى صلاة العصر مؤد آثم لقوله صلى الله عليه وسلم «يجلس أحدهم حتى إذا اصفرت الشمس وكانت بين قرنى الشيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا فتلك صلاة المنافقين فتلك صلاة المنافقين فتلك صلاة المنافقين» وهو مشهور مذهب مالك وما ابتدأ نافلة من غير أن يعارض هذا الحديث أمر كما تقدم أو ندب فلا ولا خلاف أعرف فيه وأما ما كان يعارضه ندب أو ترغيب كما ذكرنا فاختلف العلماء فى ذلك على قولين فمنهم من أجاز وهو مذهب الشافعى رحمه الله ومن تبعه ومنهم من منع وهو مذهب مالك رحمه الله ومن تبعه إلا أن فى مذهب مالك رحمه الله فى الصلاة على الجنازة قولين من أجل الخلاف هل هى على الوجوب أم لا

وكذلك فى سجود التلاوة فى مذهب مالك قولان أيضا ﴿وأما الجواب﴾ على جوازها إذا بدأ القرص كله فالظاهر من الحديث الجواز وقد جاء فى سنن أبى داود حتى ترتفع قدر الرمح وقد جاء فى أثر آخر حتى ترتفع قدر عصاتين وعلى ارتفاعه قدر الرمح هو العمل عند الفقهاء لأن هذا الحديث جاء مجملا ولا نص بتحديد الوقت فيكون الذى جاء فيه نص بتحديد الوقت مبينا لهذا على عادة أصل الحديث فى ذلك وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ولا تحينوا بصلاتكم﴾ معناه تتحروا وتقصدوا طلوع الشمس ولا غروبها وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿فانها تطلع بين قرنى شيطان أو الشيطان﴾ الشك هنا من الراوى

وفيه دليل: على فضلهم وتحريهم فى النقل كما تقدم فى غير ما موضع ﴿وهنا بحث﴾ فى قوله عليه الصلاة والسلام بين قرنى الشيطان هل هذا على ظاهره أو هو على معنى آخر وان كان على ظاهره كيف تكون الكيفية والشمس إنما هى فى السماء الرابعة والشياطين ممنوعون من سماء الدنيا فكيف بالرابعة ﴿فالجواب﴾ والله أعلم إن قلنا أنه على ظاهره فقد جاءت صورة الكيفية فى ذلك وهو أنه ينتصب لها عند طلوعها وكذلك عند الغروب وكل شيء ينتصب للشمس فى ذلك الوقت يمتد ظله على الأرض ثم يقوى للكفار الذين يعبدون الشمس فيسجدون لها فيكونون قد سجدوا والظل قرنه وهو يقنع من بنى آدم بما أمكنه من أى وجه قدر ويغوى المؤمنين المصلين حتى يتحروا بصلاتهم ذلك الوقت فيحصل له فى عبادتها مشاركة ما وقد قالت عائشة رضى الله عنها فى قول مولانا جل جلاله (أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) والله ما تركوها وإنما أخروها عن وقتها وتشبه مكيدته هنا كما فعل بحواء حين حملت فخوفها مما فى بطنها ثم قال لها سميه عبد الحارث لأن اسمه الحارث ورجاها بكل خير إذا سمته بذلك كما نص الله عز وجل على ذلك فى كتابه حيث قال (فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن أتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) واحتمل أن يكون على معنى ثان وهو أنه لما كان هذا وقت تعبد الكفار وجميع تعبدات الكفار إنما هى من الشيطان فكان هذا الوقت مما يعبد فيه الشيطان وقد نهينا أن نتشبه بأهل الكتاب فكيف بغيرهم واحتمل الوجهين معا

وفيه دليل على تحقيق الاخلاص فى العبادة يؤخذ من النهى عن هذه الأوقات من هذه الشبه الخفية التى لا نعلمها

وفيه دليل: على كثرة ما خص الله تعالى به هذه الأمة من الخير بهذا النبى الكريم صلى الله عليه وسلم الذى قد نبهنا على جميع مكائد عدونا بمثل هذا الحديث والأحاديث التى تقدمت والتى بعد حتى لم يبق له مكيدة إلا نبهنا عليها وبين لنا المخرج منها والتحرز منها صلى الله عليه وسلم أفضل الصلاة والتسليم فيه وفيما تقدم من الأحاديث دليل على كثرة اشتغال هذا العدو بنا وأنه لا يغفل ﴿ويترتب﴾ على ذلك من الفقه التيقظ لذلك والاشتغال بقهره وزجره والأخذ فيما يغيظه ن الأقوال والأفعال ويقطع ظهره أعاننا الله على ذلك بمنه

وفيه دليل على عظيم لطف الله تعالى بهذه الأمة الذى جعل لها المخرج من ذلك كله بأيسر الأمور وأقربها وهو ذكره عز وجل والتعلق به يؤخذ ذلك من قوله تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) ففى نفس الاستعاذة به عز وجل ذهبت حيل العدو كلها يالها من نعمة لكن قل فاعلها لأن صاحب الجهل محروم لأنه يتبع عدوه دون حجة ولا برهان ثم يوبخه يوم القيامة بقوله (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) فمن الحمق مصاحبة العدو ومعاداة الحبيب جعلنا الله ممن عادى عدوه وصحب حبيبه بمنه

(١٧٠) ﴿ حديث الآمر بالاستعاذة بالله تعالى من الشيطان عند وسوسته ﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِى الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا مَنْ خَلَقَ كَذَا حَتَّى يَقُولَ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ

ظاهر الحديث الاخبار باستدراج الشيطان بكلامه بالحق أولا لكى يصل به إلى إلقاء الباطل ليقع بالاصغا إليه الخلل فى الايمان وهو أكبر مقصوده والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ ماذكرنا فى الحديث قبل من كثرة حيله علينا واشتغاله بنا ﴿ومنها﴾ أيضا كثرة نصيحة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلينا وتنبيهه عليه الصلاة والسلام على عداوته ومكائده ﴿ومنها﴾ تعليمه صلى الله عليه وسلم للناس كيف المخرج منها ﴿ومنها﴾ عظيم لطف الله تعالى بنا الذى جعل لنا المخرج من هذا الأمر العظيم بأيسر شىء وهى الاستعاذة به عز وجل يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿فليستعذ بالله﴾

وفيه دليل : على أن مولانا جل جلاله منزه عن أن يكون من شىء يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام حتى يقول ﴿من خلق ربك فاذا بلغه فليستعذ بالله﴾ أى من ذكر المحال وقد تقدم الكلام على هذا فى أول الكتاب من طريق العقل والنقل بما فيه كفاية فأغنى عن ذكره هنا

وفيه دليل : على أن الخطرة من الشر لا يؤاخذ بها يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿فاذا بلغه فليستعذ بالله﴾ أى إذا استعذتم بالله فلا تؤاخذون بتلك الخطرة ولا تضركم ولذلك قالت الصحابة رضوان الله عليهم إنا نجد فى نفوسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به فقال عليه الصلاة والسلام «أوجدتموه قالوا نعم قال ذلك صريح الايمان» أى فى تعاظم الأمر ودفعه لا فى نفس وجوده وهو مما يشبه هذا المعنى الذى نحن بسبيله

وفيه دليل : على أن إغواء العدو لا يكون إلا مع الغفلة يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام فلينتبه لأنه لو كان متنبها لما أصغى إلى قول عدوه حتى استدرجه إلى محض الباطل ولذلك يذكر عن عيسى

عليه الصلاة والسلام أنه لقيه اللعين فقال له قل لا إله إلا الله فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام «كلمة حق ولا أقولها عن أمرك» هكذا يكون التحرز من العدو لأنه إذا ثبتت العداوة فلا يطمع منه فى خير أصلا وإن كان ظاهر مايقوله خيرا فانه فى الضمن شر وكذلك ينبغى أن يتحذر من أتباعه فانهم منه ومثله

وفيه دليل: على أن الايمان الكامل لا يكون إلا مع الانتهاء عن المنهيات يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام فلينته فلو كان كامل الايمان كان منتهيا وقد نص صلى الله عليه وسلم على هذا حيث قال المؤمن كيس حذر فطن

وفيه دليل: على أن اليقظة علامة الخير وأنه لا يكون إلا فيمن أراد الله تعالى به الخير يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام فاليستعذ بالله ولينته وقد قال الله تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون) فجعل عز وجل ذلك من صفة المتقين والمتقون هم أهل الخير والسعادة فى الدارين وقد قال غفلت ومن غفلتى أتيت

(١٧١) ﴿حديث بشارته ﷺ للفقراء بأنهم أكثر أهل الجنة﴾

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اُطَّلَعْتُ فِى الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِى النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ

ظاهر الحديث الاخبار بأن أكثر أهل الجنة الفقراء وأن أكثر أهل النار النساء والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ الكلام على هؤلاء الفقراء وهل هم كل من هو عديم لا مال له أو هو بشرط زائد على ذلك ﴿ومنها﴾ الكلام فى النساء أيضا هل ذلك لعلة تعقل أو أى نساء كن ﴿ومنها﴾ هل رؤيته عليه الصلاة والسلام الدارين حقيقة أو هو من قبيل التمثيل ﴿فأما الجواب﴾ عن الفقراء هل ذلك محمول على كل من كان عديما من المال فليس الحديث على عمومه بدليل ماجاء عنه عليه الصلاة والسلام فى حق وصف الفقراء الذين لهم المزية على الأغنياء فى قوله عليه الصلاة والسلام «إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمس مائة عام من أعوام الدنيا» فقام إليه إليه فقير فقال يارسول الله أنا منهم قال له ألك ثوبان إذا غسلت الواحد لبست الآخر قال نعم قال لست منهم فقام ثان فقال يارسول الله أنا منهم وليس كمن تقدم أن ليس له إلا ثوب واحد فقال له ألك غذاء وعشاء قال نعم قال لست منهم فقام ثالث فقال أنا منهم وليس كمن تقدم قال ألك بيت تأوى إليه قال نعم قال لست منهم فقام رابع فقال أنا منهم وليس كمن تقدم فقال أتصبح وتمسى

وأنت راض عن الله قال نعم قال أنت منهم أوكما قال عليه الصلاة والسلام وقد قال صلى الله عليه وسلم «ليس الغنى بكثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس» وكذلك يلزم فى الفقير من طريق النظر إذا كان الفقير لايقوم بما فرض عليه فكيف يدخل الجنة وقد قال صلى الله عليه وسلم «أول مايحاسب به العبد الصلاة فان قبلت منه نظر فى سائر عمله وإن لم تقبل منه ألقى فى النار» أوكما قال عليه الصلاة والسلام فاذا كان فقراء تاركين للصلاة فكيف يدخلون الجنة حتى يكونوا من أكثر أهلها فدل بهذه الأحاديث أن الحديث ليس على عمومه من جميع الفقراء وإنما يكون معناه أن المؤمنين الذين يأتون ما أمروا به أكثرهم فقراء وكذلك جاء إن أول اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الفقراء لأن الأغنياء تمنعهم من الاجابة كثرة حطام الدنيا والاشتغال بها وإن دخلوا فى الاسلام قل مايخلصون أنفسهم من كثرة مايترتب عليهم من الحقوق إلا من أيده الله تعالى منهم بمعونته والفقراء أقل مؤنة وأرق أفئدة فيحق أن يكونوا أكثر أهل الجنة وقد روى عن الحسن البصرى أنه وقع نار فى البصرة فأخذ مصحفا له وخرج وقال لهم يا أهل البصرة فاز المخففون مالى فى بلدكم غير هذا يعنى مصحفه يشير لهم إلى هذا المعنى لأنه بقلة دنياه نجى من نار البصرة بنفسه وبكل مامعه فكذلك فى الدار الآخرة وأنتم ياأصحاب الأثقال والحطام كما وحلتم هنا بأنفسكم ولا تقدرون على التخليص من نار البصرة فكيف بكم فى الدار الآخرة وقد قالت عائشة رضى الله عنها لعبد الرحمن بن عوف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انك تدخل الجنة حبوا وكان عبد الرحمن رضى الله عنه حيث كان من أهل الفضل إلا أنه كان أغنى أهل عصره فكثرة المال توجب كثرة الحساب وكثرة الحساب يبطىء بصاحبه عن الجنة وإن كان يتخلص فلما سمع ذلك منها وكان قد أتته ثمانون بعيرا من الشام بالمتاع وهى والغلمان الذين كانوا أتوا بها وما كان عليها الكل له فقال رضى الله عنه هى فى سبيل الله بكل ماعليها والذين أتوا بها «على أن أدخلها مشيا»

وفيه دليل: على أن أكثر الصالحين الفقراء يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام أكثر أهلها الفقراء

وفيه دليل: على أن الغالب على الأغنياء عدم التوفيق يؤخذ ذلك من كونهم قليلين فى الجنة

وفيه دليل: للزاهدين الذين رفضوا الدنيا لكون حرامها عذابا وحلالها حسابا فلا راحة فيها لصاحبها يؤخذ ذلك من أن أكثر أهل الجنة الفقراء ﴿وأما الجواب﴾ عن النساء وكونهم أكثر أهل النار فقد بين صلى الله عليه وسلم علة ذلك فى غير هذا الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام يكفرن العشير ويكفرن الاحسان لو أحسنت إلى احداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت مارأيت منك خيرا قط

وفيه دليل: على أن الأعمال سبب لدخول الجنة أو النار لأنه صلى الله عليه وسلم قد علل كثرة دخول الجنة بالفقر والنار بكفر العشير وقد قال عز وجل (بما كسبتم وبما أسلفتم) والآى والأحاديث فى

ذلك كثيرة وفيه بالضمن التحريض على حسن العمل والنهى عن سيئه وأما قولنا هل رآهم حسا أو تمثيلا احتمل الوجهين معا والقدرة صالحة لهما

وفيه دليل : لأهل السنة الذين يقولون بأن الجنة والنار مخلوقتان حسا موجودتان يؤخذ ذلك من جعله صلى الله عليه وسلم لكل واحد منهما أهلا من بنى آدم وبنوا آدم محسوسون ولا يستقرون إلا فى محسوس أيضا

وفيه دليل : على أن الخير والصلاح فى الرجال أكثر من النساء يؤخذ ذلك من أن أكثر أهل النار النساء وهذا الحديث منه صلى الله عليه وسلم تسلية للفقراء حتى يطيب لهم حالهم فانه إذا كانت تلك الدار المباركة هم أكثر أهلها ارتاحت نفوسهم لذلك فما أرفقه عليه الصلاة والسلام بأمته وأكثر إيناسه لهم فجزاه الله عنا خير جزاء بمنه والحمد لله رب العالمين .

(١٧٢) ﴿ حديث أول زمرة تدخل الجنة ﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ ٱلْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ ٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ ٱلْبَدْرِ لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَتَمَخَّطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ آنِيَتُهُمْ فِيهَا ٱلذَّهَبُ وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَمَجَامِرُهُمُ ٱلْأَلُوَّةُ وَرَشْحُهُمُ ٱلْمِسْكُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ ٱللَّحْمِ مِنَ ٱلْحُسْنِ لَا ٱخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ قُلُوبُهُمْ قَلْبُ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ ٱللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا

ظاهر الحديث الاخبار بحسن أول زمرة يدخلون الجنة وما لهم من النظافة وحسن أزواجهم والزمرة الجماعة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ لم شبه عليه الصلاة والسلام صورهم بصورة القمر ليلة البدر وذلك لأنه أجمل شىء فى هذه الدار ولو كان شىء فى هذه الدار أتم جمالا منه لشبههم به ﴿ وفيه بحث ﴾ وهو لم قال عليه الصلاة والسلام صورتهم ولم يقل وجوههم ﴿ والجواب ﴾ أنه عليه الصلاة والسلام ما أراد من تمثيل صورتهم بصورة البدر أنهم مثله ليس إلا وإنما القمر هو نور وليلة البدر يكمل نوره فيكون معنى التشبيه أنهم نوريون فى أتم ما يكون من النور بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « لو أن رجلا من أهل الجنة أطلع فبدا أسواره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم » وقال عليه الصلاة والسلام « لو أن امرأة من نساء أهل الجنة أطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت الدنيا وما فيها ولملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها » يعنى خمارها « خير من الدنيا وما فيها » فاذا كان سواره يطمس ضوء الشمس فكيف يكون وجهه مثل البدر هذا مستحيل فبان ما أشرنا إليه أنه عليه الصلاة والسلام ما أراد إلا تمام نورهم بحسب نور تلك الدار فكذلك شبه عليه الصلاة والسلام بالصورة ولم يذكر الوجه ولا شيئا من الحواس كما مثل مولانا

جل جلاله فرشهم فقال (بطائنها من استبرق) الذى هو أعلاما فى هذه الدار ولم يخبرنا عن الوجوه لأنه ليس فى هذه الدار شىء يشبهها

وفيه دليل : على أن حسن الخلقة من جملة النعم وفيه أيضا ما يقوى ما قلناه لأنه إذا كانت زوجاته يرى من أحدهما مخ الساق منها الذى هو داخل العظم من وراء الجلد ومن وراء سبعين حلة فكيف يكون وجهها فيرى الساق منها أجمل من القمر هنا فكيف الوجه ﴿وهنا بحث﴾ لم قال عليه الصلاة والسلام زوجتان وقد قال صلى الله عليه وسلم «إن أقل أهل الجنة منزلة يكون له اثنان وسبعون زوجة وثمانون ألف خادم» فاذا كان أقلهم منزلة باثنين وسبعين فكيف بأعلاهم ﴿والجواب﴾ والله أعلم أن حسن هاتين الزوجتين هو أعلا حسن الزوجات هناك ومن أجل ذلك فضل هؤلاء بأن أعطوا منهن اثنتين ويكون ذلك مثل شراب أهل الجنة المقربون يشربون من عين التسنيم ويمزج به شراب الغير كما أخبر الحق جل جلاله بقوله تعالى (ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون) حتى يكون لهم التفضيل فى كل شىء فى الجمال والأزواج والشراب وكذلك الفواكه كما أخبر بقوله تعالى (وفاكهة مما يتخيرون) وقال تعالى فى أصحاب اليمين (وفاكهة كثيرة) ففى مثل هذا فليتنافس المتنافسون وقد ذكر عن بعض المتعبدين أنه رآه بعض إخوانه قد أجهد نفسه فى العبادة فأخذ يندبه إلى الرفق قليلا فقال له لا أقدر لأنى رأيت فيما يرى النائم حورية من حور العين لها حسن وجمال فقلت لها لمن أنت فقالت لك وأنا أحبك وأخاف أن تفتر فى العبادة فأفوتك فعاهدتها أن لا أفتر حتى يجمع الله بيننا فلا يمكننى نكث العهد وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿لا يبصقون فيها ولا يتمخطون ولا يتغوطون﴾ إعلام منه عليه الصلاة والسلام بتنزيه تلك الدار عن الفضلات المستقذرة وعن النجاسات بخلاف هذه

وفى ذلك دليل: على عظيم قدرة الله تعالى يؤخذ ذلك من كون أهل تلك الدار ليس لهم غائط ولا بول ولا فضلة مستقذرة مع كثرة أكلهم لأنه قد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه يؤتى للمؤمن بغذائه فى مائدة يكون عليها ألف زبدية من الفضة فى كل زبدية لون لا يشبه غيره يعنى فى الطعم أو كما قال عليه الصلاة والسلام يأكل من آخرها مثل ما يأكل من أولها وهنا إذا أكل زيادة يسيرة تخمت معدته وكثرت فضلاته فهذا أدل دليل على عظيم القدرة وإن الأشياء هى بمقتضى الارادة لا بالعادة ولا باللازم وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿آنيتهم فيها الذهب﴾ إخبار بالتمتع هناك بالذهب وهو هنا محرم وقد قال عليه الصلاة والسلام فى حق الكفار هو لهم فى الدنيا وهو لنا فى الآخرة يعنى أوانى الذهب وفى إخباره عليه الصلاة والسلام بهذا أدل دليل على سعة رحمة الله تعالى وغناه عن جميع خلقه يؤخذ ذلك من كونه عز وجل قد أعطى الكفار هنا أن يستمتعوا بأوانى الذهب والفضة مع كفرهم حتى لا يحرموا منه بالكلية وكذلك جعل عز وجل لهم حظا من النعيم فى هذه الدار

وفيه أيضا دليل : لأهل الصوفة الذين يقولون إن أسماء الله عز وجل كلها لا بدأن يظهر من كل اسم أثر فى العباد يدل عليه فمن أسمائه عز وجل الرحمن فأعطى من مدلول هذا الاسم نسبة للكفار فى هذه الدار ومن أسمائه عز وجل المنتقم فنال المؤمنون من مدلول هذا الاسم مايلحقهم فى هذه الدار من التشويشات كل بحسب ماشاء الله تعالى وماقسم ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن يقال ماحاجتهم لاتخاذ الأمشاط وهم ليس معهم قذر ولاهوام ولاشىء يؤذيهم ﴿ فالجواب ﴾ أنه قد يكون اتخاذها على جهة التنعم والترفه لأنها مما يزيد بها الحسن وأنه لم يكن هناك قذر ولاهوام يؤذى

وفيه دليل : على كمال نعيم تلك الدار وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ ومجامرهم الألوة (١) ﴾ فيه دليل على فضل هذا العود الذى منه مجامر أهل الجنة وهو أيضا مثل ماتقدم فى الأمشاط لأن اتخاذهم المجامر لغير ضرورة بل هى من جملة الترفه وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ ورشحهم المسك ﴾ الكلام عليه مثل الكلام على صورتهم صورة البدر لأنه أجل المشمومات فى هذه الدار ومما يبين ذلك ماذكره قبل من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ ولملأت مابينهما ريحا ﴾ فأين هذا من المسك لكن يكون نسبة المثال أن عرقهم من أجل طيب تلك الدار كما أن المسك هنا من أجل الطيب فى هذه الدار وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ لاختلاف بينهم ولا تباغض إلى آخر الحديث ﴾ فيه من الفقه إن من أكمل النعيم إتفاق العيال لأنه من جملة سرور النفس ولذلك كان بعض السادة إذا رأى تغيرا فى خلق أهله قال زلة وقعت منى فيرجع فينظر مخافى النفس حتى يجد تلك الغفلة التى وقعت منه لأنه لايكون مع الرضى والاستقامة تشويش

وفيه دليل : على توافق شهواتهم يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ قلوبهم قلب واحد ﴾

وفيه دليل : على أن سبب الافتراق فى هذه الدار مافى القلوب من التباغض والضغائن فلما طهرت هناك القلوب كما أخبر جل جلاله فى كتابه بقوله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) جاء الود والسرور التام

وفيه دليل : على أن حال أهل تلك الدار على حالتين تسبيح لله تعالى مرة وتنعم أخرى يؤخذ ذلك من كونه عليه الصلاة والسلام أخبر عن تسبيحهم فى الزمان بقدر ماأخبر مولانا جل جلاله عن قدره فى أكلهم بقوله عز وجل (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وقد جاء أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس فصح لهم نعيم دائم مختلف الوجوه جعلنا الله منهم بفضله وصلى الله على سيدنا محمد الكريم وآله

(١) أى العود الهندى ولامانع من كون رائحة العود تفوح بغير نار لأن الجنة لانار فيها

(١٧٣) ﴿حديث عظم شجر الجنة﴾

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا

ظاهر الحديث الاخبار بحسن ثمر الجنة إذ أن الراكب يسير فى ظل الشجرة الواحدة مائة عام لايقطعها لأنه كلما كثر ظل الشجرة عظم حسنها والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال مافائدة الاخبار بهذا ومايترتب عليه من الفقه أمافائدة الاخبار ففيه وجوه ﴿منها﴾ الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى لأن خلقه عزوجل لتلك الشجرة على ذلك القدر بلامعالجة أحد دال على القدرة العظيمة التى ليس كمثلها شىء

وفيه دليل: على اطلاعه صلى الله عليه وسلم على أمور الآخرة فهى تقوية على الدلالة على رفع منزلته عليه الصلاة والسلام عند ملك الدارين وفيه تشويق السامع إذا كان من أهل التصديق والترغيب له فى العمل عليها ويترتب عليه من الفقه قوة الايمان وهو أعلا المراتب فانه إذا صدق الصادق صلى الله عليه وسلم فيما به أخبر عظم قدر القادر فى قلبه وذلك قوة فى الايمان ولاتبلغ بعمل لأن زيادة ذرة فى الايمان خير من عمل الدهر لأن المولى جل جلاله قد مدحهم بذلك حيث قال (يؤمنون بالغيب) ﴿وهنا بحث﴾ وهو أن يقال لم ذكر عليه الصلاة والسلام الشجرة نكرة ولم يعرفها ﴿والجواب﴾ أنه لما كان المقصود ماذكرنا أولا من الفائدة على اختلافها كان من الحكمة تنكيرها أتم فى الشأن بدليل أن شهوات الناس فى الثمار المعينة مختلفة مثال ذلك قد يكون بعض الناس يحب شجرة التين ولايحب شجرة الجوز وبالعكس فقد كان يحصل لبعض الناس زهادة فى تلك الشجرة فكان التنكير أولى وفى ذلك دلالة على مامن الله عز وجل به على سيدنا صلى الله عليه وسلم من تمام المعرفة بالأشياء وحسن إرشاده لأمته وحسن سياسته فى شأنهم كله

وفيه دليل: على أن مشى الراكب فى الغالب أكثر من غيره ولذلك مثل به عليه الصلاة والسلام ﴿وهنا بحث﴾ أيضا وهو أن يقال لم قال للراكب ولم يبين أى راكب هو وما المركوب لأن المركوبات تختلف فى الأجناس مثل الخيل والحمير والابل وكل جنس منها يختلف فى السرعة والابطاء اختلافا كثيرا ﴿والجواب﴾ هنا كالجواب على الشجرة سواء وقد يحتمل وجها آخر وهو أن يؤخذ بالوسط من ذلك حتى يكون فيه طريق بمعرفة قدرها

وفيه دليل: على ارتفاع هذه الشجرة وعظمها لأن مايكون ظلها ذلك القدر يكون ارتفاعها أكثر من ذلك وجاء أن المؤمن إذا اشتهى من جنى ثمرة ماهو فى أعلا الشجرة أنه يتدانى له حتى

يأخذه بيده والمؤمن على أى حالة كان عند اشتهائه ذلك من قيام أو قعود أو اضطجاع فسبحان من هذه قدرته وإبداع حكمته جعلنا الله ممن جعله من سكانها بلا محنة إنه ولى حميد

(١٧٤) ﴿ حديث التداوى من الحمى بالماء ﴾

عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الْحُمَّى مِنْ فَوْرِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا عَنْكُمْ بِالْمَاءِ

ظاهر الحديث الاخبار بأن الحمى من جهنم والأمر بابرادها عنا بالماء والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا على العموم فى الحميات كلها أم لا لأن منها ماهى باردة ومنها حامية سخنة وهل معنى إبرادها هو مايعلم من هذه الصيغة بالعادة وهو ضد الحر أو يكون معناها أزيلوها فيكون هذا على جهة التداوى وكيف يكون الابراد بالماء هل من الخارج أو من الباطن أو مجموعهما والجواب عن الأول وهو هل هذا على العموم فى الحميات كلها أو فى السخنة منها ﴿ فالجواب ﴾ أن هذا الاخبار منه عليه الصلاة والسلام هو على طريق الشفقة منه والرحمة من الله تعالى فينبغى أن يؤخذ على أتم المحتملات لأنه أبلغ فى الفائدة والذى يدل عليه حقيقة اللفظ والوجه الآخر وإن كان محتملا فليس بالقوى لأنه يحتاج إلى تقدير ضمير فى الكلام وحمل الكلام على ظاهره أولى من ادخال ضمير فيه سيما إذا لم يكن هناك معارض فكيف إذا كانت الفائدة أكثر ومما يصدق هذا الوجه قوله عليه الصلاة والسلام « إنها من فور جهنم » وقد جاء فى الحديث « إن النار اشتكت إلى ربها فقالت يارب أيأكل بعضى بعضا فأذن لى بنفسين فى كل عام نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف » فما كان من شدة الحر فمنها وما كان من شدة البرد فمنها فعلى هذا فجميع الحميات على اختلافها هى من جهنم فينبغى تبريدها بالماء لكن لمن يكون له تصديق بالحديث كما قال مولانا جل جلاله فى العسل (فيه شفاء للناس) وكان ابن عباس رضى الله عنه إذا رمدت عيناه يكتحل به ويتلوا الآية فيبرأ وكان ابن عمر رضى الله عنه إذا طلع له نبت يطليه به ويتلوا الآية فيبرأ وقد جاء بعض المتأخرين واستعمله على تلك النية فجعل له فيه الشفاء لكل شىء والحديث المأثور الذى جاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك فى رجل اشتكى له عليه الصلاة والسلام جريان بطن أخيه فقال له عليه الصلاة والسلام أسقه عسلا ففعل ثم أتاه بعد ذلك يشكوا له أن الأمر على حاله فقال أسقه عسلا ثم أتاه الثالثة أو الرابعة كذلك ثم شفى به فقال عليه الصلاة والسلام صدق الله وكذب بطن أخيك ومثل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى الحبة السوداء « شفاء من كل داء إلا السام » الباب فى هذا كله واحد فأهل التوفيق والتحقيق أخذوها كلها على العموم فوجدوها كذلك والأخبار فى ذلك عنهم كثيرة ومما يقوى طريقهم المبارك قوله جل جلاله (وما أرسلناك

إلا رحمة للعالمين) فينبغي أن تبقى الرحمة على عمومها لأنها من أرحم الراحمين للضعفاء المساكين وهو عز وجل يعلم ضعفهم واحتياجهم إليه ﴿وأما الجواب﴾ على قوله أبردوها فيحتمل الوجهين على انفرادهما واحتمل مجموعهما وهو الأظهر للعلة التى قدمناها آنفا لأنه من باب الرحمة فينبغى أخذ أتم الوجوه وهو جمع الوجهين معا فيحصل له التبريد على بابه والشفاء بمقتضى مافصلناه أولا وهو الحق الذى لاينبغي أن يشك فيه وأما كيف يكون الابراد بها هل من الخارج أوضده أوالمجموع فقد جاءت الصفة عنه عليه الصلاة والسلام وهي حين حم فى مرضه الذى توفى فيه صلى الله عليه وسلم فقال «خذوا لى ماء من سبع قرب لم تحل بعد واسكبوه بعد على» فدل بقوله عليه الصلاة والسلام أن التبريد الذى هو التداوى هذه صفته لأن استعماله فى الباطن صاحب الحمى بالعادة يفعله فى الغالب منهم لايقدرون على الصبر عنه

وفيه دليل : على عظيم قدرة الله تعالى يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام إنها من فور جهنم وقد أخرج إلى هذه الدار منها ما ذكر فى الحديث الذى استشهدنا به من الحر الشديد والبرد الشديد وقد جاء أن الحمى حظ كل مؤمن من النار ويظهر فى ذلك من الحكمة على مقتضى هذا الحديث الذى ذكرناه إنها على المؤمن تحلة القسم إذ هى حظه من النار وإنها للكافر تعجيل نقمة مما أعد له هناك وفى قوله عليه الصلاة والسلام ﴿فأبردوها عنكم بالماء﴾ دليل على أن الحكمة تقتضى مداواة الشيء بضده مايكون حارا تكون مداواته بالبارد والبارد بالحار ووافق فى ذلك قول الاطباء فى التجربة سواء بسواء ﴿ وهنا بحث﴾ وهو أن الصادق صلى الله عليه وسلم قد أخبر هنا أن الحمى من فور جهنم والأطباء يقولون إنها صادرة عن أخلاط فى البدن فهل يكون هذا من قبيل التعارض او يمكن الجمع بينهما الذى يظهر والله أعلم أن الجمع يمكن بينهما بوجه وذلك أن الاطباء تكلموا على مارأوه بالتجربة مع مرور الأزمنة وهى مقتضى الحكمة وأخبر الصادق عليه الصلاة والسلام بما هو الحق بحسب القدرة فتكون تلك الحمى التى هى من فور جهنم إذا أرسلت على من شاء الله تعالى من عباده فسد مزاجه وتحركت تلك الاخلاط التى أبصرها الأطباء فأخبروا أن تلك هى الحمى وسموها أسماء عديدة مثل المطبقة والحارة والربع والغب وغير ذلك من أسمائها بحسب ماهو منصوص فى كتبهم وجاء هذا مثل فعلهم مع القليل تراهم كثيرا ما يسألونه هل يطيب له الطعام أم لا فاذا ذكر لهم أنه يطيب له الطعام فرحوا بذلك وبشروه بامكان الصحة وإن المرض قد ذهب وقد جاء عن الصادق صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى وكل بالطعام ملكا وبالشراب ملكا فاذا شاء الله مرض العبد أمر عز وجل ملك الطعام وملك الشراب أن يزيلا عن العبد طيب الشراب وطيب الطعام فيكون عند ذلك بقدرة الله تعالى مرض العبد فاذا أراد الله عز وجل برأه أمر ذلك الملكين

أن يردا عليه طيب الطعام والشراب فيكون عند ذلك بفضل الله وقدرته عافية المريض فلما رأى الاطباء تلك العلامة بدوام التجربة دالة على عافية العليل نسبوها إلى نجح طبهم وتاثير أدويتهم ففرحوا بذلك فسبحان من أعطى بعظم قدرته بديع حكمته جعلنا الله ممن عافاه فى الدنيا والآخرة بمنه

(١٧٥) ﴿حديث عظم حر نار جهنم﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ قِيلَ يَارَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً قَالَ فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا

ظاهر الحديث الاخبار بعظيم قوة حر جهنم وإن هـــذه النار جزء من سبعين جزءا منها والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ الكلام فى معنى قوله عليه الصلاة والسلام أنها جزء منها هل المراد أن جميع نار الدنيا من أولها إلى آخرها هى جزء منها أو الجزء الذى أخرج للدنيا منها أو نفس الحرارة التى خلقت لها ﴿والجواب﴾ والله الموفق للصواب أما صيغة اللفظ فيحتمل الثلاثه وجوه على حد سواء وأما إذا نظرنا من طريق الفائدة فيبطل اثنان ويصح الوجه الواحد لأنه إذا قلنا إنها جميع نار الدنيا من أولها إلى آخرها فهذا لا نعلمه ولا لنا طريق إليه فكيف نجعل لنا مثالا بما لا نعرفه فهذا لا تقتضيه الحكمة ولا يعرف من فصاحة العرب وكذلك الكلام على الوجه الآخر الذى هو مقدار الجزء الذى أخرج للدنيا منها فما بقى يصح إلا قدر الحرارة التى لها فان هذا المقدار نعرفه بتحقيق الاخبار فعلى هذا يكون التمثيل بها فائدة وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «لو أن أهل النار وجدوا مثل ناركم هـــذه لقالوا فيها» وقد جاء أن هذه النار تستعيذ بالله تعالى أن تعاد إلى تلك النار

وفيه دليل: على أن من حسن الكلام أن يقدم المعلوم فى التمثيل ثم الاخبار عن المجهول الغائب إذا أريد التعريف بحقيقته يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ناركم فقدمها فى الذكر على الأخرى ليعرف قدر عظمها وفيه من الحكمة أن الفائدة تسبق للذهن به

وفيه دليل: على عظيم قدرة الله تعالى يؤخذ ذلك من كون هذه النار وتلك نار الاسم واحد وبينهما فى الحرارة هذا التفاوت العظيم

وفيه دليل: على ترك التلفظ بالكلام الذى فيه الفائدة إذ هناك ما يدل عليه يؤخذ ذلك من قول الصحابة رضى الله عنهم إن كانت لكافية ولم يذكروا فيماذا للعلم به وهو العذاب وما يمتحن به من أنواع العذاب بها لأن النار فى الغالب لهذا خلقت

وفيه دليل : على مراجعة المفضول للفاضل يؤخذ ذلك من قول الصحابة رضوان الله عليهم للنبي صلى الله عليه وسلم إن كانت لكافية ﴿وهنا بحث﴾ وهو أنه قد تقدم فى غير ما موضع من الكتاب أن الصحابة رضوان الله عليهم لا يتكلمون إلا بما فيه فائدة فكيف كان كلامهم هنا فى شىء قد فرغ من خلقه بمقتضى حكمة الحكيم فيشبه هذا تحصيل حاصل ﴿ والجواب، ﴾ أن جوابهم بهذه الصيغة كان لفوائد فمنها أن يكون ذلك منهم طمعا لعله صلى الله عليه وسلم يحاوبهم على ذلك فى حقهم وحق إخوانهم بأمر خاص من التخفيف يؤيد ذلك فعلهم معه صلى الله عليه وسلم فى غير ما موضع مما يشبه هذا منها حين أخبرهم كيف يقال يوم القيامة لآدم عليه الصلاة والسلام أخرج بعث النار من بنيك فيقول يارب وما بعث النار فيقال له تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة فبكت الصحابة رضى الله عنهم عند ذلك فقال عليه الصلاة والسلام من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد منكم إلى الجنة فعند ذلك زال عنهم ما كان أصابهم من الرعب وكذلك حين تلى عليهم قوله تعالى (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) فقالوا ماأطوله من يوم وأخبرهم عليه الصلاة والسلام أنه يخفف على المؤمن حتى يكون عنده قدر مايوقع فيه الصلاة المكتوبة أوكما قال عليه الصلاة والسلام فزال عنهم ما كانوا وجدوا فهم فى هذا الجواب على عادتهم المباركة المفيدة وفيه أيضا أنه عليه الصلاة والسلام أفادهم فائدة بقوله فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها فأفاد جوابه عليه الصلاة والسلام لهم أن هذه النار ليست من تلك ردا على من زعم أنها منها .

وفيه دليل : على إضافة الشىء لمن يتصرف فيه وإن كان لا يملكه يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ناركم فأضافها إليهم وهى ليست لهم لأن عين جوهرها لا يمكن ملكه إلا للذى خلقه غير أن إنما نملك الشىء الذى يستخرجها منه وهو لا يدوم لأنه ساعة وعادت رمادا ومما يزيد ذلك قول مولانا جل جلاله (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) فتلك الشجرة وهى التى تخرج من الزند عند القدح به من يملكها أو كيف يقدر أحد على حبسها

وفيه من الفائدة : أن حرارة تلك النار كلها على حد واحد ويعارضنا فى هذا الوجه ما جاء أنها سبع طباق وأن ماسفل منها أعظم من الذى يعلوه وينفصل عنه بأن يقال ما بين تلك الدركات من عظيم الأمر إنما هو من أجل أمر آخر منها سد المحل وله مثال هنا مثل لوأن شخصا يوقد نارا على سطح بيت وآخر يوقد مثله فى بيت وآخر يوقد مثله فى مطمور تحت البيت فنار الثلاثة فى نفسها على حد سواء فالذى أوقدها فى السطح مامنعه من إذائها إلا ما كان هناك من الهواء والذى أوقدها فى البيت وجد من حرها مالم يجد الذى فى السطح لانحصاره فى البيت وقلة الهواء فيه والذى أوقدها

فى المطمورة أشدهم لأنه انعكس عليه دخانها ولم يخرج عنه من جميع حرها شىء فالمحل هو الذى زاد فى التعب لسده ثم أيضا زيادة أخرى كما أخبر عنهم أنه يرسل عليهم الثعابين والأفاعى وقدجاء أنه يوضع على كل مفصل من مفاصل من قدر عليه بها سبعون نوعا من العذاب أو كما قال فهذا وما أشبهه ليس من نفس حرارتها بل هو لمنى زائدفبحسب زيادة تلك الأمور يكون سوء حال الشخص فيها ويترتب على الاخبار به من الفائدة وجوه منها الخوف ومنها ليكون ردعا عن موجبها لمن له عقل والعمل بالأشياء المنجية منها والا إذا سمع مثل هذه الأخبار ولا يرجع سامعها عن موجبها فلا يخلوا من أحد أمرين إماأن لا يصدق أو يصدق فان صدق ولم يرجع دخل تحت قوله تعالى (فما أصبرهم على النار) قال أهل العلم معناه ما أصبرهم على الأفعال التى يعلمون أنها توجب لهم النار فجاء التعجيب على بابه أعاذنا الله من ذلك بمنه وإن لم يصدق جاء ماهو أعظم وهو الكفر لأنه عزوجل قال (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) فلينتبه السامع ويتدارك نفسه فى زمان المهلة أيقظنا الله من سنة الغفلة بمنه

(١٧٦) ﴿حديث إلقاء الرجل المتظاهر بالصلاح فى النار﴾

عَنْ أُسَامَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِى النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِى النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ يَافُلَانُ مَاشَأْنُكَ أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ قَالَ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ

ظاهر الحديث الاخبار بسوء حال هذا الرجل يدخل النار فيدور فيها كما يدور الحمار برحاه بعد ماتندلق أقتابه وهى الأمعاء وماقاربها والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ مافيه من الدليل على عظيم قدرة الله تعالى يؤخذذلك من كون ماعلى أمعائه من الجلد واللحم قد ذهب وهى باقية على حالها ﴿ ومنها ﴾ البحث على قوله عليه الصلاة والسلام كما يدور الحمار برحاه هل ذلك بسائق يسوقه أو بغير سائق احتمل الوجهين معا لكن لفظ الحديث يعطى أنه سوق عنيف وحالة سيئة يؤخذ ذلك من تمثيله بالحمار والمعلوم من الحمار أنه لا يكون منه الدوران برحاه إلا بالسوق والضرب ومن أجل ذلك شبهه عليه الصلاة والسلام بالحمار ولم يشبهه بغيره من الدواب التى تراض وقد تدور وحدها مثل البعير وغيره وليس فى الدواب أبلد من الحمار وفيه تنبيه على أن صاحب المخالفة يوصف بالبلادة وإن كان عند نفسه نبيها لأنه عليه الصلاة والسلام

قد شبهه بأبلد البهائم ومما يقوى ماقلناه قوله عليه الصلاة والسلام « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» لأنه فى الغالب لايكون العجز إلا مع البلادة وإذا اجتمعا هما سبب الحرمان

وفيه دليل: على أن دخول النار لمن قدر عليه بها لايكون إلا يوم القيامة يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام يوم القيامة

وفيه دليل: على تصرف أهل النار فيها واجتماع بعضهم مع بعض يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿فيجتمع عليه أهل النار﴾ ويعارضنا ماجاء أن أهل النار يعذب الشخص منهم ولا يرى أحد حتى يظن أنه لايعذب فى النار غيره ويجتمع الحديثان بأن نقول النار هى سبع طباق وكل طبقة منها أمر يختص بأهلها فيكون ما أخبر به عليه الصلاة والسلام فى هذا الحديث هى نار المؤمنين التى هى أخفها بدليل قوله عليه الصلاة والسلام ﴿فيقولون له كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر﴾ وهذا لايكون إلا صفة للمؤمنين ويكون الخبر الثانى عن الكفار أو من شاء الله منهم

وفيه دليل: على إبقاء الميز والمعرفة لأهل النار مع ماهم فيه من الأمر العظيم يؤخذ ذلك من اجتماع بعضهم مع بعض وكلام بعضهم مع بعض ومراجعتهم وسؤالهم

وفيه دليل: على أن دخول أهل النار يكون بعنف دون اختيارهم يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار﴾ فلولا ماهو كذلك لقال يدخل النار »

وفيه دليل: على أن أعظم الأعمال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤخذ ذلك من تعجب أهل النار من دخول هذا الشخص النار وهم يعرفونه أنه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لأن أهل النار قد عاينوا الحساب وثواب الأعمال وأى عمل أنفع لصاحبه فلولا مارأوا قدر رفع منزلة صاحب الأمر بالمعروف والناهى عن المنكر كيف هى ماتعجبوا من دخول هذا النار وهو على ما كانوا يعلمون منه أنه من أهل ذلك الخير وصحح هو لهم بحثهم بأن فضح نفسه بما كانت سريرته حتى تبقى القاعدة على ماهى عليه من الحق لأن تلك الدار لايمشى فيها الزور ولا يصح ﴿وهنا بحث﴾ وهو أن يقال هل كان دخوله النار بتلك الحالة من أجل ما كان يظهر شيئا وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويفعل ضده أوذلك لما اكتسب من الآثام أو للمجموع ظاهر الأمر أن لهما معا ولا يقع فى النفس مايقول بعض الجهال أنه لاينهى عن منكر حتى يكون لايفعله ولا يأمر بمعروف حتى يكون ممن يفعله وإلا لايفعل فهذا جهل وعمى نعم ذلك هو صفة الكمال وإنما هو مكلف بالوجهين معا وهو أن يأمر بالمعروف ويفعله فاذا ترك الأمر به لكونه لم يوفق إلى فعله يكون عذابه على ذنبين فان أمر به ولم يفعله يكون عذابه على ذنب واحد وكذلك فى النهى عن المنكر هو أيضا

مأمور أن ينهى عنه وأن لا يفعله فى نفسه فاذا لم ينه عن المنكر وفعله عذب على ذنبين وإن نهى عنه وفعله عذب على ذنب واحد والعذاب والعياذ بالله على ذنب واحد أقل مما هو على ذنبين ومن هنا وقع ناس كثيرون فى تضييع الأوامر والنواهى يقولون لانه حتى تنتهى فيوجبون على أنفسهم عذاب ذنبين ومثله فى الأمر بالمعروف وهو غلط عظيم اللهم إلا أن يكون مثل هذا المذكور الذى كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لأنه جمع على نفسه ذنبين وزاد لهما الرياء لكونه أخفى وقوعه فى المنكر وعدم فعل المعروف الذى كان يتظاهر بأنه ممن يفعله يؤخذ ذلك من تعجب أهل النار منه لما كان يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهو يظهر أنه مثل ما يقول لهم فلو علموا منه أنه كان حاله بخلاف ما كان يأمرهم به ما كانوا يتعجبون من دخوله النار

وفيه دليل: على أن الذى خلط عمله بالحسن والسيء أنه استحق دخول النار بمقتضى العدل يؤخذ ذلك من كون هذا كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهذا من أكبر أعمال الخير كما تقرر قبل لكن لما فعل مع ذلك الشر ولم يفعل الخير استحق دخول النار

وفيه دليل: على أنه من كان له عمل خير وعمل شر فانه يقدم له أولا الأخذ بعمل الشر وحينئذ يتفضل عليه بما وعد من الخير يؤخذ ذلك من كون هذا الشخص قد اجتمع له عمل خير وضده يقدم له المجازاة على الشر والحكمة فى ذلك والله أعلم أنه لما كانت الجنة دار رحمة وأنه من دخلها لا يرى شيئا يسوءه بعد فقدم للذى له العمل المختلط دار العقاب ويخرج منها بعد إلى دار الرضى ولا يمكن العكس بمقتضى الحكمة الربانية

وفيه دليل: على حياتهم فى النار وهم فيها يقظانون يؤخذ ذلك من كونهم يتكلمون ويجتمعون ويعارضنا الحديث الذى ذكر فيه أنهم يموتون فيها حتى قال بعض العلماء بظاهره وزعم أن المؤمنين فى النار موتى ولا يحسون من عذابها شيئا وهذا الحديث رد على من زعم ذلك والجمع بين هذين الحديثين كما تقدم فى يوم القيامة لأنه مواطن مواطن وكذلك النار أهلها فيها على أحوال يتلونون تارة على نوع وتارة على أخرى وقد يكون له وجه آخر وهو أن تكون تلك الأمور التى أخبر بها فى الأحاديث وهى مختلفة إن كل حالة منها لقوم مختصين بها يشهد لهذا المعنى نفس الحديث الذى نحن بسبيله لأنه عليه الصلاة والسلام أخبر أن ذلك الشخص مشغول بدورانه ليس ينفك عنه ما هو فيه من تلك الحال وأن غيره أتاه يسأله عن حاله لأنهم قد اجتمعوا عليه وكذلك ما تعددت الأحوال على هذا الأسلوب لأن الأحاديث كلها صحاح التى قد جاءت فى هذا الشأن وهى كلها أخبار والخبر لا يدخله نسخ فلم يبق إلا الجمع بطريق التأويل نحو ما تقدم ويكون فائدة هذا الحديث التنبيه على توفية ما يجب على الشخص من الواجبات فى نفسه وغيره لأنها هى الطريقة المخلصة من الله تعالى علينا بها بفضله

(١٧٧) ﴿حديث الأمر بذكر الله تعالى عند كل شيء﴾

عَنْ جَابِرٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ أَوْ كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ فَإِذَا ذَهَبَتْ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ وَلَوْ أَنْ تَعْرِضَ عَلَيْهِ شَيْئًا

ظاهر الحديث يدل على خمسة أحكام منها الاخبار بانتشار الشياطين أول الليل وكثرتهم فى ذلك الوقت والأمر بكف الصبيان ذلك الوقت عن التصرف والأمر بغلق الباب وذكر الله تعالى إذ ذاك والأمر بتوكية السقاء وذكر الله تعالى إذ ذاك والأمر بتغطية الاناء وذكر الله تعالى إذ ذاك وإن لم يجد مايغطيها يعرض عليها شيئا والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هذه الأوامر كلها على الوجوب أو الندب وما الحكمة فى ذلك وهل انتشار الشياطين فى تلك الساعة لحكمة تفهم أوليس لنا سبيل إلى ذلك وهل ماسمى فيها من منع الصبيان يفهم أيضا علة أوليس وهل ذلك خاص بالصبيان أو يتعدى إلى غيرهم وما الحكمة فى ذكر الله تعالى عند تلك الأفعال وما يترتب عليه من الحكم وهل يتعدى إلى غير ذلك أوليس أما قوله استجنح أو كان جنح الليل فهو شك من الراوى

وفيه دليل: على تحريهم رضوان الله عليهم فى النقل كما ذكرنا قبل ﴿وأما قولنا﴾ هل الأمر على الوجوب أو الندب فاللفظ محتمل لكن الأظهر فيه الندب لأنه ليس من طريق التعبدات وإنما هو من طريق الارشاد إلى ما فيه الخير والسبب فيه وفى دفع الضرر لأنه إذا استقريتها واحدة واحدة بان لك ذلك فمنها غلق الباب لأن فيه تحصينا من العدو الذى يريد ضرك فى مال أو بدن وتوكية السقاء وهو من باب التحوط على النفس والماء والوعاء لأنه إذا لم توك السقاء قد يتعلق فيه حيوان أو يدخله فان هوام الأرض تنتشر فى الليل أكثر منها بالنهار وقد يدخله حيوان فيموت فيه أو يبقى بالحياة فمن أتى لاستعمال الماء إما أن يدخل فى جوفه أو يناله من سمه ومن هذا الباب نهى عليه الصلاة والسلام عن الشرب من فم السقاء خيفة أن يكون هناك شىء يتأذى بسببه وإطفاء المصباح من جهة الاحتياط على المال والنفس وقد نبه عليه الصلاة والسلام فى حديث آخر حيث قال «وإن الفويسقة تضرم البيت على أهله نارا» أو كما قال عليه الصلاة والسلام وهى الفارة فانها تأتى المصباح وتأخذ طرف الفتيل فتجره وهو موقود فتحرق البيت وما فيه وقد يكون نوم أهله

ثقيلا فيحترقون بالنار ﴿ويترتب﴾ على هذا من الفقه أنه لا ينبغي لأحد أن ينام ويترك مصباحه موقودا فان تركه قد يطرأ عليه منه ضرر فيتعلق العتب عليه لأنه خالف السنة وتسبب فيما كان به ضرر اللهم إلا إن كان له عذر من مرض أو ما يشبهه فصاحب العذر معذور وأما تغطية الأناء فهو من باب توقى الضرر لأنه قد جاء أن ليلة فى السنة ينزل بلاء من السماء فكل إناء وجده مكشوفا حل فيه وتلك الليلة مجهولة وأيضا قد يأتى من الحيوان الذى فيه السم والضرر فيشرب من ذلك الماء ويقع من سمه فى الاناء أو يقع هو بنفسه فيلحق لشاربه بشرب ذلك الماء ضرر فى نفسه كما تقدم وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ولو تعرض عليه شيئا﴾ ﴿هنا بحث﴾ وهو أن يقال كيف يقوم مثلا عود أو خيط إن أعرضته على الاناء مقام تغطيته كله لأن شيئا يقع على القليل والكثير فتكون هذه الاشارة هنا تبين فائدة قوله عليه الصلاة والسلام ﴿واذكر اسم الله﴾ فان المانع للضر كله والجالب للخير كله هو ذكر اسم الله تعالى فأمر عليه الصلاة والسلام باظهار الحكمة فى عمل الأسباب من غلق الباب وتوكية السقاء وغيرهما وجعل من شرطها ذكر الله تعالى عند الفعل لأنه سبحانه هو الواقى لأنه عز وجل يقول فى محكم التنزيل (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) وذكر الله تعالى هو الحصن الأعظم والملجأ الأكبر فلما لم يجد للحكمة سبيلا وهى تغطية الاناء بقيت القدرة ظاهرة فقال عليه الصلاة والسلام ذكر اسم الله عند قوله ولو تعرض عليه شيئا فأفاد ذلك أن اسم الله هو الواقى ولم يعد عليه السلام ذكر الله عند قوله ولو تعرض عليه شيئا لأنه عطفه على قوله واطف مصباحك واذكر اسم الله وما عطف على الشىء فهو مثله فلذلك سكت عنه اختصارا وقد قال بعضهم إنه كان له إناء ولم يكن له ما يغطيه فعرض عليه عودا فلما أصبح وجده قد وقع على الاناء من هذا الحيوان ذوات السم ميتا فاحتبس على العود ولم يكن ذلك العود من حيث أن يحبس ذلك الحيوان فهنا ظهر أنه ما حبس ذلك الحيوان إلا ما أشرنا إليه من بركة اسم الله تعالى لا غير ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكمة فى ذلك وذلك إنه لما كان الليل وقت نوم وهو الموت الأصغر أمر أن يفعل الأمور التى يصلح فيها حاله وحال أهله وماله فى حال نومه وغيبته لأنه فى النهار متيقظ نبهان وأهله كذلك وكل واحد يدفع عن نفسه بوضع الحيلة ولم يؤكد عليه فى هذه الأشياء ﴿ويترتب﴾ عليه من النظر أنه إذا كان يؤمر أن ينظر فيما يصلح به حاله وحال من له كما تقدم فى هذا الموت اليسير فمن باب أحرى فى الموت الذى لا رجوع فيه إلى هذا العالم الدنيوى فالمؤمن كيس حذر فطن فان عقلت تنبهت وعملت أفلحت وأما قولنا هل ذلك لحكمة تعرف أم لا فان قلنا تعرف بالنص عليها فلم يأت فى ذلك شىء فيما أعلم وإن قلنا بالاستقراء من النظر فى حكمة الحكيم وكيف رتب هذا الوجود وجدنا لذلك أثرا من الحكمة ظاهرا وذلك لوجهين من الحكمة أحدهما إن الله سبحانه قد جعل حضور الشيطان ووسواسه إنما يكون مع الغفلة

كما أن حضور الملائكة وكثرتهم إنما تكون مع العبادة والحضور والاشتغال بما يرضى الله تعالى فلما كان أول الليل الغالب على الناس فيه الغفلة والنوم وكذلك جميع الليل هذا الغالب فيه لكن أوله فى ذلك أكثر لأن الناس قد فرغوا إذ ذاك من تسبباتهم وكدهم فيها ولذلك جاء فى الصلاة التى بين العشاءين من كثرة الأجر ما فيها وسميت صلاة الأوابين لكونه وقت غفلة فلما اشتغل هذا بالعبادة فى ذلك الوقت عظم أجره ووجه آخر وهو أنه لما أراد الحق سبحانه بمقتضى حكمته خلق الثقلين وهما الجن والانس وجعل الليل والنهار فخص الانس بكثرة الانتشار بالنهار وخص الجن بكثرة الانتشار بالليل ليكون لكل فريق وقت يستريح فيه كل بحسب حاله حكمة حكيم

﴿وهنا إشارة﴾ وهو أن ما تحسن شدة الأمور إلا عند أوائلها من خير أو ضده فلما كان الليل وقت غفلة ونوم وزيادة انتشار الشياطين فيه الذين هم عون على ذلك تجد النفوس تلك الوحشة عند أوله وأكثر ما يجد ذلك المرضى لأنه إذا قرب الليل يزداد عليهم المرض والغم ولما كان الصبح أول النهار الذى هو السعى وتكثر فى ذلك الوقت الملائكة لأن الحفظة يجتمعون فى ذلك الوقت حفظة الليل والنهار تجد النفوس إذ ذاك نشاطا وانشراحا وأكثر ما يجد ذلك المرضى فى الغالب منهم تدبير مدبر حكيم ﴿وأما قولنا﴾ هل ما أمر به من التحرز على الصبيان من الانتشار ذلك الوقت وذلك أنه لما كان الصبيان ذوى عقول ضعيفة ليست تحتمل التخيلات ومن الشياطين من يتشكل فى صورة مفزعة فقد يراها الصبيان مع ضعف عقولهم فيخاف عليهم من أجل ذلك أن يقع فى عقولهم أو أبدانهم خلل وفى هذا دليل للقول بسد الذريعة

وفيه دليل على أن ينظر لكل انسان بحسب حاله يؤخذ ذلك من أنه لما كانت عقول الصبيان كما ذكرنا وهم لا يعقلون فى الغالب الوصية أمر أولياءهم أن يمنعوهم من التصرف

وفيه رد على أهل الطب الذين يقولون إن جسدا لا يدخل فى جسد وإنما يظهر من صاحب الجنون انما هو خلط تحرك عليه

وفيه دليل : على نصحه صلى الله عليه وسلم لأمته يؤخذ ذلك من كونه عليه الصلاة والسلام لم يغفل عن حق صغير ولا كبير ولا مال ولا شىء من الأشياء إلا نبه صلى الله عليه وسلم على المصلحة فيه كما أمر العقلاء أن يحبسوا النفس من أجل ضعفها عن كثير من تصرفاتها وأشدما أمر فى ذلك عند أول الغفلة والشهوة لأن كليهما ظلمة تغلب على الباطن ولهذا قال صلى الله عليه وسلم «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» ولذلك قال «عقلك عند أوائل الأمور فجربه فان نجح سعيه وإلا فأنت سفيه» ﴿وأما قولنا﴾ هل يتعدى إلى غير الصبيان فان حكمنا بترك العلة التى ذكرنا فمن وجدناها هنا فيه عديناله الحكم وقد رأيت بعض المباركين كان لا يحتمل أن يقعد وحده لأنه كان يذكر أنه إذا كان وحده تترآى له الجن وما يحمل

رؤيتهم فلا تراه أبدا وحده ولو يكون معه صغير ﴿واماقولنا﴾ ماالحكمة فى الأمر بذكر الله تعالى عند فعل تلك الأفعال المأمور بها فقد ذكرناه عند قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ولو تعرض عليه شيئا﴾ لكن بقى فيه بحث وهو أنه لايخاطب بحال التحقيق إلا أهله وأما الغير فيحملون على مقتضى الحكمة يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿واذكر اسم الله﴾

وفيه دليل : على بركة هذا الاسم الجليل الذى جعل ذكره لكل طالب خير فيه يناله ولدافع كل شر فيه يدفعه ﴿وفيه إشارة﴾ إلى أن لايخل أهل الحكمة بشىء من الحقيقة وإن لم يعرفوها وتمزج لهم بشىء من الحكمة من أجل أن لا تفوتهم بركتها وبهذا نطق التنزيل عز وجل (أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) من أجل أن يعملوا الحكمة ويتفكروا فى حقيقة الأمر ماهو ومثله فعل سيدنا صلى الله عليه وسلم حين قال لهم فى تذكير النخل ماأراه يجدى شيئا فتركوا التذكير فلما جاءت السنة غير طيبة قالوا الله أنت أمرتنا بأن لا نذكر فأبقاهم على مقتضى الحكمة بأن قال لهم « أنتم أعرف بأمور دينا كم وما أخبرتكم به عن الله فصدقونى فيه » او كما قال عليه الصلاة والسلام فكان معنى قوله عليه الصلاة والسلام لاأراه يجدى شيئا فى حقيقة الأمر لا كما فى زعمكم لأن التذكير للنخل سبب من الأسباب والله عز وجل يخلق عنده ماشاء إن شاء وإلا فلا فائدة له وكم سنة يذكرونها وتفسد ولايجىء منها شىء ولا يقولون شيئا ويقولون قدر الله لأنهم علموا الحكمة الجارية عندهم فلم ينتقدوا على القدر وسلموا الأمر لصاحبه فلما كانت هذه السنة من السنين التى قدر الله عز وجل أن يفسد فيها النخل ولم يعملوا عادتهم من حكمة التذكير نسبوا ذلك لكونهم تركوا تلك العادة فعذرهم لكونهم لم يفهموا عنه وأضرب لهم عن الأخذ بالحقيقة شفقة على إيمانهم وردهم إلى أثر الحكمة فلو كانت تلك السنة تجىء طيبة مابقى أحد منهم يلتفت لحكمة التذكير فكان يؤول الأمر بهم إلى تضييع أثر حكمة الحكيم والشريعة ماجاءت إلا بالجمع بين أثر الحكمة والقدرة وهى الحقيقة كما بينا فى غير ماموضع من الكتاب

﴿وفيه اشارة صوفية﴾ لأن أهل التصوف يقولون أنت سفينة الوجود وسفينة نوح عليه الصلاة والسلام كان إجراؤها وإرساؤها كما أخبر الحق سبحانه فى كتابه بقوله (بسم الله مجراها ومرساها) وقد أرشدت الشريعة المحمدية أن يكون جميع تحركك وسكونك بذكر الله تعالى وتفتتح ببسم الله فمنها عند نومك تقول بسم الله وعند يقظتك كذلك وعند أكلك وشربك وخروجك من منزلك ودخولك فيه ولباس ثوبك وتجريده وكذلك عند استفتاح كلامك بذكر الله أيضا وعند نكاحك وعند سفرك وعند إيابك إلى أهلك وعند قعودك وقيامك كذلك فان كنت فى حالك محمديا أرست سفينتك على جود السلامة وإن تخلفت عنه لم يكن لك عاصم من أمر الله وغرقت فى طوفان المهالك ولم تشعر أنك هالك فتيقظ من سكرة هواك تجد روحك فى قارورة شهواتك غارقا فى فضلة معاصيك

ذكران ابن نوح عليه الصلاة والسلام حين تخلف عن ركوب السفينة إتخذ قارورة من زجاج قدر ماتحمله وصعد على الجبل فلما بلغه الماء دخل فيها وأغلقها على نفسه فأرسل الله عليه إدرار البول حتى مات غريقا فيه فاكسرها بحجر عزيمة التوبة وناد بلسان حالك أنقذني يامنقذ الغرقى فانى ذاهب لعل حنين صوت اضطرارك يشفع فيك (أمن يجيب المضطر إذا دعاه)

(١٧٨) ﴿حديث فضائل رمضان﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ

ظاهر الحديث الاخبار بهذه الثلاثة أحكام وهى فتح أبواب السماء وغلق أبواب النيران وتسلسل الشياطين عند دخول رمضان والكلام من وجوه

﴿منها﴾ الدليل على فضل هذا الشهر يؤخذ ذلك من كونه خص بهذه الأشياء على غيره وقد جاءت زيادة فى حديث آخر ﴿وزخرفت الجنان﴾

وفيه دليل: على أن ذلك العالم له بقدرة الله تعالى تأثير فى هذا العالم يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿وغلقت أبواب جهنم﴾ فلولا أن ذلك العالم له تأثير بمقتضى الحكمة فى هذا العالم لما غلقت أبواب جهنم ﴿وهنا بحث﴾ وهو أن يقال لم قال جهنم ولم يقل غيرها من أسماء النار لأن النار لها سبعة أسماء أولها جهنم ﴿فالجواب﴾ أنه لما كانت هذه خاصة للمؤمنين من جميع طبقات النيران خصت بالغلق والكف عن المؤمنين لأنهم الذين خصوا بصوم هذا الشهر دون غيرهم

وفيه دليل: على عظيم القدرة أيضا يؤخذ ذلك من إخباره عليه الصلاة والسلام وإن السماء لها أبواب تفتح وتغلق

وفيه دليل: على أن كثرة فتح أبواب السماء دالة على خير أهل الأرض وقد أخبر عز وجل بما يدل على ذلك فى كتابه حيث قال (لاتفتح لهم أبواب السماء) ولا تفتح أبواب السماء إلا لمن يرحم ويدخل الجنة ومن غلقت دونه فلا يرحم ولا يدخل الجنة ﴿وهنا بحث﴾ هل ذلك لكل الصالحين أوذلك مخصوص ظاهر اللفظ يقتضى العموم والأخبار تخصصه منها قوله صلى الله عليه وسلم «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش» فمن ليس له من صومه إلا هذا الشقاء ولا يقبل منه كيف تفتح له أبواب السماء ﴿وهنا بحث﴾ فى قوله عليه الصلاة والسلام وغلقت أبواب جهنم هل ذلك حسا أو معنى ومعنى حسا غلقها فى ذاتها والمعنى أى منع ببركة الصوم عن الطريق التى تبلغه إلى جهنم أولمجموعهما وهو الأظهر بدليل أنه قد جاء يامالك اغلق أبواب جهنم فهذا حسا وقد جاء فى الصوم انه وجاء أى أنه يمنع من

الفاحشة وهى الزنا وقد قال جل جلاله (واستعينوا بالصبر والصلاة) فذكر العلماء أن الصبر هو الصوم لأنه عون على العبادة فصح ماقلنا إن مجموعهما هو الأظهر وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿وسلسلت الشياطين﴾ هل هو على عمومه أم لا أم اللفظ عام وقد جاء مخصصا فى حديث آخر «وصفدت مردة الشياطين» وهل هذا عن كل الناس عموما أم لا الظاهر العموم وليس كذلك بدليل قول مولانا جل جلاله (شياطين الانس والجن) فمن هو شيطان فى نفسه كيف يمنع منه شيطان ولذلك إذا دخل رمضان من كان مثلا مكاسا بقى على مكسه أو ظالما بقى على ظلمه لم يدخل فى هؤلاء بل هو من جملة الشياطين أليس قد قال عليه الصلاة والسلام «فان سبك أو شتمك فقل إنى صائم» أو كما قال فمن لا يحترم لا يحترم فمن أجل إطلاق بعض الناس هذه الأحاديث على عمومها وقع لهم الاغترار ولكن ينبغى أن يقيم الشخص لسان العلم على نفسه حتى يعرف من أى الفريقين هو

وفيه دليل : على أن شيطان الانس ملازم لا يزول لأنه لا يسلسل

وفيه دليل : على أن الشياطين لهم أبدان محسوسة يؤخذ ذلك من قوله ﴿وسلسلت﴾ فان السلسلة لا تكون إلا فى جسم

وفيه دليل : على أن الأعمال هى التى ترفع صاحبها أو تضعه يؤخذ ذلك من كون أهل الصوم يعتنى بهم هذا الاعتناء العظيم وقد جاء أنه من أكثر الصوم ضيقت عليه النار أى أنه لا يدخلها وقد قال إن أردت عزاً يا نفس فبالتقى فاعتزى وإلا فابقى بحقيقة الذل ولذلك كان أهل العلامات الحميدة حالهم فى الدارين حميدة

(١٧٩) ﴿حديث من أتى أهله فليسم الله﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ اللَّهُمَّ جَنِّبْنِى الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنِى فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرُّهُ الشَّيْطَانُ وَلَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْهِ

ظاهر الحديث الاخبار بأن المرء إذا أتى أهله وقال جنبنى الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنى فان كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أنه قد جاء فى الحديث قبله بزيادة التسمية وقوله اللهم وهنا ليس فيه التسمية مذكورة فيحتمل أن يكون سكت عن التسمية لكونها قد تقرر الأمر بها مطلقا ومقيدا ويحتمل أن يكون جاء هذا بلا تسمية ولا قوله اللهم تحقيقا لغفلة بعض الناس عند ذلك الحال لغلبة الشهوة عليهم فيكون ذلك الحديث أكمل فى الفعل ويكون هذا المجزىء ولا أقل من ذلك ويحتمل أن يكون هذا الحديث لمن نسى التسمية حتى أولج فيكون هذا اللفظ مجزيا عنه ويحصل به من

بركة الاتباع كما قال علماؤنا رحمة الله عليهم فيمن نسى التعوذ عند قضاء الحاجة حتى شرع فى الفعل أنه أن يتعوذ إذ ذاك بقوله أعوذ بك من الخبث والخبائث تنزيها لاسم الله تعالى أن يذكر فى ذلك المحل وتحفظا على الاتباع أن يتركوه حين استيقظوا إليه فهذا مثله والله أعلم

وفيه دليل : على أن من حسن أدب الشريعة الكناية عن الأشياء التى يستحى منها وإن كانت مما أبيحت يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿أتى﴾ لأنه كنى عن ذلك بالاتيان

وفيه دليل . على أن لفظ الولد يقع على الذكرى والأنثى وقد اختلف العلماء فيمن حبس شيئا على ولده وولد ولده هل يدخل فى الحبس أولاد البنات أم لا على قولين وفى هذا الحديث حجة للذين قالوا بدخولهم فى الحبس يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿فان كان بينهما ولد﴾ وأما قوله ﴿جنبنى الشيطان﴾ فمعناه أنه لا ينكح معه فانه قد جاء أن المرء إذا نكح ولم يذكر الله تعالى عند ذلك أن الشيطان ينكح معه كما أنه إذا أكل أو شرب ولم يسم الله أكل الشيطان معه وشرب وأما قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ما رزقتنى﴾ فيه دليل . على أن الأولاد من جملة ما ينعم الله تعالى به على بنى آدم لأنه عليه الصلاة والسلام جعلهم من جملة ما يرزقون بقوله رزقتنى

وفيه دليل . على أن حقيقة تأثير الأسباب إنما هو بالقدرة لا بذواتها يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿فان كان بينهما ولد﴾ وقد لا يكون والسبب واقع الذى هو النكاح فان لم يكن السبب يؤثر إلا عند إرادة القادر وإلا لم يكن شىء وهذا مشاهد فى عالم الحس لأن المرء يجامع أهله مرارا ولا يرزق مولودا وقد يكون ذلك الفعل مرة واحدة ويوجد معه الولد فحقيقة التأثير هو بالقدرة وهذا حكم متعد فى الأشياء كلها لا يقصر على هذا الموضع وحده فالأسباب أثر الحكمة والتأثير بها أثر حقيقة القدرة فاخفاء القدرة فى أثر الحكمة من عظيم القدرة ليضل من يشاء ويهدى من يشاء حكمة بالغة ﴿وهنا بحث﴾ وهو أن يقال لم قال بينهما ولم يقل كان لهما أو غير ذلك فيه وجوه

﴿منها﴾ أن يكون المعنى بينهما مما خرج منهما من الماءين فانه قد جاء أن العظام والعصب من ماء الرجل وأن اللحم والشعر والجلد من ماء المرأة ووجه آخر وهو ﴿تنبيه لطيف﴾ وهو أن حقيقة الخلق الذى فيه وتنويع خلقه من كبد وقلب ومصران وجوارح على ما هى عليه هذه الصورة الآدمية من الترتيب البديع ليس ذلك من الماء الذى خرج أين الشبه الذى بينهما وإنما هو بقدرة القادر الذى جعل فى تلك النطفة اليسيرة أنواعا مختلفة كما قال تعالى فى ر الشجرة (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) معناه حين ينتهى طيبه أين التشبيه الذى بين عود الثمرة من الحلاوة التى فى ثمرها أو الحموضة أو الحمرة أو الصفرة أو السواد أو الخضرة أو غير ذلك من الألوان العود كله على حد واحد فى اللون والطعم والثمر مختلف (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى

الروح والحياة اللذين هما حقيقة الانسان إن ذلك ليس منهما لامن طريق أصل ولا فرع وإنما هو مما جعله القادر فيما خلق مما كان بينهما وكذلك قال تعالى (ولقدخلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر) يعنى عند نفخ الروح جاء خلقا آخر ليس من جملة تلك التطويرات التى كان بعضها أصلا لبعض بل هذا خلق آخر بقدرة قادر (ليس كمثله شيء) يؤيده قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) أى هى من أمر الله تعالى لا عن سبب وإن كان الغالب فى الأشياء أنها موجودة عن الأسباب. فكل ذلك إنما هو صادر عن قدرة الله تعالى كما تقدم البحث قبل لكن هذا بالقدرة الظاهرة دون سائر الحكمة ولا يحيط بعلمها إلا مخترعها جل جلاله واحتمل أن تكون هنا الاشارة إلى خلق النفس على قول من يقول إن النفس شيء والروح شيء آخر لأنه قد ذكر العلماء القائلون بهذا إن النفس خلق مجسد مثل خلق بنى آدم لها يدان ورجلان وعينان وجوارح مثل بنى آدم سواء بسواء وأنها من العالم اللطيف وأنها نزلت فى جسد بنى آدم فتكون جسدا لطيفا أليس عليها جسد كثيف وهى الفخارة التى خلقت من ذلك الماء المهين وهى أعنى النفس التى أعطيت الميز والفهم وهى التى تتنعم وتتألم ويفرح وتحزن إلى غير ذلك مما يشبه هذه المعانى وإنما الروح لحياة الجسد ليس إلا ولا تفهم ولا تتنعم ولا تفرح ولاتحزن وأما النفس فانها من العالم الذى لا يفنى وأنها تبقى فى القبر مع الجسد وقد يفنى الجسد إلا عجب الذنب وهى لاتفنى ولا يذكر أحد أنها مخلوقة من الماء المذكور وإنما هى بقدرة الله تعالى كما ذكر من العالم الروحانى فسبحان من هذه بعض آثار قدرته التى قد حارت فيها العقول واحتمل مجموع ماذكر وفى هذه العبارة أكبر دليل على ماخص به سيدنا صلى الله عليه وسلم من الفصاحة والاعجاز فى كلامه لكونه أتى بلفظة تحتوى على جميع ما ذكرنا وزيادة على ذلك إذا أمعن فيها النظر

وفيه دليل : أعنى فى هذه اللفظة وما تحوى أن العلم الذى هو الفهم لحديثه صلى الله عليه وسلم وما فيه من الفوائد أنه من جملة مواهب الله تعالى لمن يشاء يشهد لذلك قوله عز وجل (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) قال العلماء أنه الفهم فى كتاب الله تعالى وكذلك حديثه صلى الله عليه وسلم لأنه كله من الله وعن الله إما بالواسطة أو بالالهام وقد تقدم الكلام على هذا فى أول الكتاب وقوله عليه الصلاة والسلام «لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه» هل هاتان اللفظتان لمعنى واحد أوهما لمعنيين احتمل لكن الذى استقر من الشريعة أنهما لمعنيين أحدهما أنه قد أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم بما معناه «مامن مولود إلا والشيطان يطعن فى خاصرته» فذلك هو الضرر المشار إليه هنا والله أعلم واما التسليط فهو ماذكره الله عز وجل فى كتابه حيث يقول (واجلب عليهم بخيلك

ورجلك) وما جعل عز وجل له من التسويل والاغواء لبنى آدم لقوله تعالى (من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) فهذا هو معنى الاشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ولم يسلط عليه﴾ أى لم يكن يقدر على ضرره عند الولادة بأن يطعن فى خاصرته ولا يقدر على ضرره بالاغواء والتسويل كما ذكرنا ويكون ممن يدخل تحت قوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان)

وفيه دليل: للأخذ بسد الذريعة يؤخذ ذلك من قوله ﴿وجنب الشيطان ما رزقتنى﴾ ذريعة أن يكون لهما ولد وقد لا يكون فما بقى القول إلا احتياطا من أجل توقع الولد فهذا هو سد الذريعة بعينه

وفيه دليل: على أن الحكم بالشرع يعطى للغالب يؤخذ ذلك من أمره صلى الله عليه وسلم بهذا عموما ومن الناس من يكون عقيما لا يولد له فلما كان العقيم نادرا لم يجعل له حكم

وفيه من الفقه: أن الأصل إذا كان طيبا جاء الفرع طيبا يؤخذ ذلك من أنه إذا كان الأب طيبا باتباعه السنة وفعل فى هذا الموضع ما احكمته السنة وامتثل الأمر جاء الفرع وهو الابن من أهل الخصوص كما أبديناه آنفا

وفيه دليل: على أن الخير كله إنما هو فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من أنه من لم يعرف الكتاب والسنة لم يعرف مثل هذا الخير وما فيه وكان نكاحه بهيميا بشهوة ليس إلا وكذلك فى جميع أمره

وفيه من الفقه: أن فضيلة العلم إنما تكمل بالعمل لأنه عليه الصلاة والسلام قال ﴿إذا أتى أهله﴾ ولم يقل علم رزقنا الله فهم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والعمل بذلك بمنه

(١٨٠) ﴿حديث هروب الشيطان عند النداء للصلاة﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا نُودِىَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ فَاذَا قُضِىَ أَقْبَلَ فَاذَا ثُوِّبَ بِهَا أَدْبَرَ فَاذَا قُضِىَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْانْسَانِ وَقَلْبِهِ فَيَقُولُ اذْكُرْ كَذَا وَكَذَا حَتَّى لَا يَدْرِى أَثَلَاثًا صَلَّى أَمْ أَرْبَعًا فَاذَا لَمْ يَدْرِ أَثَلَاثًا صَلَّى أَمْ أَرْبَعًا سَجَدَ سَجْدَتَىِ السَّهْوِ

ظاهر الحديث الاخبار بهروب الشيطان من النداء بالصلاة وله ضراط وهروبه أيضا كذلك من التثويب بها وهو إقامتها لكن بغير ضراط وإقباله بعد ورجوعه إلى المصلى حتى يوسوسه والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما الحكمة فى هروبه عند الآذان والاقامة وعدم هروبه عند الدخول فى الصلاة والتلبس بها وهى أعظم من الآذان والاقامة فان الصلاة فرض وأما الاقامة فليست بفرض والآذان فيه ما هو فرض وفيه ما هو سنة وفيه ما هو مستحب على ما نبينه فى موضعه من الكتاب إن شاء الله تعالى ورجوعه إلى المصلى هل ذلك على عمومه فى كل مصل أم لا ﴿وما الحكمة﴾ فى ضراطه عند الآذان وهل تركه ذلك

فى الاقامة لأنه لايكون منه ذلك عند الهروب منها أوسكت عنه لما تقدم ذكره عند الأذان قبل ﴿فاما الجواب﴾ على ما الحكمة فى كونه يهرب من النداء والاقامة ولا يهرب من الصلاة التى هى أرفع وذلك أن فرضية الأذان وفائدته الاخبار بدخول وقت الصلاة بذكر تلك الألفاظ المأمور بها ولذلك يجوز على طهارة وعلى غير طهارة فلما وفينا ما أمرنا به لم يطق الشيطان حمل ذلك لأن توفية الأمر على ما أمر به تقطع ظهره والصلاة من مشروعيتها التوجه و الاخلاص والحضور كما قال صلى الله عليه وسلم «إن الله لا يقبل عمل إمرء حتى يكون قلبه مع جوارحه» وقد ورد فى الأذان أن المؤذن له من الأجر بقدر مدصوته على ما بيناه فى موضعه قبل وقال فى الصلاة يكتب له نصفها ربعها إلى عشرها وورد «إذا لم يؤت بها على وجهها تطوى مثل الثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها وتقول له ضيعتنى ضيعك الله» أوكما ورد فلعدم توفية الشروط التى طلبت منا فى الصلاة وجد الشيطان طريقا إلى الدخول لصاحبها فلو وفى ماطلب منه فيها ماقربه شيطان وكذلك سائر الأعمال من وفى فيها دخل فى حزب المفلحين الذين لم يكن للشيطان عليهم سلطان لقوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) ﴿وأما قولنا﴾ هل ذلك على العموم لكل مصل أم لا فظاهر الحديث محتمل وما قدمناه من قوله جل جلاله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) يخصص ذلك فانه من لم يكن له عليه سلطان كيف يقربه فى صلاة أو غيرها هذا مما يعقل ﴿وأما الحكمة﴾ فى ضراطه احتمل والله اعلم وجوها ﴿منها﴾ إنه لا يحمله حتى ينحل قواه فتسترخى حواسه ومفاصله فيخرج منه الريح بغير اختياره كما حكى عن فرعون أنه لما رأى الآية فى عصى موسى عليه الصلاة والسلام حين رجعت حية أنه ولى هاربا وبطنه قد انطلق وغائطه يسيل لا يقدر أن يملك ذلك من نفسه وكثير مايوجد ذلك من بعض الضعفاء لكثرة فزعهم وقد يكون من سوء طبع اللعين أن يقابل الشىء بضده كونه يسمع الأذان الذى هو دليل على الصلاة وهى مبنية على الطهارة لقوله عليه الصلاة والسلام «الطهور شطر الايمان» فيكثر من الضد وهو نقض الطهارة وقد يكون لوجه آخر وهو أن يشغل سمعه عن الأذان بذلك الفعل الذميم واحتمل مجموعها ﴿واما قولنا﴾ لم لم يذكر ذلك الفعل عند الاقامة هل لعدم وقوعه فى ذلك الوقت أو اختصره لكونه صلى الله عليه وسلم ذكره مع الأذان احتمل الوجهين والله أعلم لكن الأظهر أنه بغير ضراط وهو أن الأذان أكثر ألفاظا لأنه مثنى كله وبعضه مربعا والاقامة مفردة وبعضها مثنى فلزيادة تكرار الألفاظ المباركة يكون فيه زيادة فى المخالفة وأيضا فلأن فائدة الأذان أكثر فانه إعلام بالوقت ويسمعه من هو حاضر ومن هو بالبعد وهو أعلا صوتا وهو يدعوا الناس كلهم إلى الطاعة والاقامة إنما هى للحاضرين أن يتأهبوا للدخول فى الصلاة ولا يتعدى إلى غيرهم فكانت عليه أخف فانه كلما كانت الطاعة أكثر كان عليه الأمر أشد يؤيد ذلك ما أخبر عنه الصادق صلى الله عليه وسلم وأنه لم ير أحقر منه

ولا أذل فى يوم عرفة يحثى التراب على رأسه، أو كما قال عليه الصلاة والسلام وذلك لما فى تلك الطاعة فى ذلك الوقت من الترفيع والخير فيلحقه بتلك النسبة ذلك التحقير والهوان وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿حتى يخطر بين الانسان وقلبه﴾ أى إنه يشغل قلبه فان مدار الانسان على قلبه فاذا اشتغل قلبه بالوسواس فكأنه حال بينه وبين قلبه لأن القلب لا يراد لذاته الصنوبرية وإنما يراد لحضوره عند فعله ما تعبد به ليوفى ماعليه فى ذلك

وفيه دليل : على أن ملازمته لبنى آدم حتى يعلم كلما يتصرفون فيه ويجرى عليهم يؤخذ ذلك من قوله ﴿اذكر كذا﴾ لأنه لا يذكره إلا بشىء قد وقع ونسيه الأدمى والعدو اللعين قد كان عرفه ولا يكون ذلك الا لمن هو معك ملازم لك

وفيه دليل : على عظيم قدرة الله تعالى الذى هذا خلقه يقدر أن يصل إلى قلوبنا ونحن لا نعلم به وفى هذا دليل على أن المولى سبحانه لا تدركه العقول ولا يتحيز ولا يشبهه شىء يؤخذ ذلك من أن هذا خلق من خلقه مدرك وتراه يصل إلى قلوبنا ونحن بعقولنا معناوادرا كاتنا من جميع حواسنا ولا نعلم به ونجد أثر وصوله ولا نحس بذاته ولا نشعر بها فكيف يطمع أحد أن يعرف أو يصل إلى من هذا بعض مخلوقاته وبالقطع أن الصنعة لا تشبه صانعها

وفيه دليل : على أن ميل النفس بالسرعة إلى ماتعرفه أكثر مما لا تعرفه يؤخذ ذلك من قوله إذكر كذا فلولا علمها بذلك لكان يقول لها ألا تعلمين ما يكون فى كذا الأمر لا نعلمه فقد لا يحصل له منها ذلك الميل الكلى الذى يذهلها عن الصلاة فلمعرفته بها أخذها من الوجه الذى هو أقرب لفائدته وقد روى عن بعض أهل الفقه وكان ممن ينتفع الناس به فى دنياهم وآخرتهم لما من الله به عليه من العلم والنباهة أنه ضاع لبعض التجار صرة دراهم لا يدرى أين رفعها فحزن لذلك فقيل له ليس لك إلا ذلك السيد فلما جاءه وأخبره بحاله أمره ذلك السيد بأن يصلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه بشىء ويأتيه ويخبره بما له أين هو فقام ذلك التاجر إلى ناحية فى المسجد وأحرم ودخل فى تلك الركعتين فرآه الشيخ فى الركعة الثانية قد خففها فقال لأخوانه قد تذكر ماله أين هو فلما سلم واتى الشيخ قال له الشيخ تذكرت مالك أين هو قال له نعم ياسيدى فقال له اذهب فخذ مالك واشكر الله فرغب منه أصحابه لم أمره بتلك الصلاة والقضية فقال لهم إن الشيطان أنساه أين رفع ماله لكى يحزنه ولو وقت ما من الزمان من أجل العداوة الأصلية فأمرته بالركعتين ولا يحدث فيهما نفسه لأنه قال صلى الله عليه وسلم «من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه دخل الجنة» فلما تلبس بالصلاة عازما أن لا يحدث فيها نفسه رأى العدو أن يذكره بماله ولا يتركه يتم عملا يدخل به الجنة فمن أجل ذلك أمرته بذلك وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿حتى لا يدرى أثلاثا صلى أم أربعا﴾ فاذا لم يدر أثلاثا

صلى أم أربعا سجد سجدتى السهو ظاهر اللفظ يعطى ان سجدتى السهو تجزيه عن تمام صلاته وان كان ماصلاه ثلاثا وليس كذلك لأنه قد جاء ذلك مفسرا فى حديث آخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام «إذا شك أحدكم فى صلاته فليبن على اليقين ثم يسجد سجدتى السهو» واليقين هو الأقل وقد تعلق بعض أهل الظاهر بظاهر هذا الحديث وما قدمناه عليه الجمهور وهو الحق الذى يعطيه الفقه لأنه إذا جاءت الزيادة من العدل قبلت ومع ذلك على هذا الذى عليه الجمهور استمر عمل الخلفاء والعلماء إلى هلم جرا

﴿ وهنا بحث ﴾ فى قوله ثلاثا ام أربعا هل هو مقصور على هذا الموضع أوهو على طريق ضرب المثال إذا تردد الخاطر بين الأقل والأكثر كان العدد ماذكر أو أقل من ذلك الذى عليه الجمهور إنه على ضرب المثال اذا تردد الخاطر بين الأقل والأكثر فيكون عمله على أقل العددين مما ذكر

وفيه دليل : على أنه لايحزن العدو إلا بزيادة الطاعة يؤخذ ذلك من الشيطان لما جاء للمصلى ليفسد عليه صلاته بتشككه فى عدد ركعاتها أحكمت السنة بفضل الله تعالى الأمر بزيادة ركعة احتياطا ثم زيادة آخرى وهى سجدتا السهو لينقلب العدو مهزوما خائبا مما أمله وقد بين ذلك صلى الله عليه وسلم فى غير هذا الحديث حيث قال فانها ترغيم للشيطان يعنى السجدتين اللتين للسهو

وفيه دليل : لأهل الصوفة لأنهم أخذوا بدوام الاشتغال وعدم الالتفات إلى حديث النفس وغيرها لأن هذا المصلى ماطرأ عليه النسيان إلا من جهة التفاته إلى حديث العدو وبما ذكره به وميله إليه وقد ذكر عن بعضهم أنه كان فى أول رياضته إذا مر به خاطر غير الربانى ضرب نفسه بعصى أو قضيب فلربما كان يكسر على نفسه فى اليوم الواحد حزمة أو حزمتين من القضبان حتى استقام له خاطره بدوام الاقبال على مولاه من الله بذلك علينا بمنه وقد قال

إذا كنت ملتفتا إلى سواه فحجابك ذلك عن أن تراه
ولن تحظى بحضرة قدسه حتى لاترى إلا إياه

(١٨١) ﴿ حديث الالتفات فى الصلاة ﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا قَالَتْ سَأَلْتُ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ ٱلْتِفَاتِ ٱلرَّجُلِ فِى ٱلصَّلَاةِ فَقَالَ هُوَ ٱخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ أَحَدِكُمْ

ظاهر الحديث الاخبار بأن التفات الرجل فى صلاته نقص يأخذه الشيطان منها والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا خاص بالرجال أو ذلك سواء للرجال والنساء ولم قال يختلسه الشيطان ولم يعبر يسرقه أو يغصبه أو غير ذلك مما يشبه هذه الألفاظ وهل يعنى بالالتفات هنا الحسى ليس إلا أو الحسي والمعنوي معا أو أيهما كان فهو خليسة ﴿ فالجواب ﴾ عن الأول هل هو خاص بالرجال

أم لا فليس خاصا بالرجال دون النساء بدليل إن النساء شقائق الرجال فى جميع التعبدات لكنها سألت عن الرجال لكون الرجال أكثر قوة فى الدين فى الغالب فيكون من باب الاخبار بالأعلى عن الأدنى فاذا كان ذلك فى الرجال فمن باب أحرى فى النساء ﴿ وأما الجواب ﴾ عن قوله خلسة ولم يذكر غيرها من الألفاظ فان المختلس هو الذى يتخطف المال من غير غلبة ولا قوة ويعتمد الهروب وذلك مع معاينة المالك له والسارق يأخذ فى خفية والظالم يأخذ بقوة فلما كان الشيطان يشغل هذا عن صلاته بأن يلتفت إلى غيرها وعقله معه بلا حجة أقامها له على ذلك أشبه المختلس الذى يأخذ الشيء بالحيلة والناس يبصرونه ولذلك يقول يوم القيامة كما أخبر عنه فى كتابه العزيز (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم)

وفيه دليل : على التعبير عن المعانى بمثل ما يعبر عن المحسوسات يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام يختلسها والشيطان لم يأخذ شيئا محسوسا من صلاة المصلى وإنما أخذ منها معنى من معانيها فى زمان ما وهو عدم حضوره حين التفاته .

وفيه دليل : على أن من حصل له شيء من الأشياء حسا كان أو معنى بحيلة غير محققة أنه يصدق عليه اسم مختلس يؤخذ ذلك من كون الشيطان احتال على المصلى حتى وقع له الخلل فى صلاته وهو مقصود العدو فسماه سيدنا صلى الله عليه وسلم مختلسا وهنا ﴿ سؤال ﴾ وهو أن يقال لم جعل فى السهو فى الركعات جبر كما تقدم فى الحديث قبل ولم يجعل لهذا الالتفات جبر ﴿ فالجواب ﴾ والله أعلم لما كان شكه فى عدد الركعات نسيانا من أجل ذلك احتال عليه الشيطان بتذكيره له ما قد كان جرى من الأمور والله سبحانه وتعالى قد تفضل علينا بأن لا يؤاخذنا بالنسيان جعل لنا البدل بما وقع من الخلل ولما كان هذا الالتفات بالقصد من المصلى وعقله معه لم يجعل له بدل منه تغليظا وتحريضا على التزام الأدب فى العبادة ومما يشبه ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أسوء السرقة الذى يسرق صلاته قالوا وكيف يسرق صلاته يارسول الله قال لا يتم ركوعها ولا سجودها » ﴿ وأما قولنا ﴾ هل أراد بالالتفات الحسى أو المعنوى أو مجموعهما فظاهر الحديث يعطى أنه الحسى وإذا كان الحسى فالمعنوى معه لازم وبقى الكلام على المعنوى فاذا نظرنا إلى قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث غيره « إن الله لا يقبل صلاة امرء حتى يكون قلبه مع جوارحه » فيكون الالتفات المعنوى مثل الحسى ويعنى بالمعنوى ما يكون فى القلب من الالتفات إلى غير ما هو بسبيله وقد قال بهذا جماعة من العلماء لأنهم يقولون إن دوام الحضور فى الصلاة فرض واجب وهو عدم الالتفات والجمهور على أن دوام ذلك شرط كمال وإنما الفرض فيه من أول العمل وآخره على قول

وفيه دليل : على أن كل ما يكون من الخلل فى الصلاة أنه من تسويل الشيطان يؤخذ ذلك من

الحديث الذى قبل هذا مع هذا الحديث إذا جمع إليه لأنه فى الذى قبل شغله بالحديث حتى أنساه وهنا لم يتعرض له فى الحديث فكان أصل المكيدة خفية حتى أخبر بها الصادق صلى الله عليه وسلم فعلى هذا فكل ما نجد فى الصلاة من خلل نعلم أنه من العدو علمنا سببه أو لم نعلمه

وفيه دليل : على مامن الله به على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من كثرة اطلاعه على غوامض كثيرة من الغيوب ولولا ذلك ماكان عليه الصلاة والسلام يخبر عن مثل هذا وأعداد من أمثاله

وفيه دليل : على كثرة لطف الله تعالى بنا يؤخذ ذلك من ارسال هذا السيد صلى الله عليه وسلم رسولا إلينا حتى يخبرنا بهذه الفوائد كلها حتى نعرف كيف نتحرز من عدونا وكيف الخلاص من مكائده جعلنا الله ممن خلصه منها بفضله لارب سواه

(١٨٢) ﴿حديث الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان﴾

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ حُلْمًا يَخَافُهُ فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما الاعلام بأن الرؤيا الصالحة من الله تعالى والآخر الاخبار بأن الحلم من الشيطان وتعليم المخرج منها والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما معنى قوله من الله وما معنى الصالحة وما معنى الحلم والكلام على كيفية الاستعاذة منها وما الحكمة فى البصاق عن اليسار ﴿فأما الجواب﴾ عن قوله عليه الصلاة والسلام من الله أى هى حق لاشك فيها لأن كل ماهو من عند الله لاشك فى أنه حق ولذلك قال (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وأما قوله عليه الصلاة والسلام ﴿الصالحة﴾ فكل مافيها خير فهى صالحة فى غالب الحال كما قال شعيب عليه الصلاة والسلام لموسى عليه الصلاة والسلام (ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) أى لا ترى منى إلا شيئا تسر به وفيه صلاح لك وأما قوله ﴿الحلم﴾ فالحلم مافيه تهويل للنفس وتخويف وهو على قسمين مافيه تهويل وتخويف على النفس وليس يدل بوضعه على شىء يضر ومنه مايدل على شىء يضر ومن أجل ذلك قال صلى الله عليه وسلم بعد ﴿يخافه﴾ ليفرق بين مايدل على ضرر وبين مالا يدل على ضرر ولذلك قالوا للعزيز (أضغاث أحلام ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين) ويلزم على هذا من الفقه أن يكون الذى رأى الرؤيا عارفا بالتعبير وإلا قد تكون الرؤيا فى نفسها مهولة وهى تدل على خير مثال ذلك أن ترى شخصا يضرب آخر بالسوط ويوجعه ضربا فان الضارب يولى للمضروب معروفا على قدر ضربه من شدة أولين وقد يكون بعكس معناه فتكون حسنة فى نفسها وهى تدل على ضد ذلك مثاله أن ترى شخصا يعمل لشخص عرسا أو وليمة ويطعمه حلاوة وطعاما بلحم سمين فان

المطعم الطعام يفعل بالذى أطعمه أوفرحه شرا بقدر حسن الحلاوة وطيب اللحم فكلما كثر الحسن فى ذلك كثر القبح فى الشر الذى ينال منه وما أراد الشارع صلى الله عليه وسلم بالحسن وضده إلا المعنى الذى يتضمنه نفس الواقع فى النوم بوضعه ففقه من لا يعرف فى التعبير شيئا أن يتعوذ مما لا يعرف لها معنى من أجل أن تكون مما تدل على مكروه فان كانت تدل عليه فيندفع عنه ذلك المكروه باتباعه الأمر وهذا من باب سد الذريعة لأن الاحتياط كله من هذا الباب وهو الأولى ولا يجوز له أن يعبر الرؤيا بغير علم لأنها من النبوة وما كان من النبوة فلا يجوز أن يهزأ به لأن الحكم علم هزء وتجرء على مالا يجوز وكذلك كان سيدنا صلى الله عيه وسلم كل يوم إذا صلى الصبح يدور بوجهه إلى الصحابة رضوان الله عليهم ويقول هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا فمن رآى منهم شيئا ذكره وفسر لهم ليعلمهم علم التعبير وكما قال يوسف عليه الصلاة والسلام (ذلكما مما علمنى ربى) يعنى به علم تعبير الرؤيا وقد يكون من الرؤيا مايؤلم النفس وهو حق فقد قال العلماء أنه إذا كانت حقا وامتثل الرائى ماأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فانها لا تضره ويصرف الله تعالى عنه ببركة السنة تلك الأمور المشوشة لأنه صلى الله عليه وسلم مابعث إلا رحمة وهو عليه الصلاة والسلام يعلم أن فى الحلم وهو كل مافيه تهويل وتشويش على النفس ماهو حق فجعلها كلها عليه الصلاة والسلام محلا واحدا وجعلها من الشيطان لكون أن هذا هو الغالب فيها والشريعة إذا تأملتها إنما أطلقت الأحكام على الغالب فى جميع الأمور رحمة من الله تعالى وتوسعة على عبيده فجعل المخرج من الكل واحد وهو الاستعاذة بالله ﴿وهنا بحث﴾ لطيف أيضا فى كونه ﷺ جعله أعنى الحلم من الشيطان لأن أصل كل مايصيب المرء من البلاء والمحن فى الغالب إنما هو مما اجترى به الشخص على نفسه وأن الله تعالى يقول (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) ويعفو عن كثير وقال عز وجل (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة) وأصل المخالفات إنما هى من وسواس الشيطان وتسويله لأن الله عز وجل يقول فى كتابه (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) فقام ذكر اسم الله سبحانه فى هذا الموضع مقام التوبة والاضطرار فالتوبة تجب ماقبلها والمضطر مستجاب له بمقتضى الوعد الجميل وهو قوله تعالى (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) رحمة من الله تعالى ونعمة لمن قبلها فلذلك قال عليه الصلاة والسلام لا تضره ﴿وأما الجواب﴾ على ما الحكمة فى أن يبصق على يساره فلأن فيه خزيا للشيطان لأن جانب الشمال هو مقعده ووجه آخر لأن ريق المؤمن شفاء وفيه أيضا إحراق الشيطان لأنه لا يحمله فيكون بصاقه ينشأ عنه تألم الشيطان وطرد له من أجل أن لا يعود إلى تخويفه ثانيا وقد تكون للمجموع وزيادة والله أعلم وفى قوله عليه الصلاة والسلام وليتعوذ بالله من شرها دليل على ماقدمناه من أن المقصود من الرؤيا ماتدل عليه لا نفس الرؤيا

﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن يقال هل هذا على عمومه أم لا الظاهر يعطى العموم والبحث يعطى التخصيص لأنه إذا كان الرائى شيطانا فى نفسه كيف يفر منه الشيطان ومما يؤيد ما أشرنا إليه قوله ﴿ منكم ﴾ يعنى من هو على طريقكم الذى تقتضيه حقيقة الايمان فلو كان عليه الصلاة والسلام عنى بقوله منكم جنس بنى آدم لكان الكفار والمنافقون يدخلون تحت هذا ولا قائل به فما بقى إلا التخصيص بأن يعنى به المؤمنين ولذلك قال عليه الصلاة والسلام فى حديث آخر «الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له» ولا يعترض علينا ببعض مرائى رآها بعض الكفار ورؤيت عنهم وخرجت حقا والانفصال عنه أن تقول ذلك نادر والنادر لا حكم له وفيها وجه آخر وهو أنه إذا تأملت تلك المرائى التى رئيت عن بعض الكفار إنما الفائدة فيها للمؤمنين غالبا مثل المرائى التى رآها بعض كفار مكة قبل خروجهم إلى قتال سيدنا صلى الله عليه وسلم هى من جملة النقمة لهم والظهور لسيدنا صلى الله عليه وسلم وكذلك نجد كل واحدة منها الجبر فيها للمؤمنين

وفيه دليل : على عظيم قدرة الله تعالى يؤخذ ذلك من كون المرائى ترى فيها تماثيل وأشكال تدل على أشياء وتخرج فى عالم الحس كذلك وقد قال أهل العلم بهذا الشأن أنه لا يقع لأحد شيء فى هذا العالم إلا وقد رآه فى النوم وعقله من عقله وجهله من جهله قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) والحمد لله رب العالمين

(١٨٣) ﴿ حديث ثواب من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له كل يوم مائة مرة ﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ قَالَ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ فِى كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِىَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما الاخبار بأن من قال لا اله إلا الله مائة مرة كان له هذا الأجر العظيم وهو ثواب عتق عشر رقاب ومائة حسنة زائدة على ذلك ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك والحكم الآخر الاخبار بأن ذلك أرفع الأعمال ولا شيء من الاعمال ارفع منه إلا الزيادة على ذلك العدد والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال ما الحكمة بأن جعل هذا الثواب محدودا بهذا العدد هل يمكن له فهم أو هو مما لا يفهم له معنى ومنها الكلام على قوله حتى يمسى ما هو حد المساء هنا ومنها لم فضل هذا العمل على كل الأعمال من حج وجهاد وصوم وصدقة وغير ذلك من أفعال الخير وهل من قال بعض العدد مثل

النصف أو أقل أو أكثر هل يكون له من الثواب بتلك النسبة أم لا ﴿ فأما الجواب ﴾ على قولنا ما الحكمة بأن جعل هذا الأجر العظيم منوطا بهذا العدد المسمى وهى المائة مرة فان قلنا تعبدا فلا بحث وإن قلنا له وجه من الحكمة فما هو فنقول والله أعلم أنه لما أخبرنا الصادق صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل جعل الرحمة فى مائة جزء فأخرج منها إلى الدنيا واحدة وادخر بفضله التسعة والتسعين للمؤمنين فى الآخرة فمن جملة الرحمات بالمؤمنين فى تلك الدار النجاة من النار ودخول الجنة والتنعم بها وبما فيها فانه من عوفى من النار أدخل الجنة لا محالة لقوله صلى الله عليه وسلم ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، ومن جملة ما من الله عليهم فى هذه الدار أن عوفوا من الشيطان لأنهم إذا عوفوا من الشيطان فقد دخلوا فى ضمن قوله تعالى ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ فجعلهم من أهل الخصوص وهم أرفع الناس وقد أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أن الحسنة بعشر أمثالها فاذا قالها مائة مرة كانت له بألف فبكل مائة التى هى مبلغ عدد أجزاء الرحمة المتقدم ذكرها وجب له بالفضل ما تضمنته تلك الأجزاء على ما تقدم البحث وهو النجاة من النار والنجاة من النار من لازمها دخول الجنة كما تقدم منا وذلك ما انتهت بالمؤمنين جميع تلك الأجزاء التى قسمت عليها الرحمة أعنى فى الدنيا والآخرة منتهاه دخول الجنة وعبر عليه الصلاة والسلام عن ذلك بعتق الرقبة لأنه صلى الله عليه وسلم قد أخبر أنه من أعتق رقبة أعتقه الله بها من النار بكل عضو منها عضوا من معتقها وزاده من فضله محو المائة سيئة وزيادة مائة حسنة وعصمه يومه ذلك من الشيطان لأنه عز وجل يقول وهو أصدق القائلين (ويزيدهم من فضله) بعد ما أخبر بالتضعيف فى الأجور أخبر أنه يزيدهم من فضله والكل من فضله من الله علينا به بفضله وأما حد المساء هنا فهو محتمل أن يريد به آخر وقت المساء وهو مغيب الشمس واحتمل أن يريد به وقت المساء وهو زوال الشمس لأن العرب تسمى من زوال الشمس إلى غروبها مساء وقد تسمى الكل بالبعض والبعض بالكل لكن قد جاء فى حديث آخر ما يدل أنه إلى أخر المساء وهو غروب الشمس لأنه عليه الصلاة والسلام قال وإن قالها فى ليلة لم يضره الشيطان حتى يصبح ولا يقال أصبح إلا حتى يطلع الفجر فكما يكون فى الليل إلى آخره فكذلك يكون فى اليوم إلى آخره وهو غروب الشمس ويعطى ذلك أيضا قوة الكلام لأنه جاء عن طريق المن والافضال وما هو على هذا الوجه لا يكون إلا على كل ما ينطلق عليه اللفظ ولوجه آخر وهو إذا كان الحد من جنس المحدود دخل فيها حد كما تقول بعتك هذا الثواب من الطرف إلى الطرف فالطرفان داخلان فى البيع ﴿ أما قولنا ﴾ لم فضل هذا العمل على ما عداه من أعمال البر من صوم وصلاة وحج وغير ذلك من أفعال البر لأنه صلى الله عليه وسلم قد نفى بقوله لم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك يعنى أكثر من المائة مرة عددا فنفته الفضيلة مما سواه أثبت

الفضيلة له ﴿ فالجواب ﴾ أن اللفظ عام ومعناه الخصوص فتكون فى النوافل لا غير لقوله صلى الله عليه وسلم إخبارا عن ربه عز وجل «لن يتقرب إلى المتقربون بأحب من أداء ما افترضت عليهم ثم لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه» وقوله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة «فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة» وجعلها فرقا بين الكفر والايمان والآى والأحاديث فى ذلك كثير فتخصص عموم اللفظ بما ذكرناه وبقى هذا خاصا بأنه أفضل المندوبات وإذا كان ذلك كذلك فيحتاج إلى البحث فى ما لعلة فى تفضيل هذا الذكر الخاص على جميع المندوبات من أنواع أفعال البر فنقول والله الموفق لما كان أعلا الواجبات وآكدها قول لا اله إلا الله والاقرار له سبحانه وتعالى بالوحدانية ونفى الضد والند والشريك والصاحبة وجميع النقائص ووصفه بجميع أوصاف الكمال والجلال على مايليق بجلاله تبارك وتعالى علوا كثيرا وجاءت جميع المفروضات كلها تابعة لها بعد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله» معناه على الحد الذى طلب منهم فيها كما تقدم وصفه فلما كانت فى الفرائض لم يأت أحد بأفضل منها فكذلك هى فى المندوبات لا يأتى أحد بأفضل منها لأن هذه الصيغة المذكورة فى الحديث تضمنت ماأشرنا إليه من أوصاف الكمال لجلاله سبحانه ونفى ضدها وتكرارها مائة مرة تأكيد على تأكيد وتأكيد وصف الجلال زيادة جلال وإن كان جلاله سبحانه لا نهاية له لكن هذا بحسب مانعرفه من جهة التخاطب بيننا وبذلك تعبدنا فبان ماقاله الصادق صلى الله عليه وسلم إنه لم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا من جاء بزيادة على العدد المذكور فانه زيادة فى التأكيد وما هو زيادة فى التأكيد فهو زيادة فى الترفيع كما تقدم ﴿ وأما قولنا ﴾ من قال بعض العدد هل يكون له بنسبة ذلك من الأجر المذكور فاعلم أن الأجور فى الأعمال والعقاب على الذنوب لا يؤخذ بالعقل ولا بالتقدير لأنه ليس لعلة عقلية ولا علية كما قدمنا أول الكتاب فكل ماليس فعله لعلة فلا يدخله تقدير ولا يحكم عليه بالقياس وإنما هو متوقف على الشارع صلى الله عليه وسلم فبعد تحديده عليه الصلاة والسلام ينظر هل يفهم الحكمة فيه أم لا فان فهمناها بدليل شرعى شكرنا الله على ذلك وإلا قلنا تعبدا لا يعقل له معنى وهنا وقفت العقول وحارت الأذهان وذلت الرقاب وإن كان قد جاء فى الأحاديث من قالها أقل من هذا العدد فله أجر أقل من هذا فمنها قوله صلى الله عليه وسلم فيمن قالها مرة واحدة كان له أجر عتق رقبة وكتب له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى أو كما قال عليه الصلاة والسلام فصح باختلاف الأحاديث أن ذلك لا يؤخذ بالتقدير ولا بالعقل لأنه قد جعل فى الواحدة عتق رقبة واحدة وفى المائة عتق عشر رقاب فلا نسبة لها من جهة العقل ولا من جهة القياس بل هو فضله عز وجل يؤتيه من يشاء كيف يشاء جل جلاله

وفيه دليل : على تفضيل أهل الصوفة يؤخذ ذلك من جعل هذا الأجر العظيم لمن قال هذا القول مائة مرة فكيف بمن هو يومه كله هكذا لايفتر إلا عند أداء فرضه أو ضرورة البشرية فان طريقهم مبنى على دوام الذكر والحضور (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين) وهم فى ذلك متبعـون لسنة سيدنا صلى الله عليه وسلم لأنه جاء فى وصف حاله عليه الصلاة والسلام أنه كان طويل الصمت كثير الذكر وعلى هذا بنوا طريقهم وقد قال صلى الله عليه وسلم «ماعمل آدمى من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله» وهذا الذكر الذى يبلغ به العبد هذا الحال إنما هو بعد أداء الفرض لأن ما نحن بسبيله هو كله من باب المندوب وجميع المندوب كله لايقوم بفريضة واحدة فكيف بالمتعددة وكذلك لم يأخذ القوم فى مثل هذه المنـدوبات حتى أكملوا فروضهم التى هى الأصل فى الدين وحينئذ أخذوا فيما ذكرنا وقد وقع بعض الناس فى العكس بالسواء فسمعوا مثل هذا الحـديث وشبهه فأكثروا من المنـدوبات وضيعوا كثيرا من الواجبات فصاروا كما قال صاحب الأنوار «ردوا الأصول فروعا والفروع أصولا» معناه أنهم حافظوا على المندوبات كما حافظ أهل التوفيق على الواجبات وزهدوا فى الواجبات وتعلقوا فى ذلك برجاء فضل الله تعالى وقـد قال جل جلاله (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهـدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) وقال عز وجل (نبىء عبـادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) فنسأله جل جلاله التوفيق إلى أداء فرضه والاجتهاد فى أعمال ماندبنا إليه وقبول ذلك والسعادة به بمنه لارب سواه

(١٨٤) ﴿حديث كراهية صيام الدهر﴾

عَنْ عَبْدِ اللّٰهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُمَا قَالَ أُخْبِرَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنِّى أَقُولُ وَاللّٰهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَاعِشْتُ فَقَالَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْتَ الَّذِى تَقُولُ وَاللّٰهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَاعِشْتُ قُلْتُ قَدْ قُلْتُهُ قَالَ إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ فَقُلْتُ إِنِّى أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ فَقُلْتُ إِنِّى أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا وَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ وَهُوَ أَعْدَلُ الصِّيَامِ قُلْتُ إِنِّى أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَارَسُولَ اللّٰهِ قَالَ لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ

ظاهر الحديث إخباره صلى الله عليه وسلم بأن أفضل صوم التطوع أن يصام يوم ويفطر يوم وإخباره بأنه كان صوم داود عليه الصلاة والسلام والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أنه لايجوز الحكم إلا على الأمر الذى لايحتمل التأويل يؤخذ ذلك من أنه لما أخبر صلى الله عليه وسلم بما قاله عبد الله أنه يصوم النهار ويقوم الليل ماعاش لم يخبره عليه الصلاة والسلام بعدم طاقته على ذلك ولا بما هو الأفضل فى الصوم إلا حتى استفسره بأن قال له «أنت الذى تقول والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ماعشت» فلما اعترف له عبد الله بذلك حينئذ أخبره بما هو الأفضل

وفيه دليل : على أن من السنة إيصال أخبار الرعية إلى راعيها يؤخذ ذلك من كون سيدنا صلى الله عليه وسلم أخبر بمقالة عبد الله فلولا ما كان ذلك عندهم معلوما ماقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ويترتب عليه من الفقه أن يستعمل ذلك فى كل من له رعاية على أحد صغيرا كان أو كبيرا

وفيه دليل : على جواز اليمين على مايريد المرء أن يفعله من المندوبات يؤخذ ذلك من قول عبدالله والله لأصومن النهار فلما بلغ ذلك سيدنا صلى الله عليه وسلم لم يعنفه على ذلك وسكت عن كونه حلف وسكوته عليه الصلاة والسلام دال على جوازه

وفيه دليل : على جواز الذكر بين الاخوان بأنواع العبادات وأن يبدى الشخص لهم ماوقع عزمه على فعله من أى أنواع العبادات شيئا يؤخذ ذلك من ذكر عبدالله ذلك حتى بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبره ولم يقل له فى ذلك شيئا فدل على جوازه

وفيه من الفائدة : أن ذكر ماعزم المرء عليه من أفعال البر بين إخوانه هو من باب التذكير بالخير والتعاون عليه لأن عند ذكره العزم على ذلك قد تنبعث نفوس الغير إلى مثل ذلك أو إلى مايقرب منه فيدخل فى قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) إلا أنه بشرط أن يكون الاخوان يعلم منهم ذلك لأن الصحابة رضى الله تعالى عنهم ذلك كان شأنهم أجمعين

وفيه دليل : على فضل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وعدم تملقهم فى الكلام وقصدهم الفائدة لاغير يؤخذ ذلك من أنه لما سأل سيدنا صلى الله عليه وسلم عبدالله بأن قال له أنت الذى تقول لم يزده فى الجواب على أن قال له قد قلته بلا زيادة من اعتذار ولا تملق وقوله صلى الله عليه وسلم «إنك لاتستطيع ذلك» ﴿هنا بحث﴾ هل هذا خاص بعبد الله لما يعلم صلى الله عليه وسلم من حاله أو هذا لجنس البشر احتمل الوجهين معا والأظهر والله أعلم أنه لجنس البشر لقوله عليه الصلاة والسلام فى حديث غيره «ان المنبت لاأرضا قطع ولا ظهرا أبقى» ولقوله عليه الصلاة والسلام عن معاذ بن جبل لصاحبه «هو أفقه منك» وقد تقدم ذكره فى غير ماموضع من الكتاب

وفيه دليل : على أن الأمر بما فيه راحة النفوس إذا كان عونا على الطاعة يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام «أفطر ونم» فانهما عون على القيام والصيام

وفيه دليل : على أن صوم يوم تطوعا بعشرة أيام يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم «صم

من الشهر ثلاثة أيام فان الحسنة بعشر أمثالها وذلك مثل صيام الدهر»

وفيه دليل: على ضرب المثال بممكن لا يقع ليعلم بذلك المثال فائدة ما يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام «وذلك مثل صيام الدهر» ومن المعلوم قطعا أن من الدهر مالا يجوز صومه مثل أيام الاعياد وأيام التشريق ومنه مالا يصام تطوعا أصلا وهو رمضان وما يترتب من طريق النذر والكفارات الواجبات شرعا هي مثل الفرض لا يمكن صومها تطوعا أصلا وقد أطلق عليه الصلاة والسلام على الجميع الدهر فى المثال فيكون التقدير فيه أن يتأتى صومه أو ماعدا مافرض صومه فلا بد فيه من ضمير تخصيص عمومه

وفيه دليل: على أن السنة فى الراعى أن يحمل رعيته على الأرفق فى الأمور يؤخذ ذلك من أن سيدنا صلى الله عليه وسلم لم يأمره أولا إلا بالأقل من الصوم فانه أرفق ويقدر عليه القوى والضعيف

وفيه دليل: على جواز مراجعة المسترعى راعيه بطلب الزيادة فى المجاهدة إذا علم من نفسه أهلية لذلك يؤخذ ذلك من قول عبد الله إنى أطيق أفضل من ذلك إلا أنه يكون بأدب كما فعل هذا السيد لأنه لم يزد أن أخبر عن نفسه أنه يطيق أفضل من ذلك ولم يقل إنى أفعل أكثر مما قلت وإنما أخبر بما يطيقه وبقى ينظر بماذا يؤمر ويترتب عليه من الفقه أن يكون ذلك فى سائر الأمور يخبر راعيه بما هو الأصح له بحسب حاله حتى يرى بماذا يأمره راعيه

وفيه دليل: على أن الدين مطلوب بفروضه وندبه يؤخذ ذلك من أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أمر عبدالله بالصوم من كل شهر بثلاثة أيام ثم درجه إلى الشطر فكفى بذلك دليلا على طلبه

وفيه دليل. على المنع من التغالى فى الدين يؤخذ ذلك من منعه صلى الله عليه وسلم مازاد على الأفضل وهو صوم شطر الدهر بقوله عليه الصلاة والسلام «لا أفضل من ذلك» فأجاز له ماكان أقل من الشطر لكونه راعى الأهلية فى ذلك ولما بلغ الأفضل وادعى أنه فيه الأهلية للزيادة على ذلك منعه عليه الصلاة والسلام بقوله لا أفضل من ذلك فان الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا إذا سمعوا منه صلى الله عليه وسلم لا أفضل يزيدون على ذلك شيئا وإنما كان قصدهم الأفضل فى الأعمال فقام قوله عليه الصلاة والسلام لا أفضل مقام المنع من ذلك

وفيه دليل: على أنه إذا تقعدت القاعدة الشرعية وعلمت لا يحتاج إلى تكرارها يؤخذ ذلك من أنه لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بحلف عبد الله أنه يقوم الليل ويصوم النهار أخبره صلى الله عليه وسلم بفعل الأفضل وهو ضد ما حلف عليه ولم يقل له كفر عن يمينك لأن هذه القاعدة عندهم قد ثبتت فلم يحتج إلى أن يذكر له ذلك

وفيه دليل: على أن الفضيلة فى الأعمال بحسب ماجعلها الشارع صلى الله عليه وسلم لا بحسب العقل

يؤخذ ذلك من قول عبد الله لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم صم يوما وافطر يوما قال له إني أطيق أفضل من ذلك لما تقدم له ان الزيادة على الثلاثة أفضل فرأى أن الزيادة على الشطر أفضل فأخبر الشارع صلي الله عليه وسلم بأن تلك الزيادة نقص لافضيلة فيها بقوله عليه الصلاة والسلام لا أفضل من ذلك فذهب هنا ماقاسه عبد الله

وفيه دليل: على أن عظم الأجر فى العبادات ليس بكثرة التعب يؤخذ ذلك من كون عبد الله ظن زيادة المجاهدة وهى زيادة الصوم على شطر الزمان أفضل فمنع صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله لا أفضل من ذلك

وفيه دليل: على أن الحكم لاستصحاب الحال حتى يرد ناسخ من الشارع صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من أن عبد الله لما رأى الزيادة على الثلاثة أفضل استصحب ذلك الحكم حتى جاوز شطر الزمان فمنع الشارع عليه الصلاة والسلام ذلك ونسخه بقوله لا أفضل من ذلك

وفيه دليل: لمن يقول أن شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد عليه ناسخ يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم «وذلك صيام داود» عليه الصلاة والسلام

وفيه دليل: على فضل السنة واتساعها حتى يدخل فيها القوى والضعيف يؤخذ ذلك من تدريج سيدنا صلى الله عليه وسلم صوم المتطوع من العشر فى الزمان الذى هو ثلاثة أيام فى الشهر إلى النصف منه وهو صوم يوم وإفطار يوم وما بين هذين الحديثين توسعة كبرى يتسع فيها جميع الناس على اختلاف أحوالهم

وفيه دليل: على التسوية بين أيام الشهر بلا فضيلة بينها يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم «ثلاثة أيام من كل شهر» بغير تعيين وجعل الأجر فيها سواء

وفيه دليل: على أن تفريقها أعنى أيام الصوم فى الشهر أو تتابعها فى الأجر سواء يؤخذ ذلك من قوله ثلاثة أيام من كل شهر ولم يذكر فيها تتابعا ولا تفريقا فدل أن الأمر فى ذلك سيان

(١٨٥) ﴿حديث احب الصيام إلى الله تعالى صيام داود عليه السلام﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ صِيَامُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما الاخبار بأن أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود عليه الصلاة والسلام والآخر الاخبار بأن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه الصلاة والسلام أيضا وتبيين صفتها والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال مامعنى قوله أحب ومامعنى الحكمة فى ذلك حتى كانت هذه الصفة أحب

ومنها تعارض صومه صلى الله عليه وسلم لهذه الصفة لأنه صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يصوم حتى يقال أنه لا يفطر ويفطر حتى يقال أنه لا يصوم وما استكمل شهرا بالصوم قط إلا رمضان وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام إن من أدام الصوم ضيقت عليه النار وكيف الجمع بين هذه الأحاديث وهل يكون ذلك تعارضا أم لا أما قوله صلى الله عليه وسلم (أحب الصيام إلى الله) فقد تقدم الكلام على هذه اللفظة فى غير ما حديث وهى كناية عن فضيلة العمل وكثرة الثواب عليه فان الحب الذى هو الولوع فى الشيء فى حق الله سبحانه مستحيل فان هذا من صفات المحدثات والحق سبحانه وتعالى منزه عنها وإنما يعنى بالحب مايصدر عن الكرام إذا أحبوا الشيء وأعجبهم عن كثرة إحسانهم وإفضالهم على فاعله من هنا يكون الشبه لا غير وفيه تحقيق لما قدمناه فى الحديث قبل من أن الأجور على الأعمال ليست موقوفة على كثرة التعب والمشاق وإنما هى بحسب ما تفضل به المولى سبحانه (وأما قولنا) هل تفهم الحكمة فى تفضيل هذه على غيرها وإن كثر التعب فيها فقد نص الكتاب العزيز على معنى العلة فى ذلك وهو قوله عز وجل (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) وقال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فبفهم هاتين الآيتين علمنا ما الحكمة فى ذلك وهى أن الحكمة الربانية قد أحكمت أنه لابد لكل دعوى من حقيقة تبينها فلو كان الدين والقرب من الله سبحانه وتعالى بمجرد الدعوى ادعاه الناس كلهم فلما جعلت المجاهدات فى العبادات جاءت مبينة لحقيقة تلك الدعاوى فمن جاهد وصبر كان ذلك تحقيقا لما ادعاه وحصل له الفوز العظيم والأجر الكبير يدل على ذلك قوله تعالى (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) فاقتضت صفة الرحمة الرفق بفضله عز وجل بعبيده بقوله عز وجل (ما يفعل الله بعذابكم) فما كان من المجاهدات فوق ما يطيقه وصف خلق البشرية منعه عز وجل بعدم الثواب الجزيل عليه وجعل المجاهدة التى تحملها البشرية بوضع خلقها ولا كبير مشقة عليها أفضلها لأنه عز وجل غنى عنهم فيما تعبدهم به فما كلفهم منها إلا بقدر ما تصح لهم الدعوى بالانقياد لما أمروا به ولذلك قال تعالى (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وقد قال جل جلاله (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) رحمة منه عز وجل بعباده (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وأما كيف الجمع بين تلك الأحاديث وهل هو تعارض أم لا أما الذى جاء عنه صلى الله عليه وسلم من أنه كان يصوم حتى يقال أنه لا يفطر ويفطر حتى يقال أنه لا يصوم فظاهره التعارض وإذا حققت النظر فيه فليس بتعارض بل فعله صلى الله عليه وسلم إشارة إلى التوسعة وأبقى للفضيلة على الحد الذى أخبر عن صوم داود عليه الصلاة والسلام ويكون معنى صومه عليه الصلاة والسلام أنه كان يصوم حتى يقال أنه لا يفطر ويفطر حتى يقال أنه لا يصوم فوصل الصوم بعضه ببعض ووصل الأكل بعضه ببعض ويكون يحفظ عدد الأيام فى الصوم والأكل أن تكون سواء بسواء ولذلك نعتت عائشة

رضى الله عنها الأكل والصوم بنعت واحد وهو قولها ﴿حتى نقول أنه لا يصوم وحتى نقول أنه لا يفطر﴾ فيكون صومه عليه الصلاة والسلام شطر الدهر فكان عليه الصلاة والسلام يراعى فى ذلك فقه الحال أيهما رآه أرجح فعله فجاء فعله عليه الصلاة والسلام مع فعل داود عليه الصلاة والسلام سواء فى مشاطرة الدهر فى الصوم وزاد صلى الله عليه وسلم فى ذلك فوائد منها التوسعة على أمته لأنه كثيرا من الناس لا يمكنهم صوم يوم وفطر آخر فمنهم من عدم القدرة ومنهم من له ضرورة لا يتأتى معها ذلك فان الضرورات كثيرة وأحوال الناس مختلفة فكان يفوت لبعض الناس الذين لهم همة فى الدين تلك الفضيلة ومنها اغتنام نشاط النفس فى العمل وهو فقه الحال لأنه إذا رآى الشخص من نفسه نشاطا فى العبادة يحتاج أن يغتنمه أو خلوا من شغل فيغتنمه أيضا أو عونا ما على تلك العبادة من وجه ما فيغتنمه أيضا أو صحة فى البدن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «اغتنم خمسا قبل خمس فراغك قبل شغلك وصحتك قبل سقمك وحياتك قبل موتك وشبابك قبل هرمك وغناك قبل فقرك» ومنها أن يلحق فى ذلك أصحاب الأعذار بغيرهم حتى لا تفوتهم تلك الفضيلة مثال ذلك الحائض لو كان صلى الله عليه وسلم يصوم مثل داود عليه السلام ماقدرت حائض ممن لها همة فى الدين تبلغ ذلك أبدا وعلى ما أشرنا من فعله عليه الصلاة والسلام تقدر على ذلك فان أيام حيضها هو شطر الدهر وهو خمسة عشر يوما فى الشهر فتكون تصوم أيام طهرها وهو نصف الدهر وتفطر أيام حيضها وهو شطر الدهر أيضا وفيه فوائد كثيرة من هذا لمن تأمله لأنه عليه الصلاة والسلام جاء بالتيسير فى الأمور كلها فالحديثان مفترقان فى الظاهر مجتمعان فى المعنى فلا تعارض بينهما وأما قوله عليه الصلاة والسلام «من ادام الصوم ضيقت عليه النار» احتمل أن يكون معناه من أدامه على الوجه الأفضل حتى توفى على ذلك فيكون معناه المحافظة على دوام تلك العبادة حتى يموت وهو على ذلك الحال فذلك الشخص الذى تضيق عليه النار أى أنه لا يدخلها واحتمل أن يكون من أدام الصوم على ظاهره ويكون ثوابه أن تضيق عليه النار ولا يلزم من كونه تضيق عليه النار أن يكون أفضل من الذى يصوم يوما ويفطر يوما بل يكون الذى يصوم يوما ويفطر يوما أرفع منزلة وأعظم أجرا إلا أنه عليه الصلاة والسلام قد وصفه بصفة لم يصف بها هذا وهو قوله «أحب» ويكون مثل هذا كما قال عليه السلام «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب وهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» هذا هو ثوابهم وقد يكون من يسترقى أعلا منهم مثل الشهداء قد جاء أنهم يشفعون وكذلك جاء فى العلماء العاملين أنهم يشفعون ومن منزلته أن يشفع فى غيره أعلا ممن يدخل الجنة بغير حساب فان خيره مقصور على نفسه والآخر خيره متعد فدل على علو منزلته أن يشفع وقد جاء أن من هذه الأمة من يشفع فى مثل ربيعة ومضر وهذا من أعلا الناس درجة بعد الأنبياء عليهم السلام فلا تعارض أيضا وإنما ذكرنا هذين الحديثين

لأنه وقع لجملة من أهل العلم أو ممن ينسب إليه إشكال فاردنا إزالة ذلك وفيما بيناه كفاية فى ازالته بفضل الله تعالى

وفيه دليل : على حسن الدعاء إلى الخير يؤخذ ذلك من إخياره صلى الله عليه وسلم بخير الوجوه فى الصوم وفى الصلاة بالليل ولم يقل لهم بعزيمة افعلوا كذا وساقه فى طريق الاخبار عن من تقدم من الأنبياء صلوات الله عليهم اجمعين فجاء ارشاده عليه السلام فى هذا الحديث بذكر أحوال من تقدم من الأنبياء عليهم السلام مثل القصص فى القرآن وقد قال علماؤنا إن كانت القصة تدل على عمل خير فقد طلب منك بالضمن وإن كانت تدل على ترك شر فقد طلب منك تركه بالضمن أيضا ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها فى صفته عليه السلام «كان خلقه القرآن» أى إنه كان يمشى فى جميع شأنه كله على مادل عليه القرآن وعلى أسلوبه

وفيه دليل . على أن كل ما تقدم من الشرائع الصوم والصلاة مشروعان فيه

وفيه دليل · على التأسى بمن تقدم من الأنبياء عليهم السلام يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «وأحب الصلاة إلى الله» وبين أنها الصفة التى كان يفعلها داوود عليه السلام وكذلك الصوم ويقويه قوله تعالى حين ذكر الأنبياء ثم قال «فبهداهم اقتده» أى طريقهم اتبع ﴿وهنا بحث﴾ لو كانت هذه الصلاة التى صفتها أن ينام نصف الليل ثم يقوم ثلثه ثم ينام سدسه هى أفضل من غيرها فنقول والله الموفق لما كان المطلوب من العبادة الحضور فيها ومن المستحب فيها الاشتغال بها عند غفلة الناس وفى الأزمنة التى اتخذتها الناس للراحات غالبا فكان قيامه بعد نصف الليل الأول فذلك الوقت الذى أشد مايكون الناس فيه من الغفلة والنوم غالبا فكان التلبس بالعبادة فى ذلك الوقت مما يستحب ولأنه أيضا الوقت الذى يتجلى الحق سبحانه فيه بفضله ويقول «هل من داع فاستجيب له هل من مستغفر فاغفر له هل من تائب فاتوب عليه» لأن العلماء قد اختلفوا متى يكون ذلك هل فى الثلث الوسط من الليل أو فى الثلث الآخر منه فاذا كان القيام بعد نصف الليل الأول فقد أخذ من ثلث الليل المتوسط نصفه وأخذ من الثلث الآخر نصفه فحصل له الفضل فى الزمان فكانت صلاته أحب ﴿ويترتب﴾ على هذا من الفقه أنه إذا كان عمل الشخص بوفاق بين العلماء فهو أفضل من الذى فيه الخلاف ونومه السدس الآخر لأن يزول عنه تعب العبادة وتجم النفس وينشط لصلاة الصبح فان الحضور فى الصلاة لايكون غالبا إلا مع نشاط النفس وعدم تعبها ولذلك كان سيدنا صلى الله عليه وسلم يقول فى اذان بلال وكان أذانه قبل الفجر «ان أذان بلال يوقظ النائم وينوم القائم» لأن من كان فى تعبده مثل داوود عليه السلام فذلك وقت نومه ومن غلبه النوم أو كان له عذر فلم يبق له لتأخير التهجد وقت فذلك وقت قيامه لورده وإلا فاته فضل قيام الليل وقد قال

وردك حافظ عليه ولاتكسل وفضل قيام الليل فلا تجهل
وبماء استغفار اسحاره ذاغسل وسخ ذنوب قد اثقلت محمل
وناد بالهادى من يثرب وقل فليس على المضطر سؤال من مفضل

(١٨٦) ﴿حديث أول مسجد وضع للصلاة﴾

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قُلْتُ يَارَسُولَ اللَّهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلاً قَالَ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى قُلْتُ كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا قَالَ أَرْبَعُونَ ثُمَّ حَيْثُمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ وَالْأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ

ظاهر الحديث الاخبار بثلاثة أحكام الواحد منها أن المسجد الحرام أول مسجد وضع للصلاة والثانى أن المسجد الأقصى وضع بعده وبينهما أربعون والثالث جعلت الأرض لنا مسجدا وطهورا وحيث ماادركتنا الصلاة نصلى والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ الدليل على فضل سيدنا صلى الله عليه وسلم وامته على من تقدم يؤخذ ذلك من تيسير العبادة عليهم بأن جعلت لهم الأرض مسجدا وطهورا ولم يكن ذلك لمن تقدم ﴿ومنها﴾ أن يقال ما معنى قوله مسجدا أى موضع إيقاع الصلاة لأن كل موضع يصلى فيه فهو مسجد أى موضع للسجود وكانت لأمم قبل لا يفعلون الصلاة إلا فى المواضع التى بنيت لها

وفيه دليل: على أن تخصيص الأشياء ليست بالاستحقاق وإنما هى بحسب ماجرت حكمة الحكيم يؤخذ ذلك من أن الصلاة قبل هذه الأمة لم يكونوا يوقعونها إلا فى مواضع مخصوصة وجعلت جميع الأرض لهذه الأمة محلا لفعلها فيه

وفيه دليل: على أن حسن النية فى السؤال تعقب زيادة خير على ماقصده يؤخذ ذلك من كون هذا الصحابى رضى الله عنه لما سأل سيدنا صلى الله عليه وسلم أن يخبره عن أول مسجد وضع أولا فزاده عليه الصلاة والسلام بأن أخبره بهذا الخبر العظيم وهو جعل الأرض لنا مسجدا وطهورا

وفيه دليل: على أن للعالم أن يجاوب بأكثر مما سئل عنه يؤخذ ذلك من كون السائل سأل عن أى المساجد وضع أولا فجاوبه صلى الله عليه وسلم على ذلك وزاده الاخبار بجعل الأرض مسجدا وطهورا

وفيه دليل: على أن فصيح الكلام الاختصار فى الألفاظ بشرط أن لا يخل بالمعنى يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «ثم حيث ما أدركتك الصلاة فصل» والمقصود حيث ما أدركك وقت الصلاة فان الصلاة فعل للمصلى فكيف يدركه فعله هذا مستحيل فلما لم يكن هذا الأمر يمكن فيه الناس اختصره ولعله أيضا بأن المخاطب فهم عنه وإلا كان يزيده فيه بيانا

وفيه دليل: على المحافظة على أوقات الصلوات يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام حيث «ما أدركتك الصلاة فصل» أى لا تؤخرها فيدل هذا بضمنه على المحافظة على الصلاة ويدل أيضا على التخصيص على المعرفة بأوقات الصلوات لأنه من اللازم لأنه لا يعلم وقتها حتى يكون له بذلك علم

وفيه دليل: على ماخص الله عز وجل به سيدنا صلى الله عليه وسلم من الفصاحة يؤخذ ذلك من

كون لفظة منه عليه السلام تحتوى على أحكام عديدة مثل مانحن بسبيله من هذا الحديث

(١٨٧) ﴿حديث الثلاثة الذين تكلموا فى المهد﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِى الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَى وَكَانَ فِى بَنِى اسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ كَانَ يُصَلِّى جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ فَقَالَ أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّى فَقَالَتْ اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ وَكَانَ جُرَيْجٌ فِى صَوْمَعَتِهِ فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ فَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى فَأَتَتْ رَاعِيًا فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَلَدَتْ غُلَامًا فَقَالَتْ مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَوْهُ فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ فَقَالَ مَنْ أَبُوكَ يَاغُلَامُ فَقَالَ الرَّاعِى فَقَالُوا أَنَبْنِى لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ لَا إِلَّا مِنْ طِينٍ وَكَانَتِ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ إِبْنًا لَهَا مِنْ بَنِى اسْرَائِيلَ فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ فَقَالَتْ اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِى مِثْلَهُ فَتَرَكَ ثَدْيَهَا وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِى مِثْلَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى النَّبِىِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمَصُّ أُصْبُعَهُ ثُمَّ مُرَّ بِأَمَةٍ فَقَالَتْ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِى مِثْلَ هَذِهِ فَتَرَكَ ثَدْيَهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِى مِثْلَهَا فَقَالَتْ لَهُ وَلِمَ ذَلِكَ قَالَ الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ وَهَذِهِ الْأَمَةُ يَقُولُونَ سَرَقْتِ زَنَيْتِ وَلَمْ تَفْعَلْ

ظاهر الحديث الاخبار بكلام اولئك الثلاثة فى المهد فيمن تقدم من الأمم والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن فيه دليل على أن أفضل العبادات بر الوالدين يؤخذ ذلك من كون جريج ماشغله عن إجابة أمه إلا شغله بالعبادة ومع ذلك عوقب بذلك الهوان

وفيه دليل : على إجابة دعاء الوالدين يؤخذ ذلك من ابتلائه بما دعت عليه أمه لما لم يجبها

وفيه دليل : على أن صاحب الخدمة إن جرى منه أمر يرفق به ولا يكون عقابه مثل غيره يؤخذ ذلك من كون أم جريج لم ينطلق على لسانها فى الدعاء بالعقاب الا برؤية وجوه المومسات ولولا اللطف به لنطقت فى الدعاء بوقوع الفاحشة أو سلب الايمان أو الضرب أو القتل إلى غير ذلك

وفيه دليل : على أن صاحب الصدق فى معاملته مع الله تعالى إن ابتلى ايلطف به ويجعل عاقبته خيرا يؤخذ ذلك من كون المولود نطق ببراءته

وفيه دليل : على إجابة مولانا سبحانه وتعالى المضطر إذا دعاه يؤخذ ذلك من أنه لما اضطر جريج إليه عز وجل فى تبرئته مما رمى به أنطق عز وجل له المولود بما يدل على ذلك

وفيه دليل : على أن صاحب الصدق مع الله لا تضره الفتن وإن جرت عليه لا تزيده إلا ترفيعا وخيرا يؤخذ ذلك من أنه لما تعرضت تلك المرأة إلى جريج والنساء أكبر الفتن على الرجال وقد قال ﷺ «ما تركت بعدى فتنة هى أضر على الرجال من النساء» عصم منها ثم ادعت عليه حتى هدمت صومعته لم يضره ذلك وجعل الله عز وجل له خير مخرج حتى رغبوا أن يبنوا له صومعته من ذهب وما ذاك إلا لما كبر قدره عندهم

وفيه دليل : على أن النساء فى بنى إسرائيل كن يصدقن فيما يدعين على الرجال من الوطء وتلحق به الولد بغير بينة ولولا ذلك ما كان يحتاج إلى تبرئته لكلام الطفل فانه لو كان فى شريعتنا حدت له ثمانين حد الفرية ولم تصدق عليه وقد جاء عن بنى اسرائيل ان ذلك كان من شأنهم حتى أن الباغية منهم إذا حملت ادعت به على من شاءت ممن تعرف وتلحق به الولد وتقول له يافلان كان بينى وبينك كذا وكذا فى اليوم الفلانى ومنك هذا المولود فيقبل قولها وتلحقه بنفسه

وفيه دليل : على أن صاحب الصدق مع مولاه عند الضرورة يطلب النصر من مولاه بخرق العادة بصدق وإدلال على فضله تعالى وأن الله عز وجل يفعل معه ذلك يؤخذ ذلك من إتيان جريج بعد الركعتين الصبى يسأله من أبوه فأنطق الله عز وجل له المولود لكونه قصده موقنا بقوة الرجاء فى فضله تعالى وقد أوحى الله عز وجل فى الزبور لداود عليه السلام «قل لبنى إسرائيل من ذا الذى سألنى فلم أعطه»

وفيه دليل : على أن صاحب الصدق مع الله تعالى عند النوازل لا يجزع ولا يفزع بل يقوى يقينه لثقته بمولاه عز وجل يؤخذ ذلك من كون جريج لما فعل به ما فعل لم يهله قولهم : لا فعلهم وقرع باب مولاه وهو يجر ذيول فخر قوة رجائه فى كشف ما به ابتلاه فأسرع عز وجل له بلطفه الجميل بنطق الطفل بكشف غمته «وأنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء» ولذلك قال موسى عليه السلام حين قال له قومه «إنا لمدركون قال كلا إن معى ربى سيهدين» لقوة رجائه فى مولاه ففلق له عز وجل من حينه البحر تصديقا لدعواه لأنه جل ثناؤه يقول (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) إى كافيه «ومن أصدق من الله حديثا»

وفيه دليل : على أن حقيقة النصر فى جميع الأمور إنما هى بفضل الله عز وجل لا تتوقف على سبب حكمة ولا غيرها فتارة تكون مغطاة بأثر الحكمة وتارة تكون بيد القدرة بارزة لا مغطاة بحكمة كمثل ما نحن بسبيله فى قصة عيسى عليه السلام ومن ذكر معه فى الحديث فجاء النصر لأم عيسى عليه السلام ولجريج بابراز قدرة القادر لا غير

وفيه دليل : على أن خرق العادة تكون للانبياء عليهم السلام فى ذلك ولغيرهم وقد تقدم الكلام

على الفرق بينهما فى ذلك يؤخذ ذلك مما جرى لعيسى عليه السلام من خرق العادة وهو من الأنبياء والرسل وخرق العادة التى جرت لجريج وجرت للمرأة التى ليست من الأنبياء ولا من العباد أعنى أن خرق العادة كانت على صفة واحدة لكنها فى حق الأنبياء تسمى معجزة وفى حق الأولياء كرامة

وفيه دليل . على أن من أدب السنة الكناية عن الأمور الفاحشة يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم « أتته امرأة فكلمته فأبى » والمعـــنى طلبت منه إيقاع الفاحشة فكنى صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله فكلمته

وفيه دليل : على أن من آداب السنة إظهار أهل الخير وإن كانوا قد ماتوا والستر على أهل المخالفات يؤخذ ذلك من كونه صلى الله عليه وسلم سمى العابد باسمه لتشهد فضيلته ولم يذكر اسم المرأة سترا عليها فجاء له ﷺ بصدق مقاله لأن من مقاله عليه الصلاة والسلام « المؤمن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه » وكل منا يريد أن تستر عليه زلاته ويحب أن يكون قدوة لأهل الخير وقد نص الكتاب العزيز على ذلك بقوله عز وجل (واجعلنا للمتقين إماما) ولا يكون إماما يؤتم به فى الخير حتى يكون مشهورا به فكذلك فعله صلى الله عليه وسلم هنا أشهر صاحب الخير وستر على صاحب الشر وكذلك فى قوله فأتت راعيا » ولم يسمه باسمه من أجل الستر عليه ويترتب على ذلك من الفقه أنه إذا علمت من أحد فعل شرا أن تخبر عن ذلك الفعل ولا تسمى صاحبه وإن ذلك ليس بغيبة وقد ذكر ذلك بعض العلماء إلا أن يكون صاحب بدعة فيتعين عليك شهرته لأن ذلك من باب النصح للمسلمين

وفيه دليل : على أن صاحب المعاصى لا حرمة له يؤخذ ذلك من أنه لما نسبت المرأة الفاحشة إلى إلى جريج لم يبق له عندهم حرمة وهدموا صومعته وسبوه

وفيه دليل على أن المؤمن عند المحن الصلاة جنته يؤخذ ذلك من أنه لما فعلوا به ما فعلوا لم يجاوبهم وتوضأ وأقبل يصلى فألهم لطريق الخلاص وقد قيل إن الصلاة كهف المؤمن

وفيه دليل : على أن أبناء الدنيا وقوفهم مع الخيال الظاهر وإن أصحاب الاطلاع وقوفهم مع حقيقة الباطن يؤخذ ذلك من أن أم الصبي التى كانت ترضعه لما رأت صاحب البشارة تمنت أن يكون ابنها مثله ولما من على الطفل بمعرفة الباطن استعاذ منه كما أخبر سبحانه عن قارون بقوله (فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون)

وفيه دليل . على أن نفوس أهل الدنيا تعاف سوء الحال فيها وإن أهل الاطلاع والتحقيق لا يبالون بذلك إذا كانت السريرة حسنة يؤخذ ذلك من كون أم المولود لما رأت سوء حال الأمة استعاذت بالله من أن يكون لولدها مثل حالها ولما أعطى الصبي الاطلاع على حسن حال باطنها تمنى أن يكون

مثلها وكذلك قصة يوسف عليه السلام مع أخيه لما اجتمع معه فقال له نجلس معك ولا نقدر أن نفارقك فقال له لا يمكن ذلك حتى تصير بأن تقر على نفسك فى الظاهر باسم السرقة فهان عليه قبح ما نسب إليه فى الظاهر لحسن ما أمله فى الباطن فجعل الصاع فى حمله وكان من شأنهم ما قصه الله عز وجل فى التنزيل وقد قيل فى حبك خلعت عذارى فلا أبالى ما ارتكب فيه من الأخطار

وفيه دليل: على أن البشرية طبعت على إيثار الأولاد بالخير على نفوسها يؤخذ ذلك من أن المرأة ما طلبت الخير إلا لابنها ولا طلبت دفع الشر إلا عنه ولا تبالى بنفسها

وفيه دليل: على أن من السنة التشبه بأهل الخير يؤخذ ذلك من كون سيدنا صلى الله عليه وسلم لما أخبر عن رجوع المولود بمص ثدى أمه أخذ صلى الله عليه وسلم يمص أصبعه تشبها به لأنه من أهل الخير بدليل أن الله تعالى قد أطلعه مع صغره على حقيقة غيب ذينك الشخصين وأنطقه به واختار لنفسه ما هو الأقرب إلى الله تعالى وتشبه صلى الله عليه وسلم بذلك الطفل لكون حاله يدل على أنه من أهل الخير إرشادا لنا إلى ذلك وقد قيل ان التشبه بالكرام فلاح

وفيه دليل: على فضل أهل الصوفة يؤخذ ذلك من أنهم آثروا جانب الحق ولم يبالوا بظواهر الأمور وما لاقوا فى ذات الله تعالى كمثل صهيب وبلال مع كونهم مسرورين بذلك وكما أخبر مولانا سبحانه عن امرأة فرعون وقد قال طريق الخير فارتكب وتشبه بأهلها ولا تعدل عن ذلك فتهلك فطريق القوم خير كله والتشبه بالكرام فلاح كله

(١٨٨) ﴿حديث من أمر عند موته بحرق جسده خشية من الله تعالى﴾

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ رَجُلاً حَضَرَهُ الْمَوْتُ وَلَمَّا يَئِسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ إِذَا أَنَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِى حَطَبًا كَثِيرًا وَأَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِى وَخَلَصَتْ إِلَى عَظْمِى فَامْتَحَشَتْ فَخُذُوهَا فَاطْحَنُوهَا ثُمَّ انْظُرُوا يَوْمًا رَاحًا فَاذْرُوهُ فِى الْيَمِّ فَفَعَلُوا فَجَمَعَهُ اللهُ تَعَالَى فَقَالَ لَهُ لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ قَالَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَغَفَرَ اللهُ لَهُ

ظاهر الحديث يدل على أن الخشية لله من موجبات المغفرة والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال كيف فعل هذا بنفسه ما فعل وظن أن ذلك منج له من الله عز وجل فان كان هذا الشخص غير مؤمن فليس تناله الرحمة وقد نالها وإن كان مؤمنا فكيف يجتمع هذا الذى فعل مع الايمان وقد جاء فى رواية أخرى لئن قدر الله على ليعذبنى عذابا شديدا ﴿فالجواب﴾ عن ذلك أما أن يكون غير مؤمن فلا لأن الحديث يدل على إيمانه لأنه أيقن بالحساب وإن السيئات يعاقب

عليها وهذا علامة المؤمن وأما كونه فعل ذلك بنفسه فلعله كان فى شريعتهم جائزا ومثله لمن أراد التوبة مثل ما فعل بنوا اسرائيل الذين لم تقبل توبتهم حتى قتلوا أنفسهم واحتمل أن يكون ذلك جهلا منه ببعض الصفات وقد قال العلماء إن الجهل ببعض الصفات لايخرج صاحبه عن الايمان وقد يكون ذلك عن حال خوف غلب عليه حتى أخرجه عن حال التمييز وهو أظهرها والله أعلم لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى سماه سيدنا الفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل من أجل أن يوم إسلامه أظهر الله تعالى الاسلام وعبد الله جهرا كان إذا ورد عليه الخوف يأتى باب حذيفة فى الليل ويقول ناشدتك الله آنا ممن عدنى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنافقين فيقول حذيفة والله ما أنت منهم فيقول له إنك عندى لصادق ولكن عملى يشبه عملهم فيرجع إلى بيته فيبكى على نفسه حتى يصبح وربما التزم من ذلك الفراش حتى يعوده أصحابه وهو ممن يشهد له سيدنا صلى الله عليه وسلم بالجنة لكن عند الخوف وقوته كان لايابه لشىء من ذلك ويخاف على نفسه أشد الأشياء وهو النفاق وآخر الحديث يصدق ذلك لكونه حين سأله جل جلاله «لم فعلت هذا قال من خشيتك يارب» فصدق الله تعالى مقالته وغفر له

وفيه دليل: لأهل الأحوال الذين يقولون الحال حامل لامحمول لأن صاحبه لايبقى له معه اختيار ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاستويا» فمن أحد وجوهه أنه بأيهما اتصف المؤمن بلغ مثل مابلغ به صاحب القسم الآخر وقد قيل لبعض الفقراء فى بعض أحواله إن جئتنا بالخوف أمناك وإن جئتنا بالرجاء بالغناك ويحتمل أن يكون المراد بقوله «لئن قدر الله على» بمعنى لئن ضيق الله على باقامة عدله سبحانه وتعالى فيكون مثل قوله تعالى (فظن أن لن نقدر عليه) معناه أن لن نضيق عليه وكذلك قوله تعالى (فقدر عليه رزقه) أى ضيق عليه وهذا هو الظاهر والله عز وجل أعلم

وفيه دليل: على عظيم قدرة الله تعالى يؤخذ ذلك من جمع ذلك الشخص بعد مافعل بنفسه مثل ذلك الأمر وأظن أنه قد جاء من طريق آخر أن جمعه كان فى مثل لمحة الطرف فسبحان من لاتعجز قدرته عن شىء أراده

وفيه دليل: على جواز تسمية الشىء بما قرب منه يؤخذ ذلك من قوله حضره الموت ولم يعن بذلك إلا قرب ذلك بالعلامات الدالة عليه لأن عند حضوره الذى هو وقوعه لايمكن ذلك الوقت وصية ولاغير ذلك وقوله يوما راحا أى كثير الريح وقوله فى اليم أى فى البحر وقد جاء من طريق آخر فنسفه فى اليم ونصفه فى البر

وفيه دليل: على فضل هذه الأمة يؤخذ ذلك من كونها أطلعت على أخبار من قبلها مثل هذا وأمثاله ولم يطلع أحد على أخبارها لأنها آخر الأمم ومن فوائد ما يترتب على الاخبار بهذا الحديث

أن تعلم قدر مامن الله تعالى علينا به من قبول التوبة فى مثل هذا الوقت الذى فعل هذا الشخص هذا الأمر العظيم فيه بنفسه من تلك الوصية لقوله صلى الله عليه وسلم «إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر» أى تبلغ الروح إلى الحلقوم وهو عند معاينة ملك الموت من الله علينا بشكرها من نعمة ومن علينا بقبول التوبة قبل الغرغرة بفضله وقد قال «داو بمرهم التوبة جرح دينك فبرؤها أسرع من طرفة العين» واحتمل فى جميع أسبابها فلعل ميسر الأمور بفضله ييسرها

(١٨٩) ﴿حديث الوفاء ببيعة الأمراء﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَانَتْ بَنُوا إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لَانَبِيَّ بَعْدِي وَسَتَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ قَالُوا فَمَا تَأْمُرُنَا قَالَ فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ فَإِنَّ اللهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام الأول الاخبار بكثرة أنبياء بنى إسرائل وأنهم كانوا يسوسون بنى إسرائل كلما هلك نبي خلفه نبي والثانى الاخبار بأنه صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ولا نبي بعده والثالث الاخبار بكثرة الخلفاء والأمر بحفظ بيعة الأول والوفاء لهم بحقوقهم وترك الحقوق التى عليهم لله حتى يسألهم عنها والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال مامعنى تسوسهم وأى شىء هو المقصود من الاخبار بأن بنى إسرائل كانت الأنبياء عليهم السلام تسوسهم فاما معنى تسوسهم أى تهديهم إلى طريق النجاة وتلاطف بهم فى الحمل عليها كما يسوس الرابض الدابة ويحملها على الطريق الحسنة ويعلمها الخلق الجميلة وأما الحكمة فى الإخبار بهذا فهى إشارة إلى أنكم بعدى ليس لكم من يسوسكم فلا تغفلوا عن سياسة أنفسكم وحافظوا على ماهديتم إليه وقد جاء هذا المعنى مبينا فى أحاديث كثيرة فمنها قوله عليه الصلاة والسلام «تركت فيكم الثقلين لن تضلوا ماتمسكتم بهما كتاب الله وعترتى أهل بيتى» معناه أن هذان يقومان لكم مقام الأنبياء لبنى إسرائل وقوله عليه السلام فى حديث آخر «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائل» معناه أن علماء هذه الأمة تسوسهم وترشدهم إلى طريق الحق كما كانت أنبياء بنى إسرائل من هذا الوجه يكون الشبه بينهم لا أن أحدا من بنى آدم تكون درجته مثل درجة نبي من الأنبياء عليهم السلام فان الأنبياء عليهم السلام أرفع الناس درجة وأعلاهم منزلة

وفيه دليل: على حسن طريقة الأنبياء عليهم السلام إذ جعل الكل على حسن اللطف بقومهم يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام عن بنى اسرائل أن جميع أنبيائهم كانوا يسوسونهم والسياسة لايمكن توفيتها إلا من قد طبع على أحسن الخلق

وفيه دليل : على قطع الوحى من الأرض وتكذيب من أدعى من ذلك شيئا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم لا نبي بعدى

وفيه دليل : على فضل علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من الحديث الذى استدللنا به وهو قوله عليه السلام «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائل» فالدليل منه على فضل علماء أمته عليه السلام أن جعلهم فى الهدى والسياسة لأمته كأنبياء بنى إسرائل لبنى إسرائل

وفيه دليل : على تقديم آكد الحقين إذا تعارضا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (أعطوهم حقوقهم فان الله سائلهم عما استرعاهم) معناه لا تمنعوهم أنتم حقوقهم لكونهم يمنعوكم حقوقكم فأعطوهم مالهم من الحقوق واتركوا أنتم حقوقكم فان الله ينصفكم منهم لما تعارض حق الملك وحق المسترعى كان حق الملك آكد لأنه يترتب عليه حق متعد قدم على حق المسترعى لأن الخير فيه مقصور عليه وهو لا يفوته إما أن يأخذه فى هذه الدار وإما أن يأخذه فى الدار الأخرى فقدم الأهم وهذه قاعدة مطردة إذا تعارض أمران قدم أيهما أنفع

وفيه دليل : على أن الله سبحانه وتعالى لا يغادر من حقوق عباده صغيرا ولا كبيرا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (فان الله سائلهم عما إسترعاهم) يدخل تحت ذلك الدق والجل ومما يقوى ذلك قوله عز وجل (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) أى لا يغادر ذرة ولا أقل ولا أكثر منها

وفيه دليل . على أن كل من له حق يوفى له يوم القيامة وإن لم يكن هو يعلمه لأن كثيرا من الناس لا يعلم قدر الحق الذى له على الخليقة فاذا كان الله سبحانه وتعالى يحاسبه عما استرعاه فلاشك أنه يوفى لصاحب الحق حقه وإن لم يكن يعلم صاحب الحق به

وفيه دليل : على عظيم قدرة الله وأنه سبحانه ليس كمثله شىء يؤخذ ذلك من إخباره عليه السلام بأنه عز وجل يسئل جميع الخلفاء عن كل ما استرعاهم عليه واحدا واحدا وكم على كل خليفة من العالمين تداخل الحقوق بعضها على بعض فيما أخذوا فيه هذا فى الخلفاء ليس إلا وفيما بين الناس ويكون الفراغ من هذا الحساب العظيم وهذه المناقشة العظيمة فى قدر ما يفعل صلاة واحدة من المفروضات وقد جاء قدر ركعتى الفجر ولذلك كان سيدنا صلى الله عليه وسلم يخففهما رجاء فى تخفيف الحساب على أمته هذا لا تقدره العقول ولا تحيط به الأوهام ولا يمكن أن يكون هذا من صفة من يحد أو يكيف فان هذا لا يدخل تحت هذه الحدود ولا تحت حد محدود تعالى الله علوا كبيرا

وفيه دليل : لأهل الصوفة الذين يرون بتبرئة ذممهم ولا يعبؤن بما لهم لعلمهم بأنه عز وجل لا يغادر من حقهم شيئا فأراحوا أنفسهم من أجل التصديق بهذا الخبر ومثله فاستراحوا وأفلحوا

قال إذا علمت أنك كافلي فلا أبالي ماضيعت من أمري

وفيه دليل : على تقديم أهل الدين على غيره يؤخذ ذلك من تقديم حق الراعي على حق راعيته لأن حق الراعي بصلاح الدين لأنه قال صلى الله عليه وسلم « ينتزع الله بالسلطان مالا ينتزع بالقرآن »

وفيه دليل : على أن تأخير الحق لاينقصه يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام فان الله سائلهم عما استرعاهم فالتأخير لم يبطله إذا كان الله سائلا عنه

﴿ فيه إشارة ﴾ من طريق القوم الذين يقولون بتحمل الأذى وإدخال السرور يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ أعطوهم حقوقهم ﴾ ولا سرور أعظم من إعطاء الحقوق لأهلها وحمل الأذى فلا حمل أذى أشد على النفس من أن يكون لك حق وعليك حق فتعطي ماعليك وتترك مالك لا تطلبه فهذا عدم النصرة لها وهو غاية التسليم والمجاهدة وهو أعلا أحوال القوم وأما ذكر حق الراعي وحق المسترعي ماهو فقد ذكرناه أولا في حديث البيعة

(١٩٠) ﴿ حديث عيوب أهل الكتاب واتباع هذه الأمة لها ﴾

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَارَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ

ظاهر الحديث يدل على اتباع هذه الأمة سنن اليهود والنصارى والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال مامعنى اتباعهم وفيماذا يكون الشبه من سننهم هل على العموم أو في بعضها وإن كان في بعضها فما هو وما معنى شبرا بشبر وذراعا بذراع فأما ﴿ الجواب ﴾ عن الأول فقد يكون سننهم بمعنى طريقهم لأن السنة بمعنى الطريقة كقوله تعالى (سنة الله التي قد خلت في عباده) أي الطريقة التي عادته عز وجل لايخلقها لهم ولا فيهم ﴿ وأما الجواب ﴾ على سنن من قبلكم هل على العموم في جميع طرقهم أو على الخصوص احتمل لكن الظاهر العموم بدليل الحديث نفسه بقوله عليه السلام ﴿ حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه ﴾ وأما من خارج فقد جاءت أحاديث كثيرة تبين ذلك فان من طريق من تقدم إختلافهم كما أخبر بذلك صلى الله عليه وسلم في أمته وهو قوله صلى الله عليه وسلم « افترقت بنوا اسرائيل على إثنين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاثة وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » ومنها أنهم بدلوا الأحكام وقد أخبر صلي الله عليه وسلم بذلك في أمته حيث قال صلى الله عليه وسلم ويعود الحكم مغرما وقال عليه السلام « تحل عرى الاسلام عروة عروة كلما حلوا عروة تشبثوا بالتي تليها فأول عروة تحلونها الأحكام وآخر عروة تحلونها الصلاة »

أو قال ومنها التحاسد بينهم وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك فى أمته بقوله عليه السلام « يأتى فى آخر الزمان أقوام أصدقاء العلانية أعداء السريرة » وما كان فيهم من نقص الكيل والربا عمن قوم لوط والكذب والمناكر فقد ظهرت فى هذه الأمة وما كان من التكالب على الدنيا والفساد فى الأرض فقد ظهر أيضا وما كان فيهم من الارتداد بعد الهدى قد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه سيكون فى هذه الأمة وهو قوله عليه السلام عند ذكر الفتن يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا أو يمسى كافرا ويصبح مؤمنا يبيع دينه بعرض من الدنيا ولو لم يكن فيهم إلا ردة الدجال لكانت كافية وهى واقعة حقا وكل ما كان فيهم مما يشبه هذا إذا تتبعتها تراها قد ظهرت وقد أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم فهى مستظهرة لا محالة أعاذنا الله من الجميع بجاهه عند الله صلى الله عليه وسلم . ما كان من المسخ فيهم فقد أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أنه فى هذه الأمة إلا أنه فى القلوب فببركته صلى الله عليه وسلم أنه ستر على أمته تشوه الصورة الظاهرة وبقى فى القلوب كما أخبر به عليه السلام فترى الشخص صورته باقية وهو قد مسخ قلبه صورة كلب وهم الشرط والجنادرة وشبهم تراهم طول يومهم يروعون الناس ويعيطون فى وجوههم ومنهم من يمسخ قلبه صورة خنزير وهم أهل القذارة والبلادة فهكذا تتبع بنظرك صفة كل شخص فى خلقه تستدل بذلك على مسخ قلبه ماهو وقد يبقى متحيرا لا مسخ فى قلبه إلا أن قلبه قد مات وقد أخبر بذلك الصادق صلى الله عليه وسلم بأنه يأتى زمان يموت فيه قلب المرء كما يموت بدنه أو كما قال عليه السلام لأن القلب إذا لم تبق فيه تلك الحرارة الغريزية حتى يفقه مصالحه فهو ميت وقد يكون موته حقيقيا والله أعلم والقدرة صالحة أن يكون حسيا أو يكون معنويا فانه إذا لم ينتفع بقلبه فى النوع الذى أريد منه وتوالت عليه الشهوات حتى لا يرى إلا هى فذلك موت لأن الفائدة التى فى حياة القلب معدومة عنده ولذلك شبه ﷺ الذاكر لربه بالحى والغافل بالميت واحتمل أن يكون موته حسيا كيف شاء القادر سبحانه وتعالى كما ييبس عضو من أعضاء الشخص مثل يده أو رجله أو غيرهما من الجوارح وباقى بدنه صحيح القدرة صالحة ومن سنن من قبلنا أنهم بدلوا بعض كتبهم كما أخبر الله عز وجل عنهم لقوله تعالى (يحرفون الكلم من بعد مواضعه وقد أخبر عز وجل عن هذه الأمة بمثل هذا فى قوله تعالى فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) والآى والأحاديث فى هذا كثيرة فيكون فائدة الاخبار بهذا الحديث التحرز عن مثل هذا نصحا منه صلى الله عليه وسلم لأمته واختصارا فى اللفظ وإبلاغا فى الانذار لأن الآى والأحاديث فى هذا كثيرة كما قدمنا وكثير من الناس لا يعرفها وإن عرفها لا يقدر أن يحصيها فجاء هذا الحديث من إبداع البلاغة وفى الانذار والتحريز عن كل ما تضمنته الآى والأحاديث فجزاه الله عنا أفضل ما جازى نبيا عن أمته وجعلنا من صالحى أمته بمنه وأما قوله عليه السلام (شبرا بشبر وذراعا بذراع) فمعناه أنكم لا تتركون منها شيئا إلا نعانده وزيادة بيان كما ذكرناه آنفا وكذلك قوله

عليه السلام حتى لو سلكوا جحر ضب مبالغة فى الاتباع

وفيه دليل: على الاخبار بالعام والمراد به الخاص يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿لتتبعن سنن الذين من قبلكم﴾ وهو عام ولم يرد من قبلنا إلا قوما مخصوصين وهم اليهود والنصارى

وفيه دليل: على مراجعة العالم إذا بقى فى كلامه على السامع احتمال يؤخذ ذلك من قول الصحابة رضى الله عنهم له صلى الله عليه وسلم اليهود والنصارى سؤال استرشاد وتثبت فان حسن السؤال نصف العلم فاستفهموا لزوال الاحتمال

وفيه دليل: على جواز مخاطبة البعض بلفظ الكل يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام لتتبعن سنن الذين من قبلكم وهو عليه السلام يخاطب الحاضرين وهم البعض من أمته وخطابه عليه السلام لجميع الأمة

وفيه دليل: على جواز أن يضاف للشخص ما يفعله من هو مشترك معه فى وصف ما من الأوصاف وإن كان المخاطب ليس فيه من ذلك الفعل شيئا يؤخذ ذلك من خطابه صلى الله عليه وسلم لهؤلاء السادة وهم بالقطع ليس فيهم من هذه الأوصاف التى ظهرت بعدهم ولا من التى لم تظهر لنا بعد شىء فلما كان اسم الأمة يقع عليهم خاطبهم بذلك من أجل متضمن الاسم

وفيه دليل: على أن من حسن الكلام والاختصار فى اللفظ إذا فهم المعنى يؤخذ ذلك من جوابه صلى الله عليه وسلم لهم حين قالوا اليهود والنصارى قال فمن ولم يزد على ذلك شيئا لأنهم فهموا بهذه الاشارة أنه عليه الصلاة والسلام لم يرد غيرهم واختصر بهما طول الكلام والتطويل وفى ذلك من الحسن كل بديع

وفيه دليل: على التحذير عن حال المجاهرين بالمناكر وليس ذكرهم بذلك على هذا الوجه بعينه يؤخذ ذلك من تحذيره عليه السلام عن عيوب أهل الكتاب وفيهم من المسلمين المتبعين بمقتضى شرعهم كثير فلما أظهروا المناكر لم يكن ذكرهم بها والتحذير عنها غيبة ومما يؤيد ذلك ويقويه قوله عليه السلام لاغيبة فى فاسق

وفيه دليل: على كثرة شين المعاصى يؤخذ ذلك من سوء الثناء عليهم وتحذيره صلى الله عليه وسلم عنهم وعن طريقهم بعد موتهم فشؤم المعصية أورثنا سوء الثناء كما أن بركة الطاعة أورثت حسن الثناء فى الحياة وبعد الموت ولذلك قال أهل الخير وإن ماتوا أحياء بين الأنام فان كرهم بحسن الثناء أحى لتلك الرمم يحبهم قلبى والدعاء لهم فى كل حين حسن

(١٩١) ﴿حديث النهى عن دخول بلد بها طاعون وعن الفرار منه﴾

عَنْ أُسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطَّاعُونُ رِجْسٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْعَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ

ظاهر الحديث الاخبار أن الطاعون رجس أرسل على طائفة من بنى إسرائيل ثم بعد ذلك يدل على حكمين أحدهما من سمع أن الطاعون بأرض فلا يدخلها والآخر النهى لمن كان بأرض ووقع الطاعون بها فلا يخرج فرارا منه والكلام عليه من وجوه

منها قوله ﴿على بنى اسرائل أو على من كان قبلكم﴾ الشك هنا من الراوى فى أيهما قال سيدنا صلى الله عليه وسلم وهذا دال على تحريهم فى النقل وصدقهم قوله رجس أى عذاب ﴿وهنا بحث﴾ فى قوله عليه السلام فلا تقدموا عليه ولا تخرجوا فرارا منه هل هو تعبد لا يعقل له معنى أو له وجه من الحكمة يعقل أما قوله فلا تقدموا عليه فوجه الحكمة فيه قد نبه الكتاب العزيز عليها بقوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فان الدخول إلى موضع النقم تعرض للهلكة فليجزع من ذلك والتأدب بأب الحكمة وهذا تنبيه منه صلى الله عليه وسلم من أجل أن يأتى أحد ويستعمل هنا متضمن قوله تعالى (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) فمنع عليه السلام أن يعارض هنا متضمن الحكمة وهو الفرار من المهالك بالقدر فانه من باب التجربة والعبودية لا تجرب الموالية ومثل ذلك قال عيسى عليه السلام حين لقيه اللعين وهو فى سياحته على قنة جبل فقال له اللعين ترد من قنة هذا الجبل وما عليك لأنك تقول لن يصيبك إلا ما كتب الله لك فقال له عيسى عليه السلام إن المولى يجرب عبده وليس العبد يجرب مولاه ﴿ويترتب على هذا من الفقه﴾ التزام الأدب مع الربوبية واستعمال الحكمة حيث أمر بها واستعمال القدر حيث أمر به وفى هذا دليل لأهل السنة فان هذه طريقهم خلافا للقدرية والجبرية ولا يعارض أحوال القوم الذى عملوا على أن لا يلتفتوا فى مواضع المهالك إلى شىء من الأشياء ونجوا منها ولم تضرهم فان الانفصال عنه أنهم لم يفعلوا ذلك إلا بغلبة الحال الذى ورد عليهم حتى لم يروا فى الوجود إلا صاحب الوجود والحال حامل لا محمول ولهم فى ذلك الاقتداء بسيدنا صلى الله عليه وسلم حيث قال عليه السلام « فر من المجزوم كما تفر من الأسد » ثم أكل صلى الله عليه وسلم مع المجزوم فى صحفة واحدة وقال « بسم الله لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » فالأمر الأول سنته صلى الله عليه وسلم والفعل بعده طريقته صلى الله عليه وسلم فمن كان له حال صادق فهو متبع له عليه السلام فى طريقته ومن لم يكن له حال صادق فليتبع سنته عليه السلام ولا يدخل فى اتباعه فى حاله

لأنه عرى عن الوصف الذى هو شرط فيها فيكون ألقى بيده إلى التهلكة لأنه أتى الشىء من غير وجهه ألا ترى إلى قوله عز وجل و تزودوا ثم قال (فان خير الزاد التقوى) فاذا كان معك خير الزاد سر حيث شئت وإن لم يكن معك منه شىء يكفيك فلا تتحرك إلا بالزاد المحسوس المبلغ على العادة فى ذلك وإلا كنت عاصيا

وفيه دليل : على الأخذ بسد الذريعة الذى تدل عليه قواعد الشريعة فى غير ما موضع ويترتب عليه من الفقه أنك إذا أردت أن تقدم على موضع أن تسأل أولا عن أخباره حتى تعلم على ماذا تقدم هل يجوز لك الاقدام عليه أم لا لأنه قد يكون بالقرب منه من حيث أن يكون بينك وبينه الميل أو الميلان فتسمع بمثل الطاعون فلا يجوز لك دخوله وقد يكون لك فى الرجوع بنفسك فى حالك أو دينك فتقع بين محذورين ويكون سبب ذلك تفريطك فى السؤال عن ذلك الموضع والمفرط نادم ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن يقال هل هذا النهى يقصر على الطاعون ليس إلا أو يتعدى ذلك بالعلة وهى حيث يعلم موضع ضرر لا يقدم عليه لا سيما إذا كان متحققا أو يكون غالبا فى الدين فالنظر يعطى تعديه من أجل وجود العلة كما عدوا بذلك أحكاما كثيرة ويقويه قوله تعالى (ولا تلقوا بايديكم إلى التهلكة) وهو لفظ عام وأما الحكمة فى قوله عليه السلام ﴿ وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ﴾ فهو إعلام بأن القدر إذا نفذ لا ينفع أثر الحكمة فيه ولا يرده فان الله عز وجل يقول (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أى أنه لا يرد وهو نافذ لا محالة فكما أمرنا قبل أن لا نعارض الحكمة بالقدر كما تقدم الكلام عليه أرشدنا هنا إلى أن لا نعارض القدر بأثر الحكمة وأن نلتزم الأدب فى الطريقين والتسليم لما اختاره من له الخلق والأمر سبحانه وتعالى ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » معناه التزموا فى كل وقت الأدب فيما أقمتم فيه بحسب ما شرع لكم ﴿ وفى هذا دليل ﴾ لطريق القوم الذين يقولون « اشغل وقتك بما وجب عليك فيه أو ندبت إليه ولا تلتفت إلى ما قبل ولا إلى ما بعد تفز بربح الدارين » أى بخيرهما

﴿ وفيه وجه آخر ﴾ من طريق النظر والتحقيق وهو أنه إذا أرسل ذلك العذاب على تلك البقعة التى كان الناس بها فالمقصود بالعذاب أولئك الناس لا البقعة نفسها فمن كان قد نفذ حكم الله تعالى فيه باصابة ذلك البلاء فأين مافر فأمر الله لا يفارقه حيث كان فهو به زيادة فى التعب وإن كان ممن لم يقدر عليه بشىء من ذلك فيحصل فى قعوده إذا كان صابرا محتسبا أجر شهيد كما ذكر فى الحديث بعد هذا وراحة بدنه وهو صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رحيم فلما علم ما أشرنا إليه أرشدهم إلى ما فيه نفعهم وهو قعودهم حيث كانوا

وفيه دليل: على تحقيق نصحه عليه الصلاة والسلام ورفقه بأمته يؤخذ ذلك من قوله فرارا منه حتى يبقى الناس على تصرفهم الذى كانوا عليه قبل هذه النازلة بحسب مايقتضيه ماعهدوا من عادتهم فى مصالحهم وتصرفاتهم فى ذلك بقدر مايظهر لهم فيه فانه لولم يرد النهى بهذه الصفة لكان الناس إذا وقع لهم ذلك الأمر زادتهم الشدة لمنعهم من تصرفهم فى منافعهم على عادتهم قبل

وفيه دليل: لمذهب مالك فى الذى يكون له مال تجب فيه الزكاة فيتصرف فيه قبل الحول تصرفا ينقله به عن الحالة التى تجب فيه الزكاة إن كان ذلك التصرف خوفا من الزكاة لاينفعه وتؤخذ منه الزكاة وإن كان لمصلحة فى ماله سقطت عنه الزكاة ومثاله أن يكون له نصاب من المال فاذا قرب الحول اشترى به عرضا أو حيوانا مما تسقط الزكاة بعينه فان كان فعل ذلك هروبا من الزكاة أوخذ بالزكاة عند حلول حول النصاب وإن كان ذلك لمصلحة ظهرت له ولم يقصد الهروب من الزكاة عومل بحسب مايقتضيه حال وقته من تأخير الزكاة أو غير ذلك على حسب ماهو مذكور فى كتب الفروع

وفيه دليل على أن الأصل فى الأعمال بحسب النية فيها يؤخذ ذلك من كون الخروج الذى ليس بنية الهروب مما نزل لم ينه عنه والذى هو بنية الهروب نهى عنه ويؤيد ذلك قوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» وبقى (هنا بحث) وهو أنه عليه السلام قد نهانا أن نتسبب فى دفع ماقدر بالخروج وأمرنا بالتسبب فى دفع البلاء بأسباب الطاعات وهو قوله «ادفعوا البلاء بالصدقة» وقوله جل جلاله (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) فدل أنهم لو تسببوا بالدعاء والضراعة عند نزول البلاء لرفع عنهم والجمع بينهم بقوله عليه السلام «لاينال ماعند الله إلا بطاعة الله» وماعند الله للعبيد اما خير يطلبونه منه أو شر يدفعه عنهم فلا ينال واحد منهما إلا بطاعته عز وجل فان التسبب فى ذلك بغيرهما لاينفع ويؤيد ذلك قوله تعالى (ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين) أى ان أردتم الخير والسلامة من الشر ففروا إلى والفرار إلى الله سبحانه وتعالى إنما هو بامتثال أمره واجتناب نهيه ولذلك قال

مالى سواك عدة فكن لى إن لم تكن لى رب من يكن لى وقال

بالطاعات تحصن إن كنت لبيبا وبالله فثق إن كنت منيبا

وعلى الله فتوكل يكن لك حسيبا

(١٩٢) ﴿حديث من مكث ببلده ولم يفر من الطاعون فله أجر شهيد﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الطَّاعُونِ فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ عَذَابٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام الأول أن الطاعون عذاب يصيب الله به من يشاء الثانى أنه رحمة للمؤمنين وإن كان فى نفسه بلاء لكن بما يترتب عليه للمؤمن من الرحمة إذا أرسل عليه عاد الأمر رحمة لأن الحكم للعاقبة ولذلك « إذا كان يوم القيامة يؤتى بأكثر الناس بلاء فى الدنيا فيغمس فى النعيم غمسة فيقال له هل رأيت بؤسا قط فيقول لم أر بؤسا قط» ولذلك لما نظر أهل العقول والسلوك إلى عواقب الأمور هانت عليهم أنفسهم وحلا لهم ماحملوه من التعب والمجاهدات عرفوا فصبروا فربحوا هناهم من أعطاهم والحق فى الخير العاجز مناماجاراهم وحباه وأدناه لارب سواه والوجه الثالث الاخبار بأنه ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث فى بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال مامعنى قوله ﴿صابرا محتسبا﴾ فمعناه أن يوطن نفسه على الصبر على ذلك البلاء إن لحقه منه شىء ومعنى محتسبا يحتسب نفسه على الله تعالى ومع ذلك يكون موقنا بأن لا يصيبه من ذلك إلا ما كتب عليه وإن كان لم يكتب عليه منه شىء فلا يصيبه منه شىء ويترتب على ذلك من الفقه وجوه

﴿ منها ﴾ أن الأسباب وإن ظهر لها تأثير أنها تضر ولا تنفع إلا بحسب ماسبق فى علم الله تعالى من نفى أو إثبات ﴿ ومنها ﴾ العلم بأن كل كائنة تقع فى الوجود من خير أو شر دقت أو جلت عمت أو خصت أنها فى كتاب مسطور ومما يقويه قوله عز وجل (ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) فتكون فائدة تلك قوة الايمان وهو أعلى المراتب وعدم الفزع من الحوادث فانه لا يندفع به ما يلحقه منه ﴿ ومنها ﴾ الصبر على ذلك وهو مأجور عليه لقوله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ﴿ ومنها ﴾ مايحصل من الثناء الجميل عليه وربما يهون عليه الأمر أكثر ما يكون على غيره ﴿ وفيه بحث ﴾ وهو أن يقال لم قال فى هذا الحديث «أنه بلاء يرسله الله على من يشاء» وقال فى الذى قبله «إنه أرسل على من كان قبلكم» ﴿ فالجواب ﴾ إن فائدة الحديث الذى قبل فى المعنى التسلى والتأنيس لأنه باخباره عليه السلام أنه أرسل على من كان قبل ذهب من القلوب خوف عظيم وهو أن يكونوا هم قد خصوا بهذا البلاء العظيم فيكونون يخافون أنهم ممن غضب عليهم ولعله يؤول إلى الخسارة الدائمة فلما علموا أنهم لم يكونوا مخصوصين وقد تقدم لغيرهم ذهب ذلك الخوف العظيم وبقى من جملة بلايا الدنيا يصيب به من يشاء وهذا الحديث الذى نحن بسبيله فيه وجوه من البشارة ﴿ الأول ﴾ أنه من أصابه منه شىء من هذه الأمة فهو رحمة له فيهون عليه مايحمله منه لما يرجوا فيه من رحمة الله تعالى ولذلك ذكر عن سعد رضى الله عنه أنه مات بالطاعون فكان إذا اشتد عليه يغمى عليه فاذا أفاق يقول اللهم اشدد على خنقك فانك تعلم أن قلبى يحبك هكذا حتى قضى رحمه الله ﴿ والوجه الثانى ﴾ الاعلام بتفضيل هذه الأمة على من

تقدمها يؤخذ ذلك من أن الطاعون كان لمن قبلهم بلاء وهو لهم رحمة (والوجه الثالث) وهو أن الذى يصيبه الله به من هذه الأمة ليس من أجل ذنب وقع منه يؤخذ ذلك من قوله يصيب به من يشاء لا عن شيء يوجب إرساله عليه بل بتخصيص المخصص له بذلك فيدخل به فى قوله صلى الله وسلم «إن من أمتى لمن يساق إلى الجنة بسلاسل» وهم أهل المصائب فى الدنيا من الله علينا بدار كرامته بلا محنة بفضله (وفيه إرشاد) إلى التأدب مع القدرة وهو أن لا يتحكم عليها بتفضيل العباد عندها من أجل مايرى عليهم من النعمة ولا لتحقير العباد عندها بما يرى عليهم من النقمة يؤخذ ذلك من جعل هذا البلاء العظيم رحمة فمن باب أولى ما هو أقل منه وقد أثنى الله عز وجل على أهل البلاء وعلى أهل النعماء إذ اوفى كل واحد منهما ما أمر به فقال فى أهل البلاء (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) وقال عز وجل فى أهل النعماء (لئن شكرتم لأزيدنكم) وقال (اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور) وذم عز وجل من رجح الحالة الحسنة عنده من أجل إظهار نعمائه وذم ضدها بقوله تعالى (فأما الانسان إذا ما ابتليه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتليه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن)

وفيه دليل: على أن كثرة الأجور فى الأعمال إنما هى بقدرة قوة اليقين والايمان يؤخذ ذلك من أنه عليه السلام أول الحديث جعله رحمة ثم قال فى آخره (صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد) فالزيادة التى بين الدرجتين إنما هى من أجل قوة الايمان الذى وصل به إلى أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له يشهد لذلك قوله عليه السلام «مافضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر فى صدره» (وهنا بحث) وهو أن يقال لم قال مثل أجر شهيد ولم يقل له شهادة فان الشهادة ما أعظم قدرها إلا من أجل ما نال صاحبها من الأجر والشهادة أمر آخر زائد على الأجر فظاهر الأمر أن الشهادة شيئان كثرة الأجر وأمور أخر زوائد على ذلك منها أنهم لا يحاسبون وإنما يقومون من قبورهم إلى قصورهم ومنها أنهم يشفعون فى غيرهم وأشياء من أنواع الاكرام عديدة وقد جاء أن الطاعون شهادة إلا أنه إذا وقع بشخص وهو على الحالة المتقدم ذكرها من الصبر والاحتساب فيكون الجمع بينهما بأنه من صبر واحتسب ولم يصبه منه شيء كان له مثل أجر شهيد فان أصابه منه شيء وهو صابر محتسب كان شهيدا والله أعلم كما جاء أنه من طلب الشهادة من الله تعالى صادقا ولم يقض له بها أنه يكون له أجر شهيد فليس وقوع الحال كتمنيه بينهما درجة (وهنا بحث) وهو أن يقال فى قوله له (مثل أجر شهيد) هل ذلك تفضل من المولى سبحانه وتعالى على العبيد لا يعقل له معنى من الحكمة أو بينهما مناسبة من جهة الحكمة أما النسبة التى بينهما من أجل الحكمة فظاهرة وهى أن الذى يخرج للجهاد إنما فعل فعلا شأنه إذهاب النفوس

والسلامة فيه إنما هى بالقدرة التى لايغلبها غالب وهو يخرج لذلك الأمر صابرا محتسبا موقنا أنه لايصيبه إلا ما كتب الله عليه فأشبه الذى يجلس فى بلده بعد وقوع الطاعون محتسبا يعلم أنه لايصيبه إلا ما كتب الله له فان الطاعون أمر معه الموت لمن أصابه لامحالة ولا ينجو منه إلا بالقدرة التى ليس لها مثال فالشبه واقع والأجر فى الوجهين جميعا بمجرد الفضل لكن لاتنظر حكمة الحكيم الذى «ليس كمثله شىء» إلا بعد وقوع الفعل وإثبات الحكم فيه منه وإلا القياس هناك ممنوع

وهنا دليل : على أن الحق فى الأمور الطريق الوسط حال بين حالين وأصله التأدب وعدم الاعتراض يؤخذ ذلك مما تقدم فى هذا الحديث وغيره فتارة يؤمر بالنظر والتدبير وحمل الأمور على ماجرت به العادة غالبا وتارة يؤمر بالتسليم وعدم الالتفات إلى شىء من الأشياء إلا مجرد التسليم وعبودية محضة فالذين أرادوا أن يحملوا الأمر على طريق واحد ويتسلطوا بعقولهم عليها فى غاية الحمق والجهل لأنه من«ليس كمثله شىء» كذلك حكمته ليس مثلها حكمة حكيم ولانسبة بينهما لكن شأن ما أخذ به أهل السنة وهو الوقوف مع الأمر والنهى على ماهو بلا اعتراض ولازيادة ولانقص وهو الذى يعطيه طريق العقل لمن حققه جعلنا الله منهم بلامحنة بمنه وكرمه

(١٩٣) ﴿حديث تحرم الشفاعة فى حدمن حدود الله تعالى﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهاَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِىءُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَشْفَعُ فِى حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَأَيْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا

ظاهر الحديث يدل على منع الشفاعة فى حد من حدود الله تعالى والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أنه ينبغى أن يختار فى الشفاعة من له إدلال على الذى يشفع عنده وحرمة يؤخذ ذلك من قولهم من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرجعوا جميعهم إلا من كان أكثرهم إدلالا عليه صلى الله عليه وسلم وله عنده حرمة وهو اسامة بن زيد لأنه كان ابن مولاه عليه السلام وبالقطع أن أبا بكر وعمر وجميع الخلفاء وأعمامه عليه السلام أرفع عنده من أسامة بن زيد وأكثر حرمة لكن الادلال له خصوصية أخرى

وفيه دليل : على أن الخديم أكثر ادلالا على مخدومه من غيره وله حرمة الخدمة أيضا ولذلك

كان أهل الصوفة أكثر إدلالا لدوام خدمتهم وكثرة وقوفهم بالباب ومن هناك الربح الحقيقى «وقد روى عن بعضهم أنه كل ليلة كان يأتى باب الملك الذى كان فى بلده مقيما وكان من عادة ذلك الملك أن كل من يخدم له وجه من وجوه مصالحه وضرورياته يأتى بابه ويدفع له خازنه أجرته يوما بيوم على قدر عمله فكان ذلك السيد يأتى خازن الملك كل ليلة مع اؤلئك الخدم فيقول له أعطنى أجرتى فيقول له الخازن لو خدمت كنت تأخذ كما يأخذ من خدم فيقول له فما يأخذ الأجرة إلا من يخدم فيقول له بذلك أمرت فيقول لنفسه اسمعى من يخدم يأخذ ومن لا يخدم لا يأخذ فان خدمت أخذت وإلا يأخذ غيرك ولا تأخذى أنت شيئا فكان يؤدب نفسه كل ليلة بهذا ويحملها على دوام الخدمة وفهموا فافهموا وعرفوا فعرفوا»

وفيه دليل : على أن ترك الحدود سبب الهلاك يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه»

وفيه دليل: على أنه لا يكون المأمور مطيعا لأمره حتى يوفى جميع ما به أمر وإن ترك البعض وفعل البعض سمى عاصيا واستحق العقاب يؤخذ ذلك من إخباره عليه السلام أن من كان قبلنا كانوا يقيمون بعض الحدود فانهم إذا سرق عندهم الضعيف أقاموا الحد فتراهم فعلوا بعض ما به أمروا فلما لم يقيموه على الغنى أسقطوا بعضه فوقع العقاب عليهم فأهلكوا

وفيه دليل : على أن الحدود على جميع الناس كلهم على حد سواء يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»

وفيه دليل : على فضل فاطمة على غيرها من أهل البيت يؤخذ ذلك من أنه عليه السلام لم يذكر اسمها فى التمثيل إلا على وجه الترفيع ولو كان فيهم رضى الله عنهم أرفع لذكره يشهد لذلك قوله عليه السلام فى حقها «فاطمة بضعة منى» وهذا لم يخص به غيرها

وفيه دليل : على أن القدر جار على الرفيع والوضيع يؤخذ ذلك من أنه عليه السلام أخبر عن من كان قبلنا إن ذلك كان فيهم فى الشريف والضعيف وهذا أيضا متعارف إلى هلم جرا أن المعاصى يجرى القدر بها على من شاء من رفيع ووضيع

وفيه دليل : على أن وجوب الحكم فى الشىء يسقطه عن ضده يؤخذ ذلك من أن الهلاك فيمن تقدم كان بتركهم الحدود فبتوفيتها تكون النجاة وقد جاء ذلك صريحا فى الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) والآى فى هذا كثيرة وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم «لأن يقام حد من حدود الله تعالى فى بقعة خير لهم من أن تمطر عليهم السماء ثلاثين يوما» ومن طريق آخر أربعين يوما والآثار فيه كثيرة أيضا

وفيه دليل : على هيبة النبي صلى الله عليه وسلم عند الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وكثرة حيائهم منه يؤخذ ذلك من قولهم ﴿ ومن يجترىء عليه ﴾ وقد روى عنهم رضوان الله عليهم أنهم كانوا يتمنون أن يسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فلا يقدرون على ذلك مع كثرة تواضعه صلى الله عليه وسلم لهم ورحمته بهم حتى كانوا يتمنون أن يجيء من البادية من يسأله فيسمعون جوابه عليه السلام للسائل

﴿ وفي هذا دليل ﴾ على قوة إيمانهم وكثرة تقواهم رضى الله عنهم لأن الله عز وجل يقول ذلك (ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) وأى شعائر أعظم من إكرامه صلى الله عليه وسلم وترفيعه

وفيه دليل : على جواز القسم من السيد لمن هو دونه تأكيدا فى التصديق فان كان صادقا فى نفسه فانه لا يقطع بالصدق قسمه إلا من هو صادق فى قوله حسن فى حاله يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ﴾

وفيه دليل : على أن حكاية حال المعصية أن لو كانت تقع ممن ليس لها أهلا ويسمى باسمه إن ذلك ليس بنقص فيه ولا يلحقه منه شؤم ولا معرة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ﴾ فلو كان فى ذلك شيء مما ذكرنا أو مما يشبهه لم يقله صلى الله عليه وسلم فى أحد من الخلق فكيف فى هذه السيدة التى قال عليه السلام فى فضلها « يريبنى ما رابها »

وفيه دليل : على أن تعليقك فعلا يؤلم شخصا بشرط أن يقع منه موجب له ليس بقبيح ولا فيه تغيير للنفوس يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ﴾ لأن قطع اليد مما يؤلم لكن لما جعل الشرط فيه وقوع شيء من الشخص يوجبه له وهى السرقة لم يضره ذلك ولا يشوش عليه وإنما التشويش بالحقيقة المخالفة إذا وقعت ولذلك قال لا تبكين لوقوع ذنبك وإنما يبكيك موجبه وعليه فاندم

(١٩٤) ﴿ حديث عاقبة من يجر ثوبه خيلاء ﴾

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخُيَلَاءِ خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

ظاهر الحديث الاخبار بخسف الذى جر إزاره خيلاء وأنه فى جوف الأرض لا يستقر له قرار إلى يوم القيامة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال ما الفائدة لنا بالاخبار بحاله فيه وجوه

﴿ منها ﴾ التحذير عن ارتكاب هذا الأمر الخطر ﴿ ومنها ﴾ بيان فضل هذه الأمة على من

تقدم يؤخذ ذلك من أن من تقدم كانوا إذا وقعوا فى الذنوب لم يؤخر لهم عقاب مثل مافعل بهذا والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة وكان إذ الأذنب أحد منهم ذنبا أصبح على باب داره تسمية الذنب الذى فعله وماهو المخرج منه وهذا جزاء عظيم وقد من الله بفضله على هذه الأمة ببركة نبيها صلى الله عليه وسلم أن عافاهم من هاتين الخصلتين أما الكتب فما وقع منه فى هذه الأمة شيء وأما الخسف فعوفوا منه إلا قليل من بعض المتمردين فى بعض الأزمان وذلك نصرة للدين وقد قال صلى الله عليه وسلم فى شأن جر الازار خيلاء « من جر إزاره خيلاء لاينظر الله إليه يوم القيامة »

وفيه دليل : على عظيم قدرة الله تعالى وأنها لاتجرى إلا على قياس يؤخذ ذلك من كون الذى خسف به لايستقر له قرار إلى يوم القيامة وهذا الزمان وطوله فى مقدار الأرض وهو خمسمائة عام

وفيه دليل : على حسن طريق القوم يؤخذ ذلك من أن كبر نفس هذا الشقى هو الذى رمى به إلى هذا الأمر العظيم وأهل الطريق قد عملوا على ذلها وهوانها لأن ضد المذموم هو مشكور فلما ذم الله تعالى كبر النفس وجعل من أجل ذلك لصاحب الخيلاء هذا العقاب الأليم فضد ذلك محمود عنده وقد نص الشارع صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله « أوحى إلى أن تتواضعوا ولا يفخر بعضكم على بعض » وقال عليه السلام « المؤمن هين لين » وقال عليه السلام « ألا أخبركم بمن تحرم النار عليه تحرم النار على كل قريب هين سهل » والأخبار فى هذا كثيرة

وفى هذا دليل : على أن هذا الذنب من أكبر الذنوب يؤخذ ذلك من أنه إذا كان يفعل به هذا الأمر العظيم حتى إلى يوم القيامة كيف يكون حاله يوم القيامة لاتقدره العقول من شدته ولا توهمه الأذهان وكذا قال

بالفقر فاستغن تكن لبيبا وبالتواضع فارتفع تكن حسيبا
وبالتقوى فتزود تكن حبيبا وبالله فاستعن تكن نجيبا

١٩٥ ﴿ حديث اختياره صلى الله عليه وسلم بأيسر الامور ﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَالَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ

ظاهر الحديث أخذه عليه السلام بأيسر الأمرين إذا خير بينهما وبعده عليه السلام من الاثم وهل هذا التخير على عمومه أعنى تفضيله عليه السلام الا يسر من الأمرين أم لا ﴿ والجواب ﴾ أن أخذه عليه السلام الايسر من الأمرين إذا خير على العموم موجود بما استقرى من سنته عليه السلام ويحتاج إلى تقسيم لأنه لايخلوا أن يكون مايخير فيه من أمور الدنيا أو أمور الآخرة فان كان من أمور الدنيا فاللفظ على عمومه فماخير صلى الله عليه وسلم بين شيئين من أمور الدنيا إلا أخذ

أيسرهما وكفى فى ذلك أن خير صلى الله عليه وسلم أن يكون ملكا نبيا ويكون له مثل جبال تهامة فضة وذهبا تسير معه حيث سار أو يكون نبيا عبدا فاختار عليه السلام أن يكون نبيا عبدا فقال «أجوع يوما فأضرع وأشبع يوما فأشكر» وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه أوتى يوما بثوب يلبسه فطالت كماه على يديه الكريمتين فأخذ يقطعهما فلم يجد فى الوقت إلا سكينا فجمعهما وقطعهما بالسكين ولم يكلف أحدا أن يأتيه بمقص وبقى دور الأكمام داخلات وخارجات وربما تساقطت الخيوط من بعضها ولم يعد لها بعد ولا عمل لها عطفا حتى تقطع الثوب وهو على ذلك الحال وأما أمر الآخرة فما كان يختار فيه فيما يخصه عليه السلام إلا الأرفع والأقرب إلى الله تعالى كما فعل عليه السلام فى تعبده الذى قام حتى تورمت قدماه فقيل له يارسول الله تفعل ذلك والله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال ﷺ «أفلا أكون عبدا شكورا» وإذا كان الأمر فى حق أمته أخذ عليه السلام لهم ما هو الأيسر والأقرب رحمة بهم كما فعل صلى الله عليه وسلم فى قيام رمضان حين كثر الناس فقاموا معه فجعل يتخلف ثم قال لهم «إنما تخلفت لئلا يكتب عليكم فلا تطيقون» أو كما قال عليه السلام وكما فعل عليه السلام معهم فى شأن الوصال الذى كان ينهاهم عنه ويواصل عليه السلام حتى كان يربط على بطنه ثلاثة أحجار من شدة الجوع والمجاهدة فقيل له تنهانا عن الوصال وأنت تفعله فقال «إنى ليس كهيئتكم إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى» وكان عليه السلام يقول لهم «اكلفوا من العمل ما تطيقون فان الله لا يمل حتى تملوا» والأحاديث فى هذا الشأن كثيرة فعلى هذا فيكون عاما فيما كان من أمور الدنيا ويكون خاصا فيما كان من أمور الآخرة وقد يحتمل أن يكون عاما فى أمور الآخرة بوجه ما وهو مثل أن يخير بين عملين أحدهما يكون فى الوقت الوصول إليه قريب والذى الوصول إليه أبعد يكون أرفع فيختار الأيسر إعتناء منه عليه السلام للطاعة والمبادرة للخدمة وخوف الفوت أنه لا يدرك الذى هو أرفع فان أدركه لم يتركه كما كان أبو بكر رضى الله عنه يفعل فى وتره يقدمه أول الليل وقد صح من السنة أن الأفضل فى الوتر آخر الليل فكان أبو بكر رضى الله عنه فهم عن النبى صلى الله عليه وسلم هذا الذى أشرنا إليه فعمل عليه فأقره النبى ﷺ على ذلك وقال له أخذت بالحزم وهى المبادرة

﴿ وفى هذا إشارة ﴾ إلى طريق القوم الذين يقولون «الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك» معناه عندهم إذا لم تقطعه بالعمل قطعك بالتسويف والاشتغال بتعمير الوقت وترك الالتفات إلى الماضى والمستقبل فائدته ربح الدنيا والآخرة من الله علينا بفضله

وفيه دليل : على حسن فهم هذه السيدة لأنها فهمت مع صغر سنها من حقيقة طريقته عليه السلام ما فهم ابوها على كبر سنه ورفعته فى قوة إيمانه وصدقه حتى قال عنه صلى الله عليه وسلم «ما فضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشىء وقر فى صدره» فبحسن أصلها نجح فرع فهمها

﴿ وفيه من الفقه ﴾ أن كلام المرء عنوان على عقله وأفعاله دالة على تحقيق حاله ولذلك قال علي رضي الله عنه حين قيل له في كم تعلم حال الشخص فقال «إن تكلم فمن حينه وإن صمت فمن يومه» فمن اشتغل بتخليص صحة حسن حاله حسن فعله ومقاله

(١٩٦) ﴿ حديث معجزة النبي صلى الله عليه وسلم بشاة جابر وصاع شعيره ﴾

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمَصاً فَانْكَفَيْتُ إِلَى امْرَأَتِي فَقُلْتُ هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ فَإِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمَصاً شَدِيدًا فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَاباً فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِي وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِمَنْ مَعَهُ فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحَنَّا صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ فَصَاحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَاأَهْلَ الْخَنْدَقِ إِنَّ جَابِراً قَدْ صَنَعَ سُوراً فَحَيَّهَلاً بِكُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي فَقَالَتْ بِكَ وَبِكَ فَقُلْتُ قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِيناً فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ فِيهَا وَبَارَكَ ثُمَّ قَالَ ادْعِي خَابِزَةً فَتَخْبِزْ مَعَكِ وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا وَهُمْ أَلْفٌ فَأُقْسِمُ بِاللهِ لَأَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ

ظاهر الحديث يدل على تحقيق بركة النبي صلى الله عليه وسلم وعظم معجزته الذي أطعم عليه السلام من صاع شعير وداجن ألفا حتى شبعوا وانصرفوا وبقي اللحم كما كان لم ينقص منه شيء والعجين كذلك والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ كثرة تواضعه عليه السلام يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام كان يعمل في الخندق معهم بيده الكريمة كأنه واحد منهم ﴿ ومنها ﴾ أن من السنة التحصن من العدو بكل ممكن يؤخذ ذلك من حفرهم الخندق إحتياطا من أن يغلب العدو عليهم فيكون معهم بما يتحصنون منه

وفيه دليل: على أن من السنة التشمير للثياب لمن يخدم يؤخذ ذلك من أن جابر رآه عليه السلام خمص البطن ولولا التشمير ما رأى منه ذلك

وفيه دليل : على أن كشف البطن من ذوى الهيئات ليس بمكروه يؤخذ ذلك من رؤية جابر بطنه صلى الله عليه وسلم

وفيه دليل : لأهل الصوفة الذين يرون بالمجاهدة لأن البطن لا يكون خمصا إلا بها

وفيه دليل : على ماطبعه الله عليه صلى الله عليه وسلم من كمال الخلقة والقوة يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام كان خمصا شديدا وهو مع ذلك يخدم فى أشق الأشياء وهو حفر الخندق

وفيه دليل : على أن عمل الأسباب لايخل بمنصب أهل الفضل يؤخذ ذلك من خدمته صلى الله عليه وسلم فى الخندق

وفيه دليل : على عظيم صبره صلى الله عليه وسلم وسعة صدره المبارك يؤخذ ذلك من جمعه عليه السلام المجاهدة مع الخدمة مع تبليغ ما أمر به ومع دوام العبادة فبالليل قائم يصلى حتى تورمت قدماه وبالنهار فى الخدمة مع شدة المجاهدة ومع توفية التبليغ وحسن المسايسة لهم ولا يكون ذلك إلا مع الصبر العظيم والحمل الربانى

وفيه دليل : على ما كان الصحابة عليه رضوان الله عليهم من تقليل حطام الدنيا يؤخذ ذلك من كون جابر لم يعرف لنفسه شيئا حتى سأل عياله هل عندها شىء أم لا فلم يجد إلا صاعا من شعير

وفيه دليل : على عظيم فضلهم رضوان الله عليهم وكثرة إيثارهم يؤخذ ذلك من كونهم لم يكن لهم غير ذلك الصاع من الشعير والداجن فخرجوا عنه ولم يبق لهم شىء غيره فهم كما قال عز وجل (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

وفيه دليل : على كثرة حبهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من كونهم آثروه بكل ما ملكوا من الطعام الذى به يقوم حالهم ورضاهم بحمل المجاهدة به لأمته

وفيه دليل : على أن حبهم له عليه السلام تساوى فيه الرجال والنساء يؤخذ ذلك من إخبار جابر امرأته حين سألها هل عندك شىء وأخبرها بحال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكونه خمصا شديدا فلولا علم أنها مؤثرة لجنابه عليه السلام كما هو ما أخبرها بذلك فلو كان غير ذلك لكانت تخفى عنه ماعندها أو بعضه لكى تؤثر به أولادها فهم رضى الله عنهم فهموا قول مولانا جل جلاله (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فاتخذوها حالا فبذلك حصل لهم السبق وقوله (بهيمة داجن) الداجن هى التى تربى فى البيت

وفيه دليل : على تنافسهم فى الخدمة يؤخذ ذلك من قوله (ففزعت إلى عناقى) فدل ذلك على بذل كل واحد منهما جهده فى الشغل الذى أخذ فيه

وفيه : دليل على أن متاع البيت يضاف إلى المرأة لانها هى المتصرفة فيه وإن كان ملكا لصاحبه كما تقول سرج الدابة وليس لها فيه ملك فلما كان لا يستعمل إلا لها أضيف ملكه اليها يؤخذ ذلك من قوله ﴿فقطعتها فى برمتها﴾

وفيه دليل . على أن السنة أن يعمل فى الأمور على جرى العادة وإن كان الذى تعامله ممن له خرق العادات يؤخذ ذلك من قولها ﴿لا تفضحنى برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه﴾ لأن الجمع الذى كان معه كثير وطعامهم يسير والعادة الجارية أن الطعام اليسير ليس فيه كفاية للجمع الكثير وبالقطع أن سيدنا صلى الله عليه وسلم هو صاحب المعجزات وخرق العادات

وفيه دليل : على أن من السنة أن تخبر من تضيفه بمقدار ما أعددت له يؤخذ ذلك من إخبار جابر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمقدار طعامه الذى أعده وهو قوله ﴿ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعا من شعير كان عندنا﴾

وفيه دليل على جواز مناجاة الواحد دون الجماعة يؤخذ ذلك من قوله ﴿فساررته﴾ أى تكلمت معه سرا

وفيه دليل . على ان من الأدب عدم الحصر عند إعلام ذوى الفضل بمقدار الشيء الذى أباح لهم التصرف فيه هل يكون تصرفهم فيه على جرى العادة أو على خرقها يؤخذ ذلك من قوله لما أعلمه صلى الله عليه وسلم بقدر الطعام فقال ﴿فتعال انت ونفر معك﴾ والنفر يكون قليلا ويكون كثيرا فتأدب معه بعدم حصر عدد الذين يمشون معه

وفيه دليل : على جواز إضافة الصانع إلى صنعته يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿يا أهل الخندق﴾ لكونهم هم الذين صنعوه

وفيه دليل : على جواز رفع صوت ذوى الفضل بين إخوانهم وأصحابهم ليخبر جميعهم بالذى يريد يؤخذ ذلك من قوله فصاح النبى صلى الله عليه وسلم يا أهل الخندق وهم كما أخبر آخر الحديث ألف

وفيه دليل على أن صاحب المنزلة الرفيعة بحمله الثقة بمولاه عند الضرورة على أن يعمل على ما عوده سيده من خرق العادة له ينجده حيث لا أملا يؤخذ ذلك من أنه لما رأى النبى صلى الله عليه قلة طعام جابر وانكسار خاطره فى كونه أخبره سرا من أجل ان الطعام لا يكفى من كان هناك من كثرة الجمع عمل صلى الله عليه وسلم على جبر خاطره ثقة من مولاه أن يخرق له العادة فى تكثير الطعام حتى يجبر قلب جابر ويدخل السرور على جميع أهل الخندق بأكلهم كلهم معه صلى الله عليه وسلم فصاح بالجميع وأخبرهم بتفضيل الطعام بصيغة لفظه وادلال حاله يخبر بتكثيره فصدقه صلى الله عليه وسلم بالمقال والحال لانه كنى عن الطعام بالسؤر والسؤر من الطعام والشراب هو ما بقى منه فى الاناء وصدقه فى الحال لأنهم شبعوا وبقى الطعام على حاله وتلك حقيقة الكثرة فى الطعام

ومن هنا أخذ أهل المعاملات مع الله على طريق السنة إذا كانوا عند الضرورة تخرق لهم العادات ببركة نبيهم صلى الله عليه وسلم لأنهم يقولون كل كرامة للولى فانها معجزة من معجزات نبيه لأن بحسن اتباعه له عادت عليه تلك البركة وذكروا رضى الله عنهم أنه من أجرى الله تعالى له خرق عادة فى شىء من الأشياء إن ذلك لسان العلم فى حقه ولا ينبغى له أن يعدل عن ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم « من رزق من باب فاليلتزمه » فالتزامه ذلك الحال من أدب العبودية

وفيه دليل على الاجابة للدعوة للطعام إذا كان ابتغاء وجه الله تعالى يؤخذ ذلك من إجابة سيدنا صلى الله عليه وسلم جابرا لأنه ما يكون للنبي صلى الله عليه وسلم إلا ما يراد به وجه الله

وفيه دليل على فصاحته صلى الله عليه وسلم وعذوبة لفظ يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فحيهلا بكم ﴾ لما فيها من البلاغة والاختصار وقوله عليه السلام ﴿ لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجىء ﴾ (هنا اشارة) بأن أوائل الأمور هى أنجح فى إظهار البركة مثل ما فعل عليه السلام فى عين تبوك الذى أوصى أن لا يتناول أحد منها شيئا حتى يأتى فلما سبق ذلك الشخصان ولم يعلما بمقالته انتهرهما وسبهما لأنهما عدلا عن مقتضى الحكمة ثم أن بركته عليه السلام عادت عليه

وفيه دليل على أن من السنة أن السيد يقدم قومه يؤخذ ذلك من قوله ﴿ يقدم الناس ﴾ فياله من سيد ويا ليهم من ناس فياليت وجنتى تراب لأقدامه وأقدامهم لعل ذا سقمى يشفى بحسيس آثارهم

وفيه دليل على أن من حسن الصحبة إخبار العيال بما جرى وجواز عتب العيال بعلها لكن ذلك يكون بأدب دون سب لأنه يفضى إلى التوادد وحسن الصحبة وذلك من الايمان يؤخذ ذلك من قوله ﴿ فجئت امرأتى فقالت بك وبك ﴾ معناه فأخبرتها بمجىء النبى صلى الله عليه وسلم وأهل الخندق معه فعتبته على ذلك بقولها بك وبك لأن هذا كناية عن العتب ولم يقل صيغة اللفظ الذى به عتبته وهذا من حسن سجاياهم

وفيه دليل على جواز استعطاف الرجل عياله يؤخذ ذلك من قوله ﴿ قد فعلت الذى قلت ﴾ يعنى لم أخالفك فيما به أشرت وإنما هذا أمر آخر من النبي صلى الله عليه وسلم فرضيت هى آخرا كما رضى هو أولا وعلما أن الخير حق كما ظهر آخرا وهو شبعهم جميعا وبقى الفضل بعد ذلك

وفيه دليل على بركة كل ما كان منه عليه السلام من خارجه وفضله لأنه لولا علمه عليه السلام ببركة ذلك البصاق ما فعل وقوله ﴿ وبارك ﴾ أى دعا بالبركة فجاءت البركة فى ذلك الطعام من وجهين من بصاقه عليه السلام ودعائه وقد كانت واحدة منهما تكفى لكن جمع الخير وتعداده أرفع

وفيه من الفقه أنه مهما أمكن الأخذ بالزيادة فى الخير لا يقتصر على البعض وفعل عليه السلام فى العجين مثل ما فعل فى البرمة

وفيه دليل على جواز المشاركة فى أفعال البر يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ادع خابزة فلتخبز معك﴾ لأن تصرفها فى هذا العجين وخبزها له من أكبر أفعال البر

وفيه دليل . على جواز التعاون فى إطعام الجمع الكثير لأنه مما يتيسر له به المعروف يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ادع خابزة

وفيه دليل . على جواز القسم عند الاخبار فانه تاكيد للصدق يؤخذ ذلك من قوله ﴿أقسم بالله﴾

وفيه دليل على أن من صدق الله تعالى فى المعاملة ربح فى الحال والمال يؤخذ ذلك من قوله ﴿لأكلوا حتى تركوه﴾ يعنى فضل لهم الطعام ولم يقدروا على أكله وزيادة على ذلك بقوله ﴿وإن برمتنا لتغط﴾ أى تغلى كما كانت مملوأة لحماً وقوله ﴿وإن عجيننا ليخبز كما هو﴾ أى لم ينقص من العجين شىء لما خرج أولا عن كل ما ملكه من الطعام لله تعالى ربح الآخرة إذ أكل طعامه سيد الأولين والآخرين وجميع أهل الخندق ولم يكن ذلك فى قدرته وربح الدنيا أى بقى له طعامه كما كان وزيادة ما فضل لهم وما حوى ذلك الطعام من زيادة البركة فى نفسه لما خالطه من بصاق النبى صلى الله عليه وسلم ودعائه فتلك تجارة رابحة

وفيه دليل : لأهل الصوفة لأنهم يقولون بايثار جميع ما يملكون وهذا يقويه قوله عز وجل (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فلما آثروا أوثروا من جاد فعلى نفسه بالخير جاد ومن بخل فعلى نفسه بالخير بخل فباى الوصفين عاملت فعليك منه عائد وأنت له حامل

(١٩٧) ﴿حديث تحريم التفاضل فى البيع والشراء﴾

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى خَيْبَرَ فَجَاءَهُ بِتَمْرٍ جَنِيبٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا قَالَ لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ وَبِالثَّلَاثَةِ فَقَالَ لَا تَفْعَلْ بِعِ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ ثُمَّ ابْتَعْ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيبًا

ظاهر الحديث يدل على منع التفاضيل بين النوعين من التمر والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هذا خاص بالتمر أوهو فى كل مطعوم إذا كان من جنس واحد لأن العلة التى فى التمر إذا اختلفت أجناسه موجودة فى غيره من المطعوم إذا كان من جنس واحد لأن الاسم يجمعها فالتفاضل فيها ممنوع مثل الزبيب أحمره وأسوده وجيده ورديئه الاسم يجمعهم فلا يمكن التفاضل بين أجناسه وكذلك غيره من المطعومات إذا كان من جنس واحد لوجود العلة فيه

وفيه دليل . على أن الشيء الفاسد إذا وقع ولم يعرف صاحبه لا يفسخ يؤخذ ذلك من نهيه عليه السلام فيما يستقبل أن قال له ﴿ لا تفعل ﴾ ولم يأمره برده لأنه قد جمعه من مواضع مختلفة واختلط الجميع وبقي الاحتمال في أنه لا يعرف ما صنع فيه فما فيه الفساد لا يتناول عليه السلام منه شيئا والظاهر تفريقه للساكين وقد قال عليه السلام للسعدين حين باعا آنية من فضة من المغنم مثلا بمثلين «ردا فقد أربيتما» لأن صاحبهما كان معروفا فالفسخ ممكن فأمرهما به

وفيه دليل على أن من وظيفة الآمر أن يسأل عماله عن تصرفهم حتى يعلم كيف هو وكذلك يلزم كل من استناب أحدا يتصرف له في شيء حتى يعلم ببراءة ذمته يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام حين أتوه بالتمر ﴿ أكل تمر خيبر هكذا ﴾ فلولا ما سأل عليه السلام حين أتوه بالتمر ما كان يعلم بهذا الفاسد الذي وقع

وفيه دليل على أن أكل الطيب لا يقدح في الزهد يؤخذ ذلك من أن سيدنا صلى الله عليه وسلم أزهد البرية وهذا عامله قد ساق له الطيب من التمر ولم ينهه عن ذلك وإنما نهاه عن الربا وزاد في ذلك تأكيدا أعني في جواز أكله أن قال له عليه السلام له ﴿ بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا ﴾ فأمره بشراء الطيب

وفيه دليل على أن من السنة حسن التعليم يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام لعامله لا تفعل ولم ينتهره

وفيه دليل على أن تنفيذ الحكم لا يكون إلا بعد تحقيق موجبه يؤخذ ذلك من سؤاله عليه السلام لعامله قبل نهيه بقوله أكل تمر خيبر هكذا وهو يعلم صلى الله عليه وسلم أن تمر خيبر ليس على صفة واحدة فلم يقتنع بعلمه في تمر خيبر حتى سأل من أجل الاحتمال لعل العامل باع ذلك على وجه يجوز واشترى هذا أو غير هذا من الاحتمالات

وفيه دليل . على أن رؤية ما يعرف على صفة لا تعرفها توجب السؤال عن موجب التغير يؤخذ ذلك من أن سيدنا صلى الله عليه وسلم لما رأى التمر على خلاف ما يعرف سأل

وفيه دليل على أن حسن السؤال من السنة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام أكل تمر خيبر هكذا فهذا اختصار في اللفظ وغاية في حقيقة كشف الأمر

وفيه دليل على جواز القسم في درج الكلام وهو الذي يسميه بعض العلماء لغو اليمين يؤخذ ذلك من قوله ﴿ لا والله يارسول الله ﴾ ولم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك

وفيه دليل على أن ذكر اسم العالم مع رد الجواب عليه عن من سأل من الإكرام له يؤخذ ذلك من قوله لا والله يارسول الله فقد حصل بقوله لا والله رد الجواب وما بقي ذكر اسمه عليه السلام إلا إعظاما له وتبركا به

نطقي بذكركم أنسي .. وَ بِتكم غايتي والمنا ويحلو لفظي بكنايتكم والصلاة عليك من الله رحمة لنا

١٩٨ ﴿حديث زواجه صلى الله عليه وسلم بميمونة رضى الله عنه

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ تَزَوَّجَ النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَيْمُونَةَ وَهُوَ مُحْرِمٌ وَبَنَى بِهَا وَهُوَ حَلَالٌ وَمَاتَتْ بِسَرِفٍ

ظاهر الحديث يدل على جواز نكاح المحرم وليس الأمر على ظاهره لأنه صلى الله عليه وسلم نهى عن نكاح المحرم وإنما ذكر أهل العلم فى هذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم وكل وهو حلال من يعقد نكاحه معها رضى الله عنها فانها كانت خرجت برسم الحج قبل خروج النبى صلى الله عليه وسلم وكان توكيل النبى صلى الله عليه وسلم لمن يعقد نكاحه معها وهو بالمدينة قبل خروجه للحج أيضا فخرج من وكله على ذلك وعقد النكاح بعد إحرام النبى صلى الله عليه وسلم فالذى رآى ذلك روى مارأى ولم يكن عنده علم بالتوكيل فى ذلك وهذا ليس بقدح فى الرواية لأنه روى ما رآى كما فعل فى إحرامه صلى الله عليه وسلم فبعض الناس روى أنه عليه السلام أحرم من المسجد وبعضهم روى أنه أحرم حين استوت به راحلته وبعضهم روى أنه أحرم حين توسط البيداء فشق ذلك على بعض السادة وقال حجة واحدة واختلف الناس فى ذلك فقال ابن عباس وهو راوى هذا الحديث أنا أزيل لكم هذا الاشكال كنت معه عليه السلام فأحرم من المسجد فمن كان هناك روى ماسمع ثم خرج وخرجت معه فلما استوى على راحلته لبي فمن كان هنك روى ماسمع ثم مشي ومشيت معه فلما توسط البيداء والناس أمامه وخلفه ويمينه ويساره مد البصر ولبي فمن كان هناك روى ماسمع فالكل قالوا حقا

وفيه دليل على أن الشاهد إنما يشهد بما رآى أو علم ولا يلزمه علم ماخفى من الأمر يؤخذ ذلك من كون الصحابى روى مارآى ولم يكن له علم بما بطن من الأمر كما ذكرنا يؤيد هذا قوله تعالى (وماشهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين) ﴿وهنا بحث﴾ وهو أن يقال ماالفائدة من إخباره بأنها ماتت بسرف وهو موضع بين مكة والمدينة فهو إيضاح حال ليكون تصديقا لما به أخبر فانه أخبر بزواجها ودخول الرسول عليه السلام بها وهو حلال وموتها بسرف فمن يعرف هذه الجزئيات فهو صادق فيما أخبره وبترتب عليه من الفقه أنه ينبغى للخبر بالاشياء أن يأتى من الدلائل على تصديقه بما أمكنه فان ذلك دال على تحرزه فى النقل والاخبار لتهمة المعترض السيء الظن

وفيه دليل على جواز الزواج فى السفر والدخول بالأهل فيه يؤخذ ذلك من إخباره أنه عليه السلام دخل بها وهو حلال وذلك كله فى سفره عليه السلام بالحج ورجوعه منه قبل دخول المدينة

١٩٩ ﴿حديث طاعة الأمير لا تكون إلا فى معروف شرعا﴾

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً وَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ فَقَالَ أَلَيْسَ أَمَرَكُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَالَ فَاجْمَعُوا حَطَبًا فَجَمَعُوا فَقَالَ أَوْقِدُوا نَارًا فَأَوْقَدُوهَا فَقَالَ ادْخُلُوهَا فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا وَيَقُولُونَ فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّارِ فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ فَسَكَنَ غَضَبُهُ فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ

ظاهر الحديث يدل على أن لاطاعة للامير على من أمر عليه إلا فيما فيه طاعة والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن من السنة أن لاتخرج سرية حتى يكون عليها أمير يؤخذ ذلك من قوله ﴿واستعمل رجلا من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه﴾

وفيه دليل: على أنه لا تتم الامرة لمن أمره الامام حتى يفصح لمن أمره عليهم بالطاعة له يؤخذ ذلك من قوله وأمرهم أن يطيعوه

وفيه دليل: على جواز الكلام للامير والأمير فى حال الغضب لكن لا ينفذ من المأمور به إلا ما وافق لسان العلم ويرد ما عدا ذلك يؤخذ ذلك من أن أمير هذه السرية تكلم فى حين غضبه بأشياء فبلغ جميع ذلك كله للنبي صلى الله عليه وسلم فمنع منها ما خالف لسان العلم وسكت عن الباقى وسكوته عليه السلام دال على جوازه فان كلام الأمير ذكر فيه ما هو حق وهو قوله ﴿أليس أمركم النبي صلى الله عليه وسلم أن تطيعونى﴾ وهذا قول حق فما ضره الغضب ثم أمر بشىء من قبيل الجائز وهو جمع الحطب ووقد النار والجائز لا يؤثر فيه الغضب لأنه باق على حاله من الجواز ثم أمرهم بدخول النار وهو ممنوع شرعا فهذا هو الذى منع النبي صلى الله عليه وسلم من جميع قوله وهو ممنوع فى كل حال

وفيه دليل: على أن الغضب يغطى على ذوى الأحلام الحق فى بعض الأمور لأن هذا الأمير الذى أمره النبي صلى الله عليه وسلم على السرية لم يؤمره حتى كان فيه دين زائد وفضل ولولا ما لحقه من الغضب ما لحقه ما أمر جمعا من المسلمين أن يحرقوا أنفسهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «إذا غضبت فاسكت» لأن كل متكلم فى حال الغضب وان قال حقا لا بد له من شىء ما يقع فيه وقد جاء من طريق آخر إن الغضب

من الشيطان فمن أصابه فليتوضأ فانه يذهب عنه، وقد روى مثل هذا عن معاوية رضي الله عنه حين قال له بعض الناس وهو على المنبر أعط الناس عطاياهم فان المال ليس من كسبك ولا من كسب أبيك ولا من غزل أمك فقال على رسلكم فنزل ودخل منزله فخرج وعليه أثر الماء فقال أما بعد فانه لما قال الرجل مقالته أغضبني وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وذكر الحديث الذى ذكرناه آنفا وقد زال عنى الغضب وصدق الرجل ليس المال من كسبى ولا من كسب أبى ولا من غزل أمى وإذا كان فى غد تأخذون عطاياكم ولأهل الطريق فى مثل هذا السبق العظيم فما ذكر عن بعضهم أنه كان له غلام وعمل الغلام على أن يغضبه فبقى يروم ذلك زمانا مهما عمل شيئا يوجب الغضب عليه حلم عليه وعفى فلما كان يوما قال له ائتنى بالدابة مسرعا لضرورة لى فابطأ عليه فمشى بنفسه إلى حيث كانت الدابة فاذا بالغلام قد عرقبها وهى ملقاة بالأرض والغلام قاعد ينظر إليها فسأله من فعل هذا قال له أنا قال له وما حملك على هذا قال أردت أن أغضبك فانك منذ اشتريتنى أروم ذلك منك وما قدرت عليه فقال له إنى إن شاء الله أغضب من أغواك إذهب فأنت حر لوجه الله

وفيه دليل : على أن المنجى من النار هو الايمان يؤخذ ذلك من قولهم (فررنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم من النار) فاذا الفرار إلى النبى صلى الله عليه وسلم فرار إلى الله تعالى والله عز وجل يقول (ففروا إلى الله) والفرار إليه سبحانه هو اتباع أمره واجتناب نهيه

وفيه دليل : على أن الطاعة للامير لاتنفع صاحبها إلا إذا كانت موافقة للسان العلم وإلا فهى معصية يؤخذ ذلك من أن بعض أهل تلك السرية أرادوا أن يدخلوا النار اتباعا لأمر أميرهم يقصدون بذلك القربة إلى الله سبحانه ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه الأمر أنهم لو دخلوها ماخرجوا منها فدل ذلك أنها إن لو كانت لكانت من الكبائر

وفيه دليل : على أن من السنة رد أخيك المسلم عن مايضره بالقوة إذا لم يقبل منك بالقول يؤخذ ذلك من كون الذين أرادوا أن يدخلوا النار ولم يسمعوا من قول إخوانهم فررنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم من النار حبسوهم بالقهر حتى خمدت النار يقوى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «أنصر أخاك ظالما أومظلوما فنصر الظالم أن ترده عن الظلم بأى وجه قدرت

وفيه دليل : على أن أهل الفضل ليس المعصوم منهم إلا من شاء الله تعالى يؤخذ ذلك من أن فضل اولئك الناس كلهم لاشك فيه وقد غلط بعضهم بأن ظن أن دخول تلك النار إتباعا لأمر أميرهم طاعة ولم يكن كذلك

وفيه دليل : على أن الجمع من هذه الأمة لايجتمعون على غلط يؤخذ ذلك من كون تلك السرية انقسموا قسمين منهم من هان عليه دخول النار فظنه طاعة ومنهم من لم يظهر له ذلك فكان

خلافهم سببا لرحمة الجميع

وفيه دليل: لمن يقول اختلاف العلماء رحمة وقد قال صلى الله عليه وسلم «لن تجتمع أمتي على ضلالة»

وفيه دليل: على أن من كان صادقا مع الله تعالى لا يقع إلا في خير وإن قصد شرا وأراده فان الله يصرفه عنه يؤخذ ذلك من أنه لما كان الذين أرادوا أن يدخلوا النار وظنوا أنها طاعة لله تعالى فبصدقهم مع الله جعل الله إخوانهم حبسوهم عن ذلك حتى نجوا من هذا الأمر العظيم ومن كلام أهل التحقيق من صدق مع الله وقاه الله ومن توكل على الله كفاه الله وهداه جعلنا الله منهم بمنه لا رب سواه

(٢٠٠) ﴿حديث ثواب قارىء القرآن الحافظ له والمتدبر لمعانيه﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما أن الذي يقرأ القرآن ويعمل به هو مع الملائكة والثاني ان الذي يتعاهده بالتلاوة وهو عليه شديد له أجران والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما معنى قوله مع الملائكة وهم السفرة كما أخبر عز وجل عنهم بقوله تعالى (بأيدي سفرة كرام بررة) وتبيين الأجر الذي لقارىء القرآن ومنه تبيين تضعيفه لأنه لا يتبين التضعيف إلا بعد معرفة الأصل فمعنى قوله عليه السلام ﴿مع السفرة الكرام﴾ الذي أشرنا إليهم وهم الملائكة لأنه يحصل له الأمن في الدنيا والآخرة أما في الآخرة فيدل على ذلك قوله تعالى (تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وأما في الدنيا فيدل على ذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم إلى قوله تعالى نصر من الله وفتح قريب) ومن الحديث قوله عليه السلام في الذي حفظ القرآن «كأنما أدرجت النبوة بين كتفيه» والأنبياء عليهم السلام لهم خير الدنيا والآخرة والفرق بين حفظه والمحافظة عليه لأن حفظه يحصل بالدرس وقد يحفظه البر والفاجر وقد قال صلى الله عليه وسلم «من علامة الساعة أن يفتح للناس في حفظ القرآن يحفظه البر والفاجر يجادلون به المؤمنين ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله» أو كما قال عليه السلام والمحافظة عليه التي هي العمل به لا يكون إلا للخصوص من المؤمنين أولئك حزب الله وهم المفلحون الذين هم مع الملائكة السفرة الكرام لأن المحافظة على الشيء الاعتناء به وعمله على ما يجب لقوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)

وفيه دليل: على أن أعلا الأحوال حفظ القرآن والعمل به

وفيه دليل: لمن يقول إن الملائكة أرفع من بني آدم الصالحين يؤخذ ذلك من كون أعلى ما رفعت

درجة هذا أن جعل مع الملائكة وأما الكلام على أجر من قرأ القرآن بلا شدة عليه فقد جاء «أن له بكل حرف عشر حسنات لا أقول ألف لام ميم حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف» وقد جاء «أن من قرأ القرآن قائما فى الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة وإن كان قاعدا خمسون وإن كان فى غير صلاة على طهارة خمس وعشرون وإن كان على غير طهارة عشر حسنات» وقد جاء «أن من قرأ القرآن وهو يعلم لم رفع ولم نصب كان له بكل حرف سبعمائة حسنة» فعلى مقتضى هذه الآثار إذا تعاهده على وجه من هذه الوجوه وهو عليه شديد كان له ضعفان من ذلك الأجر المسمى وفى مقتضى هذه الأخبار دليل على أنه ليس فى جميع النوافل أرفع من قراءة القرآن إلا أنه يجب أن تكون القراءة كما ذكر بعد فى الكتاب وهو قوله عليه السلام «اقرأوا القرآن ماائتلفت عليه قلوبكم فاذا اختلفتم فقوموا عنه» ويكون خالصا لله عز وجل لا من أجل أجرة تؤخذ عليه ولا أن يجعل صنعة ليتوصل به إلى شيء من حطام الدنيا وإن كان بعض الوجوه فى أخذ الأجرة عليه خلاف لجواز أخذ الأجر ليس هو من هذا الباب لأن هذا باب تعبد وذلك باب مايجوز من أنواع التكسبات ومالا يجوز فلا يجتمعان لأن الله عز وجل يقول فى أنواع التعبد (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) والاخلاص أن يكون لله عز وجل لا يخالطه غيره وقد جاء أن يوم القيامة يقول الله سبحانه وتعالى للذى خالط فى عمله مع الله غيره «أنا أغنى الشركاء اذهب فخذ الأجر من غيرى» وقد قال بعض أهل المعاملات مع الله تعالى بالصدق والاخلاص إن قراءة القرآن بالتدبر والحضور حياة النفوس وإنه عز الأرواح فمن فهم هام ومن حرم تاه وظن أنه يحسن صنعا أحيا الله أرواحنا به وجعلنا من حز به بمنه وكرمه

(٢٠١) ﴿حديث فضل آخر سورة البقرة فى التهجد﴾

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِى لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ

ظاهر الحديث يدل على أن من قام فى ليلة بالآيتين من آخر سورة البقرة أجزأتاه عن قيام الليل وصح له اسم التهجد والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هى بنفسها تجزىء لمعنى فيها خاص أوهل هى على طريق التمثيل أنه من قام بآيتين يكون طولهما آيتين كفتاه وإن كانتا أقل لا تكفياه أوهل يكون معنى الكلام أن من قام بهما أو بآيات تحوى من المعانى مثل ماحوتا كان له فى ذلك كفاية وإن كان أقل من ذلك لم تجزه ﴿فالجواب﴾ اللفظ نفسه محتمل لكن من خارج يقع التخصيص ﴿فمنها﴾ أنه قد جاء عنه صلى الله عليه وسلم

أنه قال « من قام بالآيتين من آخر آل عمران كفتاه » أوكما قال عليه السلام وقد قال الله عز وجل (ومن الليل فتهجد به) ولم يخص آية دون آية وقد كان قيامه صلى الله عليه وسلم لم يخص أيضا آيات دون آيات بل ما من شيء من الكتاب العزيز إلا وقد قام عليه السلام به وقد كان يتنفل بعض مرار فى قيامه بقراءة هاتين الآيتين ثم يتنفل بعدهما بما شاء ثم مرارا يقوم ويقرأ غيرهما ولا يقرؤهما فلما كان قيام الليل من المستحسن والمستحب فيه طول القيام وكذلك كان الغالب من فعله صلى الله عليه وسلم كما جاء من رواية عائشة رضى الله عنها قالت « كان يقوم بأربع لاتسأل عن حسنهن وطولهن ثم بأربع فلا تسأل عن حسنهن وطولهن » فجاء هذا الحديث تبيينا بمقدار الطول المجزىء فى القيام وما زاد على ذلك يكون زيادة فى الخير واتباعا لقوله صلى الله عليه وسلم وجاء التمثيل بهما تبين الآيتين والتى فى آخر آل عمران على طريق التمثيل لكن هاتان الآيتان أقصر من الآيتين اللتين فى آخر آل عمران فان كان هذا الحديث هو المتقدم فيكون ذكر التى فى سورة البقرة تحقيقا ونحن لانعلم المتقدم منهما فان أخذنا بالأحوط فنعمل على الحديث الذى فيه آخر سورة آل عمران وتكون التى فى آخر سورة البقرة على الرجاء وإن أخذنا بأحد الوجوه التى ذكرها الفقهاء عند تعارض الأدلة وعملنا على التى فى آخر آل عمران فاما وجه من الفقه والوجوه التى ذكرها الفقهاء عند تعارض الأدلة هى أربعة وقد ذكرناها فيما تقدم من الكتاب

وفيه دليل : على أن قيام الليل مطلوب شرعا وبقى البحث على أى وجه هو هل على الوجوب أو على الندب قد اختلف العلماء فى ذلك فالجمهور على أنه على الندب ونص الكتاب ينبىء بهذا وهو قوله تعالى (نافلة لك) ومنهم من قال هو على الوجوب وأقل مايجزىء فيه قدر فواق ناقة وهو والله أعلم يدل على هذا الحديث بطريق ما لأن مالكا رضى الله تعالى عنه يقول كل مايكون فرضا فلا بد أن يكون محدودا بالكتاب أو بالسنة وما ليس بمحدود بكتاب ولا بسنة فليس بفرض وهذه السنة فى هذين الحديثين قد جاءت فى قيام لليل وإذا تأملت هذا الحديث تجده قدر فواق الناقة التى قد حدها الذى جعلها فرضا وهو قدر مايقام بهاتين الآيتين

وفيه دليل : على حسن تعليمه ﷺ يؤخذ ذلك من تحديده عليه السلام بهاتين الآيتين وكثير من الآى فى الطول مثلهما فخصصهما بالتحديد لما فيهما من معنى الدعاء وفى ذكره إياهما إرشاد منه صلى الله عليه سلم إلى سنته ومن سنته عليه السلام فى تهجده إذا مر بآية رحمة بكى وإذا مر بآية عذاب استعاذ وإذا مر بآية تنزيه لله سبحانه سبح وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فاذا ختم السورة فليقل آمين » فيحصل له [بعد] الدعاء قطعا لأن كل مؤمن داع

وفيه دليل: على أن أجل الأحوال فى الصلاة قوة الايمان يؤخذ ذلك من تحديده عليه السلام

بهاتين الآيتين وبالتى فى آخر آل عمران لأن قراءة إحداهما فيهما لمن تدبرهما قوة فى الايمان وقد قدمنا كيف كان حاله عليه السلام فى قيامه أنه كان يكسوه من كل آية يقرأها حال يناسب معنى تلك الآى وكذلك ينبغى أن تكون تلاوة القرآن وإلا يكون تاليه (كالحمار يحمل أسفارا)

وفيه دليل: على الارشاد فى القيام إلى الاستكانة والخضوع والافتقار يؤخذ ذلك من تحديده عليه السلام بهذه الآية لأن تدبرها يوجب الخضوع لله تعالى والافتقار إليه لأنه إذا تذكر القارى ذنوبه أوجبت له الذلة والمسكنة وإذا طلب المغفرة منها أوجب له ذلك صدق اللجأ إلى مولاه الكريم والافتقار إليه

وفيه دليل: على أن من أجل صفات المصلى حسن ظنه بمولاه يؤخذ ذلك من أن من طلب النصر على عدوه إنما يكون بصدقه مع الله وحسن ظنه به والله عز وجل يقول على لسان نبيه عليه السلام «أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء» رواه الشيخان

وفيه دليل: على أن المرغب فيه فى القراءة فى القيام التدبر مع القراءة وإن قلت وهو خير من كثرة القراءة بلا تدبر يؤخذ ذلك من تحديده عليه السلام بهذه الآية لأنها بنفس تلاوتها يفهم معناها فيحصل للقارى بها قراءة وتدبر ومعرفة بمعنى الآية لأن فائدة التدبر هو أن يعرف معنى مايتلوه من الآى وهاتان بنفس التلاوة يحصل الفهم بمعناهما فيكون التالى لهما فى تهجده على أكمل الأحوال وهو التلاوة مع الفهم

وفيه دليل: على ماأعطى الله سبحانه له عليه السلام من البلاغة وحسن الادراك يؤخذ ذلك من تمثيله عليه السلام بهاتين الآيتين اللتين جمعتا جملا من المعانى الحسان كما أبديناه بتوفيق الله تعالى وإذ تأملت وجدت أكثر وأبدع فان عجائبه لا تنقضى وفيما أبديناه دليل على أن الفهم فى كتابه عز وجل وسنة نبيه عليه السلام لا ينال إلا بالفضل وان طالب ذلك من غير هذا الوجه متعن وبهذا هى الاشارة بقوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) فأرشدنا عز وجل إلى عمل البساط لذلك والنهى له باستعمال التقوى وأن التعليم إنما هو منه عز وجل وما هو منه فطريقه الفضل لأنه سبحانه لا حق عليه واجب

وفيه دليل: لأهل المعاملات مع الله تعالى لأنهم مافعلوا طريقهم فى كل الأشياء إلا بتقواه عز وجل والوقوف ببابه من الله علينا بما به من عليهم فى الدارين بفضله وكرمه

(٢٠٢) ﴿حديث جواز التحصن بالقرآن عند النوم﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ

ظاهر الحديث أن من سنته صلى الله عليه وسلم التحصن من الآفات عند النوم بقراءة قل هو الله أحد والمعوذتين مع مسه بريقه المبارك يفعل ذلك ثلاث مرات والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما الحكمة فى فعله عليه السلام هذا هل هو تعبد لا يعقل له معنى أو هو معقول المعنى فان قلنا غير معقول المعنى فنقول هذه سنته عليه السلام ولا يعقل لها معنى وإن قلنا إنه معقول المعنى وهو الأظهر فالحكمة فنقول احتملت والله أعلم وجوها

﴿منها﴾ أن يكون عليه السلام تعوذ من الشيطان وإن كانت ذاته المباركة محروسة من الشيطان فيكون ذلك على طريق التعليم لنا والارشاد إذ ذاته المباركة محروسة من الشيطان وهو يفعل هذا فكيف بالغير فيكون من قبيل التأكيد كما فعل عليه السلام فى تأكيده على التوبة والاستغفار بقوله عليه السلام «إنى أستغفر الله فى اليوم سبعين مرة وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة» ويحتمل أن يكون على وجه التبرك بكتاب الله عز وجل لأنه قد جاء «أنه من قرأ سورة من كتاب الله عند نومه باتت تحرسه»

﴿ويترتب عليه من الفقه﴾ فى حقنا التحصن بآيات الله تعالى وبكتابه من كل سوء يتوقع ومما يقوى هذا ماروى عنه صلى الله عليه وسلم فى يوم الاحزاب أنه كان تحصينه بقوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم) والدعاء المذكور بعدها وهو ماروى عن الشافعى عن مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ يوم الاحزاب (شهد الله أنه لا إله إلا هو) إلى آخرها وقال «وأنا أشهد بما يشهد الله به وشهدت به ملائكته واستودع الله هذه الشهادة وهذه الشهادة وديعة لى عند الله يؤديها إلى يوم القيامة اللهم إنى أعوذ بنور قدسك وعظيم ركنك وعظمة طهارتك من كل آفة وعاهة ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير اللهم أنت غياثى بك أستغيث وأنت ملاذى بك ألوذ وأنت عياذى بك أعوذ يامن ذلت له رقاب الجبابرة وخضعت له أعناق الفراعنة أعوذ بك من خزيك ومن كشف سترك ونسيان ذكرك وانصرافى عن شكرك أنافى حرزك ليلى ونهارى ونومى وقرارى ظعنى وإسفارى وحياتى ومماتى ذكرك شعارى وثناؤك دثارى لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك تشريفا لعظمتك وتكريما لسبحات وجهك أجرنى من خزيك ومن شر عبادك واضرب على سرادقات حفظك وأدخلنى فى حفظ عنايتك وجد على بخير منك ياأرحم الراحمين» ﴿وأما حكاية الشافعى﴾ فى تحصينه بهذه الآية المذكورة مع الدعاء المذكور بعدها مما خافه فان الخليفة وجه إليه مغضبا عليه ليوقع به نكالا فلما جاءه الرسول توضأ وخرج وهو يحرك شفتيه فلما دخل على الخليفة أجلسه إلى جنبه وأحسن له فى القول ودفع له جملة مال فخرج من عنده بخير خروج فاتبعه الرسول الذى وجه إليه فقال له ناشدتك الله ما كنت تقول حين كنت تحرك شفتيك فأزال الله به غيظ الخليفة وأبدله رضى

وإحسانا فذكر له هذا الذى رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ يوم الأحزاب (شهد الله أنه لاإله إلا هو) إلى تمامه واحتمل أنه لما كان سبب نزولها شفاءه عليه السلام من السحر الذى سحره اليهود وشفى بها استصحب الحكم تأدبا مع أثر حكمة الله تعالى وقد قال صلى الله عيله وسلم «من رزق من باب فليلزمه» وهو عليه السلام ما يرشد بشىء إلا وهو أشد الناس حرصا على عمله ﴿ويترتب على ذلك من الفقه﴾ لنا أن يلتزم الشخص الأشياء المنجية من الأسواء التى هى على مقتضى الكتاب والحكمة وإن كان فى الوقت معافى فى نفسه فانه لا يأمن ما فى الغيب (ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)

وفيه دليل: على أن اتخاذ الفراش لاينفى الزهد وهو من السنة لأنه عليه السلام أزهد الناس وقد اتخذ الفراش ولأنه مما إليه حاجة البشر

وفيه دليل: على أن النوم وما تدعو إليه الضرورة كله آخرة لأنه عون عليها يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام كل ليلة لابد له من النوم فى فراشه وإنما الشأن فى كيفية الفراش كيف يكون

وفيه دليل. على أن بقدر رفع المنزلة يكون الخوف يؤخذ ذلك من دوامه صلى الله عليه وسلم على ذلك كل ليلة مع كونه عليه السلام معافى محفوظا مبشرا بخير الدنيا والآخرة لكن مع علو منزلته عليه السلام كانت شدة خوفه وقد صرح عليه السلام بهذا حيث قال «إنى لأخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى» وقد قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وهو عليه السلام أعظم العلماء بالله وكذلك كان على رضى الله عنه الذى قال عليه السلام فى حقه «أنا مدينة العلم وعلى بابها» إذا كان وقت الأمن والعافية رؤى عليه أثر الحزن والخوف وإذا كان وقت الشدائد والمخاوف رؤى عليه أثر السرور والاستبشار فقالوا له فى ذلك فقال «الدنيا لا تبقى على حال ما من شدة إلا وبعدها فرج وما من فرحة إلا اتبعتها ترحة» فهذا مقام العلماء حقا أن يكون حالهم على مقتضى ما دلت عليه الآى والآثار

وفيه دليل: على أن طمأنينته عليه السلام إنما كانت بالله يؤخذ ذلك من فعله عليه السلام ذلك عند دخول الفراش وحينئذ يأتيه النوم لأن النوم لايجتمع مع الخوف لأن الخوف مذهب له فاذا تلا كتاب الله تعالى ومسح بأثره ذلك الجسد المبارك ذهب عنه ذلك الخوف الشديد واطمأنت تلك النفس المباركة فأتاه النوم وقد قال عز وجل (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ولا يطمئن بذكر الله إلا القلوب الخائفة منه عز وجل وأما غيرهم فانما يكون طمأنينة قلوبهم بحسب عاداتهم مثل الملوك ما تطمئن قلوبهم إلا بحسن جيوشهم وكثرتها والتجار بكثرة مالهم وتدبيرهم وأهل كل نوع بما جرت به عادتهم فى ذلك وأهل التقوى إنما يكون اطمئنان قلوبهم بذكر مولاهم وسيدنا صلى الله عليه وسلم رأسهم وأصلهم

وفيه دليل: على دوام حاله عليه السلام مترددا بين الخوف والرجاء يؤخذ ذلك من دوامه عليه

السلام على ذلك كل ليلة وهى حالة أولها يدل على الخوف وآخرها يدل على الرجاء وأما كونه عليه السلام يفعل ذلك ثلاثا فذلك أنه دال على أنه ليس على طريق الرقى ولا التداوى بدليل ماجاء عنه عليه السلام فى الآثار أن الأشياء التى كان عليه السلام يفعلها على طريق التداوى والرقى يعيدها سبعا والذى يفعلها لغير هذين الوجهين يكون له بها اعتناء ويكون فى ذاتها لها بال يعيدها ثلاثا واحتمل أن يكون فعله عليه السلام ذلك عند النوم لما أن كان النوم الموتة الصغرى فجاء هذا النوع من الابلاغ فى التعبدات والاستكثار من أثر بركة الله تعالى حتى أنه بعد مايتعبد ويأوى إلى الفراش حيث تكون الراحة بجرى العادة غالبا يجعل فيه تعبدا ولذلك التعبد أثر يبقى على بشرية بدنه المبارك بعد النوم وهو آثر ذلك التمسح بذكر الله تعالى والريق المبارك وفيه وجه من التشبه بالموت الحقيقى كما أن الميت يطهر حتى يكون قدومه على مولاه بأثر عبادة على بدنه كذلك فى هذا وجعلها وترا كما هو غسل الميت وترا وقد جاء «أن الذى ينام على طهارة أن روحه تسجد بين يدى مولاه» فكيف إذا كان مع الطهارة هذه الزيادة

وفيه دليل : على حب سيدنا صلى الله عليه وسلم فى التعبدات يؤخذ ذلك من كثرة اشتغاله عليه السلام بها على أنواع مختلفة وهى لم تفرض عليه مثل هذا وما أشبهه وإذا تأملت وتتبعت أثره صلى الله عليه وسلم تجده كذلك لأن من أحب شيئا أكثر منه

وفيه دليل . على فضل ماجاء به عليه السلام يؤخذ ذلك من كونه مامن شىء من أوصاف البشرية إلا ظهرت عليه حتى يحقق عليه ذلك ومع ذلك الصفات الملكية قد تحلى بها أتم تحل ﴿ منها ﴾ دوام العبادات وتنوعها مثل مانحن بسبيله من هذا الحديث ولم يكن عليه السلام يتحرك حركة إلا بذكر الله عز وجل ولا أكل ولا شرب ولا جامع ولا لبس ثوبا إلا بذكر الله تعالى عند ذلك كله ويجد للطاعة حلاوة ويتنعم بها وقد صرح عليه السلام بهذا المعنى بقوله عليه السلام «وجعلت قرت عينى فى الصلاة» وبقوله عليه السلام «أرحنا بها يا بلال» وقد وصفه واصفه حيث قال كان كثير الذكر طويل الفكرة لا يضحك إلا تبسما فهذه أوصاف ملكية اجتمعت فيه وله الكمال فى أوصاف البشرية مامن خصلة محمودة من أوصاف البشرية إلا وله عليه السلام فيها التقدم وكذلك فى التحلى بالأوصاف الملكية صلى الله عليه وسلم وجعلنا بحرمته من صالحى أمته

(٢٠٣) ﴿ حديث جواز قراءة القرآن للراكب على الدابة ﴾

عَنْ عَبدِ اللهِ ابنِ مُغَفَّلٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ رَأَيتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ أَوْ جَمَلِهِ وَهِيَ تَسِيرُ بِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ أَوْ مِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ قِرَاءَةً لَيِّنَةً وَهُوَ يُرَجِّعُ

ظاهر الحديث يدل على جواز قرآءة القرآن للراكب وهو يسير والكلام عليه من وجوه
﴿ منها ﴾ قوله ﴿على ناقته أو جمله﴾ شك من الراوى.

وفيه دليل على صدقهم وتحريهم فى النقل وكذلك قوله ﴿سورة الفتح أو من سورة الفتح﴾ وقوله ﴿قرآءة لينة﴾ أى فيها ترسل وتطويل وهو أحسن أنواع التلاوة وهو النوع الذى يمكن معه التدبر وقد جاء فى صفة قراءته صلى الله عليه وسلم لوشئت أن تعد حروفها لعددتها وهى حالة تدل على الوقار والهيبة لما هو يتلو وأما قوله ﴿يرجع﴾ فقيل الترجيع ترديد القراءة وقيل هو تقارب ضروب الحركات فى الصوت وفى صحيح البخارى «كيف كان ترجيعه فقال أ أ أ ثلاث مرات» وهذا إنما حصل منه صلى الله عليه وسلم لأنه كان راكبا فجعلت الناقة تحركه فتحصل هذا من صوته وقد جاء فى حديث آخر أنه كان لا يرجع قيل لعله لم يكن راكبا فلم يلجأ إلى الترجيع وليس ذلك كترجيع الغناء وقد قال عليه السلام «زينوا القرآن بأصواتكم» ذكر فيه غير واحد من العلماء أن معناه زينوا أصواتكم بالقرآن والمعنى اشغلوا أصواتكم بالقرآن والهجوا بقراءته واتخذوه شعارا وزينة وليس ذلك على تطريب الصوت وقال آخرون لا حاجة إلى القلب وإنما معنى الحديث الحث على الترتيل الذى أمر به فى قوله تعالى (ورتل القرآن ترتيلا) فكأن الزينة للمرتل لا للقرآن كما يقال ويل للشعر من رواة السوء فهو راجع إلى الراوى لا إلى الشعر فهو حث على ما يزين من الترتيل والتدبر ومراعاة الاعراب وقيل أراد بالقرآن القراءة أى زينوا قراتكم بأصواتكم وقوله عليه السلام «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» قيل فى ذلك معان فمن جملة معانيه أنه يجعله هجيراه وتسلية نفسه وذكر لسانه فى كل حالاته كما كانت العرب تفعل ذلك فى الشعر والحداء فى قطع مسافاتها وحروبها فيجد القارىء من الأنس وانشراح النفس بتلاوة القرآن كما يجده أهل الغناء بغنائهم ولا يفهم من ترجيعه عليه السلام أن يكون كترجيع الغناء لأنه صلى الله عليه وسلم قد نهى عن ذلك بقوله «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتاب وسيأتى بعدى أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» واللحون جمع لحن وهو التطريب وترجيع الصوت وهذه القراءة المنهى عنها لا يمكن معها فهم ولا تدبر وهى منافية للخشوع وهذه الصفة ليست المقصودة من التلاوة

وفيه دليل: على إظهار التعبد وهى السنة يؤخذ ذلك من قراءته عليه السلام وهو يسير على ناقته لأنه صلى الله عليه وسلم لما كان شأنه دوام التعبد وجاءته ضرورة السير لم يترك القراءة التى كان عليه السلام يفعلها سرا لأنه فى النوافل أفضل ففعله الآن جهرا أفضل من أجل تقعيد هذه القاعدة الشرعية ﴿ ويترتب عليه من الفقه ﴾ لأهل الأعمال أن المندوب كله الأفضل فيه الاخفاء ما لم يكن بموضع

لايمكن فيه الاخفاء كالجهاد وتدريس العلم وما أشبه ذلك فاذا لم يقدر على الاخفاء فيه فاظهاره هو الاولى لانه إن لم يكن إظهاره آل الأمر إلى الترك (وفيه دليل) على أن الجهر في التلاوة أولى من طريق الأفضلية يؤخذ ذلك من كونه صلى الله عليه وسلم جهر بها في هذا الموضع (وفيه دليل) على أنه إذا تعارض في العبادة أمران أخذ بالأعلى يؤخذ ذلك من أنه لما تعارض هنا لسيدنا صلى الله عليه وسلم فضل الجهر بالقراءة وفضل إخفاء العبادة آثر الجهر في التلاوة على إخفاء العبادة وينبغي عند الاظهار أن يزيل عن قلبه حب الميل إلى المدح لأن ذلك هو الداء العضال وقد نص أهل التوفيق على أن طلب المدح مفتاح فقر الأبد أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه

(٢٠٤) (حديث الأمر بحضور القلب عند قراءة القرآن)

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اقْرَؤُا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ

ظاهر الحديث يدل على أن لايقرأ القرآن إلا بجمع القلب على قراءته وإذا كان القلب مخالفا لما أنت تتلوه فلا تتله والكلام عليه من وجوه

(منها) أن يقال هل هذا الأمر هنا على الوجوب أو على الندب وما حد إئتلاف القلب المجزى في ذلك وهل هذا أيضا عام فيما قراءة القرآن فيه واجب أو مندوب أولا (فأما قولنا) هل الأمر على الوجوب أو الندب فاللفظ محتمل لكن أقل مايكون ندبا (وفيه دليل) على أن الاعظام لجناب الربوبية هو أرفع العبادات يؤخذ ذلك من طلبه عليه السلام حضور القلب عند التلاوة واجتماعه على ذلك وهذه حالة الاعظام والاجلال وقد نص عليه السلام على ذلك بقوله «إن الله لايقبل عمل امرىء حتى يكون قلبه مع جوارحه» فعلى هذا الحديث فيكون الأمر هنا على الوجوب

(فيترتب عليه من الفقه) الاجور التي جاءت لمن يتلو الكتاب العزيز أنها ماتصح إلا لمن يتلوه على هذه الصفة ويبقى البحث هل من يتلوه على غير هذه الصفة يكون مأثوما أولا لقوله عليه السلام (فاذا اختلفتم فقوموا عنه) فان حمل هذا الأمر الثاني على الوجوب فيكون مأثوما وإن حملناه على الندب فيكون مكروها وهو أقل الوجوه والظاهر في الموضع عدم الاثم وذلك راجع إلى مانفصله بعد إن شاء الله تعالى فنقول هل ذلك النهي يتناول من قصد ذلك ومن لم يقصده أعني أنه يقرأ وهو يقصد التفكر في شيء آخر والذي لم يقصده هو الذي يدخل بنية القراءة ثم ينظر على قلبه الغفلة والخروج إلى الفكرة في شيء آخر يستدرجه العدو في ذلك أو النفس أما الذي يدخل بنية أنه يقرأ ويفكر في شيء آخر فلاشك أن ذلك مكروه من الفعل مثاله إذا كان إنسان يكلمك فترد ظهرك إليه

وهو يخاطبك فهذه هى تلك الحالة ، ليس هذا من الآدب ويخاف عليه وأما الذى يدخل بنية الأدب فى التلاوة وتعرض له الغفلة أو الفكرة فلا يخلو إما أن يدفع ذلك أو يتمادى معه فان دفعه فيرجى أنه لا يضره لقول الله سبحانه وتعالى (إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) وقد قال أهل التوفيق إنما نحن مكلفون بدفع الخواطر السيئة لا بأن لا تقع ويؤيد ما قالوه قول سيدنا صلى الله عليه وسلم حين قال له الصحابة رضى الله عنهم إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال «أوجدتموه قالوا نعم قال ذلك صريح الايمان» يعنى فى دفع ذلك الشىء وتعاظم أن يتكلم به فان تمادى مع تلك الخواطر فلا يخلو أن يكون تماديه بغفلة ونسيان أو تعمد فان كان بغفلة ونسيان فيرجع عند استفاقته لذلك ويرجى أن لا شىء عليه لقوله صلى الله عليه وسلم «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان» وان كان تماديه بالقصد والذكر فهو الذى دخل بالنية المتقدمة سواء (ومما يشبه ذلك) الذى يكون يعمل شغلا وهو يقرأ فان كان قلبه مجتمعا على القراءة فلا يضره عمل ذلك الشغل لأن يده فيه عارية وقلبه مشغول بعبادته وذلك بشرط أن يكون الشغل مما ليس فيه قذارة ولا نجاسة ويكون المحل طاهرا ولا يكون فيه لغط ولا شىء مكروه وإن كان قلبه متعلقا بالشغل فممنوع له القراءة والمنع على أحد الوجوه المتقدم ذكرها وأما حد تألف القلب المجزىء فى ذلك فأقله أن تسمع بقلبك ما تتلوه بلسانك كأنك تسمع لغيرك يقرأ عليك وأعلاه أن تتفكر فى معناه حتى تفهم ما أنت تتلوه ويكسوك من كل معنى يرد عليك حال يناسبه تأسيا بالنبى صلى الله عليه وسلم فى تهجده كان إذا مرت به آية رحمة سأل وإذا مرت به آية عذاب استعاذ وإذا مرت به آية تنزيه سبح وإذا مر به مثل تدبر واعتبر فمن كل آية يتلوها تصدر عنه عليه السلام حال تناسبها (وإذا قلنا) هل هذا على عمومه فيما هو قراءة القرآن فيه واجب أو مندوب كالصلاة الواجبة مثلا وصلاة النافلة والتلاوة فى غير صلاة فالاحتمال واقع لكن الأظهر أنه فى صلاة الفرض أشد لاسيما مع الحديث الذى أخرجه أبو داود وهو أنه صلى الله عليه وسلم « صلى صلاة وأسقط من قراءة السورة التى قرأ فيها بعض آيات فلما سلم سأله بعض الصحابة هل أسقطت من هذه السورة شيئا فقال لا أعلم ثم أخر كذلك فاما فى الثانى أو الثالث قال هنا أى قال نعم قال هو لما نجثا بين يديه فسأله هل أسقطت من هذه السورة شيئا فقال نعم آية كذا وكذا فقال له لم لا فتحت على قال ظننت أنها نسخت فقال صلى الله عليه وسلم « أيقرأ كتاب الله بين أظهركم ولا تعلمون ما قرىء وما لم يقرأ هكذا كان بنوا إسرائيل حتى أزال الله الخشية من قلوبهم إن الله لا يقبل عمل امرىء حتى يكون قلبه مع جوارحه » أو كما قال صلى الله عليه وسلم وقد قال صلى الله عليه وسلم « ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها » أو كما قال عليه السلام فيكون المعنى هنا والله أعلم كما قال مالك رضى الله عنه حين سئل عن الركعتين بعد الطواف أفرض هى أم لا فقال

«هى من جنس الطواف فان كان فرضا فهى فرض وإن كان ندبا فهى ندب» ﴿وفيه دليل﴾ لأهل الصوفة الذين يجعلون الحرمة آكد أحوالهم حتى أنه ذكر عن بعضهم أنه دخل المسجد وقعد فوجعته رجله فجاء أن يمدها ثم قبضها واستغفر الله تعالى فقال له بعض أصحابه يا سيدنا ليس فى هذا شىء فقال لك ليس فيه شىء وأما أنا فلا يمكننى ذلك أخاف على نفسى من العقاب وكان بعضهم باحدى رجليه أثر فاذا نظر إليه يبكى ويستغفر فسئل عن ذلك فقال كان خراج له بها فغلبنى شدة الوجع حتى رقيتها فشفيت من حينى فجعلها من جملة الذنوب كونه لم يصبر ويرض بجرى القضاء فتلك الحرمة والاحترام أوجبت لهم الحرمة والاكرام فهناهم من أعطاهم ولحقنا بفضله بأعلامهم لارب سواه

(٢٠٥) ﴿حديث الخوف من الوقوع فى الزنا﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ إِنِّى رَجُلٌ شَابٌّ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَى نَفْسِى الْعَنَتَ وَلَا أَجِدُ مَا أَتَزَوَّجُ بِهِ النِّسَاءَ فَسَكَتَ عَنِّى ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذَلِكَ فَسَكَتَ عَنِّى ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَالَ النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَبَاهُرَيْرَةَ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ فَاخْتَصِ عَلَى ذَلِكَ أَوْذَرْ

ظاهر الحديث يدل على نفوذ الذى جف به القلم ولا ينفع معه حيلة من الحيل والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن من السنة شكوى الشخص ما به وما يتوقعه من الأذى لمن يرجو بركته يؤخذ ذلك من شكوى أبى هريرة ما يخاف على نفسه من العنت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ومنها﴾ أن المسترعى عليه ما يشكو ما به إلى راعيه ﴿وفيه دليل﴾ على أن النكاح لا يتعين إلا عند القدرة على الصداق يؤخذ ذلك من قوله (ولا أجد ما أتزوج به) ﴿وفيه دليل﴾ على جواز تكرار الشكوى للراعى ثلاثا وكذلك لذوى الفضل ممن يرجى بركتهم ﴿وفيه دليل﴾ على أن سكوت ذوى الفضل عن الجواب دليل على عدم نجح ما قصده فى ما شكا لهم فان اجتزأ السائل بذلك السكوت فى أول مرة أو ثانية والا جاوبه المسؤل فى الثالثة ولا يترك جوابه فى الثالثة يؤخذ ذلك من شكوى أبى هريرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثا فسكت عنه عليه السلام فى الأولى والثانية وجاوبه فى الثالثة لأن من خلقه عليه السلام الحياء وهو من شعب الايمان فلما لم يكن له عنده مما سأل مخرجا أعرض عنه فى الأولى لعله يقنعه ذلك وكذلك فى الثانية فلما بلغ الثالثة جاوبه من أجل تقرير الحكم ﴿وفيه دليل﴾ على أن من الأدب أن يقدم طالب الحاجة عذره قبل طلب الحاجة يؤخذ ذلك من ذكر أبى هريرة عذره أولا وهو قوله ﴿إنى رجل شاب﴾ والشاب هو أشد فى شهوة النكاح من غيره ولذلك جاء تعجب ربك من الشاب ليست له صبوة لقوة الدواعى عليه فى ذلك ﴿وهنا بحث﴾ وهو أن يقال لم أمر عليه السلام أبا هريرة بالتوكل والاستسلام للقدر وأمر غيره بعمل السبب فى هذا الشأن نفسه حين أمر عليه السلام بالصوم لمن لم يطق النكاح وقال «هو له وجاء» والجمع بينهما هو أنه

صلى الله عليه وسلم طبيب الدين يعطى لكل إنسان مايصلح به كما يفعل طبيب الأبدان لما كان الذين امرهم بالصوم فيه فائدة وقمع لتلك الشهوة الردية أمرهم به ولما كان الغالب على أبى هريرة الصوم لأنه كان من أهل الصفة وقد كان كما أخبر عن نفسه أنه يغشى عليه من الجوع ولا يعرف أحد مابه وهذه الحال أشد مايكون من المجاهدة فى الصوم ولم تزل عنه تلك الشهوة الباعثة أمره بالتوكل خالصا

﴿ ويترتب على هذا من الفقه ﴾ أنه مهما أمكن المكلف عمل شىء من الأسباب الذى هو أثر الحكمة بشرط أن يكون على لسان العلم فلا يتوكل إلا بعد عملها ولا يتوكل ويترك أثر الحكمة فانه مخالف للحكمة الشرعية وإذا لم يقدر على شىء من أثر الحكمة فليتوكل على مولاه وليوطن نفسه على الرضى بما جرت به الأقلام ولا يتعب نفسه فى أن يعمل شيئا من الأسباب ولابد ويرى أن ذلك منج له مما يخافه أو مبلغ له لما يرجوه فان ذلك يخالف السنة نعوذ بالله من ذلك وهذا القسم هو الذى أهلك كثيرا من الناس ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن أقوى الأسباب أو أكثرها إذا لم يكن بموافقة القدر لاينفع يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فاختص على ذلك أو ذر ﴾ لأن أقوى الأسباب فى منع النفس من أن يقع الخصى فى العنت الذى هو الزنا أن يقطع الجارحة التى بها تقع الفاحشة لأن الفحل من البهائم إذا خصى لايمكن له نكاح ثم مع ذلك لايمنعه من وقوع ما قدر عليه من ذلك وفى هذا تسلية عظيمة للعاجزين عن الأسباب فيما يرجون نيله أو يخافون وقوعه وقوة فى الايمان بأن الله على كل شىء قدير وأن الامور تجرى بمقتضى إرادته بأسباب وبغير أسباب كيف شاء لاتتوقف إرادته على شىء بلزوم يلزمه فعله أو تركه بل إرادته تنفذ كيف شاء

وفيه دليل : على أن ماجبل عليه طبع المكلف ليس بعذر له فى ترك ما أمر بتركه أو فعل ما أمر بفعله يؤخذ ذلك من أن أباهريرة شكى ماطبعت عليه البشرية فى حين شبيبتها عسى يكون له فى ذلك عذر فلم يعذر فيه لأنه أخبر أن ماقدر عليه يلحقه فان قدر عليه الوقوع فيما نهى عنه وجب عليه الحد الذى حد له نعوذ بالله من شر ماجلبنا عليه بمنه وكرمه

(٢٠٦) ﴿ حديث جواز التحلل من الحج لعذر ﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ضُبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ فَقَالَ لَهَا لَعَلَّكِ أَرَدْتِ الْحَجَّ قَالَتْ وَاللهِ لَا أَجِدُنِي إِلَّا وَجِعَةً فَقَالَ لَهَا حُجِّي وَاشْتَرِطِي وَقُولِي اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي وَكَانَتْ تَحْتَ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ

ظاهر الحديث أن المرض عذر يجوز للحاج أن يتحلل من احرامه حيث أصابه ولاشىء عليه وفيه حجة لمن يقول بذلك من العلماء فان العلماء اختلفوا فى معنى قوله عز وجل (فان احصرتم) فقال

بعضهم لايكون الحصر الذى يكون عذراإلا أن يكون بعدو كما فعل سيدنا صلى الله عليه وسلم حين منعه أهل مكة الدخول وصالحوه أن يدخلها العام القابل ومنهم من قال إن الحصر يكون بالعدو والمرض لاغير وله فى هذا الحديث الذى نحن بسبيله حجة ومنهم من قال العذر أى عذر كان عدوا أومرضا أو غير ذلك من جميع الأعذار فهو حصر لكن حصل الاتفاق على أن العدو حصر وبقى الخلاف بينهم فيما عدا ذلك وكذلك اتفقوا أيضا أنه إن كان ضرورة لم يحج فعليه حجة الاسلام ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أنه لايخلو هذا الحديث أن يكون بعد هذه الآية أوقبلها فان كان الحديث قبل الآية فتكون الاية ناسخة للحديث على مذهب الجمهور لأن الناس قداختلفوا فى هذه الآية هل نزلت بعد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يفسخوا الحج فى العمرة كما أمر الله سبحانه وتعالى فى وادي العقيق حين قال عليه السلام «أتانى الليلة آت من ربى وقال لى صل فى هذا الوادى المبارك» على قولين وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما إن إتمام الحج هو أن يفسخ فى عمرة ونهى عنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وإن كان الحديث جاء من طريق أنه صلى الله عليه وسلم دخل عليها وهى تبكى فمن أجل ذلك سألها ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز الحكم على الشخص بقرينة الحال يؤخذ ذلك من سؤاله صلى الله عليه وسلم لها لما ظهر له من حالها لم كان بكاؤها لفواتها الحج من أجل مالحقها من كونها وجعة أوغير ذلك ليتحقق ماظهر له من حالها ﴿ وفيه دليل ﴾ على فضل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يؤخذ ذلك من أنهم ما كانت همتهم إلا الدين عليه كان بكاؤهم وبه كان فرحهم ويقوى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم إن المؤمن تسره حسناته وتسوءه سيئاته أو كما قال عليه السلام فهم كانوا أكثر الناس بعد نبيهم عليه السلام إيمانا وكذلك كان فرحهم بالايمان وحزنهم على مافاتهم منه مع العذر فما بالك بغير العذر والأمر اليوم على الضد سواء مانجد الفرح إلا بزيادة الدنيا ولا الهم إلا على نقصها فى الغالب إلا أهل التوفيق وقليل ماهم فانا لله وإنا إليه راجعون على ضعف الدين

وفيه دليل : على أن مساق اليمين فى درج الكلام لا شىء فيه إذا كان بارا فى يمينه يؤخذ ذلك من قولها ﴿ والله لاأجدنى إلاوجعة ﴾ وأقرها النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ولم يقل لها فى ذلك شيئا

وفيه دليل : على أن مايكون من الأشياء بغير واسطة أثر الحكمة ينسب إلى الله سبحانه وتعالى يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قولى اللهم محلى حيث حبستنى ﴾ فلما كان حبسها بالمرض وليس لأحد فيها من أثر الحكمة شيء وهو التسبب نسب الحبس به إلى الله تبارك وتعالى

وفيه دليل : على أن من فصيح كلام العرب تسمية بعض الشىء بالكل يؤخذ ذلك من قول سيدنا صلى الله عليه وسلم ﴿ حجى واشترطى ﴾ ولم يعين عليه السلام بمعنى الإحرمى بالحج فسمى الاحرام وهو ركن من أركان الحج وجزء منه حجا ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن يقال مافائدة إخبار

الراوى عنها أنها كانت تحت المقداد ﴿ والجواب ﴾ أن فيه من الفقه أن المرأة لا تشاور زوجها فى الحج لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال حجى واشترطى ولم يأمرها بأن تشاور زوجها فدل ذلك على أنه ليس له أن يمنعها من الحج ولذلك نص العلماء على أنه ليس للزوج أن يمنع زوجته من الحج إذا كانت ضرورة وفى منعها من التطوع خلاف ولأهل الصوفة أسوة فى الصحابة رضى الله عنهم لأن ما فرحهم إلا بالدين ولا همهم إلا على ما أتاهم منه وقال من كان فرحه بحسن دينه ففرحه فى الدارين لا ينقضى ومن كان فرحه للدنيا فمن قريب عاد الفرح هما

(٢٠٧) ﴿ حديث كراهيته ﷺ أن يأتى الرجل أهله طروقا ﴾

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْرَهُ أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ طُرُوقاً

ظاهر الحديث يدل على أن كراهية النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتى الرجل أهله على غفلة وهم لا يعلمون بمجيئه وذلك إذا كان فى سفر والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذه الكراهية لحكمة تعلم أم لا ومن فعل ما كرهه النبي صلى الله عليه وسلم هل يكون على بابه من أن فاعل المكروه لا شىء عليه والتارك له مأجور أم لا وهل يتعين ذلك إذا فهمنا العلة أم لا ﴿ فأما الجواب ﴾ على قولنا ما الحكمة فيه فقد بينها صلى الله عليه وسلم فى غير هذا الحديث فقال « حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » لأنه صلى الله عليه وسلم ينظر لكل ما يكون فيه صلاح وتوادد بين أمته فيرشدهم إليه فلما كانت غيبة الرجل عن أهله توجب لهن ترك التطيب وترك التزين فى الغالب من عاداتهن والطيب لبعض النسوة إذا لم تفعلن منه شيئا يبدو منهن شىء لا يعجب الزوج وربما يكون من أجلها الفراق بينهما أو تقع فى النفوس كراهية وربما تسوء العشرة بينهما من أجل ذلك فأرشد صلى الله عليه وسلم إلى ما فيه ستر العيوب وسبب إلى التوادد وحسن العشرة التى هى من الايمان ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن زينة المرأة لزوجها لا تكون إلا بما هو على لسان العلم من التطيب بالطيب المشروع لهن وبحسن الثياب على قدر حالهن من جدة أو غيرها ولا يكون بتغيير خلق الله تعالى ولا بمكروه ولا بتدليس فان ذلك كله ممنوع شرعا ومن حاول أمرا بمعصية فهو أبعد له مما يرجوه وأقرب إليه مما يكرهه ﴿ وأما قولنا ﴾ هل على من فعل ذلك المكروه شىء فقد روى أن بعض من كان فى زمانه صلى الله عليه وسلم وسمع تلك الكراهية أنه لما قفل من بعض أسفاره حمله الشوق إلى أهله أن أتاهم طروقا فوجد مع عياله غيره قد خلفه فيهم واشتهرت قصتهم وافتضحوا فى المدينة قال العلماء هذا عقاب له لمخالفته السنة أعاذنا الله من مخالفتها بمنه ولا عقاب أشد مما جرى على هذا المذكور مع العذر فكيف حال من يفعله دون عذر ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يتعدى الحكم فهذه العلة التى ذكرناها حيث وجدنا وجها

من الوجوه يكون فيه سبب إلى التوادد وحسن العشرة أوستر العيوب ولايكون فيه مخالفا للسان العلم ندبا إلى فعله ومن هذا الباب نص الفقهاء على أنه لايدخل الرجل بيته حتى يتنحنح أو يتكلم أويعمل حركة ماينبىء بها أهله أنه داخل عليهم من أجل أن تكون على حال لاتريدأن يراهازوجها عليها ومما يقوى ذلك أنه جاء بعض الصحابة فقال للنبي صلى الله عليه وسلم أستأذن على أمي قال «نعم» فقال يارسول الله وأنا أخدمها فقال له صلى الله عليه وسلم «أتحب أن تراها عريانة» قال لا قال فاستأذن عليها إذا» ومن طريق النظر أن البشرية لها ضرورات بعضها لايحب أحد أن يطلع عليه وهو فيها

وفيه دليل: على ستر العيوب ما كانت يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام كره دخول الرجل على أهله طروقا وقد جعل بين الزوجين من المكاشفة ما بينهما واطلاع بعضهم على جميع جزئيات صاحبه باطنة وظاهرة مالا خفاء بها على أحد حتى أنه لايمكن أن يخفى عليه من عيوب صاحبه فى الغالب شيء فكيف به فى الغير فذلك من باب أحرى فالشأن أن يكون المرء شأنه ستر عيوبه فى الدنيا والآخرة ومن الحق أن يسترها فى الدنيا ويفضح نفسه فى الآخرة وقد قال صلى الله عليه وسلم «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس» فان شغله بعيبه هو اهتمامه بزواله وتغطيته فى الدنياوالآخرة وطوبى شجرة فى الجنة من أحسن شجرها ﴿وفيه دليل﴾ لأهل السلوك الذين يقولون «إنما الصديق الذى يهدى إليك عيوبك أى ينبهك عليها فتصلحها ومثل ذلك ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يكتب لعماله رحم الله من أهدى الينا عيوبنا فكتب إليه بعض عماله أنه بلغنى أنك لبست ثوبين وأكلت بادامين فقال له أما ما كان من الثوبين فلبرد اصابنى وأما الادامان فكانا خلا وزيتا ولا أعود وجزاك الله خيرا فذوا الهمم السنية والفحولية العلية نسجوا على منوالهم واستنوا بسنتهم واخو التحنيث ملاعنده من حال القوم وازع ولا يربعه من حسيس

(١٠٨) ﴿حديث جواز الشفاعة﴾

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْعَبَّاسِ يَاعَبَّاسُ أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ رَاجَعْتِيهِ قَالَتْ يَارَسُولَ اللهِ أَتَأْمُرُنِي قَالَ إِنَّمَا أَشْفَعُ قَالَتْ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ

ظاهر الحديث يدل على إعذاره ﷺ لذوى الابتلايات وشفاعته لهم والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ جواز شفاعة الحاكم لمن تحت أيالته والمشفوع عنده بالخيار فى قبول الشفاعة وردها

لعذر يكون به بخلاف الحكم فانه ليس له فيه اختيار على أى حال كان يؤخذ ذلك من قولها ﴿أتأمرنى﴾ فقال لها صلى الله عليه وسلم ﴿إنما أشفع﴾ فلم تقبل الشفاعة لما كان بها من عذر شدة بغضها له ويعلمها بشفقة النبي صلى الله عليه وسلم على الجميع على حد سواء (وفيه اشارة) إلى أن الشافع بنفس الشفاعة يحصل له الأجر وليس من شرط ذلك قضاء الحاجة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام إنما أشفع فقوة الكلام تعطى أنه ما كان قصده عليه السلام الا نفس الشفاعة لاغير وقد بين ذلك الكتاب العزيز والسنة الواضحة بالتصريح أما الكتاب فقوله تعالى (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) ولم يشترط فيها قبول الشفاعة وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم «اشفعوا تؤجروا ويخلق الله على لسان نبيه ماشاء» وفيه أيضا دليل على أن يشفع الفاضل عند المفضول يؤخذ ذلك من أن سيدنا صلى الله عليه وسلم هو الفاضل وقد شفع عليه السلام عند أمة معتقة ﴿وفيه دليل﴾ على أن من حسن الصحبة تنبيه صاحبك على ان يعتبر فى آيات الله تعالى وأحكامه ليحصل له من قوة الايمان ما حصل لك يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم «ياعباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثا» ﴿وفيه دليل﴾ على أن نظره صلى الله عليه وسلم كله كان بحضور وفكرة يؤخذ ذلك من تنبيهه عليه السلام للعباس على ما كان من بريرة ومغيث ﴿وفيه دليل﴾ على أن ما خالف العادة من أى الوجوه كان فانها آية ينبغى التعجب منها والاعتبار فيها يؤخذ ذلك من أنه لما كان العرف بين الناس أن من أحب شخصا وأكثر من خدمته فان نفسه تميل إليه وقد يكون من أجل ذلك الحب له وقد قال صلى الله عليه وسلم «جبات القلوب على حب من أحسن إليها» والاحسان عام من وجوه فقد يكون بالمحسوس من حطام الدنيا وقد يكون بالتخدم أو حسن الكلام أو مايكون به ادخال مرور ما على النفس فانها بذلك تميل إلى فاعله وقد تميل بمجرد المدح لها فلما كان حب مغيث بريرة وتخدمه لها وبكاؤه عليها ومشيه خلفها وذلك كله مما تستمال به النفوس لاتزيد فيه بذلك إلا بغضا كان موضعا للتعجب والاعتبار فى قدرة الله تعالى ولذلك قال بعض أهل التوفيق «إذا كانت حسناتى سيئاتى فبماذا أتقرب» ومن هنا اعتبر أهل التوفيق وخافوا مع ماهم عليه من حسن الحال أن يقال لهم «لاأقبل منكم شيئا» أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه ﴿وفيه دليل﴾ على حسن أدب جميعهم أحرار وعبيد يؤخذ ذلك من حسن جوابها فى مراجعته عليه السلام بأن ابدت عذرها بقولها فلا حاجة لى فيه ولم تفصح برد الشفاعة بعد أن سألت هل ذلك أمر أم لا (ويترتب عليه) أن من حسن الأدب إلتماس العذر إلى أهل الفضل ولا ترد لهم شفاعة مواجهة بل يكون بدل ذلك تبيين العذر المانع لقبول شفاعتهم ﴿وفيه دليل﴾ على أن كثرة الحب تذهب بالحيا من الغير ولا يرى الا ماهو فيه يؤخذ ذلك من حال مغيث كونه يمشى خلف بريرة ودموعه تسيل ولا يخفى ذلك من

هناك ولا من ينظر إليه لما غلب على قلبه من كثرة حبها وبهذه الطريقة أعنى كثرة الحب بالشيء تميز أهل الدنيا والآخرة فلما أن كان أهل الدنيا قد غلب على قلوبهم حبها لم ينفعهم ما تليت عليهم من الآيات والمواعظ ولا ما جاءهم من البلايا فيها كل ذلك قد تعاموا عنه ولم يروا سوء ماهم بسبيله أعاذنا الله من ذلك بمنه ولما أن كان أهل الآخرة قد حصل لهم من المعرفه بها وحبهم لمولاهم ماحصل لهم لم يروا من الدنيا شيئا وإن كانوا فيها ومع أهلها ﴿ومما يذكر﴾ عن بعض سادات أهل السلوك أنه كان مارا مع أصحابه على بعض الجبانات ونسوة ينحن على ميتهن فترك أصحابه ودخل معهن فتعجب أصحابه وتركوه وانحرفوا عنه حتى راحت النسوة وبقى هو فى حاله فى ذلك الموضع فأتاه أصحابه وجعلوا يعتبونه على ماوقع منه فقال لهم ما رأيت مما تقولون شيئا وإنما رأيت قوما يبكون على ذنوبهم فدخلت أبكى معهم على ذنوبى وخلفونى وراحوا فتعجب القوم من غلبة حال الخوف عليه حتى لم يبق له ميز إلا ما كان فيه ولذلك يروى عن رابعة العدوية فى قولها فيما غلب عليها من حب مولاها

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك لى الحجب حتى أراكا

وقد قال صلى الله عليه وسلم «حبك الشيء يعمى ويصم» لكن شتان ما بين الحبين وقد قال بعض أهل التوفيق فى الترجيح بين الأشياء المحبوبات فمن سره أن لا يرى ماسوءه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا فكل ما سوى مولاه مفقود وهو سبحانه الواحد الموجود فى كل حال جعلنا الله من أهل محبته فى الدارين بفضله

(٢٠٩) ﴿حديث جواز ادخار قوت السنة﴾

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِى النَّضِيرِ وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمِ

ظاهر الحديث يدل على جواز ادخار قوت العيال سنة والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ ادخار قوت العيال سنة لا يخرج فاعله عن طريق الزهد لأن سيدنا صلى الله عليه وسلم رأس الزاهدين وسيدهم وكان عليه السلام يعطى لعيلله قوت سنة بسنة ولأن إعطاء قوت العيال هو من باب إعطاء الحقوق التى عليه ﴿وفيه دليل﴾ على أن معاملة الغير وإن كانوا أقرب الأقرباء إنما تكون بمقتضى الحكمة إذا قدر عليه يؤخذ ذلك من فعله صلى الله عليه وسلم لأنه لما أن فتح الله عليه بنخل بنى النضير وأجرى الله حكمته أن النخل لا يستغل إلا مرة فى السنة كان إذا جاء وقت

غنيها يعمل صلى الله عليه وسلم فى حق الغير وان كانوا أقرب الناس إليه وهم عياله صلى الله عليه وسلم على مقتضى الحكمة فكان عليه السلام يعطيهن نفقتهن إلى مثلها من قابل فذلك سنة وكان عليه السلام يعطى لكل واحدة منهن ثمانين وسقا من تمر وعشرين وسقا من شعير وكان عليه السلام فى خاصة نفسه المكرمة لا يدخر شيئا وكن رضى الله عنهن على حسب ما يفتح الله تعالى لهن فكن يؤثرن بما يفتح الله عليهن حتى أنه قد ذكر عنه صلى الله عليه وسلم أنه أتى له بكبش ففرقه بما حبس لعياله إلا رأسه فقالت له إحداهن ذهب الكبش كله إلا الرأس فقال عليه السلام مجاوبا لها بل بقى كله إلا الرأس هو الذى ذهب أو كما ورد ﴿ ويترتب ﴾ على هذا من الفقه أنه لا يحمل الراعى من له عليه رعاية على الزهد بالجبر ولا بأن يحبس له من حقه شيئا لعله يزهد بل يوفى له حقوقه ويندبه بعد إلى الزهد ويرغبه فيه فى خاصة نفسه يحملها على ذلك على مايختاره ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الزهد ليس من شرطه خروج المال عن اليد وإنما الزهد خروج المال عن القلب وأن لا يتعلق به وأن يصرفه فيما يرضى به ربه يؤخذ ذلك من مسك سيدنا صلى الله عليه وسلم نخل بنى النضير ولم يخرج عنها حتى مات وبقيت بعده وكان تصرفه فيها كلها على ما يرضى ربه ويقربه إليه وقد زاد ذلك بيانا بقوله عليه السلام فى حديث غير هذا «ليس الزهد بتحريم الحلال وإنما الزهد بأن تقطع الاياس عما فى أيدى الناس» أو كما قال عليه السلام فتكون بما فى يد الله أوثق بما فى يدك وقد قالت السادة رب تارك وهو آخذ ورب آخذ وهو تارك لأن مدار الأمر على ما تحويه القلوب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن التصرف أيضا فى مصالح المال لا ينافى الزهد يؤخذ ذلك من بيعه صلى الله عليه وسلم نخل بنى النضير لأن البيع من جملة التصرف فى المال وقد كان عليه السلام يبعث من يخرص عليهم وينظر فى مصالحها وقد قال بعض أهل المعاملات المحققين إن أعلا المراتب الذى يشارك الناس فى الظاهر على لسان العلم ويكون فيما بينه وبين مولاه على الكمال من حسن الزهد والخدمة المرضية فان الخروج عن العادة الجارية بين الناس هو من الضعف فى الحال لأن المخالطة خيرها متعد وهو فى ذلك متبع للسنة وهى أعلا الطرق ولكن بشرط أن يقدر على ذلك فان وجد ضعفا فالهرب بالكلية أو يكون لا يجد كيف يمشى فى ذلك على لسان العلم فالهرب الهرب ويبقى كما أخبر سيدنا صلى الله عليه وسلم حين أخبر عن الفتن فقال له بعض الحاضرين ما تأمرنى به إن أدركنى ذلك الزمان قال يلزم إمام المسلمين وجماعتهم قال فان لم يكن لهم أمام ولا جماعة قال يعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك أو كما قال عليه السلام ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن ما زاد على ادخار قوت السنة للعيال فليس من التوكل ويكون ذلك من باب الادخار يؤخذ ذلك من كونه لم يجىء عنه عليه السلام فى هذا الحديث ولا فى غيره أنه زاد

عياله على قوت السنة شيئا ﴿وفيه دليل﴾ على أن اتخاذ العيال لايخرج عن الزهد بل هوعون على الطاعة إذا كن من أهل التوفيق يؤخذ ذلك من اتخاذه عليه السلام العيال وقد زاد ذلك بيانا بقوله عليه السلام « النكاح من سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى » وقد كان عمر رضى الله عنه يقول إنى لأتزوج النساء ومالى إليهن حاجة رجاء أن يخرج الله من صلبي من يكثر به محمد صلى الله عليه وسلم الأمم يوم القيامة لكن بشرط أن يقدر على القيام بحقهن وإلا فلا يجوز له ذلك ووظيفته التعفف والصبر والصوم والصون حتى يلطف الله تعالى به ويكون نيته أنه إن قدر على الزواج أنه يتزوج اتباعا لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فيكون مأجورا على نيته

(٢١٠) ﴿حديث جواز عمل الرجل فى البيت مع أهله ومحافظته على الصلوات﴾

عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ فِى الْبَيْتِ فَقَالَتْ كَانَ فِى مِهْنَةِ أَهْلِهِ فَإِذَا سَمِعَ الأَذَانَ خَرَجَ

ظاهر الحديث يدل على دوام محافظة النبي صلى الله عليه وسلم على أوقات الصلوات والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن فى هذا دليلا على أن خلقه عليه السلام وسيرته على مقتضى القرآن لأن الله عزوجل يقول (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) أى ملزومة بذلك الوقت فلا يؤخرها عنه فكان حاله عليه السلام بمقتضى هذا الحديث كذلك ﴿وفيه دليل﴾ على أن الضروريات مع أوقات الصلوات لا يلتفت إليها وإنما يشتغل بالصلاة يؤخذ ذلك من قولها كان فى مهنة أهله فاذا سمع الأذان خرج أى اشتغل إذ ذاك بالخروج فلم يلتفت عليه السلام إلى شغل ولا غيره ﴿وفيه دليل﴾ على حسن خلقه عليه السلام وتواضعه يؤخذ ذلك من اشغاله عليه السلام بنفسه الكريمة فى بيته بمهنة أهله

وفيه دليل : على أن من السنة التواضع مع الأهل والتصرف لهن ومعهن فى الأشياء الممتهنة وإن حقر قدرها فان فى ذلك تطييبا لنفوسهن ﴿وفيه دليل﴾ على جواز السؤال عن بواطن أحوال أهل الفضل لمن يعلمها لأن يقتدى فى ذلك بهم يؤخذ ذلك من سؤال الأسود بن يزيد عائشة رضى الله عنها عما كان يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته فجاوبته ولم تنكر عليه ﴿وفيه دليل﴾ على فقه عائشة رضى الله عنها ونبلها يؤخذ ذلك من حسن جوابها بأن قالت كان فى مهنة أهله لأن هذا اللفظ يعم جميع أنواع ماتحتاج البشرية إليه مما يحسن قوله ومما يستباح ذكره فأبدعت فى حسن الجواب

وفيه دليل : على أن من عرف من أحوال بواطن أهل الفضل شيئا ويسأل عن ذلك يخبر به لأنه من الدين إلا أنه يحتاج إلى أدب ومعرفة فى الجواب كمثل هذه السيدة حتى تحصل الفائدة للسائل

ولا يكون فيما يذكره إلا ما أن لو كان الشخص حاضرا لم يكره ذلك ﴿وفيه دليل﴾ على ما فضل الله تعالى به سيدنا صلى الله عليه وسلم من القوة فى الدين وسعة الصدر لذلك وحمله ذلك على الدوام يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام إذا خرج إما لصلاة كما أخبرت هنا أو لما يصلح لأصحابه ولأمته على ماتقرر من نقل أحواله عليه السلام فانه لم يجىء عنه عليه السلام أنه خرج سدا ولا فعل شيئا عبثا فكان عليه السلام فى بيته حيث يستريح الناس مشغولا بمهنة أهل بيته كما أخبرت هنا وبالليل فى التهجد فهذه مجاهدة دائمة لا يحملها وضع البشرية إلا بمادة ربانية ﴿وفى هذا دليل﴾ لأهل الطريق الذين جعلوا طريقهم دوام المجاهدة وأن لا فترة لا باطنا ولا ظاهرا فنعم ما به اقتدوا فسمعوا وسمعنا ففهموا ما عنه عجزنا فأحسنوا فيما قالوا وفعلوا فمن أجل هذا فضلوا علينا

(٢١١) ﴿حديث الأمر بذكر اسم الله تعالى على الطعام والأكل مما يلى الآكل﴾

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اذْكُرُوا اسْمَ اللهِ وَلْيَأْكُلْ كُلُّ رَجُلٍ مِمَّا يَلِيهِ

ظاهر الحديث الأمر بذكر الله تعالى عند الأكل والأمر أيضا بأن يأكل كل رجل مما يليه والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هذان الأمران على حد سواء فى الوجوب أو الندب أم لا وقوله اسم الله هل هو اسم مخصوص أو أى اسم ذكر من اسماء الله عز وجل أجزأ أو هل من شرط الاسم أن يكون متصلا بالأكل أم لا وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿مما يليه﴾ هل فى كل الأطعمة فيكون الأمر عاما فى جميع أنواع الأطعمة أم لا وإذا كانت أطعمة مختلفة هل يجزىء فيها تسمية واحدة أو لكل طعام تسمية وهل هذا الأمر يتناول الرجال دون غيرهم أو هو للرجال وغيرهم على حد سواء ﴿فأما قولنا﴾ هل الأمران على حد سواء فى الوجوب أو الندب فليسا على حد سواء فى الطلب لأن التسمية على الطعام عند الأكل سنة والأمر بأن يأكل مما يليه مندوب إليه والتسمية على الطعام مما شرع فى هذه الأمة المحمدية بمقتضى هذا الحديث وأحاديث كثيرة وهو من السنة الابراهيمية وقد قال عز وجل (ملة أبيكم ابراهيم) وذكر عن الخليل صلى الله عليه وسلم أنه جاءه ملكان على صورة ضيوف يختبرانه بما ذا اتخذه الله خليلا فقدم إليهما الطعام فتوقفا عن أكله فقال لهما كلا فقالا لا نأكل إلا بالثمن فقال ثمنه أن تسميا الله تعالى عند ابتدائه وتحمداه عند فراغه فنظر أحدهما إلى الآخر وقال يحق أن يتخذه خليلا وقد قال سيدنا صلى الله عليه وسلم بعد ما أمر بالتسمية عند الأكل والشرب فيمن لم يسم أكل الشيطان معه وشرب معه قال تعالى (ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) ﴿وأما قولنا﴾

هل هذا الاسم الذى يذكر على الطعام أو الشراب هو اسم مخصوص او أى اسم ذكر من أسمائه سبحانه أجزأ ظاهر اللفظ لا يعطى تخصيصا فأى اسم ذكر من أسمائه سبحانه أجزأ وأما الذى جرى الاستعمال به فذلك بسم الله ومن زاد الرحمن الرحيم فهذه جملة أسماء فقد أتى بما أمر به وزيادة والزيادة من الخير خير ولم أر أحداً ينكر ذلك إلا عند الذبح لأنك تذكر الرحمة وتذيق البهيمة العذاب وليس ذلك من خلق الايمان لأن الله عز وجل يقول (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) ولا يعتقد أيضا أن ذكر الرحمن الرحيم فى التسمية على الطعام مما أمرت به فتزيد فى الدين ماليس فيه وهو لا يجوز فان زدتها تبركا فلا بأس لأنه لولا رحمته عز وجل ما أطعمك وسقاك ولاسيما مع المخالفة لأمره وارتكاب نهيه فما بقى ما به من عليك من ذلك إلا من طريق الرحمة والفضل والتزامها أيضا بدعة وإنما الشأن إن أردت اتباع السنة أن تقول كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان عند الأكل يقول «بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا» وحينئذ تأكل فتحصل لك بركة الاسم الأعظم وبركة السنة المحمدية ﴿ وأما هل ﴾ من شرط التسمية أن تكون متصلة بالأكل أم لا فظاهر الحديث يعطى ذلك لأنه أتى بالواو التى لا تعطى رتبة والنقل من سلف إلى خلف على أن العمل على اتصالها إلا إن كان نسيانا فلا يؤاخذه به لقوله عليه السلام «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان» إلا أنه قد احكمت السنة فى الذى ينسى التسمية عند أول أكله وشربه إذا ذكر أن يقول عند ذلك بسم الله أوله وآخره فانه قد روى أن شخصا أكل بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم ونسى التسمية فلما ذكر قال كما قدمنا فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم وقال رأيت الشيطان أكل معه أولا فلما قال بسم الله أوله وآخره قاء الشيطان كلما أكل ﴿ وأما قوله ﴾ عليه السلام ﴿ وليأكل كل رجل مما يليه ﴾ هل هو فى كل طعام أى نوع كان فظاهر اللفظ يقتضى العموم لكن قد قال العلماء إن ذلك فى الثريد وما أشبهه لأنه كله سواء وأما إذا كان الطعام على غير ذلك وفيه أنواع مختلفة فلك أن تجيل يدك حيث تريد لكن بأدب مع الاخوان لأن الأدب من السنة وأما إن كان الطعام يابسا مثل التمر والفواكه فلك الخيار أن تأخذه من حيث شئت وإن كان مائعا فلا يخلوا أن يكون على صفة واحدة أم لا فان كان على صفة واحدة فحكمه حكم الثريد تأكل مما يليك لا غير وإن كان فيه اختلاف فلك أن تجيل فيه إلا أنه بأدب وقد جاء أنه قدم له صلى الله عليه وسلم لحم فيه دباء فجعل عليه السلام يتبع الدباء فى القصعة ﴿ وأما قولنا ﴾ إن كان الطعام يختلف به أى يؤتى بطعام بعد طعام هل يجزىء فيه تسمية واحدة أم لا فلا يخلوا أن تكون تعاينه وتعلمه ويكون الأكل متصلا بعضه ببعض أو لا فان كنت تعاينه وتعلمه والأكل متصلا فتسمية واحدة تجزىء مالم تعين نوعا واحدا من ذلك تفرده من غيره كما تفعل عند رميك على الطير إذا كانوا جماعة أو الظباء وعينت الجميع فأى شيء أخذت منها

تتناوله تسميتك وإن قصدت واحدا بعينه وأخذت غيره لم تتناوله التسمية وقد نص الفقهاء أنه إذا دخلت حديقة وفيها أنواع من الثمار ونويت عند دخولك أن تأكل من كل ثمرة لقيت وسميت بهذه النية أجزأتك التسمية عن كل ماتأكل فى تلك الحديقة فى وقتك ذلك وإن كانت أشجارها متباعدة بعضها عن بعض وذلك يقتضى تعيين الأكل أيضا وإن أنت لم تسم عند دخولك إلا على الثمرة التى لقيت ولم تعين غيرها فتؤمر إذا انتقلت إلى غيرها أن تسمى عليها ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا الأمر خاص بالرجال لاغير أو الرجال موجهون بالخطاب وهو متناول الكل ﴿ فالجواب ﴾ أن تقول ليس فى الدين تخصيص لبعض دون بعض بل اشترك الكل فى جميع الأوامر إلا مادل دليل على تخصيصه ولا دليل هنا على التخصيص فهو عام فى الكل وفى هذا الحديث وأشباهه دليل على بذل جهده صلى الله عليه وسلم فى النصح والتعليم ﴿ ويترتب ﴾ على ذلك من الفقه فيما يخصنا أن من علامة السعادة للشخص أن يكون معتنيا بمعرفة السنة فى جميع تصرفه والذى يكون كذلك هو دائم فى عبادة فى كل حركاته وسكناته وهذا هو طريق أهل الفضل حتى أنه ذكر عن بعضهم أنه بقى سنين لم يأكل البطيخ فقيل له فى ذلك فقال لم يبلغنى كيف السنة فى أكله فلا آكله حتى أعلم كيف ذلك وكيف لا والله سبحانه يقول فى حقه (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) والاتباعة الكاملة إنما تصح بأن تكون عامة فى كل الأشياء جعلنا الله من أهلها فى الدارين بمنه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

٢١٢ ﴿ حديث ماخصت به العجوة من المنفعة ﴾

عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةٍ لَمْ يَضُرَّهُ فِى ذَلِكَ الْيَوْمِ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ

ظاهر الحديث يدل على أن من اكل فى يوم سبع تمرات عجوة لايضره فى ذلك اليوم سم ولاسحر والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذه العجوة من أى بقعة كانت سواء أوهى من بقعة معينة وهل تكون فى حين طراوتها أو أى وقت أكلت كانت طرية أو مدخرة وهل يحتاج فى أكلها إلى نية أم لا وهل تعرف الحكمة فى كونها خصت بالنفع فى هذين الشيئين أم لا وهل هذا عام فى المؤمن والكافر والطائع والعاصى أو ذلك خاص بالمؤمنين لاغير فأما قولنا هل تلك العجوة تكون من بقعة مخصوصة أم لا ﴿ فالجواب ﴾ أنه قد جاء حديثان أحدهما أنها المدينة والآخر أنها من العوالى فان حملنا هذا الحديث المطلق الذى نحن بسبيله على هذين الحديثين فتكون من عجوبة العوالى أو المدينة وإن قلنا إن لكل حديث حكما فتكون مطلقة من حيث كانت نفعت فيجىء النفع إذا كانت من العوالى أو المدينة

بلاشك ويبقى النظر إذا كانت من غيرها ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يكون كلها عند جناها أو أى وقت أكلت لأن الاسم يتناولها ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يحتاج فى ذلك إلى نية أولا فكل ما كان متلقى من الرسول صلى الله عليه وسلم فالأصل فيه النية ومما يدل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) لأن المؤمن إذا أخذ ما أمر به موقنا بذلك وجد الفائدة كما وعد وزيادة وإذا أخذه بغير نية فقد يبطىء الأمر قليلا فيقع له تردد فيحصل فى بحر التلف ومما روى مثل هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج مرة إلى غزوة من غزواته فأمر الصحابة رضى الله عنهم بالتزود فتزود بعضهم وعجز البعض ولم يجدوا ما يشترون فأمر صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا رواحلهم ويخرجوا معه فخرجوا فلما بلغوا إلى أحد الأودية وهو كثير الحنظل أمرهم أن يمتاروا منه فكلهم فعلوا ما أمرهم به إلا شخصا واحدا فقال فى نفسه وما جاءبنا إلا إلى الحنظل وما عسى أن أفعل به فلم يأخذ منه إلا خمس حبات ورجعوا إلى المدينة وكان للشخص الذى لم يأخذ غير خمس حبات من الحنظل غلام تركه بالمدينة فى ضرورياته فلما سمع برجوعهم إلى المدينة خرج لأن يعين سيده فوجد الناس محملة رواحلهم وليس لسيده حمل فسأله عن ذلك فقال له ماجرى فقال له الغلام أمرك وبقى عندك شك وكيف وقع ذلك وما أخذت منه شيئا قال ما أخذت إلا خمس حبات وقد ذهب عنى بعضها فى الطريق فقال هاتها فأعطاه إياها فأكل الغلام منها فاذا هى مثل الشهد سوء فقال كل ترى ما حرمت فأكل فوجد مثل ماوجد الغلام فندم ندامة الكسعى والحديث الثالث حين جاء بعض الصحابة فشكى للنبي صلى الله عليه وسلم أن أخاه به بطن فأمره أن يسقيه عسلا فسقاه ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكوا إليه ثانية فأمره أن يسقيه عسلا كذلك فى الثالثة أو الرابعة فقال له عليه السلام صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلا فسقاه فشفى أخيه ﴿ وأما قولنا ﴾ هل تعرف الحكمة فى كونها تنفع فى هذين الشيئين ﴿ فالجواب ﴾ أنه لا طريق لنا إلى ذلك بل الله يخص من يشاء بما يشاء من جماد ونبات وحيوان إلى غير ذلك من جميع خلقه فمنها مايعلم من طريق التجربة مثل صنعة الطب وقد يخيب ويصيب ومنها ماهو من طريق إخبار الرسل صلوات الله عليهم وهذا لا يختلف أصلا لكن الغالب على الناس أنهم قد ركنت أنفسهم إلى قول الأطباء بلا تأويل وقد عاينوا منهم فى الغالب عدم النجح وهذا الذى لاشك فيه لأنه من طريق الرحمة للعباد لقوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فقليل منهم من يقبله وذلك علامة للحرمان فنسأل الله العافية وبعضهم يتأول ويقول هو حق لكن لانعرف التأويل فى كيفية العمل وهذا حيد عن الصواب لأنه لوكان فى أحد الأشياء التى أخبر بها صلى الله عليه وسلم وجه من الوجوه فى الكيفية فى عمله ماترك عليه السلام بيانه الا أخبر به (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) ﴿ وأما قولنا ﴾ هل ذلك خاص

بالمؤمنين أو عام فى المؤمن والكافر إن صيغة اللفظ تعطى العموم وأما ماقدمناه من قوله عز وجل (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) فتعطى الخصوص ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن السحر حق يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ولم يضره فى ذلك اليوم سم ولا سحر ﴿ وفيه دليل ﴾ على عظم قدرة الله تعالى وأنها لا تدركها العقول يؤخذ ذلك من كون السحر منفصلا عن الشخص لا يراه ثم يصل إليه منه ضرر حتى يجد ذلك الضرر فى بدنه محسوسا ومما يزيد ذلك إيضاحا قوله تعالى (وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) ﴿ وبقى بحث ﴾ فى قوله عليه السلام ﴿ لم يضره فى ذلك اليوم سم ولا سحر ﴾ هل يكون معناه العموم أو الخصوص فمعنى العموم أن الذى استصبح بالعجوة لا يضره سم إن شربه فى ذلك اليوم ولا سحر إن سحر ولا سم تقدم شربه على ذلك اليوم ولا سحر تقدم على ذلك اليوم عمله فتكون تلك العجوة توقف عنه ضرر ذلك السم الذى تقدم شربه فى ذلك اليوم وكذلك السحر أيضا وتحميه عن ضرر مايفعل منهما فى هذا اليوم ومعنى الخصوص أنه كل سم أو سحر يكون فى ذلك اليوم بعد أكله تلك العجوة لا يضره احتمل الوجهين معا لكن الأظهر الخصوص من طريق أنه أقل المحتملات فهذا مقطوع به ومن طريق النظر إلى أن هذا ورد من طريق الرحمة من الله تعالى ببركة هذا النبي العظيم صلى الله عليه وسلم فيكون الأظهر العموم لأنا نرى الترياق الكبير الذى هو من تأليف الأطباء الذى طريقه التجربة يدفع من السموم ماقد حصل منها فى البدن وما يأتى بعده فكيف بما هو طريقه طريق الرحمة والتفضل إلا أنه لابد فى ذلك من قوة يقين ونية حسنة كما ذكر عن عمرو بن العاص أنه جاءه رسول من العدو وبيده قارورة فلما دخل عليه سأله عن تلك القارورة التى هى بيده فقال له سم ساعة فقال وماعسى أن تفعل به فقال له إنى رسول لقومى لم يوجهونى قط فى أمر إلا جئتهم بما يحبون وهم قد وجهونى إليك فخفت منك أن لا تسعفنى فيما طلبوا فجئت بهذا السم فان لم تسعفنى بما طلبوا شربته فأموت ولا أرجع إليهم بما يكرهون فقال له ناولنى إياه فأعطاه القارورة وقال رحمه الله بسم الله لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا وشرب ذلك السم فعرق من جبينه ساعة ثم أفاق ومابه بأس فرجع الرسول من حينه إلى قومه وقال لهم اسلموا عن آخركم فان هذا رجل لا طاقة لكم به شرب سم ساعة فلم يضره فلتسميته بتحقيق النية ظهر ذلك الخير عليه وكذلك كل من قصد الله تعالى صادقا وجده حيث أمله وزيادة لأنه يقول جل جلاله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون ۞ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ۞ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ۞ ومن أصدق من الله قيلا ۞ ومن أصدق من الله حديثا) لكن من عين يقينه خفاشى لا يستطع أن يبصر شمس الهدى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) من غذى قلبه بالحرام لا يبصر إلا ظلاما فى ظلام (ظلمات بعضها فوق بعض) أعاذنا الله من الحرمان ومن كسب الاثام بمنه

(٢١٣) ﴿حديث الأمر بلعق اليد من أثر الطعام قبل غسلها﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَاماً فَلَا يَمْسَحْ يَدَهُ حَتَّى يَلْعَقَهَا أَوْ يُلْعِقَهَا

ظاهر الحديث النهى عن أن يمسح أحد يده إذا أكل طعاما حتى يلعقها أو يعطى غيره يلعقها والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هذا من كل الطعام وهل هذا لعلة مفهومة أو تعبد لا غير وهل ذلك خاص بالمسح أو عام فى المسح والغسل وقوله يلعقها هل يكون ذلك من جنسه لا غير أو من جنسه وخلاف جنسه إن أمكنه ذلك وفى المسح كيف يكون وفيما يكون ﴿فأما قولنا﴾ هل من كل طعام فليس على عمومه لأن من الأطعمة مالا يتعلق بيد الآكل منه شىء ومالا يتعلق منه شىء ولا يحتاج إلى مسح فلا يحتاج إلى أن يلعق ﴿وأما قولنا﴾ هل هو تعبد أو لعلة معقولة اللفظ لا يفهم منه ذلك لكن قوة الكلام تعطى أنه لعلة مفهومة وهى حرمة الطعام والتعظيم لنعم الله تعالى لأنه صلى الله عليه وسلم قد شدد فى هذا الباب أعنى تعظيم نعم الله تعالى واحترامها كثيرا وقد ورد أن ترك ذلك سبب إلى زوالها وقلما أزال الله تعالى نعمته من قوم فردها إليهم وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا أكل فى أهله وشبعوا تركوا القصعة حتى يأتى من يلعقها ﴿وقد حكى﴾ أبو هريرة أنه كان يوما به جوع شديد فلقيه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أراك شديد خلوف الفم فقال نعم فأمره عليه السلام أن يأتى معه إلى منزله فلما دخل أخرج له قصعة ليس فيها إلا لعقها قال فقلت فى نفسى وماذا تغنى هذه فلعقتها وشبعت أو كما قال ولقى صلى الله عليه وسلم وهو صائم لبابة خبز فى قذر فغسلها وأمر بلالا أن يرفعها له حتى يفطر وقال عليه السلام إن القصعة تستغفر للاعقها أو كما قال والأحاديث فى هذا النوع كثيرة ﴿وفى هذا دليل﴾ لأهل الصوفة الذين يفرغون من الأكل ويغسلون أيديهم ثم يشربونه تعظيما لنعم الله وتبركا بأثار شىء أكلوا عونا على طاعة الله تعالى ﴿وأما قولنا﴾ هل ذلك خاص بالمسح أو عام فيه وفى الغسل ﴿فالجواب﴾ أنه إذا كان فى المسح الذى قد ينتقل الطعام الذى تعلق باليد الشىء الممسوح فيه فكيف بالماء الذى يذهب عين الطعام فهو من باب أولى ﴿وفيه دليل﴾ على أن السنة المسح من الطعام وإنما الغسل من فعل الأعاجم أعنى إذا كانت اليد نظيفة فالغسل إذ ذاك من فعلهم وإن كان قد جاء أن الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر وبعده ينفى اللمم ويصح البصر فيكون الجمع بين هذين الحديثين بأحد وجهين ﴿أحدهما﴾ أن يكون الغسل لموجب له فقبل الطعام تكون اليد غير نظيفة والذى بعده يكون الطعام مما فيه دسم كثير لا يزيله المسح أو رائحة يكون فيها

تأذ وذلك مكروه أن يصلى به أو يكون فعله ذلك غبا لا يتخذه دائما فانه مخالف للسنة أو يكون الغسل لعدم الشيء الذى يمسح فيه والشأن أن يخرج من التشبه بأهل الكتاب الذى قد نهينا عن التشبه بهم ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يلعقها من جنسه أو من خلاف جنسه إذا أمكن ذلك فاذا فهمنا العلة كما قدمنا وهى من أجل حرمة الطعام فكل من يجوز لنا أن نعطيه طعاما يأكله ويأتى منه اللعق على وجه جاز لنا ذلك ما عدا أهل الملل ﴿ وأما قولنا ﴾ فيما ذا يكون لمسح وكيف يكون أما فيماذا ففى كل شيء طاهر لاحرمة له وأعنى بقولى لاحرمة له تحرزا من الخبز والكتاب وما أشبه ذلك أو مال الغير فان مسحك فيه ممنوع إلا باذن مالكه وقد جاء أنهم كانوا يمسحون تحت أقدامهم وأما الكيفية فان يكون الفعل برفق بحسب حالة الشيء الممسوح فيه وإنما ذكرنا الرفق فيه لقوله صلى الله عليه وسلم « ما كان الرفق فى شيء إلا زانه » حتى يكون فى فعلك أثر من السنة لأن الشأن فى هذا جعلنا الله من أهلها بفضله لارب سواه

(٢١٤) ﴿ حديث كراهية الأكل فى أوانى الكفار وجواز أكل ماصيد بالكلب المعلم وغيره ﴾

عَنْ أَبِى ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِىِّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قُلْتُ يَانَبِىَّ اللهِ إِنَّا بِأَرْضِ قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ أَفَنَأْكُلُ فِى آنِيَتِهِمْ وَبِأَرْضِ صَيْدٍ أَصِيدُ بِقَوْسِى وَبِكَلْبِى الْمُعَلَّمِ فَمَا يَصْلُحُ لِى قَالَ أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ آنِيَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَانْ وَجَدْتُمْ غَيْرَهَا فَلَا تَأْكُلُوا فِيهَا وَانْ لَمْ تَجِدُوا فَاغْسِلُوهَا وَكُلُوا فِيهَا وَمَا صِدْتَ بِقَوْسِكَ فَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلْ وَمَاصِدْتَ بِكَلْبِكَ الْمُعَلَّمِ فَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلْ وَمَا صِدْتَ بِكَلْبِكَ غَيْرِ الْمُعَلَّمِ فَأَدْرَكْتَ ذَكَاتَهُ فَكُلْ

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام ﴿ الأول ﴾ جواز الأكل فى آنية أهل الكتاب بعد الغسل إذا لم يوجد غيرها ﴿ والثانى ﴾ جواز أكل ما صدته بقوسك أو بكلبك المعلم إذا ذكرت اسم الله تعالى أدركت ذكاته أو لم تدركها ﴿ والثالث ﴾ ماصدت بكلبك غير المعلم فلا تأكل منه إلا ما أدركت ذكاته والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ التنزه عن استعمال أوانى أهل الكتاب مع وجود غيرها ﴿ الثانى ﴾ أنه اذا لم يجد غيرها جاز استعمالها بعد غسلها بالماء يؤخذ ذلك من أنه صلى الله عليه وسلم لم يبح له الأكل فى آنية أهل الكتاب بعد الغسل إلا عند الضرورة وهو عدم غيرها وأهل الضرورات لهم حكم خاص بهم وقد اختلف العلماء فى الآنية المتنجسة ماعدا الزجاج فانه لا يداخله مما جعل فيه شيء فالغسل يطهره وما عداه من الأوانى التى قد يختلط ماجعل فيها ببعض أجزائها مثل آنية الخشب والحنتم وما أشبهما على

ثلاثة أقوال قول بأنها لا تطهر وبأنها تطهر وبالتفرقة بأن يطول مكث الاناء فى الماء الزمان الطويل فتطهر وان كان قليلا لا يطهر ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الحكم فى الأمور للغالب عليها يؤخذ ذلك من أنه لما كان الغالب من أحوال أهل الكتاب أن النجاسة تحل فى أوانيهم أعطوا حكم النجاسة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ فان وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها ﴾ ويلحق هذا فى الحكم أهل البطالة وتحمل ثيابهم على النجاسة لأنها الغالبة عليهم فى كثرة أحوالهم وقد عد الفقهاء هذه العلة فى ثياب شارب الخمر أنه لا يصلى بها حتى تغسل ﴿ ومنها ﴾ وجوب التسمية على الصيد يؤخذ ذلك من تكرارها فى كل نوع من أنواع الاصطياد وإفصاحه عليه السلام فى جميع الأنواع بقوله وذكرت اسم الله ومنها قوله بقوسى وأباح له عليه السلام أكل ما صاد به إذا ذكر اسم الله عليه أدرك ذكاته أولم يدرك وهل هـذا خاص بالقوس دون غيره من السلاح أو يحمل جميع السلاح عليه فان قلنا يتعدى الحكم بوجود العلة فجميع السلاح المحددة التى تفرى وتنهر الدم يجوز ذلك بها مثل الرمح والسيف والسكين وما أشبه ذلك وقد نص على جواز ذلك أهل الفقه فى كتبهم على ما هو هناك مذكور وكذلك نقول فى قوله عليه السلام ﴿ وماصدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل ﴾ يتعدى الحكم إلى غير الكلب المعلم من جميع الحيوانات التى تفترس أنه إذا كانت غير معلمة وصيد بها الحكم فيها كالحكم فى الذى صيد بالكلب غير المعلم وكذلك ماصيد بالآلة التى ليست بمحدودة مثل الحجر والعصى وما أشبه ذلك إذا صيد بها ما يدرك ذكاته من ذلك أكل وإلا لم يؤكل منه شىء

وفيه دليل: على أن الحكم إذا نيط بعلة فعدمت ارتفع الحكم يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام فى الكلب غير المعلم أنه لا يؤكل ماصيد به إلا إن أدرك ذكاته فدل على أن التعليم فى الجارح يبيح ماصيد به وإن لم تدرك ذكاته ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن من حسن جوابك للسائل أن تعيد صيغة لفظه فيما سألك عنه وتجاوبه على كل نوع على حدة يؤخذ ذلك من تكرار سيدنا ﷺ لفظ ما سأله السائل عنه وجاوبه على كل نوع منها على حدته بقوله عليه السلام أما ما ذكرت من آنية أهل الكتاب إلى آخر الحديث ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن مالم يتحقق نجاسته يكره استعماله من غير ضرورة ويجوز استعماله عند الضرورة بلا كراهية يؤخذ ذلك من كون سيدنا ﷺ منع الأكل فى آنية أهل الكتاب مع وجود غيرها لأن تلك الآنية التى أكل فيها ليست النجاسة متحققة فيها بل هى مظنونة فمنع عليه السلام استعمالها مع وجود غيرها وأباحه عند الضرورة وهو عدم غيرها وفى هذا الوجه دليل لأهل الصوفة لأنهم يظنون فى أنفسهم كل مكر وخديعة فلا يستعملون ماتشير به عليهم شيئا إلا إن كان موافقا للكتاب والسنة بعد ما يلجؤن فى ذلك إلى مولاهم خوفا أن يكون تحت ذلك من وجه ما كما ذكر عن بعضهم أن نفسه رغبته فى الجهاد وأكدت ذلك عليه فقال لها هذا عندى محال أن يكون هذا منك على وجه لأن الجهاد من أقرب القرب ما أفعل ذلك حتى أسأل الله تعالى فى

أمرك فسأل مولاه سبحانه أنه يطلعه على ما أبطنته فقيل له فى النوم أنها قد سئمت من القيام والصيام فأرادت أن تموت فى الجهاد لكى تستريح من التعب ويبقى لك حسن الثناء بعد الموت فقال لها مالى جهاد إلا فيك ولا أزال أقتلك بالقيام والصيام حتى تموتى لأنهم سمعوا فيها قول مولاهم حيث قال تعالى (إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى) فمن رحمته عزوجل بهم أن ألهمهم مخالفتها وتهمتهم لها إلا حيث جاء الأمر بالنظر لها فى وجه ما فنظرهم لها فى ذلك الوجه ليس لها وإنما هو من إجلال الأمر بذلك فمن أتم الشجاعة والرجولية مقاتلة العدو ومن أدب الجهاد قتال من يليك من الأعداء وأقربهم إليك نفسك وهو كذلك فيهما فجاهد إن كنت ذا بأس وشطارة وإلا فوصف الخنوثية بك أولى

(٢١٥) ﴿ حديث جواز أكل لحم الخيل ﴾

عَنْ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ ذَبَحْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَسًا وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ فَأَكَلْنَاهُ

ظاهر الحديث يدل على جواز أكل لحم الخيل بغير كراهية والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن السنة فى ذكاة الخيل هو بالذبح لا بالنحر يؤخذ ذلك من قولها ذبحنا وقد جاءت رواية نحرنا فعلى هذا يجوز أكله بالذبح ويجوز بالنحر وقولها ونحن بالمدينة ﴿فيه دليل﴾ على أن ذلك كان لغير ضرورة ويؤخذ ذلك من قولها فأكلناه إن ذكاته ما كانت لعلة بالفرس وإنما كانت بمجرد الأكل لا غير وفى هذا دليل للشافعى رحمه الله فى إجازته أكل لحوم الخيل مطلقا والدليل معه فى ذلك وأما الامام مالك رحمه الله فلم يقع منه مخالفة للحديث فانه لم يحرمه وإنما كرهه وبيان كراهيته أنها ما تستعمل ولا فائدتها غالبا إلا للجهاد فاذا كثر استعمال أكلها كان سببا إلى قتلها وقتلها يؤول إلى نقص من الارهاب للعدو ﴿وفيه وجه آخر﴾ لأن أكل لحمه على ما قيل يقسى القلب وما يقسى القلب ينافى أوصاف أهل الايمان فجاءت كراهيته فيه من باب سد الذريعة التى هى أصل مذهبه ﴿ووجه آخر﴾ أن أكله فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم كان قليلا وإن كان جائزا فدل على قلة استعماله فعمل فى ذلك على العمل بأن كرهه حتى يكون استعماله قليلا كما كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فجاء فيه متبعا للسنة بطريقة حسنة وفى قولها ونحن بالمدينة فائدة أخرى وهى أن ذلك كان بعد تمكن الاسلام وظهوره وفرض الفرائض وتحديد حدود الشريعة لأنه ما فرض من الفرائض بمكة إلا الصلاة لا غير وجميع الفروض إنما كانت بالمدينة فيما أعلم

(٢١٦) ﴿حديث النهى عن قتل الحيوان صبرا﴾

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَى أَنْ تُصْبَرَ بَهِيمَةٌ أَوْ غَيْرُهَا لِلْقَتْلِ

ظاهر الحديث يدل على منع الحيوان كله عاقلا كان أوغير عاقل من أن يصبر للقتل والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن من السنة الرفق بجميع الحيوان عاقلا أوغير عاقل ﴿وفيه دليل﴾ على رحمة الله تعالى بعبيده على اختلاف أجناسهم وأنواعهم يؤخذ ذلك من نهيه صلى الله عليه وسلم عن أن تصبر بهيمة للقتل أوغيرها ومما يقوى ذلك أنه جاء من قتل عصفورا عبثا جاء يوم القيامة العصفور مستجيرا يقول يارب سل هذا لم قتلني عبثا وفي هذين الحديثين دليل على قهر الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه يؤخذ ذلك من كونه عز وجل لم يترك لأحد التصرف في شيء من الأشياء دقت أوجلت إلا وقد حد له كيفية التصرف فيه وإنه يحاسبه عليه دق أوجل جمادا كان أوغير جماد عاقلا أو غير عاقل ﴿وفيه دليل﴾ على عظيم عدل المولى سبحانه يؤخذ ذلك من اقتصاصه عز وجل للعصفور على دقته من العاقل الكبير إن قتله لغير منفعة أوصبره للقتل ﴿وفيه دليل﴾ على عظيم إحاطته عز وجل بجميع مخلوقاته يؤخذ ذلك من كونه عز وجل لايخفى عنه مثل هذه على دقتها ويحصيها ويعاقب عليها ولذلك هي الاشارة بقوله عز وجل (وكنى بنا حاسبين) ﴿وفيه دليل﴾ على أن صفاته عز وجل ليس كمثلها شيء يؤخذ ذلك من كون صفة الانتقام مع صفة الرحمة معا وفي فعل واحد لأن القتل دال على صفة الانتقام ثم في نفس فعل القتل الرحمة وهو منعه أن يصبر حيوان عاقلا أوغير عاقل للقتل فرفق به في نفس العذاب والانتقام وقد قال صلى الله عليه وسلم «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة» وصفة المحدث إذا وقع منه انتقام لايرحم ولو قدر على أكثر لفعل فبان بمقتضى أحكامه سبحانه وتعالى بوحيه أوعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لأنه مايحكم إلا عن الله كان بواسطة الملك بالوحي أومن تلقاء نفسه بمايلهمه الله عز وجل إليه فالكل عن الله وفي هذا دليل على أن صفاته جل جلاله ليس كمثلها شيء فانه ليس كمثله شيء (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فسبحان من تبدى بالدليل لذوى البصائر واحتجب بعظيم قدرته مع ايضاح دلائله عن أهل الجهالة والشقاوة جعلنا الله ممن عرفه بموله به عليه وتغمده في الدارين برحمته بمنه وكرمه

(٢١٧) ﴿حديث تحريم أكل لحم الحمر الأهلية وجواز أكل لحم الخيل﴾

عَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ وَرَخَّصَ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ

ظاهر الحديث يدل على تحريم لحوم الحمر الاهلية والرخصة في لحوم الخيل والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن ترخيصه عليه السلام في لحوم الخيل يوم خيبر إنما كان من أجل الضرورة لانهجاء

من طريق آخر فى هذا الحديث أنهم رضى الله عنهم لم ينحروا الخيل يوم خيبر إلا من أجل المجاعة التى لحقتهم ﴿ وفيه دليل ﴾ لمالك كما قدمناه فى الحديث قبل أنه وافق السنة فى كراهية أكل لحوم الخيل لأن لفظ رخص عند العذر تقتضى المنع أو الكراهية عند عدم العذر ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن يقال هل تحريمه صلى الله عليه وسلم لحوم الحمر وترخيصه فى لحوم الخيل تعبد لا يعقل له من جهة الحكمة معنى أو تعقل الحكمة فى ذلك ﴿ فأما قولنا ﴾ هل تعقل الحكمة فى ذلك فقد قال بعض العلماء إن الحكمة فى تحريم الحمر الأهلية هو أن الحمر ليس فى الحيوانات أبلد منها فآكل لحمها يكتسب منه ذلك فلا شفاقه عليه السلام على أمته منعهم من كل ما عليهم فيه ضرر فى الدنيا والآخرة كما حرم مولانا سبحانه الميتة وأحلها بعد ثلاث فذكر بعض العلماء من الحكمة فى ذلك أن الميتة فيها سمية كثيرة فمنعنا من أكلها لأجل الضرر الذى يعود علينا من سمها فاذا بقى المرء ثلاثا اشتدت سميته فى بدنه حتى عادت أشد من سم الميتة فأبيح لنا إذ ذاك أكلها لعدم الضرر لآكلها بل يحصل له بها قوى ومنافع فى إبقاء رمقه رحمة من الله تعالى بعبيده ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه إذا اجتمع ضرران أخذ أقلها يؤخذ ذلك من أنه لما كانت لحوم الحمر تكسب البلادة ولحوم الخيل تكسب القساوة كما ذكر نا فى الحديث قبل رخص فى لحم الخيل التى هى أقل ضررا وفى قوله ﴿ يوم خيبر ﴾ وجهان الواحد أنه دال على تثبته فى النقل لأن ذكر الموطنين الذين جرت فيها النازلة دال على حقيقة العلم بما أخبر به والوجه الآخر وهو كون القضية فى موطن مشهور بجمع كثير قد يرويه غيره فيحصل فيه تصديق له والتواتر فى الحديث يزيده قوة لأنه ينقله من كونه خبر آحاد إلى التواتر وهو أعلى درجة وينبغى من جهة الفقه أن يعرف الحكم بحيث ما قدر المرء أن يزيد فى إخباره على ما أخبر به قرينه حال تصديق مقالته فعل وفيما ذكرناه دليل على لطف الله تعالى بعبيده فيما أحل لهم وفيما حرم عليهم

وفيه دليل: على أنه عز وجل لا يحل ولا يحرم إلا عن حكمة وفائدة لنا عقلها من عقلها وجهلها من جهلها ﴿ وفيه دليل ﴾ على استغنائه عز وجل عن جميع خلقه وعن تعبداتهم إذ كل ذلك عائد بالنفع لهم وهو الغنى المستغنى ولذلك تنعم أهل العقول والمعاملات بكل حكم يصدر عن الله تعالى لعلمهم بأن ذلك رحمة منه عز وجل إليهم لم يشكوا فى ذلك فرجع لهم بقوة يقينهم التنعم بالنعماء والبلاء على حد سواء وكذلك روى عن بعضهم أنه قال لا أبالى على أى حالة أصبحت وأمسيت إنما هى حالة شكر أو صبر وكلاهما رحمة من الله تعالى هؤلاء فهموا قوله عز وجل (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله ما يقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيرا له » فمن عرف عف واستراح ومن جهل تكالب وما نجح ومن طلب العز بالجهل وقع الهوان به وما عز

(٢١٨) ﴿حديث النهي عن أكل لحوم كل ذي ناب من السباع﴾

عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ

ظاهر الحديث النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هذا النهي نهي تحريم أو نهي كراهية اختلف العلماء في ذلك فمذهب الشافعي رضي الله عنه ومن تبعه أنه نهي تحريم ومذهب مالك رحمه الله ومن تبعه أنه نهي كراهية وهل نهيه لعلة أو تعبد الظاهر أنه لعلة لأنه لو كان تعبدا لم يكن العلماء ليختلفوا فيه (وبقي البحث) في العلة فنقول والله أعلم لكونها تأكل الجيف فانها إذا افترست فالذي تفترسه جيفة لأنه غير مذكى فيكون شأنها مثل البقر والابل الجلالة التي تأكل العذرة وقد اختلف العلماء أيضا في أكل لحمها والحالة هذه فكرهه مالك ومن تبعه وأما رجيعها فهو نجس على المعروف وكذلك رجيع الطير المفترس نجس بلا خلاف ذكر فيه وهنا (علة صوفية) وهي لعزة نفسه وضرره ذل حتى لم يصلح أن يكون قوتا للمؤمنين ﴿ويترتب عليه﴾ من طريق النظر من أعز نفسه فذلك ذل لها ومن ذلها فقد أعزها ومما يقوى هذا البحث ما جاء عنه ﷺ «ما من أحد من بني آدم إلا برأسه حكمة بيد ملك فان تواضع رفع الملك رأسه بتلك الحكمة وقال له ارتفع رفعك الله وان ارتفع ضرب الملك رأسه بتلك الحكمة وقال له اتضع وضعك الله» أو كما قال عليه السلام فعلى هذا الوجه ظاهر الحكمة في جميع الحيوانات طلب التواضع بينهم وعدم ضرب بعضهم لبعض وهم داخلون تحت عموم قوله تعالى (أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء) ﴿وفيه إشارة﴾ لمن فهم لعله يتصف بصفة من صفات أهل الخير لأن يدخل في طريقهم ويكتب معهم يؤخذ ذلك من عموم قوله عليه السلام «كل ذي ناب من السباع» فيدخل تحت ذلك الأسد والهرة والفأرة وما بينهما ومنهم القوى والضعيف فكذلك أنت اجعل في نفسك شبها ما بالموقنين أهل تلك البركة تشملك معهم مثل ما إذا نودي باحضار التجار حتى بأصحاب الآلاف وبصاحب الدينار الواحد فان لم تكن من أصحاب الآلاف فكن صاحب الدينار الواحد لعل الواحد بفضله إذا خلع عليهم خلع القرب والرضا يخلع عليك معهم واحذر أن تتشبه بصفة من صفات أهل الشر فتكتب معهم فيلحقك بالهم وقد جاء «من تشبه بقوم فهو منهم» فكيف من عمل ببعض أعمالهم وقد قال تشبه بالقوم فان التشبه بالكرام فلاح

(٢١٩) ﴿حديث جواز الانتفاع بجلود الميتة﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ فَقَالَ هَلَّا اسْتَمْتَعْتُمْ بِإِهَابِهَا قَالُوا إِنَّهَا مَيِّتَةٌ فَقَالَ إِنَّمَا حَرُمَ أَكْلُهَا

ظاهر الحديث يدل على جواز الانتفاع بجلود الميتة والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ فى كيفية الانتفاع به هل ذلك عام فى جميع وجوه الانتفاع أو انتفاع خاص فالعموم فى الانتفاع من كل الوجوه ممنوع لأن من جملة الانتفاع بيعه وأكل ثمنه ولم يجيزوه ومنها الصلاة عليه ولم يجيزوه ومنها جعل الطعام فيه ولم يجيزوه لأنه يعود فعله لأكل الميتة فان الطعام إذا جعل فيه تنجس به وإنما يكون انتفاعا خاصا من حيث لا يلحق منه نجاسة فى شيء من الأشياء ولا مخالطة فى طعام بوجه من الوجوه ﴿وفيه دليل﴾ على تحريم أكل الميتة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «إنما حرم أكلها»

وفيه دليل: على أن ألفاظ العموم إذا ورد الأمر بها يحمل على عمومها ولا تخصص إلا بمخصص من الشارع عليه السلام يؤخذ ذلك من أنه لما أن حرمت علينا الميتة فماتت تلك الشاة التى رآها سيدنا صلى الله عليه وسلم استعمل أصحابها عموم الأمر بالعموم فرموها باها بها وصوفها وكل اجزائها فخصص صلى الله عليه وسلم عموم الأمر بقوله عليه السلام «إنما حرم أكلها» ﴿وفيه دليل﴾ على أن عموم القرآن يخصص بالسنة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام إنما حرم أكلها ﴿وفيه دليل﴾ على جواز مراجعة الآمر إذا أمر ولم يفهم السامع ماقصد بالأمر وبقى عليه فى بعضه التباس يؤخذ ذلك من قولهم بعد ماقال لهم صلى الله عليه وسلم «هلا انتفعتم باها بها» انها ميتة كأنهم يقولون يارسول الله تأمرنا بالانتفاع باهابها وقد حرمتها علينا بأمر الله لك وهذه الشاة ميتة فكيف يكون ذلك وفيما ذكرنا من معنى مراجعتهم دليل على حسن اختصارهم فى الخطاب وبلاغتهم فى المعنى يؤخذ ذلك من كونهم جمعوا تلك الألفاظ كلها فى متضمن قولهم إنها ميتة ﴿وفيه دليل﴾ على أن الصفقة إذا خالطها حلال وحرام فان كل واحد منهما يعطى حكمه لأن العلماء اختلفوا فى صفقة إذا اختلط فيها حلال وحرام فمنهم من قال إنها كلها حرام ومنهم من قال إنها كلها حلال ومنهم من قال إن قدر مافيها من الحرام حرام وقدر ما فيها من الحلال حلال لأن الخلطة لا تنقل حكما من الأحكام إلا فى الخليطين فى الماشية على خلاف أيضا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «هلا انتفعتم باهابها» وقوله عليه السلام إنما حرم أكلها فجعل للحم حكما وهو التحريم والجلد حكما وهو التحليل والشاة واحدة

وفيه دليل: على أن الأحكام الشرعية لا يكون تقريرها إلا بعد نفى كل المحتملات يؤخذ ذلك من جوابهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رؤيته الشاة الميتة ولا يخفى حالها على أحد أنها ميتة فكيف على من كانت تنام عينه ولا ينام قلبه صلوات الله عليه وسلامه لكن من أجل استقرار الحكم وطريق الاحتمال أن يكون قوله عليه السلام هلا انتفعتم باهابها من طريق الاستفهام لهم كيف معرفتهم بحكم الله تعالى فى الميتة جاوبوه بقولهم إنها ميتة لينظروا ماقصده صلى الله عليه وسلم بتلك المخاطبة ﴿وفيه دليل﴾ على أن من النبل أن يكون جواب المرء عما سئل عنه على قدر مايعلم فيه لا يتعانا خلاف ذلك بزيادة ونقص يؤخذ ذلك من جوابهم لسيدنا صلى الله عليه وسلم بما سبق

لهم من العلم فى أمر الميتة لاغير (وهنا بحث) وهو أن يقال هل أمره صلى الله عليه وسلم بالانتفاع باهابها يطهره أوهو باق على النجاسة لفظ الحديث لايفهم منه شىء من هذا لكن من حديث غيره يفهم أنه باق على نجاسته وهو قوله عليه السلام «أيما إهاب دبغ فقد طهر» فاذا لم يدبغ فهو باق على نجاسته ﴿وبحث ثان﴾ وهو أن يقال هل لنا أن نعدى الحكم بالانتفاع من غير ذلك من أجزائها لقوله عليه السلام «إنما حرم أكلها» فيما عدا الأكل أم لا ﴿وبحث ثالث﴾ وهو كونه صلى الله عليه وسلم أباح لنا الانتفاع باهابها وهى ميتة هل يجوز الانتفاع بغير ذلك من سائر النجاسات انتفاعا خاصا مثل الاهاب أم لا ﴿فالجواب﴾ على البحث هل يجوز لنا الانتفاع بباقى أجزائها مثل الاهاب أم لا فأمره صلى الله عليه وسلم بالانتفاع باهابها لا يتعدى الانتفاع من غير ذلك إلى غيره من أجزائها لأحد وجهين الاول منهما لأن الحظر والاباحة والتحريم والتحليل لايكون إلا على نحو مانص عليه صلى الله عليه وسلم لايتعدى ذلك بالقياس الا فى الموضع التى عاق صلى الله عليه وسلم بعلة كانت العلة أيضا منه عليه السلام أو مشارا إليها على نحو ما تكلم الفقهاء فى أنواع العلة الشرعية وتعداد أنواعها على ماهو مذكور فى كتبهم ومالا يفهم له علة فينقضى الحكم فيه على مانطق صلى الله عليه وسلم به مثل هذا الموضع وما أشبهه (ولوجه آخر) لأن هذا منه صلى الله عليه وسلم رخصة لأمته والرخص لا يقاس عليها ولا يتعدى محلها ونص بعض الفقهاء أنه إذا كان للمرء ميتة وله علج أو كلب لصيد أو ما يجوز اقتناؤه أنه لا يعطيه الميتة ولا يأمر العلج بأكلها فان ذلك من جملة أنواع الانتفاع بها وإنما يأمر بالعلج أو بالكلب على موضع الجيفة فان هما تصرفا فيها من تلقاء انفسهما فلا بأس وإلا فلا يرشدهما إلى ذلك ولا يأمرهما به ﴿وأما الجواب﴾ على البحث الذى معناه هل نقيس على الاهاب غيره من أنواع النجاسات أم لا فالجواب عليه كالجواب على البحث قبل

(٢٢٠) حديث الأمر بطرح الطعام المتنجس

عَنْ مَيْمُونَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ فَارَةً وَقَعَتْ فِى سَمْنٍ فَمَاتَتْ فَسُئِلَ النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهَا فَقَالَ أَلْقُوهَا وَمَا حَوْلَهَا وَكُلُوهُ

ظاهر الحديث يدل على تنجيس الموضع الذى ماتت فيه الفأرة من السمن وطرحه معها والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل يتعدى الحكم فى كل الأطعمة وفى كل الميتة من جميع الحيوان وكذلك ماعداهم من جميع النجاسات وهل يكون حكم الجامد من الطعام كحكم المائع وهل يكون طول مقام الشىء النجس

من جيفة أوغيرها فى الطعام الذى وقعت فيه بالسواء من قرب الزمان فى ذلك أو بعده وهل يجوز الانتفاع به فيما دون الأكل وهل يمكن تطهير ما وقعت فيه من الطعام أم لا ﴿ أما قولنا ﴾ هل يتعدى الحكم إلى جميع الطعام ما عدا السمن أم لا فقد عدى ذلك الفقهاء لوجود العلة وهى تنجيس موضع حلول الميتة ولا فرق أن يكون سمنا أو غيره إذا كان طعاما جامدا فان كان مائعا فلا يخلو أن يكون ماء أو غيره فلا يخلو أن يكون جاريا أو راكدا وتفصيل هذا فى كل الفروع وأما إن كان طعاما مائعا فهو نجس ﴿ وأما قولنا ﴾ هل ذلك فى كتب الميتات فى أى نوع كانت من الحيوانات ﴿ فالجواب ﴾ أنه لا فرق بين موت الفأرة فى ذلك أو غيرها من جميع الحيوان الذى له نفس سائلة ولا يؤكل إلا بذكاة لوجود العلة فيه وهى كونه جيفة وأما ما عدا الميتة من أى نوع كانت كما ذكرنا قبل من أنواع النجاسات فلا فرق بينهما وبين الميتة إذا كانت جامدة باردة فى جميع أحكامها وإن كانت سائلة باردة أو حارة فتنويع الحكم فيها فى كتب الفروع أيضا ﴿ وأما قولنا ﴾ هل حكم الجامد من الطعام الذى وقعت فيه الميتة كحكم المائع ﴿ فالجواب ﴾ أنه ليس حكم الجامد كالمائع فان المائع من حين وقوع الميتة فيه أو الشىء النجس يتنجس جميعه فيطرح جميعه ما عدا الماء فيه تقسيم كما هو فى كتب الفروع أيضا ﴿ وأما قولنا ﴾ هل طول مكث الميتة سواء مع قربه أو بعده فقد اختلف العلماء فى ذلك وليس فى الحديث من أن يستدل عليه بل هى مسئلة نظرية فمن العلماء من جعل الحكم واحدا ومنهم من قال إذا طال مكثها فى الطعام طرح جميعه ومنهم من فرق فى ذلك بحسب الأزمنة فان كان زمان الحر طرحت وجميع الطعام وان كان زمان البرد طرحها وما حولها ومنهم من فرق بين كبر الاناء الذى وقعت فيه من صغره وفى طول الزمان الذى يطلق عليه هذا الحكم مع صغر الدابة وكبرها وذلك كله مستوعب فى كتب الفقه وهذا البحث فى الطعام الجامد وأما المائع فكما تقدم الكلام فيه وحكم النجاسة كما ذكرنا فى الميتة سواء ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يجوز الانتفاع بالشىء الذى وقعت فيه الميتة أو الشىء النجس من الطعام فظاهر الحديث محتمل لكن الأظهر عدم الانتفاع والله أعلم وفى ذلك بين العلماء خلاف وهذه أيضا نظرية ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يصح تطهير ما وقعت فيه الميتة من الطعام (فالجواب) أنه لا يخلو أن يكون دهنا أو غيره فان كان دهنا ففى تطهيره بين العلماء خلاف وهى مسئلة نظرية أيضا وما عدا الدهن من الطعام الجامد فلا يخلو أن يكون مطبوخا أو مملحا أو على غير هذين النوعين فللعلماء فيه ثلاثة أقوال بتطهيره وعدمه ﴿ والثالث ﴾ هو أن يكون قد استوى فى توفية طبخه ونضجه فى الملح ولم يقبل زيادة فى ذلك فان كان استوى فانه يغسل ويؤكل فانما تنجس ظاهره ولم تدخل النجاسة باطنه وان كان لم يستو نضجه فلا يطهر ويطرح فان النجاسة دخلت باطنه لأنه يجذب من الخارج إلى الباطن والذى قالوا بغسله وتطهيره يقولون أنه يغسل أولا

بماء حار ثم ثانية ببارد ثم ثالثة بحار ثم ببارد فان كان على غير هذه الصفة فلا يطهر وأما ماعدا هذين النوعين فكما هو مذكور فى كتب الفقه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن لا يتصرف إلا بعلم يؤخذ ذلك من كونهم لم يتصرفوا فى السمن ولا فى نزع الفأرة منه إلا بعد ماسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عليه السلام الأصل وقد اختلف العلماء فيمن عمل عملا بغير علم ووافق عمله لسان العلم هل يكون مأجورا أو مأثورا على ثلاثة أقوال وقد ذكرناها فى أول الكتاب وقد قال

بالعلم تزين إذا أردت جمالا به إن عملت زدت كمالا

(٢٢١) ﴿حديث بيان وقت ذبح الأضحية﴾

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ أَوَّلَ مَانَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ مَنْ فَعَلَهُ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلُ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ

ظاهر الحديث يدل على أن السنة فى يوم الأضحى تقديم الصلاة قبل الذبح ومن ذبح قبل الصلاة فانه لحم ليس بنسك والكلام عليه من وجوه (منها) التأكيد فى صلاة العيد يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ أول مانبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى ﴾ فجعلها عليه السلام مفتاح الأعمال فى ذلك اليوم وهل هى فرض أو سنة قولان للعلماء فى ذلك (ومنها) التأكيد فى شأن الأضحية يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام بعد ماقال نصلى ثم نرجع فننحر ثم زادها عليه السلام تأكيدا بقوله ﴿ من فعله فقد أصاب سنتنا ﴾ وقد اختلف العلماء هل هى فرض أو سنة على قولين والذى قال منهم بأنها سنة هى عنده من آكد السنن ويزيد ذلك تأكيدا قوله عليه السلام فى حديث غيره «ماعمل آدمى عملا يوم النحر أعظم من إراقة دم» ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن النية وان كانت حسنة والعمل الذى يعمل بها لا يصحان إلا إذا كانا موافقين للسان العلم يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ ومن ذبح قبل فانما هو لحم قدمه لأهله ﴾ ويزيد ذلك بيانا قوله عليه السلام «من أحدث فى أمرنا ما ليس فيه فهو رد» وقوله عليه السلام «إن الله لا يقبل عمل امرىء حتى يتقنه - قيل يا رسول الله وما إتقانه قال - يخلصه من الرياء والبدعة» فتخلصه من الرياء أن يكون لله خالصا لقوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وتخليصه من البدعة أن يكون على نحو ما أمر صلى الله عليه وسلم به لقوله تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)

وفيه دليل : على أن اتباع الصحابة رضي الله عنهم هو الحق الذى لا ينبغي العدول عنه يؤخذ ذلك

من كونه عليه السلام لم يترك لهم شيئا من الأعمال إلا بينه لهم وحملهم فيه على سنته الواضحة مثل هذا الحديث وما يشبهه (ومما) يؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم « أصحابى مثل النجوم بأيهم اقتديتم اهديتم » وقد قال العلماء رضى الله عنهم مثل يمن بن رزق وغيره وأنا أوصيك باتباع السنة فى عملك وآكد من ذلك اتباع السلف فانهم أعرف بالسنة منا وقد قال مالك رضى الله عنه إذا كان حديثان ووجدنا الخلفاء أو الصحابة عملوا بأحدهما دل على أن الآخر منسوخ وإن لم يعرف النسخ وإذا كان للحديث معنيان وعملوا بأحدهما دل على ذلك هو الحكم فى ذلك الحديث وأنه الظاهر من ذينك الوجهين ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز أكل اللحم فى يوم العيد ما عدا لحم الأضحية يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ فانما هو لحم قدمه لأهله ﴾ فأجازه عليه السلام ولم يمنعه

وفيه دليل: على أن نفس الأضحية عبادة يؤخذ ذلك من تسميتها نسكا بقوله عليه السلام ﴿ ليس من النسك فى شىء ﴾ فى الذى ذبح قبل الصلاة فدل على أن الذى ذبح بعد الصلاة هو نسك والنسك هو مايتعبد به ﴿ وفيه دليل ﴾ على تأخير الذبح فى يوم النحر عن وقت الصلاة يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ثم نرجع ﴾ لأنه عليه السلام أتى بثم التى تقتضى المهملة.

وفيه دليل: على استغناء المولى سبحانه عن عبادة العابدين يؤخذ ذلك من كونه عز وجل قد شرع بمقتضى هذا الحديث ذبح الأضحية وهى مما للنفس فيها شهوة وراحة لأنك تأكل وتدخر وأنت فى الصدقة منها بالخيار إن تصدقت أجرت أجرا آخر وإن لم تتصدق لم تأثم وثبت لك أجر الأضحية بنفس الذبح والأكل زيادة راحة لك ﴿ وفيه دليل ﴾ على عظيم لطفه عز وجل بعبيده ورحمته لهم يؤخذ ذلك من كونه عز وجل أمرهم بذبح الأضحية كما تقدم الكلام فيه وجعلها فى هذا اليوم من أعظم القرب إليه ويزيد ذلك بيانا قوله عليه السلام ﴿ تنافسوا فى أثمانها فانها مطاياكم إلى الجنة ﴾. ﴿ وفيه دليل ﴾ عظيم على ما أعطى صلى الله عليه وسلم من أحسن البلاغة يؤخذ ذلك من جمعه عليه السلام فى الحديث الواحد والحكم الواحد بين النحر والذبح لأنه لو ذكر صلى الله عليه وسلم أحد الوجهين إما النحر وإما الذبح لكان دليلا على ترجيحه على الآخر فلما ذكرهما معا دل على جوازهما بحسن عبارة واختصار صلى الله عليه وسلم وحشرنا فى زمرته غير خزايا ولا نداما بفضله

(٢٢٢) ﴿ حديث جواز تأخير الطواف فى الحج لعذر ﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَحَاضَتْ بِسَرِفَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ مَكَّةَ وَهِيَ تَبْكِي فَقَالَ مَالَكِ أَنَفِسْتِ قَالَتْ نَعَمْ قَالَ إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ فَاقْضِي

مَا يَقْضِى الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِى بِالْبَيْتِ فَلَمَّا كُنَّا بِمِنًى أُتِيتُ بِلَحْمِ بَقَرٍ فَقُلْتُ مَا هَذَا قَالُوا ضَحَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَزْوَاجِهِ بِالْبَقَرِ

ظاهر الحديث يدل على أن الحائض تفعل جميع أفعال الحج كلها إلا الطواف بالبيت فانها لا تفعله إلا بعد ان تطهر والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن فيه دليلا على أن الطهارة فى أركان الحج كلها كبرى كانت أو صغرى ليست بفرض إلا الطواف بالبيت فلا يجوز إلا بطهارة وهى واجبة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ فاقضى ما يقضى الحاج غير أن لا تطوفى بالبيت ﴾ فاذا كانت بالحدث الأكبر تفعله فمن باب أحرى لغيره ﴿ وفيه دليل ﴾ على فضل هذه السيدة يؤخذ ذلك من بكائها خيفة أن يفوتها الحج وذلك بعذر ربانى لا كسب لها فيه فلولا ما كان همها كله فى الدين ما كانت تبكى على هذا وهى فيه عند الله معذورة وكذلك كان شأن الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ما كانت همتهم إلا فى حسن دينهم وكذلك شأن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن جعل همه هما واحدا » أو كما قال عليه السلام وهو هم الدين

وفيه دليل : على أن يحكم على الشخص بما يعلم من حاله يؤخذ ذلك من كون سيدنا صلى الله عليه وسلم لما علم من دين هذه السيدة لما رآها تبكى علم أنه من أجل الدين ولا شىء فى الوقت يمكن أن يبكيها إلا النفاس فاستفسرها على ما ظنه منها بقوله عليه السلام ﴿ لعلك نفست ﴾

وفيه دليل على أن حال الشخص وإن علم ما هو فلا يحكم عليه بالقطع وفيما يظن به حتى يستفسر عن ذلك يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ لعلك نفست ﴾ بعد ما ظن ذلك لما يعلم منها

وفيه دليل : لأهل الصوفة الذين يقولون إن المنتهى فى السلوك يكون حاله مع مولاه مثل الصبى مع أمه كل شىء رآه بكى عليها لا يعرف غيرها وذلك دأبه معها يؤخذ ذلك من أنها لما جاءها ما أهمها من أمرها بكت على مولاها ولم تذكر من ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم شيئا حتى سألها

وفيه دليل : على بركتها وبركة بيتها كما قال أسيد بن الحضير عند نزول آية التيمم ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر ما نزل بكم شىء إلا جعل الله فيه للمسلمين فرجا ومخرجا أو كما قال فلما أهمها ما جاءها جعل الله فيه للمسلمين فرجا بأن سن صلى الله عليه وسلم للمسلمين أن المرأة إذا حاضت لا يتعذر عليها من أفعال حجها شىء إلا الطواف بالبيت ثم لا يفوتها لأنها إذا طهرت فعلته بعد

وفيه دليل : لأهل الصوفة لأنهم يقولون من بكى صادقا شفعت فيه دموعه يؤخذ ذلك مما جاءها أثر بكائها من الفرج لها وللمؤمنين مما تقرر فى حكم الحائض فى هذا الحديث وقد قال

بعض أهل الطريق فى هذا المعنى

بالباب يكون والبكاء إذا كان خليا من النفاق نفع
تشفع فيهم دموعهم وإذا شفع دمع المتيــمين شفع

فبينما هم حيارى من اليأس والطمع * سكارى من شراب الخوف والجزع * إذ بزغ لهم قمر السعادة من فلك الارادة فى جوانب قلوبهم ولمع * وألبسوا من ملابس الأنس والبسط خلع * رقم العلم الأيمن سبقت لهم منا الحسنى ورقم العلم الأيسر لا يحزنهم الفزع

وفيه دليــــل على تصبر المصاب بحرمان القدر يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم لها ﴿ هذا أمر كتبه الله على بنات آدم ﴾ تعزية لها لما أصابها من الحزن على ما توقعت فواته من أمر حجها ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز الأضحية عن أهل الرجل يؤخذ ذلك من قولهم ﴿ ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أزواجه بالبقر ﴾ ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز الأضحية بالبقر وإن كان غيرها أفضل منها فى الأضحية يؤخذ ذلك من كون النبي صلى الله عليه وسلم ضحى بها عن أزواجه صلوات الله عليه ورضى عنهن وفى قولها حين أتى لها باللحم ﴿ ما هذا ﴾ أن السنة أن لا يأخذ أحد شيئا ولا يأكله حتى يسأل عنه فظاهر هذا الحديث يدل على جواز الأضحية بمنى وليس الأمر على ظاهره بل هو محمول عند العلماء على الهدى وإنما ذكر الراوى الأضحية لكونها نسكا لأنه ليس بمنى أضحية وإنما سنتهم الهدى وسنة غيرهم الأضحية والله أعلم

(٢٢٣) ﴿ حديث وصيته صلى الله عليه وسلم لأمته ﴾

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ قُلْنَا بَلَى قَالَ أَيُّ بَلَدٍ هَذَا قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ قُلْنَا بَلَى قَالَ فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ قُلْنَا بَلَى قَالَ فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ قَالَ مُحَمَّدٌ وَأَحْسِبُهُ قَالَ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا

وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلِّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ ثُمَّ قَالَ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ مَرَّتَيْنِ

ظاهر الحديث يدل على تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم بعضهم على بعض والكلام عليه من وجـــوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا على عمومه أعنى التحريم أم لا فاما أن يكون على العموم من كل الجهات فلا بدليل الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) فلا يذكر أحد من المسلمين أخاه المسلم بسوء إلا من ظلم ظلامة فله أن يذكر السوء الذى فعل معه لكن بقدر ماعدا عليه فانه إن زاد على ذلك عاد ظالما ثانيا والله عز وجل يقول (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وأما السنة فقد قال صلى الله عليه وسلم « لاغيبة فى فاسق » ولها شروط (منها) أن يكون متظاهرا بفسقه يحب أن يشهر عنه فلا غيبة فيه إذ ذاك ومن العلماء من قال إنما يكون ذلك إن تذكر حال فسقه عند من يقدر أن يغير عليه أو يستعين به فى ذلك أو تحرزه عنه فأما إن كان لغير هذه الوجوه فممنوع وتأولوا الحديث بأن قالوا معناه ولا تغتب فاسقا وقد قال صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » فاذا أخذ واحد منها بحقه فلا يتناول التحريم وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس منه » فان كان عن طيب نفس منه فلا يتناوله التحريم والآى والأحاديث فى هذا كثيرة فما بقى أن يكون التحريم إلا خاصا فهو إذا لم يكن عليها حق من وجه من الوجوه ياهذا قد ثبت لك حرمة فأن وافقت زادت الحرمة حرمة أخرى وهى قوله عز وجل « من أهان لى وليا فقد آذنى بالمحاربة وأنا أسرع إلى نصر عبدى المؤمن » وزادها تأكيدا بقوله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) فان أتبعت النفس هواها أذهبت مالك من الحرمة وعاد مكانها محنة عاذنا الله من ذلك بمنه وقد ورد رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن تسمية الشهور وعددها بمقتضى الحكم الربانى لاعرفى ولا لغوى يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض إلى قوله وشعبان ﴾ قوله صلى الله عليه وسلم قد استدار أى استقر الأمر فيه ورجع مثل ماكان يوم خلق السموات والأرض لأن العرب كانوا يحجون فى كل عام شهرا ثم ينقلونه إلى شهر ثان ففرض الحج وكان الحج فى تلك السنة على ماذكرنا من عادتهم فى ذى القعدة فاقام الحج بالناس فى تلك السنة أبو بكر رضى الله عنه بأمر النبى صلى الله عليه وسلم

فلما كان فى سنة عشرة من الهجرة وهى التى حج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الحج على عادتهم إلى ذى الحجة وهو الشهر الذى جعل الله فيه الحج يوم خلق السموات والأرض وفيه حج إبراهيم وجميع الأنبياء عليهم السلام فلذلك قال عليه السلام قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض أى على وضعه الذى اقتضته الحكمة الربانية عند خلق السموات والأرض وفيه دليل : على أن دوران الأشهر تسمى زمانا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام الزمان قد استدار وهى الأشهر كما ذكرنا وقوله عليه السلام (حرم) أى جعل لها حرمة ليست لغيرها وفائدة الاخبار لنا بتلك الحرمة أن نحترمها بتعميرها بالطاعات وترك المخالفات يشهد لذلك قوله عز وجل فى كتابه (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) (وهنا بحث) وهو أن يقال ما الحكمة فى أن جعلت على هذا الموضع مفرقة تفريقا مختلف الوضع وجعلت فى آخر السنة أكثر من أول السنة هل هذان البحثان تعبد لا يعقل لها معنى أو لها معنى معقول من جهة الحكمة فان قلنا تعبد فلا بحث ولا ندبنا إلا لبحث الاعتبار وإن قلنا لحكمة فما هى فنقول والله أعلم فى البحث الأول وهو كون رمضان لم يسم هذه التسمية وفيه من الخير العظيم ما هو فيه بحيث لا يخفى وأما من الأجر قد عرف ولو لم يكن فيه إلا قوله صلى الله عليه وسلم «من قامه إيمانا غفر له ما بينه وما بين رمضان» وكون أول ليلة منه تفتح أبواب الجنان وتغلق أبواب النيران وتصفد الشياطين وذلك أن الفرق بينهم حرمة رمضان من أجل العمل الخاص به وهو الصوم وحرمة هؤلاء منة من الله تعالى وتفضل بغير شىء يوجب ذلك والله عز وجل يتفضل على من يشاء من عباده حيوانا كان أو جمادا بسبب أو بغير سبب لحكمة أو غيرها لا يعلمها إلا هو عز وجل لكن إن اتبعتها بمقتضى أدلة الشرع تجدها رحمة لنا وتفضلا علينا لأنك تجد كل شىء فضله المولى سبحانه من الزمان والمكان والقول والجماد أو أى شىء كان من جميع المخلوقات تجد الفائدة فى ذلك تعود علينا وهو الغنى المستغنى ومما يؤكد هذا قوله تعالى (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (ومنها) ماجاء بتخصيص الأجر بنص الشارع عليه السلام فى الأعمال التى للازمنة المعظمة والأمكنة المحترمة والجمادات المباركة فالنص فى كل واحد منها مثل قوله صلى الله عليه وسلم فى الحجر الأسود «أنه يمين الله فى الأرض يشهد يوم القيامة لمن يستلمه» ومثل صوم يوم عاشوراء يكفر السنة إلى غير ذلك إذا تتبعته تجد الخير كله فى ذلك بفضل الله علينا جعلنا الله ممن سعد بذلك فى الدارين ﴿وأما الجواب﴾ عن البحث الثانى فهو كونه عز وجل وصفها فى هذا الموضع فاما من طريق حكمة النظام فان الأفخر من الأشياء يزين به أول النظام ووسطه وآخره فلما نظمت القدرة درر الأشهر فى سلك الاجتماع جعلت لاستفتاح النظام بشهر حرام ووسطه شهر حرام وهو رجب ثم ثالثها فى مناظرة الحسن شهر رمضان وفصل بينهما بدرة

شهرشعبان الذى فهم سيدنا صلى الله عليه وسلم حسن نظم القدرة فى الأشهر فزاد وسطها حسنا بترفيع شعبان بكثرة الصوم فيه لقول عائشة رضى الله عنها مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر قط إلا رمضان ولا رأيت أكثر صوما منه فى شعبان حتى أضيف الشهر إليه عليه السلام فقيل شهر نبيكم شعبان فجاءت حرمة محمدية وسط حرمتين ربانيتين شعبان شهر محمد عليه السلام ورجب ورمضان شهران ربانيان لحسن النظام واستتار وكذلك كانت سابقة الارادة فيه ولم يظهر لنا إلا عند بروزها فى الوجود وفى ذلك دلالة على علو قدره صلى الله عليه وسلم لأنه ماتجد شيئا رفعته القدرة إلا ومن جنسه مارفعته السنة المحمدية حتى يكون له عليه السلام خصوص فى كل نوع وحال من جميع الترفيعات وختم آخر نظام السنة بشهرين حرامين وفى تفضيل آخر السنة بأن كان فيه شهران حرامان وجوه من الحكمة (منها) أن الختام له أبدا علم زائد بمقتضى الحكمة الربانية قال تعالى (ختامه مسك) وقال عليه السلام «الاعمال بخواتمها» فاذا حسنت الخاتمة حسن الكل وزاد حسنا على حسن وان كان الكل حسنا فزيادة حسن الآخر ابلاغ فى الحسن واشارة بترفيعه صلى الله عليه وسلم لما أن كان عليه السلام خاتم الانبياء وهو سيدهم جعلت نظام الأشياء على شبه نظام أشخاص الأنبياء عليهم السلام ترتيبا متناسبا وحكمة عظيمة أبدع فيما أحكم وأحكم فيما أبدع ﴿ وفيه اشارة ﴾ الى اللطف منه جل جلاله له بعباده لأنه من غفل أو كان له عذر فى السنة كلها جعل له فى آخرها تكثير فى عدد ذوى الحرمة لعله يحصل له حرمة فيا لله ما أحسن نظمه سبحانه وأكثر فضله وأتم على من عقل عنه نعمته وفى قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ أى شهر وأى بلد وأى يوم ﴾ وجوه من الفقه والأدب والحكمة ﴿ فمنها ﴾ ان اجتماع من له حرمة تأكيد فى الحرمة وانه لا تسقط حرمة أحد حرمة غيره يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام بعد مابين تأكيد حرمة الدماء وما ذكر معها فدل على تأكيد حرمة اجتماع حرمة الشهر والبلد واليوم فابقى لكل ذى حرمة حرمته فى الزمن الفرد ﴿ وفيه دليل ﴾ من الأدب ان السيد إذا سأل أو العالم إذا سأل عما قد علم يرد الامر فى ذلك اليه لأنه لا يسأل عن ذلك عبثا وإنما يسأل لحكمة لا يعلمها المسئول يؤخذ ذلك من قول الصحابة رضى الله عنهم ﴿ الله ورسوله اعلم ﴾ وهم عالمون بما سألهم عنه فظهرت بعد الحكمة التى من أجلها سألهم عن ذلك وهى تأكيد الحرمة بخلاف ماإذا سأل عن شىء يجهله كثير من الناس فمن النبل اصابة المقصود والافصاح به مثل قوله صلى الله عليه وسلم « أى شىء من الشجر يشبه المؤمن » فوقع الناس فى شجر البادية قال عبد الله بن عمر فوقع فى قلبى أنها النخلة فاستحييت أن أتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هى النخلة » فقلت بعد ذلك لأبى وقع فى نفسى أنها النخلة فقال عمر وددت ان قلتها لأن المقصود من هذا الاختبار جودة الخواطر وحدة القرائح

فاذا جاوب بما يصلح فى ذلك سر به السائل ومن أجل ذلك قال عمر لابنه تلك المقالة لانه اذا قال مايعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى النعمة الكبرى وقد يحصل له منه دعوة حسنة فيزداد الخير خيرا ﴿وفيه من الحكمة﴾ ان تمثل مالا يعرف قدره بما يعرف قدره حتى يحصل للسامع معرفة الفائدة التى قصد ان يفهمها يؤخذ ذلك من أنه لما أراد سيدنا صلى الله عليه وسلم أن يخبره عن عظيم حرمة الدماء والأموال والاعراض مثل ذلك لهم بجمع حرمة هذه الثلاثة أشياء التى كانوا يعرفون حرمتها ﴿وفيه من الفقه﴾ ان الأشياء اذا كان الحكم فيها واحدا وان كثرت إن من الفصاحة جمعها بتعدادها واسمائها ويذكر الحكم مفردا لانها وان كثرت كالشىء الواحد يؤخذ من جمعه عليه السلام تلك المحترمات الثلاثة وفى سكوته عليه السلام بعد قوله الله ورسوله اعلم استدعاء لجلب القلوب لما يلقى اليها بعد ودلالة على الوقار وهو من الشيم المحمودة وفى ذكره عليه السلام هذه المواطن وهو عليه السلام قد بينها فى غير ما حديث دلالة على عظيم الأجر فيها لمن احترمها وعظم الوزر على فاعل شىء من المحظور فيها ﴿وفيه دليل﴾ على وجوب تبليغ العلم ونشره يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ألا ليبلغ الشاهد الغائب﴾ ومما يقوى ذلك قوله عليه السلام «طلب العلم فرض على كل مسلم» وقوله عليه السلام «ان الله لما أخذ العهد على الجهال أن يتعلموا أخذ العهد على العلماء أن يعلموا» أوكما قال عليه السلام وقد قال صلى الله عليه وسلم «اذا ظهرت الفتن وشتم اصحابى فمن كان عنده علم فكتمه فهو كجاحد ما أنزل الله على محمد» وقال الله تعالى (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) وهذا العلم هو الذى واجب نقله وتعليمه هو علم الكتاب والسنة اللذين هما الثقلان الذى أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم بقوله «لن تضلوا ما تمسكتم بهما» والآى والاحاديث فى هذا كثيرة لمن تتبعها وفهمها ﴿وفيه دليل﴾ على ان الخير فى السلف الاول كثير وانه فى الآخر قليل وقد عاد أقل من القليل فانا لله وانا اليه راجعون يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿لعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه﴾ فجعل الرجاء فى البعض من يبلغه فى الواعى له وذلك هو الخير كما جعل عدم الخير الذى هو ترك الوعى فى الاقل ممن سمعه وجعل عليه السلام تفضيل من يوعاه فى الاخذ وإن بعد على بعض من سمعه ولم يرعه الاقل ﴿وفيه دليل﴾ على أنه ليس الفائدة فى العلم نفسه وانما الفائدة فى العلم به الذى كنى عنه بالوعى لأن العلماء قالوا معنى أوعى له أى اعمل به ومما يقوى ذلك قوله عليه السلام «اتقوا العالم الفاسق والعابد الجاهل فانهما مضلة للمضلين» أوكما قال عليه السلام وفى قوله صلى الله عليه وسلم ﴿اللهم اشهد مرتين﴾ هنا بحث لم جعلها مرتين ولم يجعلها ثلاثا على عادته صلى الله عليه وسلم فى الأمور التى لها بال وما الحكمة فى قوله اشهد فانا جعلها اثنتين ولم يجعلها أكثر فانه صلى الله عليه وسلم نحى بها فنحى الشهادة بأن قطع بحقوق قد تكون بشاهدين فهذه

شهادتان(وأما الحكمة)فى قوله ذلك هو يعلم أنه شاهد ويعلم بذلك لوجوه(منها)الفائدةفى الاعذار والانذار (ومنها) موافقة حكمة الكتاب العزيز فان الله عز وجل يقول فيه (والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) لأن إعلامه عز وجل بأنه يعلم أنه لرسوله شهادة له برسالته أو تحقيقا لها فاراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشهد له بالتلبية كما يشهد له بالرسالة

وفيه دليل : على أن من رفع له قدرا فهو فى امتثال الأوامر أشد من غيره رداعلى بعض الذين يدعون الأحوال ويقولون قد سقطت عنهم الأعمال لأنهم فى الحضرة وهذا هذيان وخيال عارض فى الدماغ يؤخذ ذلك من توصيته عليه السلام فى الابلاغ والانذار وهنا إشارة وهى إذا كان هذا السيد ﷺ الذى قد غفرله ما تقدم من ذنبه وما تأخر وطبع على الرحمة والشفقة حتى أنه عليه السلام فى المواضع المهولة يقدم حق أمته على نفسه المكرمة لعظم ما طبع صلى الله عليه وسلم عليه من الرحمة وجاء عليه السلام فى هذا الموطن الذى هو موطن الوداع أجمل لهم فى الانذار والتبيين ماقد صرح لهم فى جميع مدة صحبته لهم ثم بعد ذلك رجع إلى النظر فى ما به يخلص نفسه المكرمة مما كلفه الله تعالى به بقوله عليه السلام﴿ ألا هل بلغت ﴾ لأن معناه أنى لم أترك شيئا مما أمرتنى به إلا بلغته مفسراً ومجملا فما بالك بالكثير الأثقال منا كيف يشتغل بغيره عن خلاص نفسه لاسيما مع كبر السن وقرب الحمام ﴿ وفى هذا دليل ﴾ على فضل أهل الطريق الذين عملوا فى أمر الدنيا على الاغضاء والتجاوز عن الاخوان وفى الدين على الشح عليه والاهتمام حتى أنه ذكر عن بعضهم أنه شكى له أهله الجوع فقال لهم لأن أموت وأدخل الجنة وأنتم جياع خير عندى من أن أتركـكم شباعا وأدخل النار وقال بعضهم على دينك فشح كما يشح صاحب الدرهم على درهمه وفى قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ﴾ إرشاد إلى تحقيق الايمان والتحضيض على توفية جميع الاحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك فجمع عليه السلام فى إجماله فى هذا اللفظ اليسير كل ماجاء به وشرحه فى الزمان الطويل فسبحان من أيده بالفصاحة وحسن اختصار الكلام والابلاغ فى توفية بديع المعانى مع بديع الاختصار وقد قال أهل البلاغة فى الكلام إن البليغ يطول ليبين ويختصر ليحفظ وقد أتى صلى الله عليه وسلم فى هذين الوجهين أتم مراد وأحسن مساق ولا يعرف ذلك إلا من عرف سنته وتتبعها﴿وفيه إشارة ﴾ إلى التخويف والترهيب يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام﴿ فيسألكم عن أعمالكم ﴾ فأذا كان الحاكم العدل يسائل المقصر المسكين فأى تهديد أكبر منه لمن عقل وهو عز وجل يقول فى محكم التنزيل (وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) ومن أكبر الدلالة على أن كلامه عليه السلام بتأييد من الله تعالى وإلهام منه وقد قال ذلك جماعة من العلماء فى معنى قوله تعالى (لتحكم بين الناس بما أراك الله)

فقالوا معنى أراه أى ألهمه فهو وحى إلهام فالجميع من عند الله تعالى إما وحى بواسطة الملك واما وحى إلهام يشهد لذلك أنك إذا تأملت كلامه صلى الله عليه وسلم تجده يحذو حذو الكتاب العزيز (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) مثل كلامه عليه السلام الذى نبهنا عليه آنفا كيف هو صيغته صيغة الاخبار وضمنه أكبر التهديد كقول الله جل جلاله (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) ظاهره الاباحة وفى ضمنه عظيم التخويف والتهديد يؤخذ ذلك من أنه عز وجل قد قال فى كتابه العزيز (ولا تمش فى الأرض مرحا) وقال عزوجل (إن الله لايحب كل مختال فخور) إلى غير ذلك من الأحكام التى بينها عز وجل لنا كيف نتصرف بها فى المشى وغيره بمتضمن قوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) ثم أباح عز وجل لنا المشى فى مناكبها بعد التبيين والتعليم حتى لا يبقى لأحد حجة ثم ختم الآية بقوله تعالى (وإليه النشور) فيعرفكم كيف كان مشيكم من حسن أو قبيح فانه أخبرك بقوله تعالى (ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) بقوله تعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقوله عز وجل (وقال قرينه هذا مالدى عتيد) كاما كتبته عليك حاضر فانظر لم يغادر منه شيئا فحسبك حالك إن عنيت به فالأمر والله عظيم وقوله عليه السلام «لاترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض» «هنا بحث» هل يكون على ظاهره فيكون حسيا أو يكون معنويا أو المجموع احتمل والأظهر والله أعلم أنه المجموع فانه المناسب لوضع الحديث لأنه أجمل ماقد فسره وبينه فهما بينا فالمحسوس منه على ظاهره مثل قوله عليه السلام «حتى يكون بعضكم يسبي بعضا وبعضكم يقتل بعضا» وقد قال صلى الله عليه وسلم «لاتقوم الساعة حتى لا يعرف المقتول فيما قتل ولا القاتل فيما قتل» أو كما قال والأحاديث فيه كثيرة متنوعة وأما فى المعنى فمثل قوله عليه السلام «قطعتم ظهر الرجل» حين مدحوه فى وجهه ومثل قوله عليه السلام «لايسب الرجل أباه قالوا وكيف يسب الرجل أباه فقال صلى الله عليه وسلم يسب أبا الرجل فيسب الرجل أباه» وأى قطع عنق أكبر من العقوق وهذا النوع أيضا فى الآثار كثيرة وأنواعه متعددة ومعنى قوله عليه السلام «ضلالا» خارجين عن الطريقة المحمدية جعلنا الله من خير أهلها بمنه «وفيه دليل» على أن الرجوع إلى الضلالة فى حياته عليه السلام مستحيل يؤخذ ذلك من قوله «بعدى» ومما يقوى ذلك قوله عليه السلام فى حديث الشفاعة حين يقال له أنهم قد بدلوا بعدك فيقول «فسحقا فسحقا فسحقا» عافانا الله من ذلك بمنه وقد قال

نفسك بالعلم فزينها ان كنت عاملا وان خالفته قدشنتها به عاجلا وآجلا

(٢٢٤) ﴿حديث جواز الشرب قائما﴾

عَنْ عَلِي رَضِيَ اللهُ عنهُ أنهُ أُتِيَ عَلَى بَابِ الرَّحَبَةِ بِمَاءٍ فَشَرِبَ قَائِماً فَقَالَ إِنَّ نَاساً يَكْرَهُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَشْرَبَ وَهُوَ قَائِمٌ وَإِنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَ كَمَا رَأَيْتُمُونِي فَعَلْتُ

ظاهر الحديث يدل على جواز الشرب قائما والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أنه ينبغي للعالم إذا رأى شيئا ينكره الناس وهو جائز فى السنة أن يبين ذلك ويوضحه بالفعل والقول يؤخذ ذلك من فعل على رضى الله عنه ماهو نص الحديث ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن عليه أن يبالغ فى التعليم ماأمكنه يؤخذ ذلك من فعل على رضى الله عنه وقوله لأنه لايجتز إلا بمجموعهما وذلك هو الغاية فى التعليم ويؤخذ منه أنه ينبغي للعالم عند ظهور البدع أن يعلم قبل أن يسأل لأن عليا رضى الله عنه فعل ذلك قبل أن يسأل وهو أحد الخلفاء الذين قال صلى الله عليه وسلم فى حقهم « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء بعدى وعضوا عليها بالنواجذ » أو كما قال عليه السلام ﴿ وفيه دليل ﴾ على اتباعه رضى الله عنه فى التعليم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من قوله إن ناساً يكره أحدهم يشرب وهو قائم ولم يسم أحدا وكذلك كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قيل له عن أحد شيئا لا يعجبه يقول مابال أقوام يقولون كذا أو يفعلون كذا ولا يسمى أحدا وهذه العادة اليوم قد كثرت فى الناس أعنى من أنهم يكرهون الشرب قائما حتى أن بعضهم يتغالى فى ذلك ويجعله من قبيل المحرم وهذا مخالف لسنة النبي صلى الله عليه وسلم

وفيه دليل : على أن الصحابة رضى الله عنهم كان شأنهم اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أفعاله وأقواله يؤخذ ذلك من قول على رضى الله عنه وإنى رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فعل كما رأيتمونى فعلت ولم يذكر عنه عليه السلام فى ذلك قولا ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن مهما كان من الشارع صلى الله عليه وسلم فى شيء فعلا أو قولا فلا مجال للعقل والرأى بأن ينظر أو يجتهد وليس له وظيفة إلا أن يتبع فقط لأنه لو كان الشأن عندهم غير ذلك مافعل على رضى الله عنه مانص فى الحديث عند ما بلغه قول من ظهر له كراهية الشرب قائما ومما يؤيد هذا ما فعله معاذ بن جبل مع معاوية بالشأم حين قال معاذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال معاوية الرأى عندى كيت وكيت فقال معاذ من يجيرنى من معاوية أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول رأيى والله لاأقيم معك فى بلد فخرج وأتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب عمر إلى معاوية أن يقف عند ما قال له معاذ وكيف لايكون كذلك والله سبحانه عز وجل يقول (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) والاتباعية ينبغى أن تكون عامة فى الأقوال والأفعال وقد

مضى على ذلك أئمة الدين ومصابيح الهدى غير أنهم اختلفوا هل هذا واجب أو مندوب أو مادل الدليل عليه على كل قضية قضية بقرينة فمنها واجب ومنها مندوب ولم يقل أحد منهم بالمخالفة أصلا لا فى فعل ولا فى قول ولكثرة مخالطة أهل السلوك هذا الشأن سادوا على غيرهم وبلغوا المنازل المنيفة وقد ذكر عن بعضهم أنه طرقه خوف من واقعة وقعت فى الوجود بعد ما امتثل فيها السنة فقيل له فى إحدى مخاطباته على عادتهم التى عودهم مولاهم أتفزع ونحن قد أعطيناك علم الأمان قال وما علم الأمان قيل له قد هديناك إلى اتباع السنة فهناك سكن ما كان وجده من الخوف ولم يلق فى تلك النازلة إلا كل خير ونعمة فالشأن لمن أريد به الخير الصدق مع الله تعالى واتباع السنة المحمدية جعلنا الله من أهل هذا الشان فى الدارين بمنه وفضله

(٢٢٥) ﴿ حديث النهى عن الشرب من فم السقاء ﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ نَهَى النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الشُّرْبِ مِنْ فَمِ السِّقَاءِ وَالْقِرْبَةِ وَأَنْ يَمْنَعَ الرَّجُلُ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً فِى جِدَارِهِ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما المنع من أن يشرب أحد من فم السقاء و القربة والثانى أن يمنع أحد جاره أن يغرز خشبة فى جداره والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال هل منعه عليه السلام عن الشرب من فم السقاء والقربة هل هو عام على أى وجه كان أولا وهل النهى نهى كراهية أو تحريم وهل ذلك معقول المعنى أولا وهل يتعدى منعه الى غير السقاء والقربة أو لا وهل إباحة الجدار للجار لغرز الخشبة هو على الوجوب أو الندب وهل ذلك على كل حال أو فى بعض الأحوال دون بعض ﴿ أما قولنا ﴾ على الشرب من فم السقاء والقربة هل هو عام أم لا ظاهر اللفظ محتمل لكن الناس اختلفوا فى تأويله فمنهم من جعله عاما على أى وجه كان ومنهم من قال إنه إذا جعل فم السقاء والقربة موضوعا فى الارض كانه القصعة وتناول منه الشرب فليست تلك الصفة بمنهى عنها وإنما النهى أن يصب الماء فى حلقه ولا ينظر ما فيه ولا يقدر أن يقطع الشرب ﴿ وأما قولنا ﴾ هل النهى على الكراهية أو التحريم احتمل لكن اذا كانت العلة معقولة المعنى فيكون بحسب مقتضى العلة فان لم تعرف العلة فحينئذ يبقى الأمر فيه محتمل الوجهين ويبقى ﴿فيه بحث﴾ آخر هل النهى يدل على فساد المنهى عنه فالذى يشرب يشرب حراما وإن قلنا أن النهى لا يدل على فساد المنهى عنه يكون متشابها هل هو حرام أو مكروه موضع خلاف ويبقى فعله ذلك على أحد الاحتمالين إما أن يكون حراما فيكون آثما وإما أن يكون مكروها فيكون غير آثم ﴿ وإما قولنا ﴾ هل ذلك معقول المعنى أو لا ظاهر اللفظ لا يتحقق منه شىء من ذلك لكن قد قال بعض

الناس ان ذلك معقول وهو خيفة أن يكون فى الوعاء حيوان فينزل مع الماء فى جوفه وقد وقع للناس من ذلك وقائع فتعبو بها كثيرا منها أنه قد ذكر أن رجلا شرب الماء كذلك وكان فى الماء ثعبان صغير فابتلعه مع الماء فحصل له منه ضرر كثير وقد يكون أيضا فى الماء علق فيبلعه فيتأذى به وقد يكون الماء ينصب بمرة فيكون سببا أن يقطع العروق الضعاف التى بازاء القلب فيكون منها موته ومن أجل ذلك أحكمت السنة أن يكون شرب الماء مصا ولا يكون عبا من أجل الخوف على العروق التى بازاء القلب فهنا من باب أحرى وقال آخرون من أجل ما يتعلق بالسقاء والقربة من رائحة الفم وقد يكون فى بعض أفواه الناس بخر فيتعلق بالقربة والسقاء منه شىء فيعافه الغير وقيل من أجل أن بعض الناس لا يحمل نفسه الشرب من فضل غيره ويتشوش لذلك عند الشرب وقد قيل إن ذلك يعود الفساد على الوعاء فينقل فيكون من باب إضاعة المال وهو منهى عنه نهى تحريم وبحسب هذه التعليلات تعرف النهى على أى وجه هو لكن الذى يعطيه الفقه أن أمرا يكون فيه التعليل على مثل هذا الخلاف تركه أولى لانه لا يبعد أن يكون لمجموع ما ذكر فيكون يجتمع فيه التحريم على وجه والكراهية على وجه والشان الاخذ بسد الذريعة التى تدل عليها قواعد الشريعة وقد روى عن الامام مالك رحمه الله ومن تبعه أن مذهبه فى الأمور المحتمله الأخذ بالأشد إبراء للذمة واما السقاء فهو الوعاء الصغير من الجلد والقربة الوعاء الكبير منه ﴿وأما قولنا﴾ هل يتعدى الحكم الى غيرهما فان قلنا بعدم التعليل فلا يتعدى ويكون مقصورا على السقاء والقربة لا غير وإن قلنا بالتعليل وهو الأظهر والله أعلم فحيث وجدت العلة طردنا الحكم على أحد محتملاته ﴿ وأما قولنا ﴾ هل إباحة الجدار للجار أن يغرز الخشبة فيه على الوجوب أو الندب فجمهور العلماء أنه على الندب لأنه قد روى عن راوى الحديث وهو أبو هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول ما لى أراكم عنها معرضين والله لأرمين بها بين اكتافكم فدل بقوله هذا انه فهم من النبى صلى الله عليه وسلم إما الوجوب أو التأكيد فى الندب لعظم حق الجار على جاره لأنه قال صلى الله عليه وسلم « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » والآثار فى الجار كثيرة فى تأكيد حقه والاحسان اليه وكف الأذى عنه وإدخال السرور عليه ﴿ وأما قولنا ﴾ هل ذلك على كل حال أو لا فلا يمكن أن يكون على كل حال لأن الشارع صلى الله عليه وسلم قد قال « لا ضرر ولا ضرار » فان كان فى غرز الخشبة ضرر على صاحب الحائط فلا يجب عليه ذلك ولا يندب فالشارع صلوات الله عليه وسلامه قد منع أن يفعل الشخص بملكه شيئا يضر بجاره فكيف يفعل فى مال جاره ما فيه ضرر به هذا لا يتعقل وإنما يكون ذلك على أحد محتملاته إذا لم يكن على صاحب الجدار فى ذلك كبير ضرر لأنه من جملة الرفق له وقد ورد ما معناه « لا يمنع أحدكم جاره رفده »

(٢٢٦) ﴿ حديث عدم الاتكال على الأعمال والاجتهاد فيها ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَنْ يَدْخُلَ أَحَداً عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَارَسُولَ اللهِ قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِناً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْراً وَإِمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ

ظاهر الحديث يدل على أنه لا يدخل أحد الجنة بعمله والكلام عليه من وجوه

اعلم وفقنا الله وإياك أن الناس اختلفوا فى معنى تأويل هذا الحديث على وجوه عديدة فمنها قول بعضهم ان الايمان عرض والعرض من شأنه أن لا يبقى زمانين فابقاؤه عليك حتى يتوفاك الله عليه من فضله عز وجل ومنها قول آخرين وهو أنه عز وجل الذى وفقك الى الأعمال وتفضل عليك بقبولها لقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) وقيل لولا تجاوزه عز وجل عنا ما قدر أحد على الخلاص لقوله تعالى (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) وتأويلات كثيرة لكن الذى يعطيه تقسيم البحث أن تقول قوله صلى الله عليه وسلم بعمله هل هو عموم فى جميع الاعمال القلبية والبدنية أو هو خاص بالبدنية فان كان خاصا بالبدنية فكيف الجمع بينه وبين الأحاديث التى وردت فى الأعمال وكيف دخول أصحابها الجنة مثل قوله عليه السلام فى الصيام «ان فى الجنة بابا يسمى الريان لايدخل منه الا الصائمون» الى غير ذلك من الاحاديث التى وردت فى الأعمال وكيف دخول أصحابها الجنة مثل قوله عليه السلام عن العافين عن الناس ينصب لهم لواء أخضر يوم القيامة فيتبعونه حتى يدخلوا الجنة أو كما قال عليه السلام وقوله عليه السلام فى اللذين لا يسترقون ولا يتطيرون «انهم يدخلون الجنة بغير حساب» الى غير ذلك وقول الله عز وجل فى كتابه (بما أسلفتم فى الأيام الخالية) وبما كسبتم إلى غير ذلك من الآى وهى كثيرة وإن كان المعنى به العموم فى الأعمال القلبية والبدنية فكيف الجمع بينه وبين قوله عليه السلام لمعاذ بن جبل ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله ثم أخبره صلى الله عليه وسلم «إن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وإن حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك لايعذبهم» وقول جبريل عليه السلام للنبى صلى الله عليه وسلم من مات من أمتك لايشرك بالله شيئا دخل الجنة وقول الله عز وجل للمؤمنين (لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والآى والأحاديث فى هذا كثيرة والايمان عمل من أعمال القلوب وهو أجلها (فالجواب) عنه أنه إن كان على الخصوص وهو أن يعنى به أعمال الأبدان فلا تعارض بين هذا الحديث ولا ما ذكر من الأحاديث والآى ولا غيرهما مما يشبههما لأن الأعمال لا تقبل

ولا تنفع إلا بشرط الايمان واتباع السنة المحمدية ولأن الكفار مكلفون بفروع الشريعة على أحد القولين ولو فعلوها لم تنفعهم ولا يرون الجنة ولا يشمون عرفها وقد قال الله عز وجل فى حقهم (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية) فعلى هـــذا التأويل يكون للحديث فوائد من الفقه (منها) أنه حجة لأهل السنة على المعتزلة الذين يقولون أن بأعمالهم يدخلون الجنة ويكفرون من وقع فى معصية ويوجبون له الخلود فى النار (ومنها) زوال رعونة نفوس العابدين الذين تشمخ نفوسهم وتغتر بما وفقوا اليه من الطاعة والخدمة (ومنها)الحض على تحقيق الايمان ويزيد ذلك بيانا أن الحق سبحانه حض على الايمان أكثر من غيره من الأعمال بقوله تعالى (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ولا يلزم من هذا الزهد فى الأعمال لأن تركها يزيد الكفر وقد قال « جعلت الصلاة فرقا بين الايمان والكفر »ولأن ترك الاعمال أيضا نقص فى الايمان يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يختلس الخلسة حين يختلسها وهو مؤمن » لأن حقيقة التصديق توجب اتباع الأمر واجتناب النهى وبذل الجهد فى ذلك مع اتقاء خوف لقاء المولى سبحانه وتعالى وهل يحصل له قبول أم لا يشهد لذلك قوله تعالى فى صفتهم المباركة (والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) ﴿ وهنا بحث ﴾ فى الفرق بين خوف عوام المؤمنين وخوف الخواص اعلم وفقنا الله وإياك ان خوف عوام المؤمنين ورجاءهم وعبادتهم كل ذلك له حد ونهاية وأما خوف الخواص ورجاؤهم وعبادتهم فليس له حد ولا نهاية بيان ذلك أما خوف العوام فانهم يخافون العقاب على المخالفة ونهاية خوفهم من دخول النار وخوف ما فيها من الآلام والأمور العظام أعاذنا الله منها بنور وجهه الكريم وأما رجاؤهم فقيما وعدوا من حسن الثواب وجزيل العطاء بحسب الوعد الجميل ونهايته دخول دار كرامته عز وجل والتنعم بما أعد لهم فيها وعبادتهم حدها التزام توفية ما جعل لهم فى ذلك ونهايتها ارتقابهم القدرة على خلاف ذلك والاستراحة إلى قوله تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) وأما خوف الخواص فانه لا حد له لأنهم يخافون عدله عز وجل وعظمته جل جلاله ولا حد لما يخافون ولذلك إذا طرق لأحدهم طارق الخوف إن لم يتداركه بتنسم الفضل والرحمة وإلا تفطرت كبده ومات وقد روى أن جملة منهم ماتوا كذلك ومما يذكر عن بعضهم أنه كان فتح قبره فى بيته وكان تعبده على شفير قبره فدخل عليه يوما بعض الوعاظ يزوره فلما دخل عليه ناداه الأولاد والعيال من وراء الستر ناشدناك الله لا تقتله فلما دخل عنده قال له عظنى قال له إن الأولاد قد ناشدونى الله أن لا أفعل فقال لا بد من ذلك فتلى عليه آية من كتاب الله تعالى فيها شىء من التخويف فوقع مغشيا عليه فأعاد الأولاد الرغبة على الواعظ مثل الأول فلما أفاق قال له زدنى قال له ان الأولاد قد ناشدونى

الله فقال له لا بد من ذلك فتلى عليه آية من كتاب الله تعالى فاضطرب مثل الحية ووقع فى قبره ميتا فقال الأولاد قتلته قتلك الله وعنهم مثل هذا كثير وأما رجاؤهم فهم يرجون محض فضله عز وجل بفضله فما يرجون لاحد له ويحصل لهم بذلك من شدة البسط وقوة الرجاء واليقين ما يفتنون به الجبال ومن الادلال على فضل مولاهم ما يتصرفون به فى الوجود كيف يختارون ومع ذلك محافظتهم على الأمر والنهى لا يقدر غيرهم عليه ومما يروى عن بعضهم أنه أتى بئرا بالدلو والحبل فأدلى الدلو فلم يبلغ إلى الماء فرفع طرفه إلى السماء وقال وعزتك لئن لم تسقنى لأغضبن فاذا به قد أدلى دلوه ثانية فبلغ الماء فاستقى وشرب قال راويه فلما رأيت ذلك منه ناشدته الله أن يسقينى فضله فناولنيه فاذا هو سويق بسكر فاتبعته وقلت له ياسيدى قدمن الله عليك بمثل هذا الحال وأنت تسيء الأدب فى مخاطبة الربوبية وتقول ان لم تسقنى غضبت فتبسم وقال يا بطال على من أغضب كنت أغضب على نفسى فلا أشرب ماء حتى ألقاه وطلبته مستعينا به على ذلك فلا حد لعبادتهم ولا فترة غير أنهم يفرقون بين الأوقات من أجل الأوامر لا غير فعبادتهم دائمة لا فترة فيها ولا التفات (ومما يروى) عن بعضهم أنه أتاه بعض الاخوان يزوره فوجده يصلى فقال فى نفسه لا أقطع عليه أتركه حتى يفرغ من صلاته فبقى ينتظره لأن يفرغ حتى أذن الظهر فصلى الظهر وبقى يتنفل حتى أذن العصر فصلى العصر ثم قعد يذكر حتى أذن المغرب فصلى المغرب ثم بقى يتنفل حتى أذن للعشاء فصلى العشاء وبقى يتنفل حتى طلع الفجر فصلى الصبح ثم قعد يذكر حتى كان وقت الضحى الأولى فقام فصلى ثم قعد يذكر والزائر فى ذلك كله يقول فى نفسه لا أقطع عليه حتى يفرغ هو من تلقاء نفسه فلما قعد يذكر وهو ينتظر الضحى الأعلى جرت سنة على عينه وهو قاعد لم يتحرك لها فمسح النوم من عينه وقال أعوذ بالله من عين لا تشبع من النوم فقال الزائر فى نفسه لا يحل لى الكلام مع مثل هذا وتركه وانصرف ومثل هذا عنهم كثير والفائدة أن تنظر من أى الأصناف أنت وما حالك أمن العوام أو الخواص وهل بينك وبين أحدهم نسبة أم لا وإلا فدارك نفسك قبل ذهابها واغلق الباب فالأمر والله قريب وقد يكون للحديث ﴿بحث ثان﴾ وهو أن الأحاديث التى أتت بمقتضى الأعمال وما لفاعلها وما على تاركها فذلك مقتضى الحكمة والتكليف ويكون هذا يدل على مقتضى التوحيد والتخصيص يشهد لذلك ماروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه خرج يوما ويداه الكريمتان مقبوضتان فقال للصحابة رضى الله عنهم «أتدرون ما فى هذه قالوا الله ورسوله أعلم فقال فى هذه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وأجدادهم وقبائلهم الى يوم القيامة ثم قال أتدرون ما فى هذه قالوا الله ورسوله أعلم قال فى هذه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وأجدادهم وقبائلهم إلى يوم القيامة قالوا يا رسول الله ففيم العمل فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له» أو كما قال عليه السلام فحصل

التخصيص لأهل الدارين بمقتضى الارادة الربانية لا بموجب الأعمال البدنية لكن بقى للحكمة معنى لطيف وهو أن الأعمال دالة على المآل كما هو العنوان دال على صاحب الكتاب يشهد لذلك قوله عز وجل فى كتابه (فسنيسره لليسرى ـ فسنيسره للعسرى) وقول زيد الخير لرسول الله صلى الله عليه وسلم لتخبرنى يارسول الله ما علامة الله فيمن يريده وما علامته فيمن لا يريده فقال «كيف أصبحت يازيد قال أصبحت أحب الخير وأهله وإن قدرت عليه بادرت اليه وإن فاتنى حزنت عليه وحننت اليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك علامة الله فيمن يريده ولو أرادك بغيرها لهيأك لها » أو كما قال عليه السلام فلذلك جاء شبه الأعمال البدنية مع سابقة الارادة الربانية لمن تفطن واعتبر كما أخبر سبحانه عن يوم بدر بقوله تعالى (إنى ممدكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله) فجعل نزول الملائكة اطمئنانا لقلوبنا لما يعلم من ضعفنا فأخبر أن حقيقة النصر من عنده سبحانه فكذلك الأعمال الصالحة فيها للنفوس الضعاف طمأنينة وحقيقة الخلاص ودخول الجنة بفضل الله تعالى والركون أيضا إلى الأعمال كيوم حنين وقد قال عز وجل فيه (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) فكذلك إذا عولت على أعمالك الصالحة لم تقدر بها على شيء من الخلاص وإن كثرت إلا أن تغمدت بالفضل والرحمة يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى العابد من بنى إسرائيل صاحب الرمانة وقد تقدمت حكايته قبل فى غير هذا الحديث ياهذا اعمل فأصحاب التوفيق إذا رأوا أنفسهم قد وفقوا إلى شيء من أفعال الخير يستبشرون ويشكرون الله على ذلك ولا يغترون ويرغبون لله فى أسباب السعادة الدالة عليها من فضله لقوله تعالى (واسألوا الله من فضله) فهو أهل الفضل والانعام ويكون من فوائد هذا الحديث على هذا الوجه أنه حجة على أهل الغفلة والجهل ممن انتسب إلى العلم ومما انتسب أيضا إلى طريق الصوفية لأنهم يفرقون بين الشريعة وطريقهم وبين الحقيقة وطريقهم وكل طائفة منهما تدعى تفضيل طريقها وليس الأمر كذلك لأن الذى أخبر بالشريعة وبينها لنا أخبر بالحقيقة وبينها لنا أيضا وكفى فى ذلك ماكان صلى الله عليه وسلم يفعل فى نفسه المكرمة لأنه كان إذا خرج إلى جهاد أو حج أخذ الأهبة لذلك على مقتضى الشريعة وإذا رجع قال « آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده » وهذا هو الحق والحقيقة فتراه عليه السلام جمع فى العمل الواحد الشريعة والحقيقة لأن المطلوب الجمع بينهما ومن هنا زل من زل وقد قال بعض السادة فى الجمع بين ذلك أن تعمل عمل من لا يرى خلاصا إلا بالعمل وتفوض الأمر وتتوكل تفويض وتوكل من لا يرى خلاصا إلا بمجرد الفضل لاغير أو كما قال ولقد أحسن

فيما به جمع ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه ليس أحد من العباد يقدر على توفية حق الربوبية على ما يجب لها يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل رحمته ﴾ فاذا كان عليه السلام الذى هو خير البشر وصاحب الشفاعة والمقام المحمود لا يقدر على ذلك فالغير من باب أحرى وأولى لأن صاحب كل مقام يطلب بتوفيته بحسب مارفع له فى مقامه يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم «أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وإخباره عليه السلام عن قول الملائكة يوم القيامة وهى فى العبادة لا يفترون سبوح قدوس ماعبدناك حق عبادتك وإذا تأملت ذلك من طريق النظر تجده مدركا حقيقة لأنه إذا طالبنا عز وجل بشكر النعم التى أنعم علينا عجزنا عنه بالقطع ومنها مالا نعرفها كما أخبر جل جلاله (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فكيف غير ذلك من أنواع التكليفات وهى من جملة النعم الواحدة منها نعجز عن شكرها ان لو اشتغلنا بها وذلك أن الانفاس إثنى عشر ألف نفس داخل ومثله خارج فى اليوم الواحد فأنعم علينا بأن تدخل بغير كلفة وتخرج بغير مشقة مع اليقظة والنوم فهذه واحدة من جملة نعم عديدة فى البدن عجزنا عن شكرها وكثير من الناس مايعرفونه فوقع العجز حقيقة ﴿ ومن وجه آخر ﴾ وهو أن العالم كله محدث فكيف يقدر محدث على توفية حق القديم الأزلى هذا عن طريق العقل مستحيل فما بقى إلا ماأخبر به الصادق صلى الله عليه وسلم وهو التغمد بالفضل والرحمة فبقى البحث على قوله ﴿ بفضل رحمته ﴾ احتمل وجوها

﴿ منها ﴾ أن تكون إشارته عليه السلام لما أخبر عن مولانا سبحانه أنه قسم الرحمة على مائة جزء أخرج منها فى الدنيا جزءا واحدا منها يتراحم الخلق كلهم حتى الفرس ترفع حافرها عن ولدها خشية أن يصيبه وادخر تسعة وتسعين جزءاً إلى يوم القيامة فجعل عليه السلام نفسه المكرمة من جملة المؤمنين تواضعا لله تعالى واحتمل ان يشير عليه السلام إلى عجزه عن توفية حقوق الرحمة التى رحمه الحق بها حتى يكملها له سبحانه بفضله فيكون له سببا الى دخول الجنة مثل ماذكره سبحانه وتعالى فى كتابه من نعمه سبحانه عليه بقوله تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) الى آخر السورة ومثل قوله تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) فكأنه عليه السلام يقول وأنا عاجز عن التوفية بالحقوق التى تجب لله تعالى على بمقتضى الشكر والتعظيم فلم يبق بما أرجوا دخول الجنة إلا برحمة أخرى فاضلة على هذه أى زائدة على هذا يكفر بها عن التقصير ويدخلنا بها الجنة واحتمل أن تكون إشارته عليه السلام إلى الزيادة التى زاده الله تعالى بعد ما أكرمه بما ذكره وهو قوله جل جلاله (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر) لأن من

غفر له قد أدخل الجنة لا محالة ولا يخطر بخاطر أحد أن الذنوب التى أخبر مولانا سبحانه أنه بفضله غفرها للنبي صلى الله عليه وسلم إنها من قبيل مانقع نحن فيها معاذ الله لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكبائر بالاجماع ومن الصغائر التى فيها رذائل وأما الصغائر التى ليس فيها رذائل ففيها خلاف بين العلماء والأكثر منهم على أنهم معصومون من الصغائر كما عصموا من الكبائر وهو الحق لأن رتبتهم جليله وإنما ذلك من قبيل توفية مايجب للربوبية من الاعظام والاكبار والشكر ووضع البشرية وإن رفع قدرها حيث رفع فانها تعجز عن ذلك بوضعها لأنها من جملة المحدثات وكثرة النعم على الذى رفع قدره أكثر من غيره فتضاعفت الحقوق عليه فحصل العجز للكل كل على قدر حاله وبقيت المنة لله تعالى على الكل والتجاوز بمجرد الفضل والرحمة لاحق لأحد عليه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (بل الله يمن عليكم أن هدا كم للايمان إن كنتم صادقين) وفيما ذكرنا حجة لأهل الطريق الذين قد أجهدوا أنفسهم فى الخدمة ومع ذلك يعترفون بعظم التقصير ويخافون أكثر مما تخاف أصحاب الكبائر (وقد ذكر) عن بعضهم أنه اشتهت نفسه تمرا فبقى يدافعها أياما عديدة إلى أن ظهر له يوما شراءه فلما أخذه من البائع وولى وإذا بريح شديدة وبرق ورعد فرمى التمر من حجره ووبخ نفسه وقال لها أهلكت الناس بخطيئتك وخرج هاربا الى الله تعالى ومما يزيد ذلك بيانا قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فانه بقدر العلم به عزوجل يكون الخوف منه ولا أحد أعلم بالله من رسله وسيدنا صلوات الله عليه وسلم وعليهم أجمعين القدوة فيهم فيخف مثل هذا الخوف له عليه السلام لما به من عليه من المزية وقد قال صلى الله عليه وسلم «أنا أخشاكم لله وأعلم بما أتقى» أوكما قال عايه السلام واحتمل أن يكون عليه السلام أراد مجموع الوجوه كلها وزيادة لأنه صلى الله عليه وسلم معدن الفصاحة والبلاغة

وفيه دليل : على أن ألفاظ العموم يدخلها التخصيص بمقتضى اللسان العربى يؤخذ ذلك من قولهم ﴿ ولا أنت ﴾ لأن قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لن يدخل أحدا عمله الجنة ﴾ فقوله أحدا لفظ عام فلو لم يكن ذلك معروفا من لسانهم ما استفسروه حتى يزيل لهم ذلك المحتمل المتوقع من أحكام الحديث النهى عن أن يتمنى أحد الموت كان على أى حالة كان من خير أو شر يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ لايتمنى أحدكم الموت إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا وإما مسيئا فلعله أن يستعتب ﴾ وقد كان من دعائه عليه السلام « اللهم احيني ماكانت الحياة زيادة لى من كل خير وأمتني ما كان الممات راحة لى من كل شر » أوكما قال عليه السلام ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن يقال هل هذا النهى على عمومه أو لا احتمل لكن قد جاء «وان وقعت الفتن بطن الارض خير للمؤمن من ظهرها» وقد جاء عن على رضى الله عنه أن الفتنة لما طالت قال اللهم ان قومى قد ملونى ومللتهم فاقبضنى اليك غير

مقصر ومثل ذلك عن عمر رضى الله عنه أنه قال اللهم إن رعيتى قد انتشرت وكبر سنى فاقبضنى اليك غير مفرط والجمع بين ذلك أنه مهما كان الرجاء فى شيء من الخير أو الخوف من شيء من الشر رغب فى الأسباب التى يتوصل بها الى الخير أو دفع الشر وإبقاء حياة المؤمن من أكبر الاسباب التى يرجى بها ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم « بقية عمر المؤمن لا ثمن لها يصلح فيه ما فسد » أو كما قال عليه السلام فاذا كانت وقت الفتن خيف على الايمان فى الغالب فبطن الأرض إذ ذاك خير للمؤمن فانه يقبض على الايمان وهى النعمة العظمى من الله بها علينا بفضله وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الفتن « يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا » أو كما قال عليه السلام فاذا جاءه شيء يخاف به زوال الايمان فالموت اذ ذاك مع الايمان خير من الحياة التى يخاف معها زوال الايمان ﴿ وأما قول ﴾ الخليفتين رضى الله عنهما فانما طلبا الموت خيفة النقص وأن يكون رجوعهما إلى مولاهما على أكمل الحالات سلكا به ما قدمناه من قوله عليه السلام « وأمتنى ما كان الممات خيرا لى » غير أن العبارة اختلفت والمعنى واحد فلا تعارض بينهما وأما قوله عليه السلام « فسددوا وقاربوا » فقد تقدم الكلام على ذلك فى حديث إن الدين يسر ﴿ وفيه دليل ﴾ على قوة رجاء المؤمنين فى الله تعالى على أى حالة كانوا يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا وإما مسيئا فلعله أن يستعتب ﴾ اى يعتب نفسه على ما وقع منه ويندم ويتوب لأن الاستغفار لا يكون إلا بعد الندم والندم كما قال صلى الله عليه وسلم توبة ﴿ وفيه دليل ﴾ لطريق القوم لأنهم يقولون ارجع إلى مولاك على أى حال كنت تجده بك رحيما وقد قال بعضهم اجعل قلبك خزانة سرك ومولاك موضع شكواك ومما جاء فى مثل هذا ما روى فى قصة يونس عليه السلام حين كان فى بطن الحوت أن الله عز وجل أسمعه صوت قارون وهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة لاقرار له فيها وأسمع عز وجل لقارون صوت ذى النون عليه السلام فسأل الملائكة الموكلين بعذابه أن يمهلوه حتى يخاطبه فأذنوا له فى ذلك فناداه فاستجاب له فسأله عن قصته فاخبره بها فقال له ارجع الى مولاك ففى أول قدم ترجع اليه تجده فقال له ذو النون عليه السلام ولم لم ترجع أنت اليه فقال له إن توبتى وكلت الى ابن خالتى موسى فلم يقبلها أو كما جرى فى القصة فأخرجه الله عز وجل الى البر بفضله ورحمته ولذلك قال بعضهم

تقواك تقواك عمدة فى رجاك ورجاك رجاك عمدة فى تقواك

فان خليت منهما فمولاك مولاك ثم مولاك

(٢٢٧) ﴿ حديث الشفاء فى ثلاث ﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ شَرْبَةِ عَسَلٍ وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ وَكَيَّةِ نَارٍ وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ رَفَعَ الْحَدِيثَ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدها إخباره صلى الله عليه وسلم بأن الله سبحانه جعل الشفاء فى ثلاث شربة عسل وشرطة محجم وكية نار والحكم الثانى نهيه صلى الله عليه وسلم عن الكى بالنار والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل الشفاء فى هذه الثلاثة المذكورة هو على العموم للمؤمن وغيره أو لا وهل الشفاء أيضا يكون هنا عاما من كل الأمراض أو فى مرض خاص وهل يحتاج فى ذلك إلى نية عند استعماله أم لا يحتاج وهل نهيه صلى الله عليه وسلم عن الكى نهى كراهية أو تحريم وهل يعرف أيضا لذلك حكمة أم لا ﴿ فالجواب ﴾ على قولنا هل هو على العموم فى المؤمن والكافر أم لا ظاهره محتمل لكن قد جاء من طريق «شفاء امتى فى ثلاث» فان حملنا عموم لفظ هذا على التخصيص بهذه الطريقة التى اوردناها فيكون خاصا بأمته صلى الله عليه وسلم وإن تركناهما على مقتضاه فيكون العموم فى هذا أظهر وتكون الطريقة الأخرى تدل على أن هذا الخير باق لأمته صلى الله عليه وسلم ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يكون ذلك شفاء من كل داء أو هو من أدواء مخصوصة فاللفظ محتمل لكن الأظهر العموم لأنه من طريق الرحمة والمن وما هو من هذا الباب فالعموم أظهر فيه وقد تكلم ناس فى هذه الأحاديث وعللوا الفائدة فيها بأن جعلوها بنظرهم راجعة الى التجرة؛ وما يقول فيها أهل الطب فاذا رجعنا إلى بحثهم إلى التجربة وقول الأطباء فلم يبق لقول الصادق صلى الله عليه وسلم فائدة أصلا وهذا لا خفاء فى غلط قائله والله عز وجل يقول (وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقال تعالى (وما ينطق عن الهوى) فاذا صدقنا قول أهل التجربة وأهل الطب وكلاهما تقدير وظن غالب فيجب من باب أولى تصديق الصادق صلى الله عليه وسلم الذى يخبر عن جاعل الأشياء كيف شاء واخترعها بقدرته وحكمته فالتوفيق لا ينال إلا من طريق النعم علينا ومما يبين أنه على العموم ما اتفق لبعض العلماء بغرب الأندلس كان من رواة الحديث عاملا به متبعا للسنة والسنن وكان الناس يجدون برأيه فى كل ما يشير به عليهم بركة حين شهر بذلك فكان الناس يقصدونه من الأماكن البعيدة فى أخذ رأيه فى المعضلات التى تصيبهم وكان فى بعض الحصن بعض الفلاحين وكان له رأس بقر وكان يعيش به فسرق فلحقه منه كرب عظيم فقيل لهمالك إلا الفقيه الذى فى رأيه البركة هو يخبره عليك فاتاه فأخبره بحاله وهو يبكى ويضرع اليه ويتوسل اليه بكل ما يمكنه عساه يخبر عليه رأس بقره

فقال له اذهب فاحتجم فخرج ليحتجم وعادتهم فى البلاد أن المزينين يسترون حوانيتهم بمناديل من صوف أو كتان فرفع ذلك المنديل لأن يدخل فاذا برأس بقره فى داخل الحانوت والحانوت خالية فأخذه ثم رجع إلى الفقيه يخبره بحاله فلما أخبره قال له الحاضرون أى نسبة فى قولك احتجم حين يكون سببا فى جبر رأس البقرة فانك لما أمرته بذلك تعجبنا من بعد النسبة التى بين حاله وما أمرته به ولم نقدر أن نكلمك ثم نجح فيما أمرته به أفدنا ذلك فقال لهم لما رأيتـه قد أصيب وحاله يقتضى الخوف عليه من شدة كربه ورأيته لا يقبل عذرا ان قيل له فتداركت قوله صلى الله عليه وسلم «شفاء أمتى من ثلاثة شرطة محجم» فأخذت الحديث على عمومه فامرته بما أخبر به الصادق صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى فبركة السنة هى التى شفته أو كما جرى وحدثنى بهذا بعض مشايخى من رواة الحديث وكان له العلم والدين المتين وكان من البلد الذى كان فيه ذلك الفقيه وجرت هذه فيه ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يحتاج الى نية عند استعماله فكل ما هو من طريق النبوة فالنية أصل فيه وقد يؤثر لمن لم تكن له نية اذا اخذه على وجه التداوى مثل ما يأخذ الذى الدواء يعطيه الطبيب فان ذلك المقدار من النية فيه مجزىء وأما الذى يأخذه على طريق التجربة أو الشك فلا يزيد بذلك إلا شدة بدليل قول الله سبحانه (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا) وكل من لم يصدق ما قاله الصادق صلى الله عليه وسلم أو شك فيه فقد ظلم نفسه فلا يزيد ما يستعمل من الكتاب والسنة إلا خسارا ورضى الله عن ابن عباس كان اذا رمدت عينه يتلو قول الله عز وجل فى العسل فيه شفاء للناس ويكتحل به يبرأ من حينه وكان ابن عمر رضى الله عنه اذا طلع له نبت تلى الآية وطلاه بالعسل فيبرأ أيضا فمثل هؤلاء السادة ومن تبعهم بأحسان إلى يوم الدين عرفوا الكتاب أيضا والسنة وما به من عاينا من ذلك ﴿ وأما قولنا ﴾ هل نهيه صلى الله عليه وسلم عن الكى نهى تحريم أو كراهية احتمل والأظهر أنه على الكراهة ومما يدل على ذلك أن بعض الصحابة كانت الملائكة تسلم عليه فأخذه مرض فقيل له ليس يبريك منه الا الكى فاكتوى فلم تسلم عليه الملائكة حتى تاب وأقلع عن الكى فرجعت الملائكة تسلم عليه كما كانت قبل وقد جاء أن النبى صلى الله عليه وسلم كوى بعض الصحابة فى الحكمة لكنه لا نعلم هل كان كيه لذلك الصحابى بعد هذا الحديث فيكون فعله عليه السلام ناسخا لقوله أويكون قبل الحديث فيكون فعله منسوخا بقوله فاذا احتمل الأمرين بقى موضع خلاف وفعل هذا الصحابى الذى كانت الملائكة تسلم عليه كان كيه بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فبان النهى عندهم هو المشهور فيه الكراهية لأنه روى عنه رضى الله عنه أنه قال اكتوينا فما أفلحنا فلولا أن النهى كان معلوما عندهم بعد موته صلى الله عليه وسلم وتأوله أنه على طريق الكراهية وا كتوى فظهر له غيره أاراد ما قال ذلك ولا تاب من الكى وأقلع عنه وحينئذ رجعت الملائكة

تسلم عليه كما كانت وفيما جرى لهذا الصحابى دليل على أنه لا تعجل العقوبة الا للمحبوب لكى يرجع وأما غيره فقد يؤخر له إملاء لقول مولانا سبحانه (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) ﴿وأما قولنا﴾ هل نعرف لنهيه صلى الله عليه وسلم علة أم لا أما أن يفعل صلى الله عليه وسلم شيئا لغير حكمة فستحيل وأما ماهى فتحتمل والله أعلم وجوها ﴿منها﴾ أن الجاهلية وأهل الكتاب يفعلون ذلك وهو عليه السلام قد نهى عن التشبه بهم فيكون لأجل ذلك واحتمل أن يكون لما جعلها الله تعالى للعذاب والنقم اتبع عليه السلام فيها حكمة الحكيم وأعطاها ماهو الغالب من شأنها واحتمل أن يكون عليه السلام كره ذلك من طريق الفأل فهذه سنته عليه السلام يعجبه الفأل الحسن كما فعل عليه السلام حين قال من يحلب هذه الشاة فقام رجل ليحلبها فسأله عن اسمه فلما أخبره لم يعجبه ذلك الاسم فقال له اجلس ثم ثان مثل ثم ثالث فلما أعجبه اسمه قال له احلب فكره هنا أن يكون شفاء أحد أمته بالنار من أجل الفال ولا يكون لها فى لحم مؤمن نصيب لا فى الدنيا ولا فى الآخرة واحتمل بمجموع ما ذكرناه وزيادة لأنه عليه السلام معدن الحكم والخير وبقى ﴿سؤال﴾ وهو أن يقال كيف يخبر بشىء أن فيه شفاء ثم ينهى عنه ﴿فالجواب﴾ اعلم والله وفقنا الله وإياك أنه لما كان عليه السلام الصادق المشفق على أمته الرحيم بهم كما جاء فى التنزيل فأعلمنا بما جعل الله تعالى فيها من الشفاء ونهانا عن استعمالها لما فى ذلك من المضار علينا لأنا بنفس نهيه عليه السلام عن ذلك علمنا أنه قد اجتمع فيها الأمران الشفاء والمضار فغلب صلى الله عليه وسلم الذى هو الأصلح فى حقنا وهو النهى كما أخبر الحق سبحانه فى شأن الخمر أن فيها منافع للناس ثم حرمها لما فيها من المضار فى العقول والأديان ﴿وفيه من الفقه﴾ أن دفع المضار آكد من تحصيل النفع يؤخذ ذلك من أنه لما كان فى الكى النفع والضر غلب عليه السلام دفع الضر فنهى عنه وهذا المعنى هو الذى فهمه حذيفة رضى الله عنه حيث قال كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى ﴿وفيه دليل﴾ لأهل الزهد وهو أنه لما كان فى الدنيا الوجهان غلبوا الضر فيها فدفعوه بالزهد فيها فنجوا وربحوا الدارين وعاد الضرر على أهلها فتعبوا فى الدارين معا ﴿وفيه من الفقه﴾ أنه إذا كان شىء يكون فيه خير وشر ولا يقدر على دفع ذلك الشر الذى فيه يترك خيره من أجل شره ومن أجل هذا الباب كان أطباء الأبدان لما أن كانت عندهم المحمودة فيها السم القاتل وفيها النفع لاذهاب الاخلاط وقدروا على أن يحجبوا ضررها عن الابدان بالحجب المعلومة استعملوها بالحجب ولا يستعملها أحد وحدها الا قتلته وكذلك أيضا أطباء الأديان لما كانت النفس وما تشير إليه غالبا سم قاتل فى الدين لم يستعملوها إلا بحجاب الشريعة فانهم لا انفكاك لهم عنها فلم تضرهم مع ذلك وانتفعوا بها وربحوا عليها الدارين جميعا والذين استعملوها بغير حجب الشريعة قتلتهم وخسروا بها الدارين معا أعاذنا

الله من ذلك ولذلك قال ، اذا كنت متقيا فشر نفسك أولا فاتقه ، فان عوفيت منها فلا شر بعدها

(٢٢٨) حديث نفع الحبة السوداء

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَالسَّامُ الْمَوْتُ وَالْحَبَّةُ السَّوْدَاءُ الشُّونِيزُ

ظاهر الحديث الاخبار بأن الله عز وجل جعل فى الحبة السوداء التى هى الشونيز شفاء من كل داء الا الموت والكلام عليه من وجوه

وهى كما تقدم فى الحديث قبله من التوجيهات فى الشفاء والانفصال عنها كالانفصال عن تلك غير أن هذا زيادة فى التوجيه وهى أن عادة العرب إذا أكدت الشيء بالمصدر أو استثنت من العام بعضه دل على أن مابقى حقيقة فى العموم لا يحتمل التخصيص وقد قال صلى الله عليه وسلم إهنا نها شفاء من كل داء فهذا اللفظ عام وقد يحتمل التخصيص فلما استثنى منه البعض بقوله عليه السلام إلا السام دل على أنه شفاء عام لا يحتمل التخصيص وقد قال بعض العلماء فى هذا الحديث ما قدمنا ذكره فى الحديث قبل أنه يرجع فى ذلك لما يقوله الأطباء وهذا ليس بالبين والجواب عنه مثل الجواب فى الحديث قبل وقد قال أهل الطب أن الحبة السوداء تنفع عندهم لسبعة عشر داءاً بالتجربة وقد ذكر لى بعض مشايخى فى الحديث والفقه وكان قد جمع الله له الحديث والفقه والعمل بهما والتقوى أن شيخه رحم الله جميعهم وإيانا بفضله أن بعض أصحابه وكان من الزاهدين المباركين وكان يحضر مجلسه كل يوم فلما قرأ هذا الحديث وتكلم الشيخ عليه بنحو ماأشرنا إليه فى الحديث قبله جاء يوم ولم يأت ذلك الزاهد مجلس الشيخ فلما أتاه بعد سأله ما حبسك عنا فقال له إن عينى رمدت فأوجعتنى فأخذت الشونيز فمضغته وألقيته داخلها فزادت وجعا فقلت مخاطبا لها اوجعى أو طيرى فما أخبر الشيخ إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يقول النبي عليه السلام إلا حقا فبرئت من ليلتى وما بقى لى فيها شيء من الأشياء المؤلمة ولا أثر منها فقال الشيخ للفقهاء مثل نية هذا هى النية المباركة التى تظهر فيها فائدة الحديث ولو استعمله أحد منكم مع الشك الذى فى نياتكم لطارت عيناه أو كما جرى وفى هذه الحكاية دليل على ماقلناه فى الحديث قبله أما الأمور التى تتلقى من الشارع صلى الله عليه وسلم أن الفائدة فى استعمالها إنما تكون بحسن النية وإن لم يكن هناك حسن نية خيف على الشخص من زيادة الضرر وقد بينا الدليل على ذلك من كتاب الله تعالى والله الموفق للخير بفضله

(٢٢٩) حديث لاعدوى ولا طيرة ولاهامة ولاصفر .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَاعَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَّةَ وَلَا صَفَرَ وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما نفى هذه الأربعة وهى العدوى والطيرة والهامة والصفر والثانى الأمر بالفرار من المجذوم كما يفر من الأسد والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال مامعناه وما الحكمة فى نفيه عليه السلام ذلك وهل أمره عليه السلام بالفرار من المجذوم وجوب أو ندب ﴿أما قولنا﴾ مامعناها فان تلك الأربعة الأشياء كانت من عمل الجاهلية فمعنى العدوى عندهم إذا كان عندهم الجمل به داء يخرجونه من بين الجمال ويزعمون أن ذلك الداء هو الذى يعدو إلى غيره أى ينتقل منه إلى غيره وقد سئل عن ذلك سيدنا صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله الابل تكون مثل الظباء حتى يدخل بينهما الأجرب فيعدوها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فمن أعدى الأول» فنفى بقوله صلى الله عليه وسلم فمن أعدى الاول ما كانوا يعتقدون من ذلك وبين أن حقيقة إصابة الخير والضر على اختلاف أنواعهما فى جميع الحيوان عاقلة وغير عاقلة إنما هو بقدرة الله تعالى ومشيئته لا تأثير لشىء فى ذلك وأما الطيرة فانه كان من عادتهم من أصابه منهم ضر من شىء من الأشياء أو بسببه كان يتطير به أو يكرهه و ينسب ماجاءه مما لم يعجبه أنه من ذلك وقد أخبر الله عزوجل بذلك فى كتابه حيث قال (قالوا إن تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم) فجاءهم الجواب طائركم معكم فنفى صلى الله عليه وسلم أن يصيب أحدا من أحد وبال وإنما وبال الشخص من سوء حاله كما قال سبحانه (طائركم معكم) وأما قوله ﴿ ولا هامة ﴾ فان العرب كانوا يقولون إن المقتول إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يصيح حتى يؤخذ بثأره وقيل يخرج من عظامه إذا بليت فكذب صلى الله عليه وسلم ماادعوه من ذلك بقوله ﴿ولا هامة﴾ أى ليس مايقولون من ذلك حق وفى هذا دليل على تكذيب كل من يدعى فى خلق من خلق الله تعالى أنه متولد عن شىء برأيه أو بكلام غيره ممن تقدمه ويحكم على القدرة برأيه أو باستنباط حكمة يدعيها أن ذلك كله كذب وليس لعلم ذلك طريق من طريق الحكمة بالجملة الكافية إلا من طريق إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ويبطل بهذا علم الفلاسفة والطبيعيين يعنى وأهل صنعة الفلك لأن ذلك كله برأيهم ليس فيه من الشرع مستند ولا يحل تصديقهم فيما يزعمونه ﴿وأما قوله ولا صفر﴾ فانه دود فى البطن يقتل من أصابه فأزال بقوله هذا ما كانوا يتوهمونه من ذلك حتى يعلموا أن الميت إنما يموت بأجله ولا يلتفت لعادة الجاهلية فى ذلك ويترتب على هذا من الفقه أنه لا يعمل من

الاسباب إلا الذى جاءت به السنة لاتباع الأمر أوما كانت جارية وأبقتها السنة مثل ماكان يعجبه صلى الله عليه وسلم الفأل الحسن وقد كان ذلك من فعلهم فى الجاهلية فأقرته السنة ومثل القسامة وعقل العاقلة وما أشبه ذلك ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الأصل فى الدارين لا تأثير فى الوجود لشىء بذاته وإنما التأثير للقدرة نفسها أوماجعلته القدرة بمقتضى الحكمة وغير ذلك محال ولذلك قال أهل العلم مامعناه إن بروز القدرة إليا فى الأشياء على ضربين منها ما هى مغطاة بصدق الحكمة ومنها ما هى بارزة بذاتها لاتغطية عليها ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى نفيه عليه السلام تلك الأربعة الاشياء فلوجوه منها ليحقق أن التأثير فى الأشياء كلها للقدرة كما تقدم وغير ذلك محال لأن هذا من حقيقة الايمان ومنها نفى التغيير الذى قد يعاق فى النفوس من تلك العوائد لمن فعلها وذلك قال صلى الله عليه وسلم إذا تطيرت فامض أى لا ترجع عما كانت عليه نيتك قبل فان ذلك التطير لايمنع شيئا ولا يجلبه ومنها شفقته عليه السلام على أمته ليريحهم من التعب الذى يلحقهم بالتقيد بتلك العوائد المذمومة ولا فائدة لهم فيها ومنها ابقاء التوادد بين المؤمنين يؤيد هذا المعنى الذى أشرنا إليه قوله عليه السلام فى الشؤم إن كان ففى الدار والمرأة والفرس فان هذه الثلاث مما يمكن الانفصال عنها وليس على أحد فى ذلك كبير مشقة ولم يحقق عليه السلام الشؤم فيها وإنما قال عليه السلام ان كان يعنى على زعمكم ففى هذه الثلاث ونفاه أن يكون فى ابن أو أخ أو صاحب أو قريب من القرابة أو فى شىء من الأطعمة أو فيما يتمول من الأشياء سوى ما ذكر حتى تبقى نفوس القرابة والأصحاب مجتمعة لايجد أحد بأحد تغيرا وكذلك فيما فتح الله تعالى عليه من جميع المتمولات وترى اليوم عادة بعض الناس يتطيرون ببعض بينهم وبين أصحابهم ويقولون ما أتى على فلان إلا حين ولد له فلان ويكره ذلك الابن من بين بنيه ويوافقهم على مازعموا وكذلك فى الأصحاب ومن يلقونه يقولون ماحرمت اليوم إلا من كونى لقيت فلانا وقد شاع هذا فى الناس كثيرا وهذا مخالف لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ولما نص عليه فى هذا الحديث وجاهلية محضة وكفى بهذا شؤما لأن الشؤم كله والشر كله مخالفة سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد بين العلماء الشؤم الذى فى تلك الثلاث فقالوا شؤم المرأة سوء خلقها وشؤم الدار سوء جارها وشؤم الفرس أن لايجاهد عليه فى سبيل الله وأما جوابه صلى الله عليه وسلم للمرأة التى أتت تشكوا له حالها بدارها حيث قالت أتيتها والعدد كثير والمال وافر فقل العدد وذهب المال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوها ذميمة فليس فيه تحقيق بشؤمها وإنما قال صلى الله عليه وسلم ذلك ترويحا لخاطرها كأنه عليه السلام يقول ليس يلحقك منها شىء إذا رحلت عنها وتبقى هى بما نسبت أنت إليها ذميمة عندك لا تلتفتى إليها وهنا تنبيه على الشؤم الذى قد تحقق بالكتاب والسنة لكل من لا يرجع عنه وهو الذنوب والمعاصى فان شؤمهما لا يفقد فى الدارين

حسا ومعنى وهذا الشؤم الذى قدنفته الشريعة تعلقت به النفوس إلا القليل وهم أهل التوفيق قاتل الله أخا الجهالة على نفسه ما أعداه وعن الحق ما أعماه (وأما أمره) عليه السلام بالفرار من المجذوم هل هو على الندب أو الوجوب أو من طريق الشفقة احتمل والأظهر أنه من طريق الشفقة بدليلين أحدهما من فعله عليه السلام وهو أنه روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أكل مع المجذوم فى صحفة واحدة وقال «بسم الله لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» فلو كان الفرار منه واجبا أو مندوبا كان عليه السلام أول من يفعله والدليل الآخر أنه قد ذكر من طريق الطب أن تلك الروائح التى لهم تحدث فى الأبدان خللا وتتألم النفوس أيضا منها ومن شفقته عليه السلام على أمته كل ما فيه لهم ضرر فى أى وجه كان ينهاهم عنه وكل خير فى أى نوع كان يدلهم عليه فجزاه الله عنا أفضل ما جازى نبينا عن أمته وأما قوله عليه السلام كما تفر من الأسد فهو مبالغة فى الهرب منه لأن العادة فى فرار الناس من الأسد أنهم يكونون منه فى البعد بحيث لا يشمون له رائحة ولا يلحقهم منه نفس وهم يشتدون فى الهرب فهذه غاية فى الهرب ويمكن الجمع بينه وبين فعله عليه السلام وقوله إن قوله هو المشروع لنا من أجل ضعفنا فمن فعله فقد أصاب السنة وهى أثر الحكمة الربانية وفعله عليه السلام هو حقيقة الايمان والتوحيد لأن الأشياء كلها ما جعل الله تعالى لها تأثيرا إلا بمقتضى جريان حكمته سبحانه وسنته فى خلقه ومالم يجعل له ذلك فلا تأثير له وما الكل إلا بقدرته عز وجل وإرادته يشهد لذلك قوله عز وجل (وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله) فمن كانت له قوة يقين وصدق إيمان فله أن يتبعه عليه السلام فى فعله ولا يضره شىء وهو فى فعله متبع للسنة ومن كان يقينه ضعيفا فله أن يتبع أمره عليه السلام فى الفرار ولا يجوز له مع الضعف أن يتبع فى الفعل لأنه عرى عن شروطه وقد يدخل بفعله ذلك تحت قوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ويترتب على هذا من الفقه أن الأمور التى يكون فيها توقع ضرر وقد أباحت الحكمة الربانية الحذر منها أن الضعفاء لا ينبغى لهم أن يقربوها وأن أصحاب اليقين والصدق مع الله تعالى فى ذلك بالخيار إن شاءوا أخذوا بأحد الوجهين بالفعل أو الترك لأنهم لهم أسباب ذلك متمكنة وقد ذكر عن بعض السياحين أنه كان له رفيق فى طريقه فمرا على مفازة وهى ضيقة العبور وإذا بها أسد فقال لصديقه اذهب ولا تبال فقال له صديقه السنة واسعة إنى لا أمر عليه ومر عليه أنت ففعل فتقدم ومر عليه فلم يضره ورجع صديقه عن ذلك الموضع إلى موضع ثان لكونه لم يجد فى الوقت من اليقين ما وجد صاحبه فعمل كل منهما على ما اقتضاه حاله وهذا هو الشأن وفى قوله صلى الله عليه وسلم عند الأكل مع المجذوم (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) دليل على أن مقتضى الحكمة الربانية أن يصيبه من المجذوم أذى أن يدنو منه وفى أمره عليه السلام بالفرار دليل على أن الحكم يعطى للغالب يؤخذ ذلك من أمره عليه السلام بالفرار على العموم لأن الغالب من الناس

هو الضعيف فجاء الأمر بحسب ذلك ﴿تنبيه﴾ أمرنا بالهرب من جذام الأبدان فمن باب أولى الهرب من جذام الأديان وهم أصحاب البدع والشيع لأن المرض فى قلوبهم والسم الباطن أشد سريانا من الظاهر ومن أجل هذا روى عن بعض علماء السنة أنه كان فى زمانه بدعى فجاءه يوما يرغب منه أن يقرأ عليه آية من كتاب الله تعالى فخاف أن لا يفعل وأخرجه من عنده فقيل له فى ذلك فقال لم يأت بتلك الآية إلا وقد دبر معها مكيدة فى الدين فالهرب من أهل الزيغ والزلل سبيل النجاة وقد نبه صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله الجليس الصالح خير من الوحدة والوحدة خير من الجليس السوء أو كما قال عليه السلام وقال بعضهم فى هذا المعنى

يقاس المرء بالمرء إذا هو ماشاه ... وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه

(٢٣٠) حديث الأمر باتخاذ السترة للمصلى

عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ رَأَيْتُ بِلَالًا جَاءَ بِعَنَزَةٍ فَرَكَزَهَا ثُمَّ أَقَامَ الصَّلَاةَ فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ فِي حُلَّةٍ مُشَمِّرًا فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ إِلَى الْعَنَزَةِ وَرَأَيْتُ النَّاسَ وَالدَّوَابَّ يَمُرُّونَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ وَرَاءِ الْعَنَزَةِ

ظاهر الحديث يدل على أن العنزة سترة للمصلى وأن المار خلفها لاشيء عليه ولا على المصلى والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ فى صفة العنزة وهل تجزىء فى سترة المصلى غير تلك الصفة فأما صفتها فقد ذكر العلماء أنها مثل مؤخرة الرجل طولا وغلظا وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم حين سئل عن سترة المصلى فقال قدر مؤخرة الرجل ومنهم من حدها بما يقرب من ذلك وهو أن يكون طولها ذراعا وغلظها غلظ الرمح وبقى الخلاف بينهم فيما لم يكن على تلك الصفة مثل ستر العورة بالثوب وما أشبهه فمن لحظ تلك الصفة التى كان صلى الله عليه وسلم فعل قال لا يجزى غيرها ومن علل وقال ماجعلت السترة إلا من أجل عدم التشويش أجاز ذلك ولذلك اختلفوا فى الخط فى الأرض هل يجزىء عن السترة أم لا على قولين ﴿وفيه دليل﴾ على جواز الصلاة بالتشمير يؤخذ ذلك من قوله مشمرا إلا أنه نص الفقهاء أن لا يكون ذلك من أجل الصلاة فاذا كان لضرورة ما فله أن يصلى به على حالته ﴿وفيه دليل﴾ على أن السنة فى السفر التشمير ﴿وفيه دليل﴾ على أن إقامة الصلاة لا تكون إلا بعد ما يفرغ من كل ما تحتاج الصلاة إليه والتهيئة لذلك يؤخذ ذلك من أن بلالا لم يقم الصلاة إلا بعد ما فرغ من ركز العنزة ﴿وفيه دليل﴾ على أن وقت الشروع فى أمور الصلاة من الاقامة وما يقرب منها لا يشتغل بشيء وإن قل يؤخذ ذلك من كون بلال فرغ من ركز العنزة وهو شيء يسير

جداً وحينئذ أخذ فى الاقامة وبلال لا يفعل ذلك إلا بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ويترتب عليه من الفقه ﴾ خلو القلب عند التلبس بالعبادة من كل شيء. وإن قل يؤيد هذا قوله تعالى (فاذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) ﴿ وفيه إشارة ﴾ إلى أن المسافر يقدم فى سفره ما يحتاج إليه من ضروراته لدينه بحسب ما يعرف من طريقه ويعرف ذلك فى رحله يؤخذ ذلك من حمله صلى الله عليه وسلم العنزة فى رحله ولأجل هذا قال العلماء ينبغى للمرء أن يكون له فى بيته تراب طاهر أو حجر معه للتيمم من أجل أن يطرقه بالليل مرض لا يمكنه معه الطهارة بالماء فاذا كان عنده أحد الأشياء التى يجوز التيمم بها يتيمم ولم يتعطل عليه فريضة وإلا كان مفرطا فى دينه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن القصر فى السفر أفضل يؤخذ ذلك من قوله « صلى ركعتين » لأن العلماء اختلفوا فى القصر فى السفر فمن قائل بالوجوب ومن قائل بضده إلا لعذر ومن قائل بجوازه والذين قالوا بجوازه اختلفوا أيضا أيهما أفضل هل القصر أو ضده بحسب ما ذكر فى كتب الفروع ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن السنة حسن الزى فى الصلاة يؤخذ ذلك من قوله « فى حلة » والحلة عندهم هى أحسن الزى لأنها ثوبان تستر الجسد كله ﴿ وفيه دليل ﴾ لمن تأول السترة وعللها بأنها لزوال التشويش يؤخذ ذلك من قوله ﴿ ورأيت الناس والدواب يمرون بين يديه من وراء العنزة ﴾ فانه لا شيء للخاطر أشد تشويشا من مرور الناس والدواب بين يديه ﴿ وبقى بحث ﴾ وهو أن يقال هل جعل العنزة على ذلك القدر الذى تقدم ذكره تعبدا لا يعقل له معنى أو هو مما تعقل له معنى فان قلنا لا يعقل معناه فلا بحث ووجب الاتباع لا غير وإن قلنا لها معنى وهو الأظهر فما هو فنقول والله أعلم لما كانت الصلاة لها تلك الحرمة العظيمة كما تقدم ذكره فى حديث الاسراء وكانت قبل فى الامم الخالية لا يوقعونها إلا فى المواضع التى نصبت لها وقد أمر الله عز وجل برفع تلك المواضع إكراما للصلاة التى توقع فيها بقوله عز وجل (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال) ثم إن الله عز وجل مما خص به سيدنا صلى الله عليه وسلم أن جعلت له الأرض مسجدا وطهورا أى فى كل موضع منها يجوز إيقاع الصلاة فيه كما تقدم فى الحديث قبل بقوله عليه السلام «حيثما أدركتك الصلاة فصل» وقال عليه السلام فى شأن المار بين يدى المصلى «لأن يقف أربعين خريفا خيراً من أن يمر بين يديه» فبحلول وقت أداء الصلاة صارت جميع الأرض مستحقة للمصلى بوقع صلاته حيث شاء منها وبقيت حقوق الناس منها من المرور وغيره متعذرة ممنوعة حتى يفرغ هذا من صلاته فأحكمت السنة بجعل العنزة تحديدا للبقعة التى اختارها المصلى لوقوع صلاته وبقى ماعداها من الأرض لجميع الناس لا حجر عليهم فى تصرفهم فيها من مرور وغيره فجاء قوله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار » فبقيت حرمة الصلاة على ما هى عليه وبقى الناس على مالهم فى الأرض من المنافع لم يضيق عليهم لأن الدين كما

تقدم يسرو لذلك قال صلى الله عليه وسلم فى الذى يمر بين السترة والمصلى أنه شيطان لكونه خالف حدود الشريعة وبهذا التعليل يصح ماجاء من جواز أن يكون الخط فى الأرض سترة فان البقعة تحدد به وتنحاز من غيرها وتكون العنزة أفضل من الخط لأنها أكثر فائدة فى حق المار فان المار قد لا يرى الخط ويمر بين السترة وبين المصلى فيقع فى الاثم والعنزة بذلك القدر لاتخفى على أحد ولهذه الفائدة والله أعلم جعلت فى الارتفاع قدر مؤخرة الرجل لأن ذلك القدر من الارتفاع لا يخفى على أحد ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن سيدنا صلى الله عليه وسلم لا يفعل من الأمور كلها إلا الأرفع والأفضل يؤخذ ذلك من أنه لما كانت العنزة فيها زيادة الفائدة التى ذكرنا كان يحملها فى رحله وعلى هذا التوجيه الذى ذكرناه يتبين فائدة قوله عليه السلام «سترة الامام سترة لمن خلفه» لأن بها تحيزت البقعة التى للصلاة أولا ويكون آخرها بقدر ما تبلغ إليه صفوفهم فتنبه إلى هذا التوجيه تجده بفضل الله تعالى يجمع لك معانى الأحاديث التى وردت فى هذا النوع من أنواع الصلاة ولا يكون بينها تعارض إن شاء الله تعالى وغيره من التعليل قد ينكسر فى بعضها ﴿ وقد قيل ﴾ الفقه بالفهم فانتبه لا برواية وإن علت

(٢٣١) حديث تحريم لبس الحرير

عَنْ عُقْبَةَ ابْنِ عَامِرٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أُهْدِىَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرُّوجُ حَرِيرٍ فَلَبِسَهُ ثُمَّ صَلَّى فِيهِ ثُمَّ انْصَرَفَ فَنَزَعَهُ نَزْعاً شَدِيدًا كَالْكَارِهِ لَهُ ثُمَّ قَالَ لَا يَنْبَغِى هَذَا لِلْمُتَّقِينَ

ظاهر الحديث يدل على كراهية لباس الحرير للمتقين والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ هل يجوز لغير المتقين وهل تلك الكراهة كراهة تنزيه أو تحريم ﴿ أما قولنا ﴾ هل يجوز لغير المتقين إذا عرفنا حقيقة هذا الاسم حينئذ نتكلم فى غيره وما يلزمه من هذا الحديث أما التقى فهو اسم يعم جميع المسلمين لأن الناس فيه على درجات ودليل ذلك قول الله عز وجل فى كتابه (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا) فكل من دخل فى الاسلام فقد اتقى أى وقى نفسه من الخلود فى النار فان اتقى ثانية ومنع نفسه من المعاصى فقد اتقى حد التقى أى وقى نفسه من دخول النار فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الايمان إيمانان إيمان لايدخل صاحبه النار وإيمان لا يخلد صاحبه فى النار» فالايمان الذى لا يدخل صاحبه النار هو الايمان الذى يكون مع الأمر والنهى والايمان الذى لا يخلد صاحبه فى النار هو الايمان مع المعاصى والذى اتقى التقوى الثالث هو فى درجة الاحسان لأنه اتقى بالله ماسواه فلم ير فى الوجود سوى الواحد الأحد كما قال صلى

الله عليه وسلم «أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك» وهذا مقام الخصوص وبقي ماعدا المؤمنين فمن قال إنهم مخاطبون بفروع الشريعة فلا يتجه لهم ومن قال إنهم ليسوا بمخاطبين بفروع الشريعة لم يتعرض لهم ﴿وأما قولنا﴾ هل الكراهية على التحريم أو التنزيه لفظ الحديث محتمل لكن قد جاءت الأحاديث من خارج تدل على التحريم لأنه قد جاء عنه صلى الله عليه وسلم إنه قال في الحرير إنه حرام على ذكور أمتي والآثار في هذا النوع كثيرة فقد ثبت تحريمه بالسنة على هذه الأمة وهل يستعمل عند الضرورة ويقدم على غيره أولا مثل إن لم يكن لشخص إلا ثوبان أحدهما نجس والآخر حرير فمنهم من قال يصلي في الحرير وكذلك لباسه في الحرب فمنهم من منعه وهو مالك والجمهور ومنهم من أجاز ذلك بشروط وهو الشافعي ومن تبعه والشروط التي ذكرت عنه أن يكون لابسه عادما لما يتقي به عن نفسه من آلات الحرب مثل الدرع ومايشبهه من عدة الحرب ويكون ثوب الحرير خشنا لأنه يرد عنه الأذى وأما أن يكون لباسه للزينة في حرب أو غيره فهذا لايجوز وما اتخذه بعض الناس اليوم من لبسه في الحضر والسفر على وجه الزينة فحرام لايجوز ولابسه عاص وسواء كان اللباس منه كثيرا مثل القبا وما يشبهه او يسيرا مثل الكوفية وما يشبهها الباب واحد ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز الهدية وقبولها يؤخذ ذلك من قوله أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكن الهدية على ثلاثة أوجه كما قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما هدية لوجه صاحبك فلك وجه صاحبك وهدية للثواب ولك ماأردت وهدية لوجه الله تعالى فتلك التي ثوابها على الله أو كما قال وبقي في الهدية تقسيم آخر قسمه العلماء لا يخلو صاحب الهدية أن يكون كسبه حراما أو حلالا أو مختلطا فان كان حراما فلا تحل وان كان حلالا فجائزة وان كانت ممن كسبه مختلط فأربعة أقوال بالجواز و بعدمه و بالكراهة و بالتفرقة إن كان الحلال الغالب على كسبه فجائزة وإن كان الحرام الغالب فممنوعة هذا إذا خلت الهدية أن تكون رشوة فانها إذا كانت على هذا الوجه فحرام وذلك هو السحت بعينه وبقيت ﴿علة التحريم﴾ هل هي معقولة المعنى أوهي تعبد فان قلنا تعبدا فلا بحث وإن قلنا معقولة المعنى فما هي فنقول والله أعلم إن العلة فيه كالعلة في التختم بالذهب واستعمال أواني الفضة والذهب وهي أنه لما كان الحرير لباس المؤمن في الجنة منعه هنا كما قال صلى الله عليه وسلم في أواني الذهب والفضة أنها أواني أهل الجنة وقال فيها في حديث آخر عن الكفار هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة وكذلك الجواب على الحرير مثل الأواني سواء بسواء وفي كون مولانا سبحانه أنعم على المؤمنين بدار كرامته وجعل لباسهم الحرير وآنيتهم فيها الفضة والذهب ثم أنعم على الكفار أنه أعطاهم نصيبا من ذلك في هذه الدار وشاركهم في ذلك طائفة من المؤمنين وهم النسوة وما يلحق لأزواجهن من التمتع بتلك الزينة منهن تحقيق لصفة الرحمة حتى تعم جميع عباده

سبحانه يشهد لذلك قوله عز وجل (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) ﴿ وفيه دليل ﴾ على استغنائه عز وجل عن عبادة عباده وأنه لا تضره معصية العاصين لأنه سبحانه قد أنعم على الكفار وهم على ماهم عليه من كفرهم وهو أعظم المعاصى فقد أنالهم عز وجل طرفا من الرحمة فى هذه الدار فلو كان يناله تعالى منها ضرر لم يكن يرحمهم فى هذه الدار ولا فى تلك الدار ولم يكن أيضا يلحق المؤمنين عذاب ولا آلام فى هذه الدار ولا فى تلك الدار فسبحان من تنزه وتعالى وتقدس واستغنى عن عبادة العابدين ﴿ ويبقى بحث ﴾ وهو ما الحكمة فى أن أبيح لبس الحرير للنسوة وهن فى جميع أمور الدين شقائق الرجال فان قلنا تعبدا فلا بحث وإن قلنا لحكمة فما هى فنقول والله أعلم لها وجوه ﴿ منها ﴾ أنه لما علم الله من ضعفهن وقلة صبرهن عنه لأن النفوس كثيرا ما تتعلق به فلطف عز وجل بهن فى إباحة لبسه (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ﴿ ووجه آخر ﴾ وهو أن زينتهن به ليس فى الغالب لهن بل هى لأزواجهن وتزين الزوجة لزوجها من جملة حسن التبعل وحسن التبعل من الايمان فلما عرى لبسهن له عن حظوظ النفوس وكان لبسه لهن مما يعين على أوصاف الايمان وهو حسن التبعل أبيح لهن ذلك ﴿ إشارة صوفية ﴾ وهى أنه لما كان لبس الحرير أعلا الملابس وبلبسه تبلغ النفوس أعلا حظها فى جنس اللباس حرم على الذكور الذين فيهم الفحولية وأبيح للأنوثية دل بهذا على أن من فيه فحولية فى الهمة أن كل ما فيه تناه من جميع ملذوذات الدنيا على اختلاف أنواعه لم يعرجوا عليه وإن كان بعضه مباحا أيضا على لسان العلم وزهدوا فى جميعها إلا بقدر ماهو عون على الدين وكذلك كل ما كان للنفس فيه حظ لم يعرجو عليه وإن كان بعضه مباحا أيضا على لسان العلم إلا بقدر ماهو عون على الدين فى مثل هذا هو تنافسهم حتى أنه ذكر ﴿ عن بعضهم ﴾ أنه كان مجاورا بمكة وكانت بيده صنعة يرد فيها فى اليوم جملة دراهم فلا يعمل من تلك الصنعة التى يعرفها ولا يشترى لنفسه شيئاً يقتات به إلا حتى يرى محتاجا فيرهن شملة كانت له فيما يحتاج فى تلك الصنعة فيعمل يومه ذلك ثم يفدى شملته آخر النهار ويكون أكله تابعا لذلك المحتاج الذى رآه ومما يقوى حسن فهمهم قول عمر رضى الله عنه حين تكلم معه بعض الصحابة رضى الله عن جميعهم بأن يحسن لنفسه فى أكله ويطيبه فان فى عافيته وصحته منفعة للمسلمين فجاوبهم بأن قال لهم كان لى صاحبان وقد ماتا فانا أشاركهما فيما كانا عليه من العيش الغليظ لعل أشاركهما فى عيشهما الرغيد أتريدون أن أكون ممن قال عز وجل فى حقهم (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) فنفس من ادعى الفحولية وهمته أدنى حالة من الأنوثية ويبهرج بلسان العلم وهو لا يعلمه من علينا يعلو الهمة والمساعدة على ذلك بمنه .

(٢٣٢) ﴿ حديث النهى عن تشبه الرجال بالنساء و النساء باالرجال ﴾

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ اللَّهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ

ظاهر الحديث الدعاء منه صلى الله عليه وسلم باللعنة على من تشبه من الرجال بالنساء وعلى من تشبه من النساء بالرجال والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال ما معنى اللعنة وهل هذا التشبه مطلقا فى كل الوجوه أو على شىء مخصوص وهل هذا الدعاء من النوع الذى هو مخوف أوضده وهل هذه اللعنة لحكمة نعلمها أو تعبد ليس إلا وهل الواقع فى هذا تكون التوبة ترفع عنه ما لحقه من ذلك أولا ﴿ أما قولنا ﴾ ما معناها فان اللعنة فى اللغة هى البعد قال الله عز وجل فى كتابه (فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) أى أن الله أبعدهم فمن أبعده الله تعالى فهو أخسر الناس فان لعنة الله لا غاية لها أعاذنا الله من ذلك بحرمة نبيه صلى الله عليه وسلم فهذا فى الزجر والنهى أكبر من الحدود التى جعلت فى المعاصى لأن تلك الحدود كفارة لهم لما وقعوا فيه وهذا البعد لم يجعل لصاحبه مخرج على لسان الشارع عليه السلام وقد وقع من كثير من الناس التهاون بذلك ووقعوا فيه ولا يحسبونه شيئا نعوذ بالله من الحرمان ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هو مطلق من كل الوجوه أو هو من وجه ما أما ظاهر اللفظ فمحتمل وأما الذى قد تقرر مما فهم من قواعد الشريعة خلف عن سلف فهو فى زى اللباس وبعض الصفات والحركات وما أشبه ذلك وأما التشبه بهم فى أمور الخير وطلب العلوم والسلوك فى درجات التوفيق فمرغب فيه وقد عاد اليوم عند بعض الناس وإن كانوا من الذين يشار إليهم الأمر بالعكس فانهم يمنعون النسوة من تعلم العلم ويرونه من باب المذموم لهن وبتشبه النساء بالرجال فى زيهم ويرونه من قبيل النبل والكيس فانا لله وإنا إليه راجعون على الخلل الذى يقع فى الدين بوضع الأمور على ضد ما وضعها الشارع عليه السلام وكثرة التهاون فى ذلك ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا الدعاء مما هو مخوف أو ضده وهو المرجو خيره لقوله صلى الله عليه وسلم « إنى عهدت عند ربى عهدا أيما بشر لعنته من أمتى أو سببته أن يجعلها عليه رحمة » أو كما قال عليه السلام إعلم وفقنا الله وإياك أن دعاءه صلى الله عليه وسلم على أحد من أمته أو سبه إياه أو لعنته له على ضربين منها ما هو على طريق الزجر والنهى عن شىء فى الدين وما هو فى معناهما فان ذلك من النوع المخيف من لحوق الوبال من أجله فان المنع بذلك أشد من الحدود كما بينا أول الكلام وما كان من ذلك على وجه الغيظ والحرج فذلك الذى ظاهره مخوف وهو رحمة فى الحقيقة وقد نص صلى الله عليه وسلم على ذلك لأنه قال « يارب إنى بشر يلحقنى ما يلحق

البشر من الغيظ فأيما أحد من أمتى سببته أو لعنته فاجعله له رحمة » وهذا الدعاء هنا من قبيل الزجر والردع فهو مخوف وأى مخوف ﴿وأما قولنا﴾ هل هذا الزجر لحكمة نعلمها أو تعبد فالحكمة فى ذلك ظاهرة لاخفاء بها وهى إخراج الشبه عن الصفة التى وضعتها عليه حكمة الحكيم كما قال عليه السلام «لعن الله الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة » وعلل هذا بتغيير خلق الله تعالى فهنالك تغيير خلقه وهنا تغيير صفة فالعلة واحدة لأن تينك الطريقتين المذمومتين تضمنتا وجوها من وجوه الضلالات فمنها إخراج صفته بجهله عن ما رتبه من له الأمر سبحانه ومنها التشبه بصفة الخلق والاختراع لأن الله عز وجل قد خلق أشياء وجعل لها صورا وصفاتا فمن غير منهما صورة أو صفة على خلاف ما وضعت فقد نازع الجليل القدرة فى قدرته واختراعه وفيه أيضا إظهار سوء الأدب حقيقة لأن أدب العبودية موافقة الموالية فى كل الأشياء التى شاءتها على أى نوع شاءتها وأشياء من هذا النوع عديدة إذا تأملتها وفيما ذكرنا منها كفاية ﴿وأما قولنا﴾ هل التوبة للواقع فى شىء من ذلك رافعة لما قد لحقه من الوعيد أولا فان جعلناه من جملة المعاصى ليس إلا فيدخل تحته قوله صلى الله عليه وسلم «التوبة تجب ما قبلها » وإن قلنا إن دعاءه عليه السلام يلحق الواقع فى ذلك الذنب أمر زايد من الخسارة والحرمان لأن دعاءه عليه السلام مستجاب فبقى الأمر محتملا أن يذهب ذلك بالتوبة كما يذهب الذنب أو ذلك أمر قد وقع بالشخص لا يرتفع عنه ذلك الحرمان وإن تاب الأمر محتمل وليس لنا دليل قطعى على أحد الوجهين ﴿ويترتب﴾ على هذا من الفقه أن الوقوع فى الكبائر التى لها حدود وعقاب معلوم خير من الوقوع فى هذه وأمثالها أعاذنا الله من الجميع بفضله لأن التوبة والحدود فى تلك أيهما جاء بعد كان كفارة لها وهذه محتملة أن يكون لها مخرج أولا مخرج لفاعلها فالهرب الهرب إن كنت حازما والعفاف العفاف تكن ناجيا

(٢٣٣) ﴿ حديث النهى عن الوصل والوشم ﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَعَنَ اللّٰهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ

ظاهر الحديث لعن هذه الأربعة المذكورة فيه والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما معنى تلك الأفعال التى لعن النبى صلى الله عليه وسلم من فعل منها واحدة وما معنى اللعنة فقد تقدم فى الحديث قبل معناها وهل هذا النوع من الدعاء المخوف أو لافقد تقدم الكلام عليه أيضا فى الحديث قبل وكذلك فى التوبة منها قد تقدم الكلام عليه وما معنى اللعن الذى ذكره النبى ﷺ لمن فعل واحدة من هذه الأربعة ﴿فاما قولنا﴾ ما معناها فان الواصلة التى تصل شعرها بشعر

آخر ليس من شعرها والحق العلماء بها من وصلت شعرها بأي شيء وصلته من صوف أو حرير أو غير ذلك والمستوصلة هي التي تفعل ذلك بغيرها والواشمة هي التي تشم شيئا من جسدها وكانت عادتهن يغرزن الموضع الذي يردن أن يعملنه شامة بالحديد حتى يدمن الموضع ثم يحشى بالكحل الأسود فيبقى ذلك الأثر يشبه الشامة التي هي مخلوقة والمستوشمة هي التي تفعل ذلك بغيرها ﴿ويترتب عليه من الفقه﴾ أن عامل المحرم والذي يعينه على ذلك في الاثم سواء يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم في شارب الخمر ولعن الله شاربها وحاملها وبائعها وشاهدها وعاصرها ﴿وأما قولنا﴾ ما معنى العلة في ذلك فقد اختلف العلماء فيها فمنهم من قال إن ذلك لما فيها من التدليس وهذا ضعيف لأنه يخصص عموم اللفظ بغير دليل ومنهم من قال لتغيير خلقة الله تعالى وهو الظاهر فانه قد جاء في حديث غير هذا حين ذكر عليه الفالجة والمتفلجة قال فيه المغيرات لخلق الله تعالى ويحمل على هذا النهي كل ما أشبه ذلك مما يفعله النسوة من تغيير ديباجهن بالحمرة وما معناها وقد جاء عن عمر رضي الله عنه أنه أنكر ما هو أقل من هذا وهو أنه أمر في خطبته النسوة أن لا يخضبن أطراف أصابعهن بالحناء دون باقي أيديهن وقال من كانت خاضبة فالتخضب إلى هنا وأشار إلى تحت الكوعين فاذا كان نهي عمر رضي الله عنه عن مثل هذا فما بالك بالغير من أفعالهن التي هي أشد من ذلك وقد تعددت حتى لا تكاد تحصى عده وبعض من ينسب إلى العلم في الوقت يجعل ذلك من قبيل الزينة الجائزة شرعا فانا لله وإنا إليه راجعون على ذهاب العلم وأهله ويحتج بما ذكر عن الامام مالك رحمه الله أنه أنكر أن يصح عن عمر أن يجعل ما ذكرنا عنه من الوشم وهذا لا حجة فيه لأن مالكا ما أنكر على عمر مقالته وإنما أنكر أن يعتقد معتقد أن ما نهى عنه عمر إلا أنه من الوشم الذي لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعله ونهي عمر رضي الله عنه عن ذلك إنما هو لمعان منها أنه أشبه الوشم ولما أشبهه أعطاه حكمه وما حكم به فعلينا اتباعه لقوله صلى الله عليه وسلم «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء من بعدي» وهو رضي الله عنه وعنهم أجمعين منهم ﴿وطريق آخر﴾ وهو أن ذلك لم يكن في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كان شأنهن أن يخضبن إلى حيث أشار رضي الله عنه فنهاهن من أجل مخالفة السنة وقد يكون نهيه من أجلهما معا لا إحداهما فأتى كيف إذا اجتمعا وقد قيل إنما أنكر مالك الرواية أن تصح لا الحكم لأن الامام مالك كان أكثر الناس احتراما لمن تقدمه من السلف فكيف بالخلفاء ولو لم يكن لمالك شاهد على ذلك إلا في مسئلة البناء في الرعاف إنه قال القياس والفقه يقتضي قطع الصلاة ولكن إتباع السلف أولى وبذلك ساد على غيره وكذلك سنة الله تعالى بعده في خلقه ما وقع من أحد احترام السلف والاقتداء بهم إلا رفع الله تعالى قدره على أبناء وقته وجنسه جعلنا الله منهم بمنه وفضله

(٢٣٤) ﴿حديث حق الله على عباده﴾

عَنْ مُعَاذ بن جَبَلٍ رَضي الله عنه قَالَ بَيْنَمَا أَنَا رَديف النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْه وسَلَّمَ لَيْسَ بيني وبينه إِلَّا آخِرَة الرَّحل فقال يا معاذ قلت لبيك يارسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ قلت لبيك يارسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال هل تدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ثم سار ساعة ثم قال يامعاذ بن جبل قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوه قلت الله ورسوله أعلم قال حق العباد على الله أن لا يعذبهم

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما الاعلام بحق الله تعالى على عباده وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا والآخر الاخبار ايضا أن حق عباده سبحانه إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما الفرق بين حقه جل جلاله وحق العباد ﴿فالجواب﴾ أما حقه سبحانه فهو واجب لوجوه منها لذاته الجليلة ومنها لأمره عز وجل بذلك ومنها لماله عز وجل علينا من النعم والاحسان التى لا يحصى عددها وأما حق العباد عليه عز وجل إذا فعلوا ذلك فحق تفضل منه عليهم لا وجوب عليه لازم فانه جل جلاله لا حق عليه لأحد لازم هذا مذهب أهل السنة والذى تعطيه الأدلة الشرعية والعقلية خلافا للقدرية التى هى مجوس هذه الأمة لأنهم يقولون بزعمهم إن على الله حقا واجبا أن من عبده أن لا يعذبه وكيف يكون لعبد على مولاه حق لازم وهو كله له هذا ينفيه العقل وقد أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أن «بشر العاصين وحذر الطائعين قال إلهى وكيف أفعل ذلك قال بشر العاصين أن رحمتى وسعت كل شىء وحذر الطائعين إن أقمت عليهم عدلى هلكوا» من ذا الذى يطيق عدله وكيف يكون لأحد خلاص إذا أقيم عليه ثم كيف يكون للطائع حق وجوب عليه سبحانه وتوفيقه سبحانه عز وجل إياه للطاعة نعمة عليه يستوجب الشكر عليها (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين) والمحروم أعمى البصيرة لا يرى إلا من حيث حرمانه ﴿وفيه دليل﴾ على تواضعه عليه السلام يؤخذ ذلك من ارداف معاذ خلفه ﴿وفيه دليل﴾ على جواز ركوب اثنين وأكثر على الدابة إذا طاقت ذلك يؤخذ ذلك من ركوب معاذ خلفه عليه السلام وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم ركب وجعل الحسن والحسين معه أحدهما أمامه والآخر خلفه ﴿وفيه دليل﴾ على من يكره ذلك ويعيبه على أهل المناصب والحجة عليه فعل خير البرية صلى الله عليه وسلم ﴿وفيه دليل﴾ على أن نداء الشخص باسمه أرفع

مانودى به يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم يامعاذ ولو كان النداء بغير الاسم أرفع لكان صلى الله عليه وسلم يفعله نعم إن الكنى إذا كانت على الوجه المشروع جائزة وبين الجائز والأرفع فرق بين ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن نداء الشخص باسمه قبل إلقائك العلم إليه من أدب العلم وإن لم يكن معكما ثالث وفى ندائك إياه قبل من الفائدة إحضار ذهنه إليك ليعى ماتلقيه إليه لأن الأذهان قد يطرقها فكرة فتكون بها مشغولة فلا تعى كل ما يلقى إليها وفى تكراره عليه السلام نداءه ثلاثا تأكيد فى حضور ذهنه وإشعار بأن الذى يلقى إليه له بال لأنه عليه السلام كانت سنته أن كل شىء له بال أعاده ثلاثا ويؤخذ من إبطائه عليه السلام بين النداءين أن من سنة إلقاء العلوم الوقار والتؤدة ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو لم زاد فى الثالثة بن جبل ﴿ فالجواب ﴾ إنما هى إشارة إلى أن هذه الثالثة آخر النداء فاسمع مايلقى إليك لأن زيادة بن جبل هو الكمال فى التعريف وإذا كمل الشىء فقد تم ويزيد ذلك المعنى بيانا قوله عليه السلام آخر الحديث ﴿ يامعاذ بن جبل وهل تدرى ماحق العباد على الله إذا فعلوه ﴾ فان نداءه عليه السلام له آخر واحدة فناداه بأكمل المعرفة وفيما أبديناه دليل على ماأعطاه الله عز وجل من الفصاحة والاعجاز فى كلامه عليه السلام الذى لا تقدر أن ترى فيه زيادة إلا ولها فوائد جمة وجواب معاذ له ﷺ بقوله لبيك رسول الله وسعديك من الجواب الخاص به صلى الله عليه وسلم بدليل أنه لم يكن الصحابة يفعلون ذلك بينهم ولا هو صلى الله عليه وسلم فعل ذلك معهم فدل على أن ذلك من الخاص به عليه السلام وقد نص العلماء على جواب الرجل لمن ناداه بقوله لبيك أنه من السفه لأن هذه لفظة جعلت من جملة شعائر الحج وكل ماجعل من شعائر الدين فينبغى توقيره وتعظيمه فان الله تعالى يقول (ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) وقد صار بعض الناس اليوم يجاوبون بها بعضهم بعضا ويجعلون ذلك من الأدب والنبل وما ذاك إلا لقلة التقوى وعدم معرفة السنة هيهات كيف يتأدب من لا يعرف الأدب وفى قول معاذ ﴿ الله ورسوله أعلم ﴾ دليل على أن من أدب العلم أن يرد إلى أهله وفى قول سيدنا ﷺ ﴿ هل تدرى ماحق الله على عباده ﴾ دليل على أن إلقاء العالم المسائل على تلامذته وحينئذ يبين لهم ذلك لأن فى ذلك من الفائدة إحضار الذهن لقبول العلم وفى تعليمه صلى الله عليه وسلم معاذا من غير سؤال منه له صلى الله عليه وسلم دليل لمن يقول إن للعالم أن يعلم دون أن يسأل لأن هذه مسئلة اختلاف بين العلماء وفى فصله عليه السلام بالمشى ساعة بين المسئلتين دليل على أن النجح فى تحصيل العلوم التفرقة بين المسائل وفى ذلك دليل من الحكمة أن المسئلة إذا تباعدت عن الأخرى يبقى الخاطر معمورا بالأولى حتى ترسخ فيه ثم تأتى الثانية كذلك والتى بعدها كذلك إلى غاية ما يتناهى الحكم وقد أخبرنى بعض مشايخى وكان ممن أجمع على فضله أنه حين اشتغاله على شيخه كان بعض الطلبة الذين يشتغلون معه على الشيخ وكان فيه خير وكان يشتغل

بالسبب أنه إذا حضر المجلس ووعى مسئلة واحدة قام وخرج إلى دكانه فأقلق ذلك بعض الطلبة فسأله عن ذلك فقال له إذا وعيت مسئلة واحدة بقيت يومى فى الدكان أرددها على خاطرى فتثبت لى وإذا سمعت منه عدة كل واحدة تنسينى صاحبتها فبلغوا خبره إلى الشيخ فأعجبه ذلك وقال للغير ممن تكلمو حاسبوا أنفسنا على كثرة سماعكم للمسائل على مسئلة واحدة فى اليوم فلم يقدروا على ذلك فسبحان من وفق أهل السعادة إلى اتباع السنة فى الفعل وإن جهلوها بالعلم لأن توفيق هذا المبارك الذى ذكرنا هداية من الحق ليس إلا وقد نص أهل التوفيق على أن قلة العمل مع الدوام خير من كثرته مع الانقطاع وقد قال صلى الله عليه وسلم «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل» والكلام على قوله صلى الله عليه وسلم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا قد تقدم الكلام عليه فى حديث البيعة أول الكتاب بما فيه شفاء

(٢٣٥) ﴿ حديث النهى عن سب الأبوين وما يؤول إلى سبهما ﴾

عَنْ عَبْدِاللهِ ابْنِ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قَالَ يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَأُمَّهُ

ظاهر الحديث يدل على أن لعن الوالدين من أكبر الكبائر والعمل بسد الذريعة وفى ذلك دليل لمذهب مالك رحمه الله فى قوله بسد الذرائع يؤخذ ذلك من أنه صلى الله عليه وسلم جعل ما هو ذريعة لسب الأبوين سبا لهما والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن فى هذا دليلا على عظم حق الأبوين إذ القول الذى هو ممكن أن يترتب عليه سبهما جعله الشارع صلى الله عليه وسلم من أكبر الكبائر فكيف بغير ذلك لأنه إذا سب الرجل أبا الرجل من الجائز أن يسب هو أباه ويقول له خلاف ذلك أو يفعل به بدل القول فعلا مؤلما لكن لما جرت العادة فى الغالب أنه لا يرد إلا بالمثل حكم الشارع صلى الله عليه وسلم بالغالب وفى ذلك دليل على أن تقعيد الأحكام إنما هو على الغالب من جرى العادة والمحتمل النادر لا ينظر إليه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن كل مايكون محتملا أن ينتج منه شر لا يفعل خيفة من وقوع الشر وهو أيضا من باب الحزم فى الأمور ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الأحكام والمخاطبات إنما تكون على العادة الجارية بين الناس

وفيه دليل : على جواز مراجعة المفضول للفاضل فيما يقوله الفاضل ويشترط فى ذلك الأدب يؤخذ ذلك من قول الصحابة وكيف يلعن الرجل أباه ويؤخذ الأدب من صفة لفظهم لأنهم رضى الله عنهم لم يقولوا لايكون وإنما سألوا عن الكيفية كيف تكون على طريق الاستفهام فهذا هو عين الأدب فى المراجعة ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن من راجع فيما لا يعرف لاعتب عليه إذا كان على

سبيل الاستفادة يؤخذذلك من كونه صلى الله عليه وسلم لم يعتبهم على ذلك وبين لهم الكيفية بلطف فى التعليم وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿أكبر الكبائر﴾ فيه دليل على تفاوت الكبائر بعضها على بعض وفيه دليل : على أن من أكبر أفعال الخير معرفة اتباع السنة يؤخذ ذلك من أن من لم يعرفها يجهل مثل هذا فيقع فى أكبر الكبائر وهو لا يعلم وقد رجع بعض الجهال اليوم ممازحتهم فيما بينهم أن يلعن بعضهم أبا بعض ويعدونه مباسطة فنعوذ بالله من الجهل والضلال ولذلك قيل «ماعصى الله بأشد من الجهل» وهو الحق فان الجاهل لا يزال يقع فى المهلكات وهو لا يعلم وهنا ﴿تنبيه﴾ على أن الأصل يفضل الفرع بالوضع وأن فضله الفرع بحسن الصفات قيل له لا تنس فضيلة سبقه عليك لأنه لما كان الأب أصلا للابن جعل له عليه هذا الحق العظيم فان فضله الابن بصفة إيمان وهى أفضل الصفات قيل له (وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) للفضيلة التى سبقا بها وكذلك يتعدى الحكم لمن كان السبب فى هدايتك إلى مولاك وقد جاء «مولاك ثم مولاك من علمك آية من كتاب الله» ياهذا قد ملكك به بعض إحسانه إليك ان كان فى الطبع عروبية أشد ما ملك السيد رقبة عبده بالمال فان الأحرار يملكون بالاحسان أكثر وأشد من يملك العبيد بالدرهم والدينار كما ذكروا من وجد الاحسان قيدا تقيد فاذا كانت الطبائع رذيلة أبق من قيد الاحسان أشد إباق العبد القن محا الله الهجين لامروة ولادين ﴿ومن هذا﴾ الباب يترتب عظم حق سيدنا صلى الله عليه وسلم علينا لأنه السبب الموصل لكل خير من الله به علينا فى الدنيا والآخرة ﴿وهنا زيادة﴾ لأن هذا الأصل لا يفضله فروع أبدا لا بوصف صفة ولا بمعنى فهو الأصل فى جميع الخير وله فيه السبق حسا ومعنى ولذلك ذكر الله عز وجل فى محكم التنزيل (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فانه ليس من فضيلة من كان أصلا لخروجك إلى الوجود كمن جعل اصلا إلى إنقاذك من الجحيم وأثمر ثمر اتباعك له خلودك فى النعيم فانظر بفطن العقول كيف يتسلسل فضيلة الأصول فى إنعام موجد الوجود واذكر الله وأيقظ سنة فهمك لعلها توافق عروبية فى طبعك فتبادر إلى مراجعة خدمة مولاك لعل شين إباقك عنه يزيله بيد عفوه عنك فالمؤمن تواب جعلنا الله ممن سبقت له بالخير سابقة فراجع مولاك قبل الاخذ على غرة والجأ اليه فانه لارب سواه

(٢٣٦) ﴿حديث ثواب صلة الأرحام﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ خَلْقِهِ قَالَتِ الرَّحِمُ هَـذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ قَالَ نَعَمْ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ قَالَتْ بَلَى يَارَبِّ قَالَ فَهُوَ لَكِ

ظاهر الحديث الاخبار بعظم ماجعل الله تعالى للرحم من الحق وإن وصلها من أكبر أفعال البر وإن قطعها من أكبر المعاصي والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال مامعنى قوله ﴿أصل من وصلك وأقطع من قطعك﴾ والكلام على كيفية وصلها وماهو قطعها ﴿فاماقولنا﴾ مامعنى قوله أصل من وصلك فهو كناية عن عظم الاحسان فان أعظم مايعطى المحبوب لحبيبه الوصال وهو القرب منه ومساعدته فى مرضاته وهذه الأمور فى حق مولانا سبحانه مستحيلة أن تكون على مانعرف من صفات المحدث الفانى بل هى كناية عن قدر الاحسان منه لعبده وعظمه يؤيد ذلك قوله عليه السلام «صلة الرحم تزيد فى العمر» ﴿فهذا الوصال فى هذه الدار﴾ زائد لما أعد له فى الآخرة من الخير والاحسان وكقوله تعالى (يحبهم ويحبونه) فمعنى قوله يحبهم كناية عن عظم إحسانه عز وجل لمن أحبه من عباده لأن ملكا من ملوك الدنيا إذا أحب أحدا أغناه ورفعه على جميع أهل وقته فكذلك فعل مولانا سبحانه بمن يحبه يحسن إليه غاية الاحسان ويرفعه فى الدنيا والآخرة المنزلة العليا ﴿وأماقولنا﴾ مامعنى ﴿واقطع من قطعك﴾ فهو كناية عن شدة الحرمان والعذاب لأن القطع ضد الوصل فكما عبر عن عظم الأجر عبر بالوصل عن عظم البلاء بالقطع أعاذنا الله من البلاء بمنه ﴿وأما كيفية﴾ الوصل للرحم فهو على ضروب مختلفة منه مايكون ببذل المال ومنه مايكون للرحم ببذل العون على مايحتاجون إليه أعنى أهل رحمه ومنه مايكون بالزيارة لهم ومنه مايكون بالدعاء لهم ومنه ما يكون باكرامهم والبشاشة لهم ومنه مايكون بدفع المضار عنهم والمعنى الجامع له إيصال ماأمكنه من الخير إليهم على قدر طاعتك بنية القربة إلى الله تعالى إلا أن ذلك بشروط ذكرها العلماء وهى أن يكون على الاستقامة وإلا فمقاطعتهم من أجل الله هو إيصال لهم بشرط أن تبذل جهدك فى وعظهم وزجرهم والانكار عليهم لأنه إذا قيل لك فى الأجنبى الذى هو أخوك فى الاسلام «انصره ظالما أو مظلوما» كما تقدم ذكره وهو رده عن الظلم فالأقرب من باب أولى فبعد ذلك يكون الهجران لهم وتعلمهم ان هجرانك لهم إنما هو من أجل تخلفهم عن الحق فاذا استقاموا وصلتهم قدر طاقتك فى ذلك لكن يبقى عليكم من صلتهم عند المقاطعة الدعاء لهم بظهر الغيب أن يصلح الله حالهم ويجيرهم بفضله وأما مقاطعتهم فهى على ضربين إما كلية أو بعضية فالكلية هى أن تمنعهم جميع مافى وسعك من الاحسان إليهم على نحو ما أشرنا إليه قبل قاصدا لذلك أو تكون معاداتهم لحظ نفس أو إبعادهم عنك لمثل ذلك وأما البعض فهو مثل أن تفعل معهم بعض الأشياء وتحرمهم بعضا مع قدرتك عليها وقصدك ذلك فكلاهما محذوران ويخاف من وبالهما لكن الواحد الذى هو الكلى أشد أعاذنا الله منهما وفيه ﴿بحوث﴾ منها هل الألف واللام فى الخلق للجنس أو للعهد فان كانت للجنس فمتى كانت وإن كانت للعهد فمتى كان احتمل أن تكون للجنس وهو عند فروغ المخلوقات على اختلافها وبقى الاحتمال فى أى وقت كان ذلك

هل عند الفراغ من ظهورها فى اللوح المحفوظ بالكتب وهى بعد لم يظهر منها فى عالم الوجود إلا اللوح والقلم لا غير واحتمل أن يكون ذلك عند فروغ خلق السموات والأرض وإيحائه عزوجل فى كل سماء أمرها ، القدرة صالحة لهما معا والعرب تسمى البعض باسم الكل والكل باسم البعض وأما أن يكون على حقيقة ظاهرة وهو أن تبرز جميع المخلوقات فى عالم الحس والمشاهدة فلا يمكن لأن من المخلوقات مالم يبرز بعد فى عالم الوجود والحس ونحن نعلم أنه لابد أن يظهر ويكون قطعا لازما مثل الدابة التى تخرج عند قرب الساعة وهى فى علم الله لم تبرز ولا ظهرت ومثل من بقى من تناسل جميع الحيوان ومثل الأمور التى هى عند قرب الساعة وقد أخبر بها الصادق صلى الله عليه وسلم وهى لم تظهر بعد وأشياء عديدة إذا تتبعتها وجدتها وإن كانت للعهد وهى عند فروغ خلق بنى آدم فمتى كان احتمل أن يكون عند فراغه جل جلاله من خلق أرواحهم لأنه قد جاء أن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأشباح بألفى عام واحتمل أن يكون عند فراغ خلق الأشباح والأرواح وهو يوم « ألست بربكم قالوا بلى » وهو يوم إخراجهم من صلب آدم عليه السلام مثل الذر وأخذ عليهم العهد لأنها أحد الحياتين فى قوله تعالى (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) على أحد الأقاويل ﴿ ويترتب عليه من الفقه ﴾ أن تعرف أن الألف واللام فى الخلق للعهد فتكون صلة الرحم تحتمل وجهين أحدهما أن تكون للجن والانس لأنهما المكلفان وأن تكون خاصة ببنى آدم ويكون الفقه أن صلة الرحم خاصة ببنى آدم وأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة لأن الأمر عام فى بنى آدم وهم منهم وهنا (بحث ثان) وهو هل كلام الرحم للحق جل جلاله بلسان المقال أو بلسان الحال، إن كان بلسان المقال هل كان ذلك بعد ما جعلها فى جوهر ووضع فيها الحياة والعقل أو هى على حالها الكلام على هذا مثل كلام العلماء على كلام الجمادات وهى على ثلاثة وجوه لأن منهم من قال إن كلام الجماد بلسان حاله ما أظهر الله فيه من أثر قدرته ومنهم من قال إنه خلق لهم حياة وعقلا وحينئذ تكلموا ومنهم من قال إنهم تكلموا وهم على حالهم وهو الأظهر وإن كانت القدرة صالحة للوجوه الثلاثة لكن الوجهان فيهما تخصيص لعموم لفظ القرآن والحديث بغير دليل شرعى وحصر لقدرة القادر التى لايحصرها شىء لأن قدرته عز وجل صفة من صفاته فكما ذاته الجليلة لاتنحصر بوجه من الوجوه فكذلك كل صفاته لا تنحصر بوجه من الوجوه فكذلك كل صفاته لا تنحصر منها صفة من الصفات بوجه من الوجوه لأن الصفة لاتفارق الموصوف وقد تقدم الكلام على ذلك أول الكتاب بما فيه شفاء بفضل الله تعالى ومنها أن فيه دليلا على أن الاستعاذة بالله من أجل الوسائل إلى الله وأنجحها يؤخذ ذلك من قول الرحم هذا مقام العائذ بك فاسعفت فى الحال بما رضيت به ومما يقوى هذا الوجه ماجاء فى شأن العدو الذي قيل له (واجلب عليهم بخيلك ورجلك) وجعل له أنه يرانا هو وقبيله من حيث لانراه

وجعل لنا النصرة والغلبة عليه بالاستعاذة بالله عز وجل ولم يجعل بغير ذلك لقوله عز وجل فى كتابه العزيز (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) وقول مريم عليها السلام حين أتاها روح الله الأمين (إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) وقول سيدنا صلى الله عليه وسلم «أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ﴿وفيه إشارة عجيبة﴾ من طريق حسن المجانسة فى الكلام وهى أنه لما كانت صلة الرحم حقيقتها التوادد بين الأقارب والتعاطف جعلت الصيغة التى تدل على الجزاء عليها من جنس ماهو المعروف من التخاطب بين المحبين والمحبوبين وهى الوصل وفى قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه﴾ دليل على صفتين عظيمتين من صفات الحق سبحانه وهما القدرة والحكمة فأما الدال منه على القدرة فبالاخبار بأنه عز وجل خالق جميع الخلق وأى دليل على القدرة أعظم من اختراع الخلق على غير مثال تقدم ولا معين ولا وزير وأما الدال على الحكمة منه فقوله عليه السلام حتى إذا فرغ من خلقه لأن حتى لازمة للغاية فيعطى قوة الكلام أن من له غاية فله بداية وما بين الغاية والبداية اقتضت الحكمة الربانية لا يعجز من القدرة فان من قدرته جل جلاله خلق جميع الخلق وهو كما أخبر عز وجل بقوله (وما مسنا من لغوب) لا يمكن أن يكون فى قدرته عجز عن شىء من الأشياء بل ما كان فى بعض المخلوقات من تأخير أو غير ذلك فلحكمة اقتضتها حكمة من (ليس كمثله شىء) وقد تقدم فى أول الكتاب من هذا بيان شاف بفضل الله ورحمته ﴿ وفيه دليل ﴾ لقول من قال ان رأيك بحسب ما قدر لك يؤخذ ذلك من أنه لما قامت الرحم مقام العائذ بالله تعالى من القطيعة وسبق فى علم الله سبحانه أن يكون من عباده واصل لها وقاطع لها أيضا أرضاها أن جعل عندها رضى بأن يصل الله من يصلها ويقطع من قطعها فقبلت ذلك ورضيت به بدلا من الذى طلبته لأنها طلبت أن لا قطيعة لها فلو قال لها الحق جل جلاله لك ذلك أى لا تقطعى لم يكن أحد يقطعها ﴿وفيه دليل﴾ لتحقيق قوله صلى الله عليه وسلم «مامن داع يدعو إلا كان بين إحدى ثلاث إما أن يستجاب له وإما أن يدخر له وإما أن يحط عنه» لأنه عز وجل عوض الرحم مما طلبته ما رآه خيرا لها منه ورضيت به ﴿ وفيه دليل﴾ على أن جميع المخلوقات بيد الله سبحانه يصرفها كيف يشاء كما قال صلى الله عليه وسلم «مامن قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن» أى بين أمرين من أمر الرحمن مثل الرضى وضده والعزم على الشىء وتركه والزهد وما يضادهما من الأشياء يقلب القلب من طرف إلى ضده فى لمحة البصر ولذلك كان من دعائه صلى الله عليه وسلم «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ولهذا المعنى كان أهل التوفيق والمعرفة بالله تعالى أشد الناس خوفا على أنفسهم مع ما كانوا عليه من الخير التام حتى أنه يروي عن بعضهم أنه كان كلما استيقظ من نومه يجر يده على وجهه ثم ينظر

إلى حواسه ثم يحمد الله تعالى ويشكره ويتشهد ويعلن بها فقيل له فى ذلك فقال أما جر يدى على وجهى فمخافة أن يطمس عليه كما أخبر عز وجل وخبره الحق (من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا) وأما نظرى إلى حواسى العاقبة التى هى متوقفة على الانسان وأما إعلانى بالشهادة فاختبار لنعمة الايمان لقوله صلى الله عليه وسلم « ينام الرجل النومة فيسلب عنه الايمان ويبقى أثره ثم ينام النومة فيقبض أثرها » أو كما قال عليه السلام فاذا رأيت نعمة الايمان ونعمة الحواس باقية سالمة حمدت الله وشكرته على إبقائه تلك النعمة بفضله جعلنا الله ممن أتمها علينا وجميع نعمه فى الدارين بفضله ورحمته آمين آمين يارب العالمين

(٢٣٧) ﴿حديث ثواب عائل البنات﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ جَاءَتْنِى امْرَأَةٌ وَمَعَهَا ابْنَتَانِ تَسْأَلُنِى فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِى غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ فَدَخَلَ النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَدَّثْتُهُ فَقَالَ مَنْ بُلِىَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَىْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ

ظاهر الحديث إخبار الصادق صلى الله عليه وسلم أنه من أتاه شيئاً من البنات فأحسن إليهن كن له سترا من النار أى وقاية تقيه من النار والكلام عليه من وجوه

﴿منها أن يقال﴾ ما معنى الاحسان وهل ذلك على عمومه بلا شروط أو له شروط وهل يحتاج فى ذلك إلى نية أم لا وهل ذلك على طول عمرهن وإن كبرن أو ذلك عند صغر سنهن وإن كان فما حده ﴿فأما قولنا﴾ ما معنى الاحسان إليهن فهو ما زاد على القدر الواجب الذى لهن وهو بين من لفظ الحديث فانه لما كانت المرأة ومعها الابنتان فسألت المرأة عائشة رضى الله عنها فلم تجد عندها إلا تلك التمرة الواحدة التى أعطتها كان من أجل احتياجها لها أن تختص بها فلما جادت بها فذلك الاحسان الذى أشار صلى الله عليه وسلم بأن من فعله معهن كان له سترا من النار وهو يتعدى فى كل الوجوه التى فيها معاملتهن فمن زادهن فى كل وجه منها شيئاً على حقهن كان محسنا لهن ومن فعل معهن معروفا فى نوع ليس لهن فيه حق الباب واحد ﴿وأما قولنا﴾ هل ذلك على عمومه بلا شروط أو له شروط فما من وجه من وجوه البر إلا وله شروط فمنها ما هو على ظاهره يستوى فى معرفتها الناس كافة ومنها ما لا يعلمها إلا الخواص منهم ﴿فأما معنى قولنا﴾ هل ذلك على عمومه أى إذا وقع منه إحسان إليهن على أى وجه كان على لسان العلم أو غير ذلك أو يكون قد أساء إليهن أو يكون قد ترتب لهن حق عنده فأما ما خالف لسان العلم فلا ينطلق عليه اسم احسان شرعا وكذلك إذا ترتب لهن قبله حق فلا يقال له محسن بل ذلك من الحق الذى قد ترتب لهن قبله وتقع بينه وبينهن المحاسبة والمحاكمة فى الدار الآخرة وكذلك

إن كان قد أساء إليهن من وجه آخر فليس على عمومه ولا يسمى محسنا إلا بعد توفية الحقوق من كل الجهات وعدم الاساءة ويكون فعله ذلك على لسان العلم وحينئذ يكون محسناً وأما شروطه فهو أن يكون إحسانه إليهن ليس فيه ضرر للغير بعد القيد المتقدم ذكره من لسان العلم وما ذكر معه وأما هل يحتاج ذلك إلى نية أم لا فالنية شرط فى جميع الأعمال لقوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى» إلا مواضع قد تقرر الحكم فيها إنها لاتحتاج إلى نية أعنى أن الفعل يجزى بغير نية ويؤجر عليه وهو مثل مايفعله المرء بغيره من الطهارة وشبهها ومثل زوال النجاسة من الثوب والبدن وماأشبه ذلك ﴿وأما قولنا﴾ هل ذلك مع طول عمرهن أو ذلك فى زمان صغر سنهن أما الاحسان إليهن فليس يتقيد بصغر سنهن ولا كبرهن بل حقوقهن مع صغر السن على سبيل الوجوب فمنها لزوم النفقة والكسوة والكفالة فهذا وما هو من نوعه يسقطه كبرهن إذا تزوجن على ماهو المعلوم من عرف الشرع فى ذلك وإن كبرن فلا يخرجن عن البنوة أبدا فهن فى كل وقت محل للاحسان وهن أيضا محتاجات إلى ذلك وإن كن على اى وجه كن من اليسار وضده ولكثرة شروط هذا الاحسان كان بعض من ينسب إلى الخير وله البنات والعيلة بعد إحسانه إليهن يقول والله ماأدرى هل أتخلص منكن فى الآخرة أم لا ثم يدعوا الله سبحانه أن يجعلهن له رحمة بفضله ﴿وفيه دليل﴾ على جواز السؤال يؤخذ ذلك من قولها ﴿جاءتنى امرأة ومعها بنتان تسألنى﴾ فلو لم يكن جائز شرعا لأنكرت ذلك عليها ﴿وفيه دليل﴾ على فضل بيت النبوة وكثرة سخائهن يؤخذ ذلك من كونها لم يكن عندها إلا تلك التمرة الواحدة وجادت بها ﴿وفيه دليل﴾ على جواز ذكر المعروف الذى نفعله إذا لم يكن على وجه المن والافتخار فان ذلك مفسد له يؤخذ ذلك من ذكر عائشة رضى الله عنها المعروف الذى فعلته مع المرأة للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿وفيه دليل﴾ على استحسان فعل المعروف وإن قل يؤخذ ذلك من بذلها تلك التمرة الواحدة ولم تستعملها وقد ذكر عنها انه جاء سائل إلى الباب وكان عندها عنب فأعطته منه حبة واحدة لشخص يخرجها له فرأت منه أنه استقلها فقالت له كم فى تلك الحبة من ذرات تريد بذلك قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) وقد نبه بعض العلماء على أن من مكائد الشيطان إذا رآك تعطى الكثير يعدك بالفقر حتى يكسلك عن البذل وإن رآك تعطى اليسير يزهد فيه ويحقره فى عينك حتى يحرمك البذل فى اليسير والكثير ﴿وفيه دليل﴾ على أن أعلا المعروف جهد المقل ولا يلزمه غير ذلك من طريق الندب يؤخذ ذلك من تلك السيدة لم تزد على بذل ما كان عندها مع قلته شيئا وأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حين أخبرته ولو كان بقى عليها من طريق الاحسان شيء لنبهها عليه صلى الله عليه وسلم عند إخبارها له بذلك ﴿وفيه دليل﴾ لأهل الصوفة الذين أصل طريقهم الايثار وحمل الضيم فيما يخصهم لأن هذه الصفة هي التى عجبت السيدة عائشة رضى الله عنها من

تلك المرأة حتى أخبرت بذلك رسول الله ﷺ وقرر عليه هذا الأصل العظيم ولذلك قيل فيهم
ما أحسنهم فى جودهم حتى بنفوسهم جادوا ثم جادوا وجدوا حتى وصلوا وسادوا

(٢٣٨) ﴿ حديث ان الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها ﴾

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ فَأَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ قُلْنَا لَا وَهِيَ تَقْدِرُ أَنْ لَا تَطْرَحَهُ فَقَالَ اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا

ظاهر الحديث الاخبار بقدر عظيم رحمة الله تعالى بعباده بمشاهدة ذلك المثال والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ قوله بعباده هل هو عموم للمؤمن والكافر والحيوانات على اختلافها وغيرها من جميع المخلوقات أو ذلك خاص بالمؤمنين فيكون اللفظ عاما أو معناه الخصوص لفظ العبيد يقتضى العموم وقرينة الحال وهو ذكر طرحها لولدها فى النار إشارة إلى تخصيص المؤمنين وتطييب قلوب السامعين منهم أن مولاهم الذى من عليهم بالايمان به لا يعذبهم بناره وقد جاء هذا المعنى صريحا فى الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله جل جلاله (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة إلى قوله تعالى أوليك هم المفلحون) فثبت للمؤمنين الذين هم بتلك الأوصاف المذكورة وأما السنة فبالحديث المتقدم وهو قوله صلى الله عليه وسلم «ماحق الله على عباده وماحق العباد على الله» ثم ذكر «أن حق العباد على الله إذا عبدوه ولا يشركوا به شيئا أن لا يعذبهم» واحتمل وجها آخر وهو أن يكون معنى المثال الاخبار بأن رحمة الله تعالى لا يشبهها شىء لمن سبقت له فيها نسبة من أى العباد كان حيوانا أو غير حيوان وأنها لا يضر معها شىء وبقى العلم بتحقيق من سبق له فيها نسيب ولذلك قال الفضلاء رضى الله عنهم لاسخط بعده أبدا يعنون من سبق له فى الأزل رضاء فلا يضره مع السابقة شىء ولذلك قال كم من صديق فى العباد وكم من عدو فى العباد نظرا إلى السابقة بماذا سبقت وقد سأل بعض أهل الشيع بعض أهل السنة فقال إن الرحيم من حقيقته أن لا يعذب أحدا من عباده فكيف يعذب عباده بالنار وهو الرحمن الرحيم فجاوبه السنى بأن قال إن لله سبحانه أسماء عديدة منها المنتقم فكل أسمائه عز وجل حقيقة لا مجاز فيها ولا بد لكل اسم أن يظهر مايدل عليه فى عالم الوجود والخلق فمن خصه بالرحمة فلا يعذبه ومن خصه بالانتقام فلا يرحمه ومن حكمته عز وجل أن يخصص من عباده من شاء بما شاء على مقتضى كل اسم وصفة وقد قال جل جلاله (نبىء عبادى

أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الاليم) فبهت الشيعى وكأنه ألقم حجرا أو كما جرى واحتمل وجها ثالثا وهو لأهل القلوب وهو أن يكون معنى الحديث الحث على التعلق بالله تعالى والزهد فى غيره لأن العباد من شأنهم طلب الحوائج وطلب الخيرات والاستعاذة من المكروهات والسبب فى ذلك طلب بعضهم من بعض المساعدة على ذلك والعادة بينهم أنهم لا يقصدون فى الحوائج ولا تتعلق آمالهم إلا بمن فيه رحمة وإحسان فأخبرهم الصادق صلى الله عليه وسلم أن رحمة المولى سبحانه بعباده على العموم أكثر من رحمة هذه المرأة بولدها التى قد جرت العادة المألوفة من النساء على أولادهن بون عظيم فمن يرد طلب خيرا أو دفع ضر أو أى حاجة أرادها فليقصد من رحمته أعظم من رحمة هذه بولدها فهو أنجح له فى حاجته وأيسر له فيما يؤمله ولذلك قال من كان قاصدا فليقصد مولاه فهو سبب إلى رحماه وقال بعضهم

هبنى أتيت بلا معنى ولا سبب * أليس أنت إلى معروفك السبب

﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز النظر إلى النساء الذى يسبون قبل القسم يؤخذ من نظره صلى الله عليه وسلم إلى هذه المرأة وإرشاده للصحابة رضى الله عنهم إلى نظرها ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز ضرب المثال بما يعقل ويدرك بالحواس تشبيها بما لا يعقل ولا يدرك بالحواس لتحصل فائدة المعرفة بالشىء من وجه ما وإن كان لا يحيط المثال به من كل الجهات يؤخذ ذلك من ضربه صلى الله عليه وسلم المثال على عظم رحمة الله تعالى التى لا تصل إليها الأفكار ولا العقول برحمة هذه المرأة على ولدها ومنه بعينه يستدل على أن صفاته سبحانه لا تشبه صفات المحدثات وإن شاركتها فى التسمية يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم والله أرحم بعباده من هذه بولدها والزيادة غير محدودة فلا شبه بينهما ولا اشتراك إلا فى التسمية ليس إلا ﴿ وفيه دليل ﴾ على ترجيح أخف الضررين يؤخذ ذلك من كونه صلى الله عليه وسلم ترك هذه المرأة تشرك أطفال السبى فى الرضاعة وربما إذا كبروا يتناكحون وهم إخوة من الرضاعة وهذا لا يجوز فلما كان هذا الوجه محتملا أن يكون وأن لا يكون وسد رمقهم فى الوقت مما الحاجة إليه أكيدة تركها تفعل ما هو الأرجح وبهذا يستدل ايضا على أن الضرورة لها حكم على حدة لأنه لولا ضرورة الأطفال فى الوقت إلى الرضاع ما تركها صلى الله عليه وسلم تفعل ذلك من أجل العلة المتقدم ذكرها وهذا البحث هو على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ﴿ وفيه دليل ﴾ وهو أقوى فى البحث وهو أن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشريعة لأن أطفال الكفار فى الدين مثل آبائهم وإن ملكهم المسلمون فلو كانوا مخاطبين بفروع الشريعة لكان سيدنا صلى الله عليه وسلم يقول للصحابة فى ذلك شيئا لأنه عليه السلام المشرع وسكوته عند الحاجة الى البيان لا يجوز ويترتب عليه من الفقه أن أولاد الكفار إذا ملكوا وهم

دون البلوغ أن يحكم لهم بالكفروان أسلموا إلا أن يكون إسلامهم بعد بلوغهم وقد نص الفقهاء على أن من سبي منهم دون البلوغ وجبر على الاسلام أوأسلم من تلقاء نفسه ثم مات قبل البلوغ أنه لا يدفن مع المسلمين ولا يصلى عليه فان حكمه حكم الكفار إلا خلافا شاذا هذا هو الغالب على الظن ﴿وفيه اشارة﴾ لطريق المحبين يؤخذ ذلك من حال المرأة المذكورة فى الحديث لما كان حب ابنها قد شغف فؤادها بذلت نفسها فى أشق الأشياء عليها فيما يشبهه فى السن فكيف حالها لو أنها وجدت ابنها لأن كثرة الرضاع والحلب تضعف النساء وكثير منهن إذا كان ابنها قوى الرضاع يهلكها ولا تقدر على إرضاعه وهذه بكثرة وجدها على ابنها قد عمت بالرضاع كل مولود لقيت لشبهه بابنها كما أخبر عن قيس ليلى حيث قال

أحب لحبها السود ان حتى * أحب لحبها سود الكلاب

كذلك المحب لا يبالى مالقى فى حق محبوبه ومثل ذلك ماأخبر مولانا جل جلاله فى كتابه العزيز فى قصة يوسف عليه السلام مع أخيه بنيامين حين اجتمعا فقال بنيامين ليوسف عليهما السلام لا أفارقك أصلا فقال له يوسف عليه السلام لا يمكن ذلك إلا بعد أن تقر على نفسك بالسرقة فرضى بالقاء الوصف الذميم على اليد السالمة من العار والخيانة فى حق الاقامة مع الحبيب فقال تعالى (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه إلى قوله عزوجل كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله) هان عليه وصف الخيانة بتوفية رفع الامانة بخلوة مع الحبيب دون رقيب هذا فى حق مخلوق فان فكيف فى حب خالق باق هانت والله عليهم النفوس فبذلوها فى حب مولاها فوصل عزوجل حبلهم بحبله وأدناهم وسقاهم فأحياهم أهانوها فرفعوها وأذلوها فأعزوها وأفردوها فجمعوها وحرموها فأسعدوها وقطعوا العلائق فأمنوا البوائق وحادوا عن ماسواه فلم يجدوا إلا اياه ﴿ومن قول بعضهم﴾ تفردت عن الاكوان بحبه وكذلك عبد الفرد لايزل فردا فهناهم من هناهم برضى مولاهم ياطرباهم حين لقاء مولاهم فيامن أسعد محياهم بحرمتهم الا اوردتنا مواردهم يا كريم ياوهاب وصلى الله على سيدنا محمد سيد الأنام وعلى آله يا رب وسلم

(٢٣٩) ﴿حديث رحمة الله تعالى لجميع المخلوقات﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ

ظاهر الحديث يدل على أن كل مافى جميع الأرض من رحمة فى قلوب جميع الخلق جزء من مائة جزء مما

أعد الله لعباده من الرحمة وإن باقى المائة وذلك تسعة وتسعون جزءا مؤخرة عنده عز وجل لهم والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال مامعنى جعل الرحمة فى مائة جزء وما معنى أمسك عنده ولمن ذلك الامساك هل لجميع الخلق أو لعبيد مخصوصين ولم خص ذكر الفرس من بين سائر الحيوانات وما الفائدة لنا فى الاخبار بذلك وهل لنا طريق الى معرفة كيف إنزال ذلك الجزء أم لا وهل لفظ الخلق يكون عموما فى الحيوان وغير الحيوان أو يكون خاصا بالحيوان لاغير وقوله ﴿وأنزل فى الأرض جزء﴾ هل يريد الجنس أو النوع وهى هذه الواحدة التى نحن عليها ﴿فأما قولنا﴾ مامعنى جعل الرحمة فى مائة جزء احتمل وجهين إحدهما أنه سبحانه لما من على خلقه برحمة معينة جعلها لهم فى مائة وعاء فأهبط منها وعاء واحدا الى الارض كما أخبر عليه السلام فى الحديث وبقى الباقى عنده عز وجل واحتمل أن تكون الفاء زائدة ويكون معنى الاخبار أن الرحمة التى من بها على خلقه سبحانه قسمها مائة جزء فأنزل إلى الأرض جزء واحدا لان العرب كثيرا ماتزيد الحروف فى أول الكلام وهو من فصيحه وأبقى التسعة والتسعين جزء عنده ﴿وأما قولنا﴾ مامعنى أمسكها عنده أى أنه لم يشأ سبحانه نزولها الى هذه الدار وأمسكها للدار الاخرى وهناك يكون الانعام بايصالها لمن كتبها له وأما قولنا لمن ذلك الامساك هل لجميع الخلق أو لعبيد معينين منهم أما من الحديث فليس فيه مايدل على ذلك لكن قد أفصح الكتاب والسنة بذلك فأما الكتاب فآيات عديدة منها قوله عز وجل (قد أفلح المؤمنون إلى قوله أولئك هم الوارثون) ومنها قوله تعالى (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة الى قوله عز وجل أولئك هم المفلحون) وأما السنة فالأخبار فيها كثيرة منها الاخبار بأمر الساعة وكيف يحشر جميع الخلق فيقال بعد الحساب للكل ماعدا الثقلين الجن والانس كونوا ترابا فيعودون ترابا والثقلان قسمان إما شقى ففى النار وإما سعيد ففى الجنة فمن كان فى النار أو صار ترابا لم يبقى له فى تلك الرحمة نصيب وبقيت موفرة لأهل دار الكرامة وهم المؤمنون من الثقلين الجن والانس جعلنا الله من أهل دار السعادة بمنه ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكمة فى كونه خص الفرس بالمثال دون غيره من الحيوان فنقول والله أعلم لما جعل فى الفرس من الخفة والسرعة فى تنقلها فكونها مع ذلك الذى طبعت من سرعة الحركة من أجل الرحمة التى قسم لها منها ذلك الجزء اللطيف ترفع حافرها عن ابنها ووجه آخر وهو أن الخيل تحمل من التعب بالكر والفر وكثرة الجرى والجهد فى ذلك حتى يلحقها من التعب مالا يلحق لغيرها من الحيوان ثم مع ذلك يشتد احتياج ابنها اليها فلما قسم لها من تلك الرحمة تؤثر الشفقة على ابنها على راحة نفسها حتى ترفع حافرها عنه خيفة أن تصيبه وتعاين ذلك كله منها مالا تعاينه من غيرها لاسيما العرب هم فى هذا أكثر الناس مباشرة ويخبرون عن الخيل بأشياء عجيبة منها ماذكر عن ذى القرنين حين أراد أن يدخل الظلمة

التى عارضته حين خرج يطلب عين الحياة وكيف يتأتى له دخول تلك الظلمة وكيف الخروج منها فأشار عليه الذين يعرفون فوائد الخيل بأن قالوا له خذ الاناث من الخيل التى لها بطن واحد فانها أقوى أبصارا وأشد واحبس أولادها فى أول الظلمة حيث النور ثم خض بها فى تلك الظلمة حيث شئت فاذا أردت الرجوع فاقلب رؤسها فانها ترجع إلى أولادها فى أسرع وقت ففعل ذلك فى الامر كما أخبروه ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الفائدة فى الاخبار لنا بذلك فلفوائد منها الاخبار بأن الرحمة فى تلك الدار أكثر وأعظم من البلاء لانه عليه السلام قد اخبر عن النار فى الاحاديث قيل انها فضلت على نارنا هذه وهى جميع نار الدنيا تسعة وتسعين جزءا والرحمة المذكورة فى تلك الدار بتسعة وتسعين جزءا من مثل جميع كل رحمة فى هذه الدار إذا جمعت ثم مع ذلك هى خاصة كلها للمؤمنين ويقوى هذا التأويل قوله جل جلاله على لسان نبيه عليه السلام «ان رحمتى غلبت غضبى» ، لان أثر الخير الذى هو دال على الرحمة أكثر من المحن الدالة على الغضب فلو لم يكن إلا هذه لكانت فائدة عظمى ويستدل منها ان رحمته جل جلاله التى هى صفة ذاته الجليلة ليست تحد ولا تكيف لان تحديد هذه الموهبة وهى أصل الخير والاحسان لا يقدر العقول على حصرها فكيف بالتى هذه الدالة عليها وبهذا علم ان الذات الجليلة ليست بمحدودة ومنها ادخال السرور على نفوس المؤمنين لان النفس من عادتها لا يكمل فرحها بالخير إلا إذا كان محدودا فأخبرهم عليه السلام بذلك الحد العظيم ليكمل فرحها بما وهب لها لعلها تجده عند احتياجها إليه وفيه تحضيض على الايمان والقوة فيه لان المؤمن إذا علم قدر داره التى قراره فيها وكيفية الخير الذى له فيها قوى إيمانه فكان ذلك عونا على الزهد فى هذه الدار والرغبة فى تلك الدار ومما يقوى هذا قوله صلى الله عليه وسلم «لموضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها» وهذا منه عليه السلام اخبار بتفاوت النسبة بين الدارين وترغيب فى تلك وتزهيد فى هذه الفانية ﴿ وفيه دليل ﴾ لأهل السنة الذين يقولون ان نعيم تلك الدار وضده محسوس مدرك وهو الحق الذى لا خفاء فيه ويقتضيه أدلة الكتاب والسنة يؤخذ ذلك من هذا الحديث من قوله عليه السلام ﴿ حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها ﴾ فان رفع الحافر شىء محسوس لاشك فى ذلك ومن أجل ذلك وقع التمثيل به ﴿ وأما قولنا ﴾ هل لنا طريق الى معرفة كيفية إنزال ذلك الجزء الى الأرض فاعلم ان اتصال تصرف قدرة القادر جل جلاله فى المقدورات وكيفية التصرف ليس للعقول فيه مجال إلا التصديق والتسليم وقد تقدم أول الكتاب فى هذا النوع ما فيه كفاية بفضل الله تعالى ﴿ وأما قولنا ﴾ لفظ الخلق هل يكون عاما فى جميع الخلق حيوانا أو غير حيوان اللفظ محتمل للوجهين معا والذى يعطيه الدليل من خارج انه عموم الحيوان وغيره لانه قد جاء انه يوم القيامة «تسأل الشاة القرناء لم نطحت الجماء والعود لم خدش العود والحجر لم لامس الحجر» فلو لم يجعل بينهما رحمة لما حوسب على تركها وقد جاء ان الأرض تضم المؤمن إذا جعل فى قبره ضم رحمة وتقول له «ما أحب منك

حين كنت تمشى على ظهرى فكيف اليوم وأنت فى بطنى» والكافر بضد ذلك ومن جهة عظم القدرة العموم أولى ليظهر بذلك تفاوت النسبة بين حالة هذه الدار والدار الآخرة وهو أولى وأظهر ومما يقوى انها عموم فى جميع الخلق قوله تعالى (وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله) ولا تكون الخشية إلا حيث جعلت الرحمة وقد قال عز وجل فى الحيوان العاقل (انما يخشى الله من عباده العلماء) والعلماء بالله هم أكثر الناس رحمة وأكثرهم حنانا وشفقة ولا تكون الخشية إلا حيث تكون الرحمة وقد قال العلماء كلما رأيت من جبل انهد أو حجر انشق فانما هو من خشية الله تعالى وبقى هنا للحكمة الربانية ﴿أثر عجيب﴾ فى قسمة تلك الرحمة فقد تكون قسمة بعض الجماد منها أبرك وأكثر مما قسم للحيوان العاقل المخاطب فيكون الحجر على صلابته والجبل على قوته يتفتت وينهد ويسيل من الخشية وتكون هذه الجارحة الصنوبرية على صغرها ولينها لا تؤثر لشىء من أثر قدرة القادر الجليل وهذا من أعظم العجائب لمن فهم ولذلك جاء التوبيخ بها فى الكتاب العزيز ولكن المحروم أطرش كم ذا تضرب فى حديد بارد تعب بلا فائدة وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿أنزل فى الأرض﴾ هل المراد الأرض الواحدة التى نحن عليها أو جنس الأرض فيكون نزوله فى الأرضين السبع اللفظ محتمل يقوى انه للكل ماقاله بعض العلماء ان الأرض الرابعة عمارها الجن وهم أحد الثقلين والمكلفين وبينهم تراحم وتوادد صالحهم وضده وقد قيل عرش إبليس أنه فى الرابعة وذكر انه فى السابعة وهو وجنوده وإن كانوا على ماهم عليه من الضلال فبينهم تراحم فيما بينهم وتوادد وهو ايضا من جهة عظيم القدرة وتفاوت النسبة بين الدارين كما تقدم أولى وأظهر وبقى فى الحديث ﴿بحث لطيف﴾ وهو مايعنى بهذه الرحمة هل كل رحمة وجدناها بين العالم كانت من أجل الله أو من أجل حب وولوع أو جواز أو دوام مصاحبة أو للاحسان والألفة أو أى نوع كانت من تلك الرحمة أو ماهى منها إلا ماكان لله ليس إلا احتمل الوجهين معا والأظهر أنها عامة بأى نوع وجدت فهى من تلك الرحمة الواحدة المنزلة ويقوى هذا الوجه قوله صلى الله عليه وسلم ﴿حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه﴾ وإنما ترفع الفرس حافرها عن ولدها لما جعل لها من حب ولدها هذا نجده فى الحيوان غير العاقل من باب وفى العاقل أحرى ويترتب على هذا الوجه من الفقه وجوه منها اتساع الرجاء فى عظم الرحمات المدخرة وعظم التباين فى النسبة بين الدارين وأن الرحمة التى فى تلك الدار خير كلها وما يصدر عنها كذلك وأن الرحمة التى فى هذه الدار بنسبة الدار مختلطة بحسب ماتصدر عنه وإليه فما كان منها لله وعن الله فهى خير كلها وما كان فى الضد منها فهى فى الضد فى الاحكام كلها وما كان منها فى المباح فهو من نوعه ويقوى هذا التوجيه قوله

تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فمنع عز وجل من الرحمة أن تكون فى غير ما يرضى الله فان وقعت فليست برحمة مرحوم فاعلها بل هى رحمة معاقب صاحبها وعلى هذا فتبصر تجد الأمر كما وجهناه وفى الحديث الذى بعده ما يقوى هذا المعنى بحسب ما يفتح الله تعالى فى تبيينى ذلك ولهذه الاشارة جعل أهل التوفيق كل حركاتهم وأقوالهم وأفعالهم مع القريب والبعيد لله وبالله ومما علمه بعض من نسب إليهم من الدعاء فى بعض مراتبه أن قيل له يكون من دعائك «اللهم اجعل جميع تصرفى فيما يرضيك إبتغاء مرضاتك» جعلنا الله ممن من عليه بذلك حتى يتوفانا عليه بفضله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

(٢٤٠) ﴿ حديث مثل تواد د المؤمنين وتراحمهم امثل الجسد ﴾

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِى تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى

ظاهر الحديث يدل على أن المؤمنين كلهم وإن تباينوا أو تباعدوا كالجسد الواحد كلما أصيب أحدهم بشىء أصاب الجميع منه نسبة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن فيه تقوية التوجيه الذى وجهناه آخر الكلام على الحديث قبله لأنه عليه السلام جعل توادد المؤمنين وتراحمهم مخالف لتوادد غيرهم وتراحمهم وهل التراحم والتوادد والتعاطف ألفاظ مترادفة والمعنى واحدا ولكل لفظ معنى خاص وهل هذا للمؤمن الكامل الايمان أو لكل من دخل تحت هذا الاسم وما الحكمة بأن مثل الايمان بالجسد والمؤمنين بالأعضاء منه ﴿ فاما قولنا ﴾ هل الثلاثة الألفاظ بمعنى واحد أو لمعان فنقول والله أعلم بل هى لمعان مختلفة فقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فى تراحمهم ﴾ معناه أن الرحمة التى جعلت فى قلوب المؤمنين بعضهم لبعض هو من أجل أخوة الايمان هذا لا لولوع ولا لاحسان ولا لشىء خلاف الايمان هذا هو أصلها وقد تتزايد للوجوه الموجبة لرحمته عز وجل كما جاء فى حق الجار أن له بنفس الجوار حق فان كان مؤمنا كان له حقان فان كان قريبا كان له ثلاثة حقوق حق الجوار وحق الايمان وحق القرابة وكذلك ان كان صهرا من الاصهار زاده حق رابع فكذلك الرحمة التى بين المؤمنين تتضاعف بحسب الموجبات للرحمة مثل ما فعل سيدنا صلى الله عليه وسلم حين رفع له ابن ابنته ونفس الصبى تتقعقع كأنها شن ففاضت عيناه عليه السلام فقال سعد يارسول الله ماهذا قال «هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده فانما يرحم الله من عباده الرحماء» لما اجتمع له صلى الله عليه وسلم رحمة الايمان وما رأي من صغر الصبي ومن شدة معالجة الموت وما بينهما من النسب

حتى سالت تلك الدمعة المباركة ليتضاعف الرحمة عنده وتوادهم كناية عن التواصل بينهم واستعمالهم أسبابه وأصله أيضا الايمان وقد يتضاعف لموجباته مثل المهاداة لقوله عليه السلام «تهادوا تحابوا» والتزاور والجوار والمشاركات عند الضرورات وكلما يتولد عنه ود ما فالأصل فيه تواد الايمان ويتضاعف بحسب موجباته بين الناس وأما التعاطف فهو تقوية بعضهم لبعض كما يعطف طرف الثوب عليه ليقويه وهو من باب قوله عز وجل (وتعاونوا على البر والتقوى) فان أصل الايمان هو الذى عطف قلوب بعضهم على بعض كما قال جل جلاله فى كتابه (لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وكقصة موسى عليه السلام حين وجد الاسرائيلى مع القبطى فانتصر الاسرائيلى بموسى عليه السلام من أجل جمع الايمان بينهما فوكز موسى عليه السلام القبطى من أجل تواد الاسرائيلى فكان من قصتهما ما أخبر عز وجل فى كتابه وقد تزايد التعاطف بينهم أيضا لموجباته وأصله الايمان كقصة موسى عليه السلام لما رأى ضعف الاسرائيلى وتعدى القبطى عليه وظلمه وقلة انصار الاسرائيلى تأكد التعاطف عند موسى عليه السلام حتى أخذ بالضربة الواحدة روح القبطى ﴿واماقولنا﴾ هل هذه الأوصاف للمؤمن الكامل الايمان أو لكل من دخل تحت هذا الاسم فقد بان لك بضرب المثل بسيدنا صلى الله عليه وسلم وبموسى عليه السلام بأن ذلك من أوصاف الايمان الكامل ولا يطلق الشارع صلى الله عليه وسلم لفظ الايمان إلا على كماله ولذلك بين عليه السلام أوصاف المؤمنين ليعرف كل أحد قسمته أين هى وكفى به على نفسه حسيبا ولا يغتر باطراء بعض الناس له فان المخبر صادق والناقد بصير وإليه المرجع والمصير ﴿واماقولنا﴾ ما الحكمة بأن شبه عليه السلام الايمان بالجسد وأهله بالأعضاء فذلك من أبدع مايكون فى التسبيب لانه لما كان الايمان أصلا وله فروع وهى جميع التكليفات على نحو ماجاءت به الشريعة المحمدية فاذا نقص من التكليفات شىء أو دخل فى بعضها شين شان ذلك الشين الأصل الذى هو الايمان لأنه يقتضى بوضعه الانقياد والامتثال فكذلك الجسد وهو واحد مثل أصل الشجرة وأعضاؤه هم المؤمنون لأنهم قد تفرقوا مثل فروع الشجرة فاذا كان شين مافى أحد الفروع شان ذلك الأصل وإذا ضرب أحد فى غصن من أغصانها أهتزت الأغصان كلها وتداعت لتلك الضربة كلها بالتحرك والاضطراب فكذالك الجسد إذا ضرب يد القدر عضوا منه مما يؤلمه تداعت له سائر الاعضاء كما أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم ﴿وفيه دليل﴾ على ماأعطى الله عز وجل لسيدنا صلى الله عليه وسلم من الفصاحة والبلاغة ﴿وفيه دليل﴾ لمذهب مالك رحمه الله الذى يقول إن الايمان يزيد وينقص يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام حين بين صفات الايمان الكامل والكمال ضده النقص والنقص ليس على حد واحد فبانت الزيادة والنقص وفى هذه الأوصاف دليل لطريق أهل السلوك لأنهم يطلبون أنفسهم بتوفية أوصاف الايمان فى أنفسهم

ومع غيرهم وقدذكر عن بعضهم أنه جاءه بعض إخوانه يطلب منه سلفا فلما أخرج له ذلك السلف خرج وهو باك فقال أخوه ماأبكاك قال له تفريطى فى حقك حيث جئت تطلب منى السلف وأستغفر الله مما جرى منه * هكذا فكن * وإلا فالأصل معلول

(٢٤١) ﴿حديث ثواب من زرع زرعا﴾

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْسًا فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ

ظاهر الحديث يدل على أن كل غرس من المسلمين غرسا فكل من أكل منه شيئا من جميع بنى آدم أو من جميع الدواب له فيه أجر صدقة والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال هل المراد بالغرس كلما نبت ويؤكل منه كان له أصل ثابت مثل التمر والرمان وما أشبههما أوماليس له أصل ثابت مثل القمح والشعير والبطيخ والقثاوما أشبهها والمراد الذى ليس له أصل ثابت لاغير وهل يكون الغرس على أى وجه كان أو يكون على وجه مخصوص وهل يحتاج إلى نية فى غرسه ام لا وهل يكون الأكل على أى وجه كان بحقه مثل الشراء منه وغير ذلك أو بوجه مخصوص وكذلك الدواب بأى وجه أكلته وهل جميع الدواب فى ذلك سواء مايتملك منها ومالم يتملك وهل يلحق الطير بالدواب أم لا وهل يشترط فى الغرس دوام ملك الغارس عليه حين الاكل منه أم لا و هل يعلم قدر تلك الصدقة أو ليس لنا طريق يعرف به وما الحكمة فى الاخبار بذلك وما يترتب عليه من الفقه ﴿أما قولنا﴾ هل المراد بالغرس ماله أصل ثابت وماليس له أصل أوماله أصل ثابت ليس إلا إن نظرنا بحسب إصطلاح الناس فى الغراسة فلا يطلقونها إلا على كل ماله أصل ثابت وأما ماليس له أصل ثابت فانهم يطلقون عليه زراعة وإن نظرنا إلى اللغة فكل ما يبذر فى الأرض وينبت ينطلق عليه إسم غراسة مثل ما جاء فى وصف الجنة «غرسها الرحمن بيده» أى بيد قدرته وهو أن قال لها كونى فكانت بغير واسطة بيد مخلوق من خلقه وقد جاء أن فيها من الفوائد والنعم ما له أصل ثابت وماليس له أصل ثابت مثل الزعفران الذى هو حشيشها وليس له أصل ثابت وأطلق على الكل غراسة وهذا إذا نظرت من جهة الخير المتعدى النفع فالحبوب التى يكنون عنها بالزراعة أعم فانها غالب الأقوات وقد كان سهل من فقهاء غرناطة بالأندلس وكان من خير علماء وقته يقول لأصحابه إن الأعمال قدقلت والكسل توالى فأكثروا الزرع لأن تكثر حسناتكم وكانت غرناطة الغالب عليها كثرة زرع الحبوب ويسرد عليهم الحديث الذى نحن بسبيله وهذا الذى هو غالب ماتصل إليه جميع الداوب أعنى الحبوب المزروعة وهذا أيضا من طريق كرم المولى سبحانه أولى لأن الكريم إذا تكرم لايحصر بل يوسع ويفسح ﴿واما قولنا﴾ هل يكون الغرس على

أى وجه كان أو على وجه مخصوص ﴿فالجواب﴾ إن العمل إذا كان مخالفا للشرع فهو غير مجزى والله اعلم وقد تقدم الكلام على هذا النوع فى غير ما موضع من الكتاب وقد قال صلى الله عليه وسلم «ليس لعرق ظالم حق» فمن ليس له حق كيف يكون فيه ما جورا وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله لا يقبل عمل امرء حتى يتقنه قيل وما إتقانه قال يخلصه من الرياء والبدعة» فكل شىء خالف لسان العلم فلا يكون عامله فيه مأجورا فاذا خالف هذا الغارس فى غرسه لسان العلم اليس يكون فى فعله آثما ﴿وأما قولنا﴾ هل يحتاج فى غرسه ذلك إلى نية أم لا ظاهر الحديث لا يعطى ذلك بل هو من طريق الفضل لكن من وقف فى ذلك الى حسن النية كانت له زيادة فى أجره لقوله صلى الله عليه وسلم «خير الاعمال ما تقدمته النية» كما أن النية السوء إذا تقدمته أفسدته مثل أن ينوى بذلك الغرس ضرر الغير اوفخرا أو مباهاة أو ما يشبه هذه النيات المبطلة للاعمال على حسب ما تقرر بذلك بلسان العلم ﴿وأما قولنا﴾ هل يكون ذلك الأكل منه على أى وجه كان بحق أو بغير حق فقد تقرر من الشرع أن كل ما أخذ من مال أحد بأى وجه أخذ بأكل أو غيره بغير حق فان صاحبه فى ذلك مأجور فيكون الاخبار هنا لو كان على هذا المعنى تأكيدا لا غير والمعروف من طريق الأحاديث أنه لا يأتى منها حديث إلا لزيادة فائدة بل لفوائد جمة مثل ما قال عليه السلام «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهى له صدقة» وقد تقرر بالشرع إن كل ما فعله الآدمى مما هو عليه واجب أنه فيه مأجور فلما كانت النية بالاحتساب فى ذلك الواجب يزيده بذلك خيرا أخبر به عليه السلام ولما كان الزرع والغرس مما هو مباح لنا على لسان العلم وكان فيه خير متعد للحيوان العاقل وغيره تفضل المولى جل جلاله علينا بأن جعل لنا بذلك الخير المتعدى وإن كنا لم نقصد أن جعل فيه أجرا كان ذلك الأكل بحق أو بغير حق ولتلك الفائدة أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم بذلك فى هذا الحديث وجعله خاصا بالمؤمنين ﴿وأما قولنا﴾ هل الدواب فى ذلك الأكل سواء كانت مما يتملك أو لا يتملك لفظ الحديث يعطى العموم والعلة المتقدم ذكرها وهى الخير المتعدى تقويه ﴿وأما قولنا﴾ هل الطير تلحق بالدواب أو لا فان نظرنا الى العلة المذكورة فلا فرق بين الطير وغيره بل الطير يكون فى ذلك آكد لأن منه جل معاشه وإن نظرنا إلى لفظ الحديث فليس ينطلق على الطير إلا إن جعلناه من باب التنبيه بالأكثر على الأقل لأن الدواب اكثر من الطير وإن قلنا إن الطير وإن كان يطير فهو ايضا مما يدب على الأرض فلا يخرج من عموم الحديث لأن كل ما يطير يدب ولا ينعكس وهو الأظهر والله أعلم أن يكون عاما فى الطير وغيره للوجوه المذكورة وهل يشترط دوام الملك على ذلك الغرس عند الأكل ام لا احتمل والأظهر إن دوام الملك وعدم دوامه فى ذلك سواء له نظائر فى الشرع عديدة منها قوله عليه السلام «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب وللخازن مثل ذلك»

لأنهما يعطيان مالا يملكان ويكون لهما الأجر مثل صاحب الأصل لأنهما كانا سببا فى الخير الذى هو الانفاق فكيف من هو سبب فى أصل الخير وظهوره وهى الغراسة من باب أولى ومنها قوله صلى الله عليه وسلم «الدال على الخير كفاعله» فاذا كان الذى يدل على الخير مثل فاعله وهو لم يفعل شيئا فكيف من كان فيه أصلا ولهذه الفائدة وما تقدم ذكره وما بعد أخبر بذلك الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم ويأتى فيه البحث الأول وعموم لفظ الحديث يعطى ذلك ولا يخصص لفظه عليه السلام بغير معارض لان هذا ممنوع وقد جاءت زيادة إلى يوم القيامة والله بغيبه أعلم ﴿وأما قولنا﴾ هل لنا طريق إلى معرفة مقدار الأجر فلفظ الصدقة يكفى فى ذلك لان الصدقة يكون الأجر فيها بقدر كبرها وصغرها وهذا مثالها فقد يكون الأكل منه كثيرا وقليلا بل بقى هنا من جهة قوة الطمع فى فضل الله تعالى وعموم الحديث ﴿بحث﴾ وهو هل يكون ما يأكل هو وأهله داخلا فى عموم لفظ إنسان أولا لأنه وإياهم ناس فيرجى ذلك من فضل الله تعالى لعموم اللفظ ومما يؤيد ما تقدم من البحث ماخرجه مسلم «لا يغرس رجل مسلم غرسا ولا زرعا فيأكل منه إنسان أو طير أو شىء إلا كان له فيه أجر» وفى حديث ثان إلى يوم القيامة أو كما قال عليه السلام ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكمة فى أنه أخبرنا بهذا وما يترتب عليه من الفقه ففيه وجوه منها المعرفة بعظم مزية قدر المؤمن على غيره لكونه يؤجر على أشياء لا يؤجر عليها غيره وهو لم يقصد بذلك قربة ومنها الترغيب فى المشى فى التصرف على لسان العلم لأنه لا يكون هذا الخير وما أشبهه إلا لمن كان تصرفه على لسان العلم لأنه لا يكون هذا الخير كما تقدم البحث فيه ومنها الحض على التزام طريق المفلحين ليكون له الخير فى هذا وأمثاله ومنها الارشاد إلى ترك النيات المفسدة لهذا الخير والترغيب فى النيات المنمية له لأنه إذ علم أنه يثاب عليه ينميه بحسن النية فيه كما هى عادة أهل التوفيق والاتباع لسلف الخير ﴿ويترتب عليه من الفقه﴾ أن عمل الأسباب التى اقتضتها الحكمة الربانية فى عمارة هذه الدار إذا كانت على وجهها لا تنافى العبادة وفيها أجر وقربة إلى الله تعالى ومنها أنها لا تنافى طريق الزهد وتلخص من هذا أن الزهد والرغبة أمر قلبى وقد جاء ما يبين هذا أيضا عنه صلى الله عليه وسلم حيث قال «ليس الزهد بتحريم الحلال وإنما الزهد بأن تقطع الاياس مما فى أيدى الناس وأن تكون بما فى يد الله أوثق بما فى يدك» أو كما قال عليه السلام ﴿وفيه من الفقه﴾ الحض على العلم بالسنة ليعلم المرء ماله من الخير فيرغب فيه فان مثل هذا وما أشبهه لا يعرف إلا من طريق السنة ليس له طريق غير ذلك لا عقل ولا قياس وليعلم المرء أيضا أن ماله من الخير يصل إليه وإن لم يعلم به وكذلك ضده فيحفظ نفسه من الشر وقد جاء هذا أيضا منه صلى الله عليه وسلم حيث قال «ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها أهله لا يبالى بها يهوى بها فى النار سبعين خريفا وإنه ليتكلم بالكلمة من الخير لا يبالى بها يرفع له بها سبعون درجة فى الجنة» أو كما قال عليه السلام وفى هذا

الحديث وأمثاله مايقوى قول أهل السلوك والخدمة لأنهم يقولون لم يبق لأهل الفلاح فى تصرفهم مباح إنما هو واجب أو مندوب لأنه قد جاء هذا الأجر فى الزراعة وهى من المباحات عند أهل العلم وقدجاء وأن المؤمن يؤجر حتى فى بضعه لامرأته قيل يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون فيها مأجورا فقال عليه السلام أرايت لو وضعها فى الحرام أليس يكون مأثوما قالوا بلى قال كذلك إذا وضعها فى الحلال كان مأجورا، أوكما قال عليه السلام وجاء أن نومه إذا قصد به العون على الطاعة كان فيه مأجورا وهو ماجاء عن معاذ حين سأل النبي صلى الله عليه وسلم فى قصته المشهورة فقال صاحبه أقرأ القرآن قائما وقاعدا وأفوقه تفويقا ولا أنام وقال معاذ أقوم وأنام وأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى فشهد النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بالفقه وجاء فى شربة الماء إذا قصد به العون على الطاعة وسمى أولا ثم قطع وحمد يفعل ذلك ثلاثا أن الماء يسبح فى جوفه فهذه مع ماتقدم ذكره فى الحديث من الاستشهادات فى أن جميع تصرفات المؤمن وشهواته تراه فيها مأجورا فكيف ماهى قربة بوضعها إما واجبات وإما مندوبات فظهرت الأدلة الشرعية بتقوية مقالهم وطريقتهم المباركة جعلنا الله ممن ألحق بهم بمنه وفضله

(٢٤٢) ﴿ حديث رحمة الله لمن يرحم عباده ﴾

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنهما عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمُ

ظاهر الحديث أن رحمة الله لا ينالها إلا من تكون فيه رحمة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ قوله ﴿ لا يرحم ﴾ معناه هل المراد لا يرحم أبدا أو أنه ليس من طريق الحكم بالعدل سبب يوجب له بالوعد الحق رحمة احتمل الوجهين معا بحسب التأويل فى قوله عليه السلام ﴿ من لا يرحم ﴾ على من لا يذكر به وهل المراد بقوله ﴿ من لا يرحم لا يرحم ﴾ غيره إما باحسان أو بما يكون فى مثله من تسل أو تعز وإرشاد إلى غير ذلك من وجوه المسرات اويريد بقوله من لا يرحم لا يرحم أى لا تكون فيه رحمة الايمان التى هى دالة عليه فلا يرحم لخلوه من الايمان أو يكون المراد من لا يرحم نفسه بامتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه لا يرحم لأنه ليس له عهد عند الله تعالى يوجب ذلك أو يكون المراد لا يرحم الرحمة التى ليس فيها ضيم ولا شىء من شوائب التشويشات إلا من كان راحما على الاطلاق لنفسه ولغيره وفى إيمانه كما قال عز وجل فى كتابه (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) أى يحق لهم الرجاء لما أوتوا بموجباته فان رجوا بغير عمل فليس ذلك رجاء وإنما تسميه العلماء تمنى والتمنى عندهم مظنة الهلاك وكقوله عز وجل (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة إلى قوله تعالى أولئك هم المفلحون) أو يكون المراد أن أهل المبالغة فى الرحمة يتجاوز الله تعالى بفضله عنهم ويرحمهم

كما تجاوزوا عن الكريم فان الله آخذ بيده كلما عثر وقد جاء «أن يوم القيامة ينادى مناد من له على الله حق فليقم فيقوم العافون عن الناس فيؤمر بهم إلى الجنة من غير حساب» واحتمل أن تكون الرحمة هنا بمعنى الحسنات والأجور فانه لا يؤجر ويحسن إليه إلا من فعل رحمة أى عملا يوجب له ثوابا كقوله عليه السلام «إن الله لا يمل حتى تملوا» أى إن الله لا يمل بالاحسان وحسن الجزاء حتى تملوا من العمل واحتمل أن يكون المراد لا ينظر إليه بعين الرحمة إلا من وفق إلى الرحمة وجعلت فى قلبه فتكون دالة على الرحمة له ومن لم يجعل فى قلبه رحمة كان ذلك دليلا على عدم الرحمة له فى الآخرة وإن كان هذا على عمل خير فى الظاهر لأن تلك العلامة لم يجدها وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم مايبين هذا المعنى وهو قوله عليه السلام «اطلبوا الرقة فى ثلاث فى الذكر والتلاوة والصلاة فان وجدتموها وإلا فاعلموا أن الباب مغلق» أو كما قال عليه السلام والرقة لا تكون إلا مع الرحمة وقد قال صلى الله عليه وسلم «لأعرابى مابالك أنزع الله الرحمة من قلبك إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء» أو كما قال عليه السلام وقد قال صلى الله عليه وسلم فى القاس القلب «بعيد من الله» وقد قال صلى الله عليه وسلم «ألا أخبركم بمن يحرم على النار وتحرم عليه النار على كل قريب هين سهل» أو كما قال عليه السلام وهذه الأدلة كلها إنما هى لمن جعلت الرحمة فى قلبه واحتمل أن يكون المراد بالرحمة هنا الصدقة فيكون المراد بقوله لا يرحم أى لا يدفع عنه البلاء مثل ما حكى فى قصة القصار من بنى إسرائيل الذى كان يؤذى الناس فشكوه لنبى ذلك الزمان فأخبرهم أن الله عز وجل يرسل عليه بلاء فى اليوم الفلانى فلما كان فى ذلك اليوم خرج الرجل على عادته للقصارة وأخرج معه رغيفين لغذائه فلقيه مسكين فسأله فأعطاه الرغيفين فلما كان عشية النهار وإذا به راجع مابه شىء فقالوا لذلك النبى صلى الله عليه وسلم وعلى سيدنا وعلى جميعهم أين الذى أوعدتنا فسأله مافعلت اليوم فأخبره باعطائه الرغيفين فأمر بحل رزمة ثيابه فوجد فيها حية عظيمة ملجمة بلجام من نار فقال لهم هذا البلاء الذى كان أرسل عليه وهذا اللجام هى الصدقة التى تصدق بها حبستها عنه أو كما جرى وقد قال صلى الله عليه وسلم «ادفعوا البلاء بالصدقة» واحتمل أن يكون المراد الارشاد لجميع مصانع المعروف لقوله صلى الله عليه وسلم «صنائع المعروف تقى مصارع السوء» واحتمل أن يكون المراد جميع الوجوه كلها لأن على كل واحد منها أدلة من السنة عديدة ويترتب على ذلك من الفقه أن يتفقد المرء نفسه فى هذه الوجوه كلها لعله أن يكون ممن يرحم وإن عسر عليه شىء منها فيلجأ إلى المولى الكريم لعله يمن عليه بالرحمة وأسبابها فهو منان كريم جعلنا الله من أهلها بفضله فى الدنيا والآخرة

(٢٤٣) ﴿حديث الحث على إكرام الجار﴾

عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَازَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ

ظاهر الحديث يدل على الحض على حفظ الجار والاخبار بكثرة وصية جبريل عليه السلام للنبي عليه السلام به والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال هل هذه الوصية من قبيل الواجب أو المندوب وهل الوصية به من أجل الاحسان إليه وإن كان من أجل ذلك فما حده أو المراد غير ذلك من ترك الضرر إليه أو الجميع وهل ذلك على الاطلاق على أى حال كان الجار أولها شروط وأى حد هو حد الجار من القرب والبعد ومن أى الجهات يكون وهل القريب منهم والبعيد فى الحرمة سواء وهل هى من الأمور التى يحتاج فيها إلى نية أم لا ﴿أما قولنا﴾ هل هذه الوصية من قبيل الواجب أو المندوب فهذه الصيغة لا تستعمل إلا فى المندوبات والمرغبات مثل قول أبى هريرة رضى الله عنه «أوصانى خليلى بثلاث ركعتى الضحى وصيام ثلاثة أيام من كل شهر وأن أوتر قبل أن أنام» وحفظ الجار من كمال الايمان وهو أيضا مما كانت الجاهلية ترعاه وتحافظ عليه وتفتخر بحفظه وتعيب تارك ذلك وتذمه ﴿وأما قولنا﴾ ماحد الاحسان إليه فهو على ضربين إما الاحسان إليه بأنواع ضروب الاحسان وأما كف الأذى عنه على اختلاف أنواعه وكف الأذى عنه أشد وأبلغ فى حقيقة الايمان لقوله صلى الله عليه وسلم «لا يبلغ أحد حقيقة الايمان حتى يأمن جاره بوائقه» أو كما قال عليه السلام فنفى صلى الله عليه وسلم أن تجتمع حقيقة الايمان مع إذائه الجار والاحسان إليه من كماله والاحسان إليه يكون بالوجوه المحسوسة مثل الهدية وأن لا يمنعه غرز خشبة فى جداره إن احتاج إليها وماهو فى معنى ذلك ويكون بالمعنويات مثل إرادة الخير له والدعاء له بذلك بظهر الغيب ومافى معناه ومعاونته على شىء إن احتاج إليه بقدر الجهد بأى نوع كان ذلك من المحسوسات أو المعنويات كل ذلك على قدر طاقتك بغير ضرر يلحق فيه للغير ﴿وأما قولنا﴾ هل ذلك على الاطلاق أوله شروط ﴿فالجواب﴾ أنه من وجه على الاطلاق ومن وجه له شروط فالذى هو على الاطلاق إرادتك الخير له إن لم يكن من أهله ودعاؤك له فى ذلك بظهر الغيب ومافى معناه وأما الذى له شروط فانه إذا كان على الاستقامة فالمندوب قد أصاب محله فأحسن إليه بما أمكنك من وجوه الاحسان حسا ومعنى وإن كان على غير الاستقامة فواجب عليك كفه عن ذلك إن كان ذلك فى قدرتك أو موعظته إن قبل وإلا فهجرانه على قدر جرمه ويكون يعلم أن هجرانك له من أجل ذلك لعله يرجع ومن أجل هذا وما أشبهه «قيل الجار قبل الدار» وقال العلماء شؤم الدار سوء جارها ﴿وأما قولنا﴾ أى حد هو حدها فقد تكلم الناس فى ذلك فما قيل فيه إن من بينك وبينه أربعون دارا فما دون ذلك فهو من جيرانك وأما مايدل على الحديث الذى بعد هذا فهو من الاثنين فدون على مايقع الكلام عليه فى موضعه من الحديث إن شاء الله تعالى ﴿وأما قولنا﴾ من أى الجهات يكون فقد قال العلماء من الأربع جهات إن كانت الجهات عامرة كلها ﴿وأما قولنا﴾ هل القريب والبعيد فى الحرمة سواء فهذا يحتاج إلى تفسير أما فى منع الضرر لهم فذلك سواء

وأما فى إرسال الخير إليهم فان كان مثل المعنويات فهو فى ذلك سواء وإن كان من جهة المحسوسات فيعمل فى ذلك بحسب نص الحديث الذى يأتى بعد هذا الحديث وهو تقديم أقربهم منك بابا فتلك السنة هذا إذا تساووا فى حق الجوار بلا زيادة حق على ذلك فان من الجيران من له حق واحد ومن له حقان وهو الذى يكون جارا مسلما ومن له ثلاث حقوق وهو أن يكون جارا مسلما قريبا ومنهم من يكون له أربعة حقوق ﴿القرابة والجوار والاسلام والصهر﴾ فيكون إذ ذاك المقدم منهم الذى يكون أكثرهم حقا ﴿وأما قولنا﴾ هل يحتاج فى ذلك إلى نية أم لا فاعلم أن كل فعل يمكن عمله لله ويمكن عمله لغير الله والوجهان فيه سائغان على لسان العلم فلا بد من النية فيه إذا فعل لله ليمتاز عن غيره والاحسان للجار هو مما يمكن أن يكون لله وأن يكون لغير الله مثل أن تفعل الخير معه مكافأة على إحسان تقدم له عليك أو لمن يلزمك منه ملزم أو لحب فيه أو لحياء منه أو لرغبة فى مكافأته أو لاحسان أو لخوف منه وأشياء عديدة إذا نظرتها تجدها فاذا كان لمجرد الجوار فالنية فيه مطلوبة ليتميز من هذه الوجوه كلها وما أقل اليوم فاعل ذلك وقد ذكر عن بعض أهل الدين والفضل أنه كان له أحد جيرانه وكان مسرفا على نفسه والسيد لا يعلم ذلك منه وكانت لذلك المسرف عادة إذا كان يفيق من نشوته قريب السحر يرفع صوته ويقول «أضاعونى وأى فتى أضاعوا ✽ ومثلى فى الحقيقة لا يضاع» فكان ذلك السيد يتأنس بذلك القول منه كل ليلة إلى أن وقع الحاكم عليه فأمر بسجنه فلما كان فى السحر لم يسمع السيد القول المعتاد من جاره فلما أصبح قال للخديم الذى له اذهب إلى جارنا فاسأل عن حاله وما كان سبب قطعه العادة البارحة فرجع الخديم له وأخبره بشأنه وما هو عليه فقال السيد لا يمكننى إضاعته فتوجه للحاكم فى قضيته فقضى الحاكم حاجته وأطلقه ووجهه إلى ذلك السيد فلما رآه قال له هل ضيعناك أو فرطنا فى حقك فاستحى من ذلك السيد وتاب وحسن حاله ﴿تنبيه﴾ إذا كنت يؤكد عليك فى حق جار بينك وبينه جدار وتمنع أن يصل إليك منه إذاية وتؤمر بحفظه وإيصال الخير إليه فكيف بمراقبة الملكين الحافظين الذين ليس بينك وبينهما جدار ولا حائل وأنت تؤذيهما مع مرور الساعات بدوام التفريط وإيقاع المخالفات أنظر بعقلك هل يصح لك مع ذلك حقيقة الايمان أم كيف حالك يا مسكين لأنه قد جاء «أن الحفظة الكرام يسرون بحسنات العبد أكثر ما يسر العبد بها عند رؤية ثوابها وأنهما يحزنان ويهتمان من سيئات العبد ومعصيته أكثر مما يحزن العبد إذا رأى جزاءه عليها» فاساءتك لهما بخطيئتك وأنت لا تستحى ولا تنزجر فأنتبه يا بطال قبل رفع الحجاب وغلق الباب إذا كنت نفسك لا تحفظها وجيرانك منك لا يسلمون فالهرب منك ثم الهرب الهرب وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿حتى ظننت أنه سيورثه﴾ فيه دليلان (أحدهما) أن من أكثر له من شىء رجى له الانتقال إلى ما هو أعلا منه لأنه لما كثرت من جبريل عليه السلام الوصية فى حق الجار ظن سيدنا صلى الله

عليه وسلم أنه سيبلغ الاعتناء به إلى ماهو أعلا وهو الميراث ﴿ وفى هذا دليل ﴾ لأهل المقامات والأحوال لأنهم يقولون إذا فتح على أحد فى مقام ودام عليه بأدبه رجى له الانتقال إلى ماهو أعلى منه ﴿ والدليل الثانى ﴾ أن أعلا الحرمة هو الميراث والميراث على ضربين ميراث العوام وهو فى حطام الدنيا وميراث الخواص وهو العلم إذا كان لله وهو على ضربين منقول ووهبي وهو الميراث الذى ورثته الأنبيا عليهم أفضل الصلاة والسلام لأن العلماء رضى الله عنهم ورثة الأنبياء عليهم السلام كالذى روى عن بعض الصحابة وهو أبو هريرة رضى الله عنه أنه مر على بعض أصحابه فى السوق فقال لهم أتجلسون هنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فى المسجد وذلك بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فسارعوا إلى المسجد فاذا ناس من الصحابة رضى الله عنهم يتذاكرون فى العلم فقالوا له وأين ماقلت قال ذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الأنبياء عليهم السلام لم يورثوا درهما ولا دينارا وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ حظه من الميراث غير أن بين الميراثين فرقا عظيما وهو أن الميراث الذى فى حطام الدنيا تدخله نسبة الدار وهو الضيق والنقص بالحجب إما كلى أو بعضى وبالعول أيضا نقص ثان وأما ميراث الخواص فليس فيه شيء من ذلك بل التوادد واسع ولهم الخير التام نسبة الدار الذى هو لها حكمة حكيم وأما اللدنى فكذلك أيضا وهو حق بدليل الكتاب والسنة فأما الكتاب فقصة الخضر عليه السلام مع موسى عليه السلام حين قال الخضر «إنى على علم من علم الله تعالى علمنيه لا تعلمه أنت وهو اللدنى على ماذكره أهل العلم وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه » وهو المشروع وكان فى قصتهما ماقص الله سبحانه فى كتابه إلى قوله (ومافعلته عن أمرى) وقصة آدم عليه السلام حين علمه الله أسماء كل شيء بعد ماسأل جل جلاله الملائكة عن ذلك فقالوا (سبحانك لا علم لنا) فقال تعالى (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) كما قص الله سبحانه فى كتابه إلى قوله تعالى (وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) وتعليمه جل جلاله أسما الأشياء كلها حتى اسم القصعة والقصيعة إنما كان بالعلم اللدنى بلا واسطة بين آدم ومولاه ولهذا ظهر عجز الملائكة وأقروا به وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم «إن من أمتى لمحدثين وإن عمر لمنهم» وقصته صلى الله عليه وسلم مع أبى هريرة حين شكى له أنه يسمع الحديث وينساه فقال له عليه السلام «ابسط رداءك فبسطه قال فغرف بيده ثم قال ضمه فضممته فما نسيت شيئا بعده فكان أبو هريرة رضى الله عنه بعد ذلك أكثر الصحابة حديثا وقال رضى الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم يعنى أن جميع تلك الأحاديث التى رواها إنما هى من بركة بسطة الرداء والصحابة رضوان الله عليهم قد قالوا أكثرت يا أباهريرة من الحديث فكأنه يقول إذا الشيء الواحد أقلقكم وقلتم إنى أكثرت من الحديث فلو سمعتم الآخر قتلتمونى لأنكم كنتم تنسبونى إلى أن ذلك كذب منى

على النبي ﷺ ولم يقل هذا أبو هريرة وهو يقصد به الصحابة لأنهم رضى الله عنهم يعرف كل واحد منهم فضل صاحبه ودينه وإنما قال ذلك من أجل الجهال الداخلين فى الدين إذا كانوا يسمعون من الخلفاء وأكابر الصحابة رضوان الله عليهم أكثر أبو هريرة من الحديث وينكرون عليه ذلك وإنما أنكر من الصحابة من أنكر ذلك على أبى هريرة أنه اتهمه وإنما رأوا أن شغله بالتعبد أولى من استغراقه الزمان كله فى رواية الحديث فان كتاب الله قد كتب وأثبت بالاجماع وفيه جميع الأحكام وأن الصحابة رضى الله عنهم فقد نقل عنهم من الأحاديث ما فيه كفاية وزيادة فقد حصل من مجموع الثقلين وهما الكتاب والسنة ما فيه كفاية لمن اشتغل بالدين وتوفية ما به أمر لأن الصحابة والصدر الأول رضوان الله عليهم إنما كانت همهم فى الأعمال لأنها هى ثمرة العلم وكان مذهب أبى هريرة أن يبث ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أداء الفرائض أفضل القرب كما روى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال لو وضعتم الصمصامة على هذه وأشار إلى قفاه ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تجيزوا على لأنفذتها فلم يرجع واحد منهم عما ظهر له والكل على الحق رضى الله عن جميعهم كما فعل بعض أصحاب مالك رحمه الله وكان ذلك الصاحب ممن قد انقطع إلى العبادة فكتب إلى مالك يحضه على ترك العلم والانقطاع إلى العبادة فأرسل مالك إليه وهو يقول له «يا أخى ما أنت عليه بأفضل مما أنا عليه والكل على خير إن صلحت النية» فلم يرجع إليه فاذا رأى الجاهل أبا هريرة بعد ما سمع من أكابر الصحابة رضى الله عنهم أنه أكثر من الحديث قد زاد فى الحديث أضعافا مضاعفة ينسبه إلى ما لا يليق به وقد يفضى الأمر إلى القتل فيكون قولهم ذلك مع الزيادة فى الحديث قاطعا للبلعوم كما ذكر رضى الله عنه لأنه من شارك فى قتل نفس بأى وجه شارك وإن قل من قول أو فعل سمى قاتلا لغة وشرعا فلذلك كف رضى الله عنه عن الزيادة (١) ﴿وفى ذلك دليل﴾ للاخذ بسد الذريعة وفى فعل سيدنا صلى الله عليه وسلم ذلك مع أبى هريرة دليل لأهل الأحوال الصادقة المستقيمة على طريق الكتاب والسنة مع أولادهم فى السلوك ينظرون إلى الذين فيهم الأهلية فيورثونهم من أحوالهم المباركة التى فتح عليهم فيها لأنه صلى الله عليه وسلم الأصل فى كل خير من علم أو حال أو عمل فانه بحر الأنوار والحكم والحلى النفيسة وجامع للاعلى من العلوم والأحوال والشيم الرفيعة بدءا وعودا فكل من كان من أهل السعادة قد أخذ منه مشربا وفى قوله عليه السلام ﴿ظننت﴾ وجه ثالث وهو إن الظن إذا كان فى طريق الخير جائز شرعا ما صح منه ومالم يصح فانه صلى الله عليه وسلم قد ظن أنه سيورثه ولم يقطع ذلك ففائدة إخباره عليه السلام لنا بذلك لنأخذ منه الدليل على جواز ذلك والفرق بينه وبين الظن السوء بأنه ممنوع شرعا كما قال عز وجل (إن بعض الظن إثم) وفى ذلك دليل على الطمع فى زيادة خير المولى سبحانه عند توالى

(١) وقد قال الحافظ فى الفتح وبقية شراح الجامع أن المراد بالذى كتمه أبو هريرة إنما هو تولية بعض أمراء بنى أمية

نعمه على عبده بلغ ذلك حده أولم يبلغه لأنه أى توالى نعم أكبر من كثرة تردد جبريل عليه بالوصية فى حق الجار إلى خير البشر صلى الله عليه وسلم ﴿ وفيه دليل ﴾ على الندب إلى التحدث بما يقع فى النفس من الخير قضى بذلك أم لا وقد قيل فى فضل مولاك فاطمع إن كنت طامعا فليس عار على عبد فى فضل مولاه طمع

(٢٤٤) ﴿ حديث الترتيب بين الجيران بالمودة ﴾

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ إِنَّ لِى جَارَيْنِ فَالَى أَيِّهِمَا أُهْدِى قَالَ إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا

ظاهر الحديث يدل على أن أقرب الجيران منك بابا أولى بالهدية من غيره والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا على طريق الاستحباب أو الوجوب ﴿ فالجواب ﴾ إما أن يكون ذلك على الوجوب فليس بظاهر لأن الهدية لم يقل أحد أنها واجبة فاذا كان الفعل فى نفسه مندوبا فتقديم الناس فيه بعضهم على بعض من باب المندوب أيضا فانه لا يكون الفرع أقوى من الأصل ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن المستحب فى الأعمال الأخذ بما هو أعلا يؤخذ ذلك من إرشاده صلى الله عليه وسلم لما هو الأفضل فى الترتيب بين الجيران وأعظم حرمة أليس أنها لو أهدت لغير الأقرب بابا لكانت مأجورة فى هديتها فلما كان الأقرب بابا أعظم حرمة كان بالمعروف أولى وكان صاحبه أكثر أجرا وكذلك السنة فى غير ذلك من أفعال البر يؤيد ذلك ويقويه قوله عز وجل فى كتابه (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) ﴿ وفيه دليل ﴾ على تقديم العلم قبل العمل يؤخذ ذلك من سؤالها رضى الله عنها قبل عملها ﴿ وفيه دليل ﴾ لأهل الطريق لأنهم يؤخرون العمل لاشتغالهم بتصحيح النية يؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم «خير العمل ما تقدمته النية» أو كما قال عليه السلام ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الجوار الذى وكد فى حقه على نحو الحديث قيل أنه ما يتعدى إلى أكثر من إثنين وما عداه أخفض رتبة فى الطلب فأوجب ذلك تأكيدا ما على غيره ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن آكد الجهات فى الجوار جهة الأبواب لأن الذى هو أقرب منك بابا هو الذى تكثر مشاهدته لك ولكل ما يرد عليك وقد يعلم من حالك لكثرة الملازمة ما لا يعلمه غيره وأنت أيضا تعلم من حاله كذلك وهذا كله إذا كان الجوار على الشروط المتقدم ذكرها فى الحديث قبل وعرى عن الحقوق الزائدة عليها كما تقدم أيضا ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن المندوب إلى حفظ الجار الرجال والنساء فيه سواء يؤخذ ذلك من قولها إلى أيهما أهدى فانها سألت عما يخصها فى ذلك ولو كانت فى ذلك نائبة عنه صلى الله عليه وسلم لقالت إلى أيهما نهدى ﴿ تنبيه ﴾ القرب بأى وجه كان كانت له حرمة ما أما ترى الجار قد جعلت له حرمة من أجل الجوار بالجدار وإن كان كافرا ففيه إرشاد إلى أن تكون لك همة فيها فحولية لعل قربك يكون من النوع الذى لا قطع له فان قرب الكافر بجوار الجدار ينقطع بانقطاع هذه الدار والقرب بمناسبة الطريقة والحال يتأكد

حقه فى تلك الدار كما جاء فى الأثر «أن عمار المساجد جيران الله» فاذا كانوا جيرانه فى هذه الدار فكيف يكون حال حرمتهم فى تلك الدار واها حبا فيهم وشوقا اليهم ماأحسن ماأثنى عليهم مولاهم حيث قال (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله) وماذا أعد لهم بمتضمن قوله ويزيدهم من فضله فثواب أعمالهم محدود معلوم وماكان من فضله عزوجل فلا تصل إليه العقول ولاتحيط به الاوهام جعلنا الله من أهل القرب المقربين بفضله كما يليق بفضله وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده وآله وسلم

(٢٤٥) ﴿حديث كل معروف صدقة﴾

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ

ظاهر الحديث يدل على أن كل من عمل عملا من أعمال المعروف أن له فيه أجرا وحسنة مثل ماله فى الصدقة إذا تصدق بها والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال هل المراد بالمعروف الشرعى أو العادى وهل فاعله يحتاج إلى نية حتى يكون مأجورا أو بنفس فعله يكون مأجورا وإن عرى عن النية وهل هو محدود معلوم لا يزيد ولا ينقص أو هو معلوم غير محدود يزيد وينقص بحسب الازمنة ﴿أما قولنا﴾ ما المراد بالمعروف فالمراد أنه قد عرف وتحقق أنه من أفعال البر فصار هذا الاسم عليه علما ﴿وأما قولنا﴾ هل المراد الشرعى أو العادى فالجواب أنه لا ينطلق اسم معروف إلا على ماقد عرف بالأدلة الشرعية أنه من أفعال البر كان أصله أولا مخترعا بالشرع أو كان عادة فأقرتها الشريعة أن جعلته معروفا فمثال مااخترعته الشريعة معروفا ولم يعلم قبل أنه من وجوهه مثل «الحب فى الله تعالى والبغض فى الله» إذا كانا بشروطهما ومايشبههما وهو كثير ومثل إماطة الأذى من الطريق وماأشبهه وهو أيضا كثير ومثل أنواع الاذكار وما فى معناها وهو أيضا كثير ومثل أنواع المندوبات وأما ما كان عادة بين الناس وأثبتت الشريعة أنه معروف فهو مثل السلف فانه كان عادة بين الناس أثبتت الشريعة فيه من الأجر كثيرا حتى ارتفع الحق الواجب الذى فيه من الزكاة طول بقائه عند الذى استسلفه فاذا بقى مال المقرض الذى فيه نصاب عند الذى استسلفه سنين عديدة ثم قبضه صاحبه لا يجب عليه فيه إلا زكاة سنة واحدة لا غير ومثل استعارة متاع البيت كان الناس يفعلونه عادة فجاء فيه من الأجر ما جاء وجاءت الأدلة الشرعية تحض عليه حتى قال بعض العلماء أنه واجب ومن هذا النوع كثير وقد جاء فى مبلغ أجورهم أنه من أعار قدرا كان له من الأجر بقدر ما طبخ فيها من الطعام أن لو تصدق به ومن أوقد شعلة نار كان له من الأجر بقدر ما طبخ على تلك النار أن لو تصدق به وكذلك فى سلف الخميرة أوهبتها وكذلك الملح ﴿وأما قولنا﴾ هل يحتاج إلى نية عند فعله أو بنفس الفعل يكون

مأجورا وإن لم تحضره نية فهذا يحتاج إلى تقسيم وذلك أن العلماء قد أجمعوا على أن أفعال البر كلها إذا وجدت فيها النية مقدمة فلا خلاف فى كمالها ورجاء قبولها وبقى الخلاف فيما عدا ذلك هل يجزىء مطلقا أو لا يجزىء مطلقا أو بالتفرقة البعض يجزىء والبعض لا يجزى خلاف متسع وترك الخلاف أولى ﴿وأما قولنا﴾ هل هو محدود معلوم لا يزيد ولا ينقص أو هو معلوم غير محدود يزيد وينقص بحسب الأحوال والأزمنة فان نظرنا بحسب الوقائع وطرقها فتزيد فى زمان وتنقص فى زمان آخر لكن الشأن هل تعلم جميع أنواعها مفصلا هذا ما قدر أحد من العلماء أن يحصره لأنه قد جاء عن سيدنا صلى الله عليه وسلم أنه بلغ عدد المستحقرات من أفعال البر الذى أعلاها منحة العنز ومنحة العنز عند العرب من الأشياء التى لا يبالى بها سبعين أو كما قيل وقد روى عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم قالوا عددناها بعد فما قدرنا على أن يبلغ فيها أكثر من خمسة عشر وهى مثل إماطة الأذى عن الطريق ومثل أن تلقى أخاك بوجه طلق ومثل الكلمة الطيبة ومثل الارشاد إلى الطريق وما فى معناها فاذا كانوا أولئك السادة لم يقدروا أن يحصروا من السبعين إلا خمسة عشر مع اهتمامهم بالدين وجمعهم على ذلك فكيف بمن بعدهم لا سيما فى زماننا هذا وهنا ﴿إشارة لطيفة﴾ وهى أنه لما أن خفيت أفعال المعروف لدقة أكثرها أشبهت إخفاء ليلة القدر وإخفاء الساعة فى يوم الجمعة وليلة القدر ترقب فى لياليها المعلومة لها والساعة التى فى يوم الجمعة ترقب فى جميع يومها فينبغى أن ترقب أفعال المعروف مثلها وكيفية ذلك أن يحضر النية فى أول يومه لأنه لا يفعل فعلا من الأفعال أو يتكلم بكلمة إلا ناويا بها القرب الى الله تعالى فما وقع له من ذلك فان جدد له نية فهو الكمال وإن حصلت له غفلة حين وقوع ذلك منه فيرجى أن ماتقدم ذلك من النية يجزىء عنه مالم يكن لتلك النية مناقض وقد تقدم أن الأفعال قسمان واجب ومندوب بالنسبة إلى النيات وأما المباح فلا سبيل اليه عند أهل الطريق فاذا فعل ذلك يرجى أن يصادف كل معروف كما يصادف ليلة القدر والساعة التى فى الجمعة من ارتقبهما والله الموفق ويكون فى ذلك كله مستعينا بالله تعالى مستعيذا به ومستغيثا خوفا أن يوكل إلى نفسه فيقطع به فيما نواه فيحصل والعياذ بالله فى المقت لقوله تعالى (لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وبقى علينا كيفية التوجيه بحسن النية فى جميع الحركات كيف تكون حتى يسلم من البدع وتكون فى ذلك على لسان العلم وهنا ﴿إشارة حسنة﴾ وهى أنه لما خفيت علينا هذه الفوائد كما خفيت علينا ليلة القدر وجعلوا قيام السنة كلها بنية ليلة القدر كما تقدم الكلام عليه حين تكلمنا على ليلة القدر قالوا هنا نحن نجعل حركاتنا كلها مباحها وغير ذلك كلها بنية القربة لله تعالى كما أوصينا من أفعال البر التى قد نبه عليها صلى الله عليه وسلم ولم نصل إلى معرفتها فقد يحصل لنا المقصود إن وقع منا فعل ونية حسنة متقدمة وما كان من المباح وفعلناه بنية القربة ولم يصادف

تلك الأشياء فلا يضرنا ذلك وهو وجه حسن لأننا نؤجر ما قالوا فى الأجر وإصابته بفضل الله تعالى وماقالوا فانه إذا لم يصب من ذلك شيئا لا يضره ذلك وأنه لايخلو فى ذلك الوجه من الأجر أيضا لحرصه على إصابة الخير واتباع السنة وقهر نفسه حتى نفى عنها المباح الذى لها سعة فيه وملازمته ذلك ابتغاء مرضات مولاه العليم الكريم وكيف يضيع ذلك ومولاه جل جلاله يقول فى كتابه (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) بل يرجى أن يزيده من الأجر فى ذلك النور والهدى إلى سبيل الخير بالوعد الجميل (ومن أصدق من الله قيلا ، ومن أصدق من الله حديثا) لكن بقى علينا كيف توجيه حسن النية فى جميع الحركات على نحو ما أشاروا اليه كيف يكون حتى نسلم من البدع ونكون فى ذلك على لسان العلم فنقول والله المستعان لايخلو ما يتصرف فيه العبد أن يكون فيما يخص نفسه أوما يخص غيره فان كان فيما يخص نفسه فلايخلو أن يكون من النوع الذى فيه قربة لله تعالى فهذا قد تميز بنفسه أو يكون مما أبيح له فعله على لسان العلم فيجعله بنية العون على طاعة الله دق الأمر فى ذلك أوجل دليله فى ذلك قول معاذ رضى الله عنه فى نومه «وأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى» وقد تقدم الكلام عليه فى غير ما موضع وان كان فيما يخص غيره فلا يخلو أن يكون مع حيوان عاقل مثله أو غير عاقل فان كان عاقلا فلايخلو أيضا ما يتصرف فيه أن يكون مما قد تبين أن فيه قربة الى الله تعالى فقد بان من الوجه وان كان لم يتبين فيه ذلك فيكون نيته فى ذلك أحد النيات المستحسنة شرعا وهى إما من باب إدخال السرور أومن شفقة الاسلام أومن باب العون على ما فيه رفق له فى شأنه أومن باب الرفق لقوله عليه السلام « ما كان الرفق فى شىء إلا زانه » أو من باب اتباع حكمة الله تعالى الجارية فى ذلك الوجه أو من باب اتخاذ الخير عادة مطلقا أوما فى معنى هذه النيات أيها أمكن فى ذلك الأمر فعله وليتحذر فى ذلك من الرياء وطلب المدح على ذلك أو العوض أو مايقرب من ذلك وان خفى سواء كان فعلا أو قولا أو نية ومما روى فيما يشبه هذا النوع من حسن النية للغير فى أمر خاص أن بعض المسرفين على نفسه مات ولم تعلم له حسنة قط فرآه بعض المباركين فى نومه فى حالة حسنة فقال له بم نلت هذه المنزلة فقال له لم توجد لى حسنة واحدة إلا أنه خرجت يوما سرية من سرايا المسلمين فغنمت فبلغنى ذلك ففرحت لكون المسلمين غنموا فغفر الله لى بذلك فانظر الى هذا الخير ما أدقه وأخفاه وإلى هذا الفضل ما أعظمه وأعلاه ومن هنا فتنبه وإن كان الحيوان غير عاقل فقد بان المعرف فيه لقوله ﷺ « فى كل كبد حراء أجر » إلا أنه يتحرز أن يكون لولوع به أو لمنفعة يرجوها منه أو عليه أو لحظ ما من الحظوظ النفسانيـــة فتلك أبواب قد عرف ما فيها وما على الداخل فيها وما له على حسب ما قد بيناه فى غير ما موضع من الكتاب وليس هى من هذا الباب الذى نحن بسبيله فى شىء وفى الحديث ﴿فائدة لطيفة﴾ وهى الحض لك أن ترد بالك إلى باب المعروف فتعلمه وتعمل به

لأنه باب واسع كاد أن لايخلو من وفق إلى علمه والعمل به من داوم الخير ليلا ونهارا لئلا تجهل فتقول لا تكون الحسنة إلا فى الصدقة بالمحسوس ويفوتك خير كثير وأنت قادر عليه وليس عليك فى أكثره شىء من المشقة والصدقة بالمحسوس قد لايقدر عليها بعض الناس وهذا منه صلى الله عليه وسلم من أحسن الارشاد جزاه الله عنا أفضل ما جزى نبيا عن أمته بفضله وجعلنا من مباركيها فى الدارين بمنه

(٢٤٦) ﴿ حديث كراهة الشعر وحرمته ﴾

عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَأَنْ يَمْتَلِىءَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِىءَ شِعْراً

ظاهر الحديث يدل على ترجيح أن يمتلىء الجوف قيحاً الذى هو عين الهلاك على أن يمتلىء شعرا والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال مايعنى بجوفه ومنها هل قوله شعرا على عمومه أوليس وما المراد بقوله أن يمتلىء شعرا هل لكثرة حفظه الشعر أوهل بتعلق الخاطر به ومنها ماالحكمة فى أن مثل بالقيح دون غيره ﴿ أماقولنا ﴾ مامعنى جوفه احتمل وجهين أحدهما أن يعنى به باالذى فى جوفه وهو القلب واحتمل أن يكون على ظاهره فيعنى به الجوف كله ومافيه من القلب وغيره والأول أظهر والله أعلم ﴿ وأماقولنا ﴾ مامعنى قوله صلى الله عليه وسلم «شعرا» هل ذلك على العموم من أى نوع كان الشعر أوعلى الخصوص احتمل اللفظ لكن قواعد الشريعة تخصصه لأنما كان من الشعر فى مدحه صلى الله عليه وسلم فهو قربة الى الله تعالى وقد كان هو صلى الله عليه وسلم يحض عليه مثل قوله صلى الله عليه وسلم لحسان أجبهم عنى فقال له حسان والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين أوكما قال وماكان منه فى تنزيه الحق سبحانه فذلك قربة أيضا وماكان منه يحض على الآخرة ويزهد فى الدنيا فذلك من باب الوعظ والتذكار بالخير وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة » فما كان منه حكمة فكيف ملء الجوف بالقيح خير منـــه هذا لايمكن فيكون اللفظ عاما ومعناه الخصوص والله أعلم على هذا التوجيه المتقدم فيكون المحذور منه مثل النوع الذى ذمه مولانا جل جلاله فى كتابه حيث قال (والشعراء يتبعهم الغاوون ● ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ● وأنهم يقولون ما لا يفعلون) وذلك مثل شعراء الجاهلية وتغزلهم فانهم كانوا يتغزلون فى مدح النساء وذكرهن وغير ذلك من الوجوه المحركة للشهوات وحبها وحب الدنيا وفخرهم بمالا يجوز شرعا وما فى معناه ولذلك ذكر عن بعض أهل الطريق وكان من أكابر وقته أنه جاءه بعض الناس بابنه بعد ما علمه العربية والأدب ورغب منه أن يقرأ عليه شيئا من طريق القوم لعله ينبعث له همة فقال له لاأفعل لأنك أتيت به إلى بعد ماملأت قلبه بالشعر وخالط بشاشة الشهوات وحب الدنيا فما عسى أن أفعل فيه فامتنع منه ولم يقبله وهنا ﴿ إشارة لطيفة ﴾ كما قال صاحب الرسالة « وأولى القلوب بالخير مالم يسبق الشر إليه »

﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى يمتلىء شعرا هل المراد منه الذى يكثر من حفظ هذا النوع من الشعر أو المراد به من تعلق به خاطره حتى يكون به مشغوفا (فالجواب) أن هذا على وجهين إما مشغوفا بترداده وذكره والنظر فيه أو مشغوفا به وبنظمه وإنشائه واختراعه ومعارضة من تقدم من أهل ذلك الشأن احتمل الوجوه كلها لكن الأظهر والله أعلم أن المراد هو الذى تعلق خاطره به التعلق الكلى الذى يلهيه عن غيره كان ممن يخترعه وينشئه أو ممن ينقله ويحفظه وقد أعز به فالوجهان سيان مثل الذى ابتلى بحب الدنيا كان بيده منها شىء أو لم يكن الكل مما غلب عليهم حب الدنيا من أجلها يحبون ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى أن مثل بذكر القيح فاعلم وفقنا الله وإياك أن تمثيله عليه السلام بالقيح من أعظم الحذر عما مثل به وذلك أن أهل صنعة الطب يزعمون أنه إذا وصل إلى القلب من الداء شىء إن كان يسيرا فان صاحبه يموت لا محالة لأنه عضو رئيس لا يحمل من الآلام شيئا وإن غيره مما فى الجوف مثل الكبد والرئة إلى غير ذلك أن الآلام إذا كانت فى بعضها ان ذلك من الأمور المخوفة والغالب على صاحبها الهلاك فكيف إذا امتلأ الجميع بالقيح لا شك فى هلاك صاحب ذلك ألا ترى أنه إذا كان بعض الأنامل فيه نبات عند أخذه فى جمع القيح لا يهنأ لصاحبه عيش ولا حال وأيضا أن صاحب ورم الأكباد يموت مخبول الدماغ من هول ما يقاسى فترجيحه صلى الله عليه وسلم هذه الحالة التى ذكرناها على الشعر الذى فيه راحة النفس إنما ذلك لجمعه علتين وهما شغله عن الله تعالى بما لا يجوز من ذكر تلك الأمور التى يتضمنها تغزل الشعر لأنه قد قال صلى الله عليه وسلم « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر مثل الحى والميت » ولما كان الشغل هنا بمكروه أو حرام كانت الموتة على الحالة المذكورة خيرا له ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن يقال هل يتعدى الحكم بوجود العلة أم لا الظاهر تعديه لأن كل ما يشغل عن الله تعالى فصاحبه محروم فان كان بمحرم من أى المحرمات كان فالموت على هذه الحالة خير له مما هو فيه ﴿ تنبيه ﴾ اذا كان ملؤه بالقيح خير له من الشعر وما فيه إلا العلتان اللتان ذكرناهما فكيف إذا امتلأ بعلم الجدل وما يشبهه لأن تلك العلوم تقسى القلوب وتشغلها عن الله تعالى وتحدث الشكوك فى الاعتقادات وتطيل اللسان وتزرع الحسد فى القلوب والتنافس وتفضى إلى التباغض والتحكم على القدرة بأشياء لا توافقها الأدلة الشرعية فكيف يكون حال صاحبه وفيه ﴿ تنبيه ﴾ على ترك حظوظ النفس والعوائد السوء يؤخذ ذلك من أن سيدنا صلى الله عليه وسلم بعث والعرب فى معظم فصاحتها واشتغالها بالشعر وتنافسها فيه فزجرهم النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك بهذا الزجر العظيم الذى تضمنه الحديث ﴿ ويترتب على ذلك من الفقه ﴾ أن شغل الباطن بغير ما يرضى الله من أعظم الأمور المهلكة ولم يجعل له مخرج والأمور الواقعة فى الخارج من الكبائر والصغائر وما بينهما جعلت فيها الحدود والكفارات الى غير ذلك مما هو معروف من قواعد الشرع ويترتب عليه

أيضا أن الزجر كان لنفسك أولغيرك أويكون بحسب الشيء المنهي عنه من قوة أولين حتى يكون عاصما لتلك المادة الرديئة ﴿وفيه دليل﴾ لأهل المجاهدات وهو أنه لما عصت عليهم نفوسهم فى الأنقياد الى ما أريد منها أخذوها بالمجاهدات على قدر رعونتها حتى انقادت وقد ذكر عن بعضهم أن نفسه كان فيها رعونة فجاهدها عشرين سنة بأكل نشارة الخشب ولم يطعمها خبزاً أصلاحتى انقادت واستقامت لما أريد منها ومثل ذلك الشأن فى قطع العوائد السوء ولا ينظر فى ذلك لكثرة انتشارها فى الناس وإنما ينظر فيها بلسان العلم هل يجوز أم لا وعلى ذلك يكون العمل فهى طريق النجاة جعلنا الله من أهلها فى الدارين بمنه وفضله

(٢٤٧) ﴿ حديث فيضحة الغادر يوم القيامة ﴾

عَنِ ٱبْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ ٱلْغَادِرَ يُرْفَعُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَيُقَالُ هٰذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ ٱبْنِ فُلَانٍ

ظاهر الحديث يدل على فضيحة الغادر يوم القيامة ينصب له لواء غدرته وشهرته بها على جميع العالم هناك والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل الغدر على عمومه فى الدق والجل أوفى أشياء مخصوصة وهل له عذاب غير ذلك أم ليس وهل لكل غدرة تكون منه ينصب له بها لواء أو لواء واحد يكفى عن جميع غدراته وهل تعرف الحكمة فى ذلك أم لا ﴿أما قولنا﴾ هل الغدر على عمومه وهو فى بعض الأشياء دون بعض أما ماعدا الأشياء المحرمات والمكروهات التي قد خرجت بيانها فهو عام فى الدق من الأمور والجل وهذا باب ضيق لم يسامح فيه أحد من العلماء فى ذرة حتى أنهم قالوا فى الأسير إذا كان فى دار الحرب وقال له العلج الذى هو فى يده عاهدنى على أن لا تهرب وأنا أسرحك من الحديد فان عاهده وسرحه من الحديد من أجل عهده فلا يحل له الهروب بخلاف أن لو حلفه فله إذا حلفه أن يهرب ويكفر عن يمينه أما ترى إلى حال الغادر فى كتاب الله عز وجل حيث قال (ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) فأورثهم غدرهم لمولاهم أنحس الأحوال وهو النفاق ﴿وأما قولنا﴾ هل له عذاب على ذلك فالعذاب له بحسب ماقدر عليه وانما تكون له هذه العلامة التى يعرف بها يوم القيامة لأنه قد شاءت الحكمة الربانية أن جعلت لكل صاحب ذنب علامة يعرف بها ذنبه مثل شاهد الزور يبعث مولعا لسانه بالنار وآكل الربا يتخبط مثل صاحب الجنون فى الدنيا والذى يطلب وليس بذي حاجة ليس فى وجهه مزعة لحم والنائحة لها سربالان أحدهما من

الجرب والثانى من القطران ومانع الزكاة إن كانت إبلا بطح لها بقاع قرقر فجاءت أوفر ما كانت تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر آخرها ردت أولاها حتى يقضى الله تعالى بين عباده ثم يرى سبيله وان كانت غنما فمثل ذلك إلا أنه قال تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها وإن كان ماله ذهبا أو فضة مثل شجاع أقرع يعضه فى شدقيه يقول أنا مالك أنا كنزك والمتكبرون يبعثون مثل الذر وآكل أموال اليتامى ألسنة النار تخرج من منافس جسده وشارب الخمر الكوز معلق فى عنقه والكذاب ينشق شدقيه كما تقدم فى الحديث والمغتابون الناس تقرض شفاههم بالمقاريض أو كما ورد فى ذلك فهذه كلها علامات على كل ذنب حتى يعرف به صاحبه وهى أشياء عديدة بحسب الجرائم وكفى فى ذلك قوله تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والاقدام) أعاذنا الله من الذنوب والفضيحة بها ولو لم يكن فيها إلا هذا المقدار لكان كافيا فى الردع والازدجار فكيف بالأمور الزائدة على ذلك الذى لا تحمله الجبال ﴿وأما قولنا﴾ فيمن له غدرات هل تنصب له ألوية بعددها أو لواء واحد يكفى ظاهر الحديث يعطى أن لكل غدرة لواء يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام يقال «هذه غدرة فلان بن فلان» وجاء فى حديث غيره بقدر غدرته ﴿وأما قولنا﴾ هل تعرف الحكمة فى كونه جعلت شهرته بنصب اللواء أم لا فنقول والله أعلم قد عرفنا من حكمة الشريعة أن العذاب على الشيء يكون بما يضاده وأن الشهرة هنـــاك من جملة العقاب أيضا فلما كان الغدر هنا أمرا باطنيا خفيا جعلت علامته هناك أشهر الأشياء لأن عادة العرب إن أشهر الأشياء عندهم إنما يكون برفع الألوية وقد جاء فى حديث آخر «أنه ينصب عند أسته» أو كما ورد وهذه مبالغة فى التوبيخ والخزى جزاء وفاقا ﴿وفيه دليل﴾ على أن المعرفة فى الآخرة مثل المعرفة هنا يؤخذ ذلك من قوله فلان بن فلان وكما أن المعرفة بالآباء هنا فكذلك هناك ﴿تنبيه﴾ إعرض يافلان بن فلان على نفسك حين وصف ﷺ أبواب الجنة وذكر أن لكل باب منها من أعمال الخير نوعا يدخل أهله من ذلك الباب وأن أهل الصوم يدخلون من باب الريان فقال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله ماعلى من يدعى من تلك الابواب كلها فقال صلى الله عليه وسلم «أرجو أن تكون منهم» أو كما ورد وكيف حال من اجتمعت عليه وفيه تلك العلامات القبيحة على مافرط من الزكاة وغيرها من المتقدم ذكرها ورايات غدره تخفق عند أسته فاجعل نفسك بين هاتين الحالتين واختر إلى أيهما تفرع بالاعمال لا بالطمع والآمال «والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى» جعلنا الله من أهل الكيس وأعاننا عليه وأسعدنا به بمنه

(٢٤٧) ﴿ حديث كراهة الالفاظ الخبيثة من المؤمن ﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ خَبُثَتْ نَفْسِي وَلَكِنْ لِيَقُلْ لَقِسَتْ نَفْسِي

ظاهر الحديث النهى عن أن يصف أحد نفسه بالخبث ولكن إن ظهر له منها مالا يعجبه يعبر عن ذلك بقوله لقست نفسى والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل النهى عنها على طريق الكراهة أو الحظر وهل الأمر بقوله ﴿ لقست نفسى ﴾ على طريق الندب أو على طريق الوجوب وإن كان على طريق الندب هل يعبر بغير هذه الصيغة أم لا وما الحكمة فى منعه من قول الخبث وهل يكون المنع من هذه اللفظة لاغير أو ما هو فى معناها ﴿ أما قولنا ﴾ هل النهى على طريق الحظر أو الكراهة احتمل والظاهر أنه على طريق الكراهة بحسب ما عالله بعد ﴿ وأما قولنا ﴾ هل إن كان على الندب هل يعبر بغير لقست ﴿ فالجواب ﴾ إن الأولى فى المندوب صيغة لفظه صلى الله عليه وسلم لما فى ذلك من الخير وإن عبر بما فى معناها فقد خرج عن المنهى عنه ودخل فى باب المندوب إلا أنه ترك الأولى من المندوب لترك اللفظ المبارك ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى نهيه صلى الله عليه وسلم عن ذلك فان قلنا تعبد فلا بحث وإن قلنا لحكمة فما هى فاعلم وفقنا الله وإياك أنه عليه السلام كان يعجبه الفال الحسن ويكره السىء منه فكراهيته عليه السلام لذلك الوجه الخبيث لوجهين والله أعلم أحدهما كراهيته من أن يكون فالا فانها لفظه ثقيلة كما نهى عليه السلام أن يسمى أحد ابنه أو عبده خيرا خيفة أن يقول طالبه هنا خير ولا يكون حاضرا فقال ليس هنا خير والوجه الثانى كراهة أن يشهد المرء على نفسه بالفسق لأن الفاسق والكافر والفاجر نفس كل واحد منهم خبيثة فلما كانت تلك اللفظة تحتمل جملة معان قبيحة منع عليه السلام المؤمنين أن يعبروا بها عما يجدوا فى أنفسهم مما لا يرضوه من عجزها أو ما يشبهه وأبدل لهم لفظة حسنة وهى قوله لقست وهذا من نوع الفال الحسن ﴿ ويترتب على هذا من الفقه ﴾ أن يطالب المرء أنواع الخير حتى ولو بالفال الحسن ويضيف الخير الى نفسه ولو بنسبة ما وإن ضعفت طمعا فى فضل الكريم الجواد ويدفع عن نفسه السوء ويكرهه حتى التفاؤل به ولا يكون بينه وبين أهله وصلة ويقطعها القطع الكافى حتى فى الألفاظ المشتركة التى تقع معبرة عن حاله وحالهم يعدل عنها خيفة شؤمها أعاذنا الله من ذلك بمنه ومما يقوى ما أشرنا إليه ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أتاه أعرابى فقال له ما اسمك فقال جمرة فقال ابن من فقال ابن شهاب قال ممن قال من الحرقة قال أين مسكنك قال بحرة النار قال بأيها قال بذات لظى قال عمر أدرك أهلك فقد احترقوا فكان كما قال عمر رضى الله عنه

رواه مالك فى موطئه ﴿ وأما قولنا ﴾ هل النهى عن هـذه اللفظة لا غير عنها أو عن ما هو فى معناها فاذا قلنا بتعليل قوله فينبغى المنع منها وما فى معناها للعلة المذكورة لاسيما ما ذكرنا عن عمر رضى الله عنه آنفا وان قلنا تعبد فلا يتعدى الحكم إلى غيرها وليس بظاهر ويجب على القول بالتعليل أن يمنع ما اتخذه اليوم بعض الناس أنه إذا كان به شىء يقول نفسى ليس بطيبة وأما ليس بطيب يخرج نفسه من الطيبين فاذا أخرجها من الطيبين ألحقها بالخبيثين وكذلك كل ما كان من هـذا النوع المنع فيه هو الأولى ﴿ وفيه دليل ﴾ على كثرة شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته يؤخذ ذلك من نهيه عليه السلام عن هذا وما أشبهه ﴿ وفيه تنبيه ﴾ لأهل القلوب لأن من الألفاظ والحركات ما هى إشارة من الغيب لمن فهم ولولا ذلك ما كان ينهى هذا السيد صلوات الله عليه وسلامه عن هذا وأشباهه ومما يروى عن بعض أهل القلوب أنه خرج متوجها فى حاجة فقابله دكان صاحب الحاجة وهو قد نزل إلى حاجة له وجعل على دكانه عودين على شبه لام ألف فلما رآها الفقير رجع فقيل له فى ذلك فقال لهم أما تروا على دكانه العلامة على أنها ليست عنده فقالوا وما هى فقال لام ألف عبارة عن لا شىء هنا فلما كان بعد مجيئه سأله بعض أصحاب الفقير عما قال فقال صاحب الدكان صدق الفقير فان الحاجة لم تكن عندى ومن قول بعضهم ما يقوى هذا المعنى قوله « الاعتراض على الرموز جفا إن فهمت وإلا فلا تعترض على ما ليس لك به علم » ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن ينظر بنور الله » فمن نظر بالنور فهم موضع الاشارة ومن لم يكن له نور لم يلتفت إلى شىء وبقى مثل البهيمة فأما أن يجعـل الكل رموز فيخرج بذلك إلى باب عظيم من الفساد وأما أن يسد هذا الباب مرة واحدة فتفوته هـذه الرموز وتغطى عنه فهذا فى حقه أسلم له إذا سلم الأمر إلى أهله وهذا إنما هو لأهل الميراث والنور والتوفيق كما ذكرنا عن عمر رضى الله تعالى عنه فيما تقدم من الكتاب ومن رزقه الله من ذلك الميراث والنور والتوفيق نسبة ما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا قاسم والله يعطى » فوجوه الخير على يده عليه الصلاة والسلام تتابعت وقسم لمن قسم ما قدر له جعلنا الله ممن أجزل نصيبه من تلك الخيرات إنه ولى حميد

(٢٤٩) ﴿ حديث تحريم سب الدهر ﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللهُ تَعَالَى يَسُبُّ ابْنُ آدَمَ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِى اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

ظاهر الحديث يدل على المنع من سب الدهر لأنه يعود إلى سب خالقه ومصوره وهو الله سبحانه وتعالى والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن هذا صيغته صيغة الخبر ومعناه الزجر والمنع لأنه ممنوع أن يسب عبد مولاه أو مخلوق خالقه أو عابد معبوده فلما كان هذا ممنوعا عقلا وشرعا استغنى بالاخبار

عن النهى والمنع وشبههما ﴿ومنها﴾ هل سب الليل والنهار أعيانهما هو المنهى عنه أو سب ما يجرى فيهما من الحوادث والنوازل كانت على أيدى البشر أو بغير واسطة البشر وهل هذا المنع يتعدى إلى غيرهما من المخلوقات أولا وهل يمنع مايشبهه أو يقارب السب مثل الذم والشؤم وما فى معناهما أولا يمنع إلا السب لاغير وما الحكم فيمن فعل ذلك ﴿أما قولنا﴾ هل الممنوع سب أعيان الليل والنهار أو ما يجرى فيهما من الحوادث فهذا لايخفى على أن من سب الصنعة فقد سب صانعها ولا يكاد هذا يخفى على أحد حتى يأتى على ذلك هذا العتب وإنما الظاهر سب مايجرى فيهما من الحوادث وهذا هو الذى يقع فيه كثير من الناس وهو الذى يعطيه سياق الحديث لقوله ﴿بيدى الليل والنهار﴾ فنفى عنهما أن يكون لهما تأثير فيما يجرى فيهما من الأمور والحوادث والأمور والحوادث التى تجرى فيهما على نوعين بواسطة الحيوان العاقل المكلف فهذا يضاف شرعا ولغة إلى الذى أجرى على يده وإن كان فى التحقيق بقضاء الله تعالى وقدره لأن أفعال العباد كسبا لهم قد ترتبت عليها الأحكام بالثواب والعقاب بمقتضى الحكمة الالهية وهى فى الانشاء والاختراع خلق الله سبحانه لاخالق إلا هو سبحانه وتعالى علوا كبيرا وما جرى فيهما بغير واسطة أحد من خلقه فذلك منسوب إلى قدرة القادر ليس لليل والنهار فى ذلك فعل ولا تأثير لاعقلا ولالغة ولاشرعا وهو المعنى فى الحديث والله أعلم وكذلك أيضا كل ما كان صادرا عن الحيوان غير العاقل فهو مضاف إلى القدرة إذا لم يكن ذلك بتسبب العاقل المكلف ولذلك جعل الشارع عليه الصلاة والسلام جرحها جبارا أى ليس فيه أرش ولاقود ولادية وكذلك الحكم فى الجمادات كلما يكون منها ينسب إلى القدرة أيضا مثل حائط تقع على أحد أو جبل ينهد عليه أو ثمرة تضر به أو تسقط عليه أو مايغرق فيه أو مايشبه هذه كلها منسوبة إلى القدرة والسب لها سب لمصورها وظهرت بقدرته ﴿وفيه دليل﴾ على نفى الأفعال عن غير العاقل المكلف من جماد وحيوان غير عاقل فسبحان من أظهر قدرته أين شاء بلا حجاب عليها وحجبها حيث شاء برداء حكمته فجاءت الحكمة شاهدة للقدرة والقدرة شاهدة للحكمة (حكمة بالغة فما تغنى الندر) ﴿وأما قولنا﴾ هل يتعدى المنع إلى سب غيرهما فاعلم أن كل حكم كان منوطا بعلة فحيث وجدت العلة فالحكم ثابت لازم فلما علل سبحانه منع سب الدهر بأنه سب له عز وجل لكونه بيده تعالى عن الجارحة والتحديد وإنما اليد هنا كناية عن يد القدرة كقوله تعالى (خلقت بيدى) أى بقدرتى فحيث وجدنا هذه العلة منعنا ويكون ذكر الدهر هنا الذى هو الليل والنهار من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى لأن الليل والنهار من أعظم الآيات والمخلوقات الدالة على تحقيق الربوبية ولذلك أشار عز وجل فى كتابه العزيز إلى النظر فيهما بقوله (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) ويكون النظر فى ذلك على التقسيم المتقدم وهو هل تجرى تلك الأمور على يد مكلف أولا فان كانت على يد مكلف فيكون الانكار أو الزجر

أو البغض أو غير ذلك امتثالا للأمر لا غير بقدر ما جعل لك فى ذلك دون زيادة فيه فتكون متعديا ولا ينقص منه فتكون غير مرف لما به أمرت حكما عدلا وما فهم هذا المعنى إلا أهل التوفيق لأنهم يقولون كل ما فى الوجود حسن جميل إلا ماذمه الشرع ذممناه حكما وامتثالا وقد ذكر عن بعض الناس أنه رآه بعض إخوانه مكروبا فقال له فى ذلك فقال إنه دخل على فى معبدى هذا قوم مباركون من الأبدال مرارا فرغبت منهم فى بعضها عسام يحملونى معهم وكانوا يأتونى بخرق العادة من أرض بعيدة فحملونى معهم فوصلونى فى لحظة قريبة وكانوا فى غار فى جبل على البحر الكبير فلما كان إحدى الليالى جاءت ريح شديدة وظلام شديد وهول فى البحر شديد فخرجوا من الغار وخرجت معهم وأخذو فى التقديس والتسبيح والتعظيم لله سبحانه فحملنى الجهل بأن قلت هذا هول عظيم فالتفتوا إلى وقالوا تعترض على الله لا يصحبنا قليل الأدب ثم التفت الشيخ منهم وقال لبعضهم اجعله فى مكانه الذى أخذناه منه وأخذ بيدى شيأ يسيرا وإذا أنا فى موضعى ولم أره ولا واحدا منهم بعد ذلك فكيف لا أحزن على طردى ثم على قلة أدبى وا أسفا على جهلى وا أسفا على بعدى فلم يزل باكيا أو كما جرى هكذا تكون الحرمة عند المباركين احترموا فاحترمو واستحسنوا فاستحسنوا آثروه بالبر والاكبار فآثرهم على غيرهم بالترفيع والاعظام وعنده بالزلفى والاحسان ﴿وأما قولنا﴾ هل يمنع ما فى معنى السب أو ما يقرب منه مثل تعييب الأمور والكراهية أو ما يشبه ذلك فاعلم وفقنا الله وإياك أن ما قرب من الشيء يعطى حكمه وإن لم يكن فى الحقيقة مثله لأن ما هو فى معنى السب إما أن نقول هو مثله فيمنع وإما أن يكون أول درجة منه وأقل مايكون فيه قلة الأدب لأنك تذم شيئا لا تعرف مافيه من الحكمة والاتقان بغير دليل ولا اعتبار اللهم إلا إن كان ذلك كما تقدم بدليل شرعى فهو على ما تقدم الكلام عليه ولذلك لم يأت عن سيدنا صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الأنبياء عليهم السلام أن أحدا منهم عاب شيئا من خلق الله تعالى إلا ما أمر به من طريق الأمر فمن خالف سنن الرسل عليهم الصلاة والسلام ووقع فى شيء من خلق الله أقل درجاته أنه وقع فيما فيه قلة الأدب كيف يستحسن حاله أو تحسن منه حال ﴿وفى هذا الحديث دليل﴾ لأهل السنة رضى الله عنهم لأنهم يقولون إن العقل لا يحسن ولا يقبح وإنما التحسين والتقبيح للشرع لا غير ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكم على من فعل ذلك فهذه مسألة اجتهادية لأنه لم يجيء عن الشارع عليه السلام فى ذلك شيء فان قلنا إن حكمه حكم السب الصريح فالخلاف فيه معلوم وما أظنه يكون مثله إلا ممن يعلم ماجاء فى ذلك ثم يقصد الذم بعد العلم فكأنه ما أراد إلا الصريح منه فينبغى أدبه ولا يؤول الحكم فيه إلى القتل لأن السب الصريح الأظهر فيه من الخلاف الذى بين العلماء الأدب فكيف بهذا الذى هو دونه وإن صدر ذلك من جاهل يعنف بالقول الشديد ويبين له قدر ما وقع

فيه خلاف ويقال له إن عدت إلى مثل هذا أدبت الأدب الوجيع ويغلظ له في ذلك ولا يعذر في ثاني مرة إن وقعت منه ويؤدب والله الموفق للصواب ﴿وفيه دليل﴾ على أن مجموع الليل والنهار يسمى دهرا شرعا يؤخذ ذلك من ذكره الدهر ثم فسره بقوله (بيدى الليل والنهار) ﴿وفيه دليل﴾ لمذهب مالك رحمه الله في منعه الربا المعنوى يؤخذ ذلك من أنه لما كان سب الدهر يؤول إلى سب المولى سبحانه جعله سبا له فجعل مايعود بالمآل كالذى هو حاضر في الوقت ﴿وفيه دليل﴾ لأهل السنة الذين يقولون إن الصفة لاتفارق الموصوف يؤخذ ذلك من أنه لما كانت الأمور صادرة عن صفة قدرته عز وجل جعل ذلك صادرا عن ذاته الجليلة بقوله سبحانه بيدى الليل والنهار ﴿وفيه تنبيه﴾ لمن له همة أن لا يتكلم بما لا يعرف ما معناه وكذلك في الأفعال لا يفعل شيئا حتى يعلم هل ذلك مما ليس عليه فيه درك أم لا ومما يقوى ذلك وصية الخضر لموسى عليهما السلام حين افترقا وطلب موسى منه الوصية فقال له في جملة وصيته (يا موسى لا تفتح بابا لا تدرى ماغلقه ولا تغلق بابا لا تدرى مافتحه) فيا هذا إذا تأملت مثل هذه الأمور وأدلة الشرع وجدت الدين من شيئين ويدور على قاعدتين الامتثال والأدب فمن امتثل فقد وفى مابه أمر ومن تأدب فقد نجا مما عنه نهى وله كره وفقنا الله وإياك لذلك الامتثال والأدب بمنه

(٢٥٠) ﴿حديث الكرم قلب المؤمن﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَقُولُونَ الْكَرْمَ إِنَّمَا الْكَرْمُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ

ظاهر الحديث يدل على ان حقيقة تسمية الكرم إنما هي لقلب المؤمن وأنه في غيره مجاز والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن فيه دليلا لمن يقول أن اللغة اصطلاحية يؤخذ ذلك من أنهم كانوا عربا وكانوا يكنون عن ثمرة العنب بالكرمة فمنع صلى الله عليه وسلم من ذلك بقوله ﴿إنما الكرم قلب المؤمن﴾ وقد جاء من طريق آخر ولكن قولوا حديقة العنب ﴿وفيه بحث﴾ وهو لم خص قلب المؤمن بهذا الاسم فان قلنا تعبد فلا بحث وإن قلنا لحكمة فما هي فنقول والله أعلم لما كان اشتقاقه من الكرم والأرض الكريمة هي أحسن الأرض وهذه الصفة حيث ما وجدت فهي من أحسن الصفات فلا يليق إلا أن يعبر بها عن قلب المؤمن الذى هو خير الأشياء لأن المؤمن هو خير البرية على أحد الوجوه وخير مافى المؤمن قلبه لأنه قد قال ﷺ « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » وكيف لا يكون كذلك وهى أرض لنبات ثمرة الايمان التى قد قال مولانا سبحانه (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها) ﴿ويترتب عليه فيها من الفقه﴾ أن كل خير كان لفظا أو معنى أو مشتقا منه أو مسمى به إنما تكون إضافته الحقيقية إلى الايمان وأهله وهو فيما عدا ذلك مجاز وفى الكرمة أيضا شبه

من المؤمن لأنها لينة قريبة الجنى حلوة المذاق وتغنى عن الطعام لآكلها وتغنى عن الماء لمن استعملها ﴿وفيها تنبيه لطايف﴾ لأن أوصاف الشيطان تجرى معها كما يجرى الشيطان فى بنى آدم مجرى الدم فكما أن غفلة المؤمن عن شيطانه أوقعته فى المخالفة وألبسته ثوب البعد والحرمان كذلك إن غفل عن عصير الكرمة ظهرت تلك الأوصاف فيها وألبستها ثوب التخمير والتنجيس وهو الخمر المتفق عليه من جميع العلماء على تحريمه بلا خلاف ويقوى الشبه بينهما من أجل أن الخمر من ساعته يعود خلا فكساه ثوب التخليل فكذلك المؤمن من ساعته بالتوبة النصوح عادت له طهارته الأصلية ورياشته الجميلة وجبت توبته ما كان قبلها من البعد والحرمان وأذهبت الآثام والأثقال وكما أيضا تكون توبة المؤمن بمعالجة من وعظ أو تذكار أو تكون بفيض لا يتقدمه علاج فكذلك العصير إذا تخمر قد يكون تخلله بمعالجة وقد يكون دفعة من غير علاج فهل نظرت يامسكين إلى عصير كرم قلبك فتعالج تخميره لعله يعود خلا ولا تغفل عنـــه فيذهب بجميع عقلك فتلحق بالهالكين ﴿وفيه دليل﴾ على كثرة حياء سيدنا صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من قوله ويقولون ﴿بلفظه الغيبة﴾ ولم يقل لهم تقولون فانه يكون فيه الخجل لهم وكذلك كانت عادته المباركة إذا قيل له عن أحد شيء فانه كان لا يسميه باسمه ولا يقول له يافلان لم قلت كذا وكذا إلا أنه كان قوله (ومابال رجال) يقولون كذا أو يفعلون كذا ﴿ويترتب عليه من الفقه﴾ إن أهل الفضل أولى الناس بالأدب ومكارم الأخلاق وقد نص صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه مالك قال بعض الناس فان كنت ذا همة فتحمل بمكارم الأخلاق والشيم واملأ عطفيك تبختراً بهما فقد أصبت سنة خير الأمم

(٢٥١) ﴿حديث إباحة التسمي وتحريم الكذب عليه ﷺ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلَا تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي وَمَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ عَلَى صُورَتِي وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام أحدها إباحته صلى الله عليه وسلم التسمية باسمه والمنع من أن يكنى بكنيته والثانى اخباره صلى الله عليه وسلم بأنه من رآه فى النوم فقد رآه حقا فان الشيطان لا يتمثل فى صورته والثالث من كذب عليه صلى الله عليه وسلم متعمدا فليتبوأ مقعده من النار والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ هل قوله صلى الله عليه وسلم ﴿تسموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي﴾ هل ذلك تعبد أو لعلة اصطلاحا

العلماء فى ذلك فمنهم من حمل الحديث على ظاهره مطلقا ومنع أن يكنى بكنيته أصلا ومنهم من علل وقال إنما أراد أن لا يجمع فى شخص واحد بين اسمه صلى الله عليه وسلم وكنيته وهذا خروج عن ظاهر الحديث ومنهم من علل وقال إن علة ذلك أنه كان صلى الله عليه وسلم ماشيا وشخص ينادى خلفه يا أبا القاسم فالتفت إليه صلى الله عليه وسلم فقال له الشخص لم أعنك وإنما عنيت هذا وأشار إلى شخص غيره فقال هو صلى الله عليه وسلم إذ ذاك ﴿سموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى﴾ أو كما ورد ﴿فاذا قلنا﴾ أن هذا كان سببا لمنعه عليه السلام أن يكنى بكنيته فهل يقصر ذلك النهى على العلة فيرتفع بارتفاعها وهى نقلته صلى الله عليه وسلم أو يبقى النهى على عمومه وإن ذهبت العلة موضع خلاف ويحتمل عندى علة أخرى والله أعلم وهى أن العرب كانت كناهم بأسمائهم وكانت من أسماء نبيه صلى الله عليه وسلم فلعله عند ذكر الشخص أبا القاسم تحركت عنده من ابنه شىء كان يشغله عما كان بسبيله فمنع صلى الله عليه وسلم من ذلك كما فعل بعلم الثوب فى الصلاة حين نظر اليه فلما فرغ من صلاته قال (ردوه إلى أبى جهم فانى نظرت إلى علمة فى الصلاة فكاد يفتننى) ﴿ويترتب على هذا الوجه من الفقه﴾ قطع كلما يتوقع منه شىء من التشويش والمحافظة على خلو القلب بالاشتغال بما هو إليه مندوب وما هو عليه واجب ﴿وإن قلنا﴾ أن علة المنع ما ذكرنا أولا من كونه صلى الله عليه وسلم التفت إلى الذى نادى يا أبا القاسم فقال لم أعنك فيكون نهيه عليه الصلاة والسلام عن ذلك فى حق أمته لأنه من أعرض هو ﷺ عنه فان الله يعرض عنه لأن الله عز وجل يقول (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وكذلك من أعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أعرض الله عنه فيكون هذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام حين لقيه بعض الصحابة ليلا ومعه عليه الصلاة والسلام إحدى أزواجه (١) فقال له إنها فلانة وعلل ذلك عليه الصلاة والسلام بان قال « خفت أن ينزع الشيطان فى قلبك شيئا » او كما ورد فكان ذلك لرفقه صلى الله عليه وسلم بأمته فحيث ما يخاف عليهم شيئا ما يتوقعه يحذرهم عنه وحيث علم لهم شيئا من الخير أرشدهم إليه فجزاه الله عنا أفضل ما جزى نبيا عن أمته وحشرنا فى زمرته غير خزايا ولا ندامى بفضله فانه ولى حميد ﴿وأما إباحته﴾ صلى الله عليه وسلم لهم التسمية باسمه عليه الصلاة والسلام فذلك لما جاء فيه من الخير لأنه قد جاء أن من اسمه محمد لا يخلو عن خير وقد ذكر أنه إذا نودى يوم القيامة باسمه يا محمد فمن سمعه ورفع له رأسه أفلح وسعد وجاءت فيه عما يشبه هذا آثار كثيرة وقد رأيت بعض المباركين وكان عنده شىء من لسان العلم وكان له جملة أولاد وكلهم سماهم محمدا وما فرق بينهم إلا بالكنى لما سمع من الخير الذى جاء فى هذا الاسم المبارك ولمن سمى به ابنه ولذلك ما رأيته وإياهم إلا فى خير عظيم وكان فقيرا وكانت له عائلة كثيرة من غير أن يقصد أحدا أو يخرج عما كان به مشتغلا عما كان يعنيه من دينه والأولى فى هذه الوجوه حمله على ظاهره فانه أبرأ للذمة وأعظم

---

(١) هى صفية بنت حى رضى الله تعالى عنها كما رواه المصنف فى أبواب الاعتكاف

للحرمة والله المرشد للصواب وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿من رآني في المنام فقد رآني حقا فان الشيطان لا يتمثل على صورتي﴾ فقد اختلف العلماء في هذا فمنهم من قال إن الصورة التي لا يتمثل الشيطان عليها هي الصفة التي توفي صلى الله عليه وسلم عليها حتى قالوا وتكون في لحيته عدة تلك الشعرات البيض التي كانت فيها وقال بعضهم وحتى تكون رؤياه له في دار الخيزران وهذا تحكم على عموم الحديث وتضييق للرحمة الواسعة ومنهم من قال إن الشيطان لا يتصور على صورته عليه الصلاة والسلام أصلا جملة كافية فمن رآه في صورة حسنة فذلك حسن في دين الرائي ومن رآه على صورة غير حسنة فرؤياه صلى الله عليه وسلم حق وذلك القبح في دين الرائي وإن كان في جارحة من جوارحه شيء فتلك الجارحة من الرائي فيها خلل من جهة الدين وهذا هو الحق وقد جرب هذا فوجد على هذا الأسلوب سواء بسواء لم ينكسر وبهذا تحصل الفائدة الكبرى في رؤياه عليه الصلاة والسلام حتى يتبين للرائي هل عنده خلل في دينه أو لأنه صلى الله عليه وسلم نوري فهو مثل المرآة الصقيلة ما كان في الناظر إليها من حسن أو غيره تصور فيها وهي في ذاتها على أحسن حال لا نقص فيها ولا شين وكذلك ذكروا في كلامه عليه الصلاة والسلام في النوم أنه يعرض على سنته عليه الصلاة والسلام فما وافقها فما سمعه الرائي فهو حق وما خالفها فالخلل في سمع الرائي فانه صلى الله عليه وسلم (ما ينطق عن الهوى * ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فتكون رؤيا الذات المباركة حقا ويكون الخلل قد وقع في سمع الرائي وهو الحق الذي لا شك فيه ﴿تنبيـــه﴾ وهل تحمل الخواطر التي تخطر لأرباب القلوب بتمثيله صلى الله عليه وسلم في بعض المخاطبات التي يخاطبون على لسانه عليه الصلاة والسلام وتشكل صورته المباركة في عالم أسرارهم في بعض الحضرات والمحادثات التي من عادة طريقهم المباركة على أنها مثل رؤيا المنام فتكون حقا أم لا فاعلم وفقنا الله وإياك أن خواطر أرباب القلوب حق بحسب مادلت عليه الأدلة الشرعية وأنها أصدق من مرائي غيرهم لما من عليهم من تنويرها وبركتها دون إشارة من قبله صلى الله عليه وسلم رؤياه صلى الله عليه وسلم من مبارك وغيره حق فكيف بهما إذا اجتمعا فذلك تأكيد في صدقها وقد بينا الدليل على تصديق خواطر الرجال من الكتاب والسنة في غيرما موضع من الكتاب فاذا اجتمع ماذكرنا من تشكل صورته المباركة أو كلامه المبارك لأولئك المباركين وقد اجتمع على تصديق ذلك أدلة الكتاب والسنة وكفى في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «إن الشيطان لا يتمثل بصورتي» لأنه لفظ عام ولأجل حمل العام على عمومه وما نفاه عليه الصلاة والسلام من طريق الباطل الذي هو طريق الشيطان وتخيلاته لم يبق إلا أن يكون حقا قطعا لكن بالشرط المتقدم وهو أن تعرض على كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام فما وافق أمضي وإلا فلا وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿فليتبوأ مقعده من النار﴾ أي فلينزل

مقعده من النار لأن التبوء هو النزول لقوله عزوجل (وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت) أى جعلناه له منزلا ﴿وهنا بحث﴾ وهو أنه قد علم بأدلة الشرع أن الكذب من الكبائر وقد جاء فيه من الوعيد العظيم ما تقدم ذكره فى الأحاديث قبل فهل لاخباره صلى الله عليه وسلم هنا عن الكذب علة خصوصا بهذه الصيغة زيادة فائدة أو إنما أخبر أن الكذب عليه صلى الله عليه وسلم من جملة الكذب المحرم الذى لا يمكن فيه التأويل ولا يقبل التعليل ولا التوجيه لما تقدم الكلام على الكذب فى الأحاديث قبل ووجهنا ما قال فيه العلماء فاذا هو على خمسة وجوه كما هو مذكور هناك فيكون الكذب عليه صلى الله عليه وسلم من أحد الأقسام الخمسة وهذا القسم الذى هو منها محرم بالنص والاجماع ولا يدخل فيه ذلك التقسيم بالجملة الكافية وأن صاحبه يعذب العذاب الأليم واحتمل أن يكون بمنزلة هذا النوع المذكور وزيادة ﴿فائدة أخرى﴾ وهى أن الذى يكذب عليه صلى الله عليه وسلم متعمدا لابد له من دخول النار بخلاف غيره من الكذابين فقد يأتى الله بمن يشفع فيه وقد يتوب أوقد يتداركه الله تعالى بنوع من أنواع الرحمة يؤخذ ذلك من قوة قوله عليه الصلاة والسلام فليتبوأ فكأنه عليه الصلاة والسلام يقول فليقعد مقعده من النار فلا محيص له منها وبهذا تظهر الفائدة فى الفرق بين الكذب عليه صلى الله عليه وسلم من الكذب على غيره والله أعلم ومن جهة التعليل يقوى هذا التوجيه لأن الكذب عليه صلى الله عليه وسلم يقع به الخلل فى الدين وتغيير الأحكام وهذا كفر عند بعضهم وإن لم يستحله ومن كفر فلا محيص له من النار بخلاف غيره من الكبائر والآثام فان صاحبها فى المشيئة ﴿وبقى بحث﴾ فى توبته هل تصح أم لا فهى والله أعلم على ضربين لا يخلو أما كذب به عليه صلى الله عليه وسلم أن يكون قد ترتبت عليه أحكام أو لا فان كان ترتبت عليه احكام فهل يمكنه ردها وقطع تلك المادة بالجملة الكافية أو لا يمكنه ذلك فان لم يترتب عليه أحكام وترتبت عليه وقدر على قطع تلك المادة الفاسدة بالجملة الكافية وفعل ذلك وصدق مع الله تعالى فى توبته رجيت له لعموم قوله صلى الله عليه وسلم « التوبة تجب ما قبلها » وإن كان لا يمكنه تلافى ذلك خيف عليه من عدم القبول لنقص شروط التوبة فان من شروطها رد المظالم لأن أولئك المساكين الذين بلغت لهم تلك الاحكام الفاسدة وعملوا عليها فقد ظلمهم ظلما كثيرا وقد جاء أن مولانا سبحانه يقول يوم القيامة لصاحب البدعة (هب أغفر لك فيما بينى وبينك فالذين أضللت كيف أفعل بهم) أو كما ورد معناه أى لا أترك لك حقوقهم وآخذك بها فاذا كان هـــذا لصاحب البدعة فكيف بمن كذب عليه صلى الله عليه وسلم وغير بذلك أحكام شريعته من باب أحرى وأولى ومن هذا الباب وصية بعض أهل التحقيق « إتضع لا ترتفع إتبع ولا تبتدع من تورع لم تسع » ومما يشبهه وصية الآخر بقوله « عليك بالسنة والسنن تفز بالأجر وغنيمة الدارين » من الله علينا بذلك بمنه آمين

(٢٥٢) ﴿ حديث النهى عن التسمى بملك الملوك ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْنَعُ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ

ظاهر الحديث يدل على أن أخس الاسماء وأرذلها عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ هل هذا التحقير الاسم يلحق منه للذى يسمى به شىء خلاف هذا أم لا ومنها هل هذا لعلة أو لغير علة فان كان لعلة فهل نطرد الحكم حيث وجدنا العلة أو لا وما الحكمة فى قوله «يوم القيامة» ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يلحق للمسمى بهذا الاسم زيادة على تحقير الاسم أو لا نقول إنما جعل ترفيع الأسماء يوم القيامة للدلالة على ترفيع أهلها ومالهم فى ذلك اليوم من الخير والسرور وكذلك ضده دال على ضده لأن ذلك يوم حق ليس فيه مجاز ولا تلبيس ﴿ وأما قولنا ﴾ هل ذلك لعلة أو لا فان قلنا تعبد فلا بحث وإن قلنا لعلة فما هي فنقول والله أعلم لتشبهه باسم من (ليس كمثله شىء) لأن هذا الاسم لا يكون حقيقة إلا لله سبحانه وتعالى فان كانت العلة ما ذكرنا فيجوز تعدى الحكم مثل أن يتسمى بسلطان السلاطين وكذلك قاضى القضاة وإن كانت العلة بهذا الاسم أعنى قاضى القضاة وقد تقدمت بسنين لا سيما فى جهة المشرق وقد ذكر عن الثورى من أهل التحقيق أنه جاء يزوره من كان يتسمى بهذا الاسم فى زمانه فلما دخل عليه قال له بعض من جاء معه هذا قاضى القضاة وكان معهم قاعدا منبسطا فلما سمع كلامه قام دهشانا مسرعا وهو يقول هذا قاضى القضاة فهذا يوم الفصل والقضا فأين الميزان فأين الصراط وجعل يعدد من أحوال يوم القيامة ماشاء الله تعالى فحصل من كلامه فى النفوس حال عجيب وقد حدثنى بعض من لقيته من السادة أن دولة الموحدين وكانت دار مملكتهم فى غرب العدوة مراكش أن القاضى الذى كان يتولى بها كان يدعى بقاضى الجماعة لأن الفقهاء إذ ذاك كانوا هنالك متوافرين وكان الغالب عليهم الدين فلم يأخذوا من الأسماء وجميع الأشياء إلا الذى ليس فيه شىء من المكروه ولا يحتاجون فيه إلى شىء من التأويل وهذه طريقة السلف رضى الله عنهم ولم يسمع هذا الاسم فى السلف الصالح أيضا فنعوذ بالله من قلة الاهتمام بأمور الدين والتهاون به ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى قوله يوم القيامة لأنه يوم تظهر فيه الأمور على ما هى عليه حقيقة ليس فيها زغل ولا عناد ولا تجاوز ولا مجاز إلا حقائق ظاهرة وهذه الدار فيها التلوينات والاختلاطات وقد يكون ظاهر الأمر يوافق باطنه والضد وفى تلك الأعمال على إبراز الضمائر وتحقيق الحقائق (هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت) ﴿ وفيه تنبيه ﴾ على أن الأدب فى الدين مطلوب جدا يؤخذ ذلك من كونه لما تسمى هذا المسكين بهذا الاسم وهو محتمل إن أراد ملك ملوك الأرض

وكان ذلك ملكا له واحتمل أن يسم به اختيارا مثل مايتسمى بعض نساء العرب وغيرهن فى الوقت وقبل هذا الوقت سنة العرب والناس أجمعين يعلمون أن ذلك ليس بحقيقة وكما يسمى بعض الناس بسيد الناس وهذا مقطوع أيضا أنه ليس كذلك وهذا الاسم أيضا يدخله المنع بالتعليل المتقدم وما هو فى معناه لأن العلة فيه موجودة لكن غفلات توالت وعوائد سوء اتخذت راح الأمر عليها على ما قدر له بما قدر واحتمل أن يكون يسمى بذلك تمردا وتجبرا لكن ليس فى الحديث ما يدل على واحد من هذه خصوصا فالكل محتمل والمحتمل ينبغى أن يبقى كل محتملاته لا سيما فى مواضع الخوف لكن صيغة اللفظ فى الحديث العموم لأنه قال ﴿ تسمى ﴾ فيكون معناه تسمى بهذا الاسم على أى وجه وقع هذا الاسم فصاحبه بتلك الحالة الذميمة والمخزاة العظيمة فبهذا يزداد الحض على طلب الأدب فى الدين ﴿ وفيه إرشاد ﴾ إلى علم السنة وإيثاره على غيره لأن هذا وأمثاله وهى مواضع عديدة وقد نبهنا عليها فى مواضع من الكتاب لا تعلم إلا من طريق علم السنة والاهتمام به وقد غفل عن ذلك كثير من الناس وأوقعهم ذلك فى المهالك وهم لا يعلمون ويكون حالهم كما أخبر تعالى فى كتابه (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) فمنهم من جهله جملة واحدة ومنهم من اشتغل به وكان علمه به لأثرة غيره عليه ويجعل ذلك نيلا وكيسا وهو غى وحرمان أعاذنا الله من ذلك بمنه ولذلك كانت وصية من لقيته من أهل التوفيق بالعلم والسنة أن يقول الرجل يكون محاسبا مراقبا فكنت أقول ما معنى قولكم محاسبا مراقبا فكان جوابه على ذلك أن يكون محاسبا يحاسب نفسه فى هذه الدار لقوله صلى الله عليه وسلم « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » فان رأى على نفسه دركا أخذ فى خلاصها ومراقبا يجعل قلبه أمام رأيه فان خطر له قول أو فعل نظره بلسان العلم فان كان جائزا فعل أو قال وإن كان ممنوعا أو مكروها أمسك لأن ترك الذنب أولى من طلب المغفرة وإلا كان كتاجر ينفق ولا يعلم فيصبح وقد أفلس وإن لم يعرف ذلك الذى خطر له من أى الوجوه هو توقف حتى يسأل أهل العلم الذين هم على السنة واتباع السنن فان المؤمن وقاف جعلنا الله من المؤمنين حقا الملطوف بهم بمنه لارب سواه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(٢٥٣) ﴿ حديث من السنة تشميت العاطس بعد حمده ﴾

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ عَطَسَ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَمَّتَ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الْآخَرَ فَقَالَ الرَّجُلُ يَارَسُولَ اللهِ شَمَّتَّ هَذَا وَلَمْ تُشَمِّتْنِى قَالَ إِنَّ هَذَا حَمِدَ اللهَ وَأَنْتَ لَمْ تَحْمَدْهُ

ظاهر الحديث يدل على أن السنة أنه لايشمت العاطس حتى يحمد الله تعالى ومن عطس ولم يحمد الله تعالى فلا يشمت والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل التشميت للعاطس واجب أو مندوب ومنها كيف صفة التشميت وما معناه ومنها هل هذا مطلق فى كل مرة وإن تكرر هذا من العاطس مرارا أو له حد محدود ومنها هل هذا لكل عاطس كان مؤمنا أو كافرا أو هذا خاص بالمؤمنين ﴿ أما قولنا ﴾ هل هو على الوجوب أو الندب فقد اختلف العلماء فى ذلك على ثلاثة أقوال فمنهم من يقول إنه فرض على كل من سمعه وهم أهل الظاهر ومن علمائنا من وافقهم على ذلك ومنهم من قال هو ندب وإرشاد ومنهم من قال هو واجب على الكفاية كرد السلام وهم جمهور أهل السنة ﴿ وأما قولنا ﴾ كيف صفة التشميت فقد جاءت صفته نقلا عن النبي صلى الله عليه وسلم لأنه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله وإذا قال الحمد لله فليقل له يرحمك الله ويرد عليه يغفر الله لنا ولكم» أو كما قال عليه الصلاة والسلام وفى رواية يرد عليه (بقوله) يهديكم الله ويصلح بالكم ومنهم من قال هو بالخيار لأن اللفظين قد رويا عن النبي صلى الله عليه وسلم فبأيهما رد فقد وافق السنة ومنهم من استحب أن يجمع بينهما حتى يكون أجمع للخير وخروجا عن الخلاف وهو الأحسن والله أعلم وقد جاء بدل التشميت بالسين المهملة ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى التشميت فهو بمعنى أبعد الله عنك الشماتة وجنبك ما يشمت به عليك وأما معنى التسميت فهو بمعنى جعلك الله على سمت حسن هذا قول أئمتنا ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا مطلق فى كل مرة وإن تكرر العطاس من العاطس فى الوقت مرارا فالذى عليه الجمهور أن الحد فيه إلى الثالثة أو الرابعة لأنه جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا عطس فشمتوه ثم إن عطس فشمتوه ثم إن عطس فشمتوه ثم إن عطس فقولوا له عافاك الله فانه مضنوك» أو كما قال عليه الصلاة والسلام قال راوى الحديث لا أدرى بعد الثالثة أو بعد الرابعة قال فانه مضنوك » فمن أجل الشك الذى روى عن راوى الحديث وقع الخلاف ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا أمر عام كان العاطس مؤمنا أو كافرا أو هو للمؤمن لا غير لا أعرف خلافا ان التشميت عام للمؤمن والكافر غير أن فى الكيفية فى ذلك وقعت التفرقة بين المؤمن والكافر لأن الكيفية فى تشميت المؤمن كما تقدم الكلام عليها وأما الكافر فان يقال له (يهديكم الله ويصلح بالكم) وهذه الصفة التى رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم فى تشميته أهل الكتاب لأن اليهود كانوا يستعملون العطاس بين يديه صلى الله عليه وسلم رجاء فى دعائه وتشميته (يهديكم الله ويصلح بالكم) وبقى الخلاف بين العلماء إذا عطس العاطس فحمد الله فسمعه بعض الحاضرين ولم يسمعه الغير هل يجب على من لم يسمعه حين حمد الله وقد سمع الذى شمته هل يشمته هو تابعا لذلك أم لا قولان ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز طلب المفضول من الفاضل علة الحكم وبيانها يؤخذ ذلك من قوله « يا رسول الله شمت هذا ولم تشمتنى » ﴿ وفيه بحث ﴾ وهو ما الحكمة بأن جعل فى العطاس هذه الأحكام المذكورة فان قلنا تعبد فلا بحث وإن قلنا لحكمة

فما هى فاعلم أنه لم يختلف أحد ممن له معرفة بطب الأبدان وأدوائها أن العطاس فيه منفعة للعاطس وأنه إذهاب داء قد يكون فى رأسه فعلى هذا هو من جملة النعم وقد تقرر فى قواعد الشرع أنه مما استعبدنا به الشكر على النعم وأعلا الشكر هو الحمد فأمرنا بذلك فأنتجت بالعود الجميل مزيد النعماء وهو الدعاء بالخير أثر الحمد لأن الله عز وجل يقول فى كتابه (لئن شكرتم لأزيدنكم) فتأكدت النعمة بمزيد الدعاء له من السامعين لعطسه ثم تأكدت الرحمة بالدعاء من العاطس لأخيه الذى شمته ولنفسه إن شاء الله ﴿وفيه تنبيه﴾ يدل على لطف المولى سبحانه بعبيده وهو أن جعل المزيد هنا بعد الحمد واجبا مشروعا ولم يترك ذلك لاختيار أحد من عباده ولا غ ثباعنا حتى لا نعلم هل قبل منا فنزيد لنا ولا ماهى الزيادة أيضا حتى يحصل العلم بها ولا ماهو قدر الزيادة ولا ماهو جنسها فشرعت لنا تلك الألفاظ الدالة على الخير العميم لمن فهم معانيها وتدبرها لأنه إذا قلنا إن التشميت واجب كما تقدم وهو الذى عليه الجمهور فاذا فعل المكلف الواجب الذى عليه بشروطه رجى له القبول فهذا قد دعى للعاطس بالخير امتثالا لما به أمر فهذا دعاء مرجو قبوله فلما كان الأمر على هذا الخير العظيم أمر العاطس أن يدعو للذى أجرى له على يديه مزيد الخير لدعائه له بالخير وأن يدعو هو أيضا له بالخير حتى تكون رحمته عز وجل عامة بعباده إذ ذاك وكان الرجاء فى قبول الدعاء الثانى مثل الأول سواء ويترتب على هذا من الارشاد أنه إذا شعر أحد من العبيد موطنا يكون فيه خيرا أو رجاء من وجه أن يكثر فيه بالدعاء لنفسه ولوالديه وأقاربه وأصحابه وإخوانه المؤمنين فان لله نفحات إذا وجدت سعد بها عالم كبير جعلنا الله ممن تعرض لها وأصابها وممن أجزل له نصيبه منها بتعرض وبغيره فانه ولى حميد ﴿وفيه دليل﴾ على عظيم النعمة على العاطس يؤخذ ذلك مما ترتب عليه من هذه الأحكام والخير فصارت علما على ذلك ﴿وفيه إشارة﴾ إلى عظيم فضل الله تعالى ورحمته لأنه عز وجل رحم عبده بأن أذهب عنه ذلك الضرر الذى كان به بنعمة العاطس ثم ثناها بمشروعية الحمد له ثم أتبعها بدعاء خير بعد دعاء خير وهذا كله فى لحة واحدة نعم متواليات فى أيسر زمان بلا موجب عليه إلا بمجرد الفضل بدءا منه ورحمته سبحانه وكذلك الخير المذكور تمامه منه ﴿تنبيه﴾ فى أحكام الحديث وفيما أشرنا إليه من التنبيهات وغير ذلك إذا نظرتها بقلب له بصيرة حصل لك به من قوة الايمان ما لا يحصل بعبادة أيام عديدة ودخل داخل قلبك ولحمك ودمك من حب الله تعالى الذى قد أعد لك من هذا الخير العظيم مالم يكن لك فى ظن ولا علم ومن حب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان معرفة هذا الخير على يديه مالا يقدر قدره وكذلك الحب فى علم الله بمنته عليه الصلاة والسلام وزيادة ذرة من هذا خير من قناطير مقنطرة من الأعمال المقبولة بلا خلاف فى ذلك بين أحد من علماء أهل التوفيق ولاتباع السنة والسنن أعاد الله علينا من بركاتهم وجعلنا لأنعمه من الشاكرين بمنه

(٢٥٤) ﴿ حديث التشهد المشروع فى الصلاة ﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْنَا السَّلَامُ عَلَى اللهِ قَبْلَ عِبَادِهِ السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ السَّلَامُ عَلَى مِيكَائِيلَ السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ فَإِذَا جَلَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَقُلْ التَّحِيَّاتُ للهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ ذَلِكَ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ثُمَّ يَتَخَيَّرُ بَعْدُ مِنَ الْكَلَامِ مَا شَاءَ

ظاهر الحديث يدل على أن هذا التشهد المذكور فى الحديث هو المشروع فى الصلاة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ هل تجزىء خلاف هذه الصيغة أم لا ومنها هل هو سنة أو فرض ومنها الكلام على معانى تلك الألفاظ ﴿ فأما قولنا ﴾ هل يجزىء خلاف هذه الصيغة فاعلم أنه لا يجزىء إلا ما جاء فيها من اختلاف بعض ألفاظها فى بعض الروايات فمنها ماجاء من طريق عائشة رضى الله عنها وهو قولها « التحيات الطيبات الصلوات الزاكيات لله أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين شهدت أن لا إله إلا الله شهدت أن محمدا رسول الله » ومنها ماجاء من تشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى علمه الناس على المنبر والصحابة رضى الله عنهم متوافرون وهو « التحيات لله الزاكيات لله الطيبات الصلوات لله السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » ومنها ماجاء من تشهد ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما والمعنى فى الكل واحد غير أن فى بعض الألفاظ اختلافا وكلها فى الصحيح وبأيها تشهد أجزأ بلا خلاف أعرفه بين أحد من العلماء خلف عن سلف ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هو سنة أو فرض فالجمهور على أنه سنة إلا ماروى عن الشافعى أن الصلاة على النبي ﷺ فيه فرض وأما الكلام على معانى الألفاظ فقوله ﴿ التحيات لله ﴾ جمع تحية والتحية هى السلام فالسلام كله على اختلاف أنواعه وصيغه هو لله تعالى أى مضاف إليه لأن من أسمائه سبحانه السلام فكل ما كان مشتقا من هذا الاسم فهو له ومضاف إليه وقوله ﴿ والصلوات ﴾ هى جمع صلاة وفى اللغة معناها الدعاء والدعاء منه تتابع الرحمة والرحمة منه كدعائه صلى الله عليه وسلم لأن أبا أوفى حين أتاه ابنه بصدقته فقال « اللهم صل على آل أبى أوفى وارحمهم » وعطفها على التحيات فاستغنى

بذلك عن إعادة ذكر الله تعالى والصلاة من الله سبحانه وتعالى رحمة لعباده ومن أسمائه عز وجل الرحمن فكل ما كان مشتقا من هذا الاسم فهو له ومضاف إليه وقوله ﴿ والطيبات ﴾ جمع طيب والطيب كله على اختلاف وصفه له عز وجل ومضاف إليه سبحانه وعطفه على التحيات لله فاستغنى بذلك عن إعادة ذكر الله تعالى وهو من فصيح الكلام وقوله ﴿ السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ﴾ السلام معناه الأمان وبركاته وخيراته وأمره عليه السلام بالدعاء له هنا هو في حقهم لأن من أكبر القرب إلى الله سبحانه الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم والدعاء له وإن كان هو عليه الصلاة والسلام لما أعطاه الله وفضله غير محتاج إلى دعائنا لكن ذلك رحمة في حقنا ألا ترى إلى ما جاء من الخير إلى من قال في دعائه (١) آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد » وهذا أمر قد من الله به عليه حتما لا تبديل فيه فالفائدة في ذلك للذي يدعو به حتى تكون بركته صلى الله عليه وسلم تعود على أمته في كل الأحوال وقوله ﴿ السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإنه إذا قال ذلك أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض ﴾ السلام معناه الأمان كما تقدم فكأنه يقول ويدعو بالأمان لنفسه ولكل عبد صالح في السماء والأرض ومن جعل له الأمان من الله فقد حصل له جميع الخير من الله علينا بذلك بمنه ﴿ وفيه تنبيه ﴾ منه صلى الله عليه وسلم لنا على اتباع طريق الصالحين لأنه إذا كنت منهم فجميع المصلين في كل صلاة يدعون لك بالأمان والخير فذلك خير من أضعاف أضعاف عملك بما لا يعلم قدره إلا الذي من به عليهم ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الملائكة والصالحين من المؤمنين لا يفضل أحدهما الآخر لأن العلماء اختلفوا فيمن أفضل أهل الملائكة أو الصالحين من بني آدم على قولين والنص منه صلى الله عليه وسلم هنا يعطي أن لا تفضيل بينهما لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا كما ذكر أول الحديث يسلمون على الله قبل عباده ثم على جبريل وميكائيل ثم على فلان فقال هو صلى الله عليه وسلم عند ما علمهم كيفية التشهد إذا قال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فقد وافق كل عبد صالح في السماء والأرض فجمع فيه بين الملائكة لأنهم سكان السماء وبين في آدم الصالحين بلا تقديم ولا تفضيل وقوله ﴿ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﴾ ختمه بأرفع الكلام وعماد الدين وهي كلمة الاخلاص وتصديق رسالته صلى الله عليه وسلم ثم أباح لنا الزيادة على ذلك مما هو يناسبه لأن ذلك معروف عند العرب يؤخذ ذلك من قوله ﴿ ثم يتخير بعد من الكلام ماشاء ﴾ نحو ما أشرنا إليه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن أول ما فرضت الصلاة لم يكن التشهد من مشروعيتها لا فرضا ولا سنة يؤخذ ذلك من قول عبد الله ﴿ كنا إذا صلينا مع النبي صلى الله عليه وسلم نقول السلام على الله قبل عباده ﴾ فدل على أنهم بقوا على ذلك زمانا حتى إلى اليوم الذي سمع النبي صلى الله عليه وسلم فنهاهم عن ذلك وأمرهم بما ذكر بعد وبقي ﴿ هنا بحث ﴾ وهو

(١) وأوله (من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته . إنك لا تخلف الميعاد حلت له شفاعتي يوم القيامة) رواه البخاري وأصحاب السنن والبيهقي واللفظ له .

أن يقال لم نهاهم أن يقولوا ﴿ السلام على الله قبل عباده ﴾ ثم أمرهم أن يقولوا التحيات وهى جمع تحية والتحية هى السلام كما تقدم والانفصال عنه ان السلام هو الامان فلما قالوا هم السلام على الله فليس على الله خوف من أحد ولا يقدر أحد على ضره ولا نفعه كما جاء فى حديث مسلم وغيره «إن يريد واضرى لم يقدروا» وكذلك نفعه سبحانه فنهاهم عن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى منه يطلب الامان وهو الذى يؤمنا وهو الذى يخوف ومنه الخوف وفيه الرجاء فأمرهم عليه السلام أن يأتوا الأمر على بابه ويطلبوا الأمان منه عز وجل ويعرفون له سبحانه بأنه هو السلام وهو الذى يعطى السلام وإليه يضاف حقيقة وإن كان يضاف إلى غيره فى بعض الأماكن فهو مجاز أو لوجه ما من طريق ما اقتضته الحكمة الربانية فجزاه الله عنا من معلم خيرا ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن ماكان من زيادة ذكر أو دعاء فى الصلاة لا يفسدها يؤخذ ذلك من أن النبي ﷺ يأمرهم باعادة الصلاة التى تقدمت لهم وهم كانوا يذكرون فيها مانهاهم منه كما هو فى نص الحديث ﴿ وفيه دليل على أنه إذا كان القلب متعلقا بفعل خير والمرء فى الصلاة أن ذلك لا يفسد صلاته إذا لم يكن يتولى على القلب حتى يخل ببعض أركانها يؤخذ ذلك من أنه لما سمع سيدنا صلى الله عليه وسلم مقالتهم وهو فى الصلاة بقى خاطره المكرم متعلقا بمقالتهم لأنه عليه السلام عندما سلم من الصلاة كلمهم كما هو نص الحديث فدل على أن ذلك بقى مستصحبا إلى فراغه عليه السلام من الصلاة فكلمهم فيه فان استولى على القلب المشتغل بتلك الطاعة حتى أخل بركن من أركان الصلاة أعاد الصلاة كما فعل عمر رضى الله عنه حين صلى صلاة الصبح بالصحابة رضوان الله عليهم فلم يقرأ فيها فلما فرغ منها قيل له فى ذلك فقال إنى جهزت جيشا إلى الشام وأنا فى الصلاة وأنزلتهم منازلهم ثم أعاد الصلاة ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن أفضل الأعمال تعليم دين الله تعالى يؤخذ ذلك من كونه صلى الله عليه وسلم لم يفعل أثر الصلاة إلا أن أخذ فى تعليمهم ولم يشتغل بتسبيح ولا غيره فدل ذلك على فضيلته وقد جاء أنه «من صلى الفريضة وقعد يعلم الخير نودى فى ملكوت السموات عظيما» ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن لسيدنا صلى الله عليه وسلم أن يشرع من الاحكام مايظهر له دون وحى ويلزمنا امتثاله يؤخذ ذلك من أنه عليه السلام لما علمهم التشهد لم يذكر أن ذلك كان بوحى ولو كان بوحى ذكره كما فعل عليه السلام فى غير ما موضع على ما هو منصوص عنه صلى الله عليه وسلم ﴿ وفيه دليل ﴾ على فضيلة الصحابة رضوان الله عليهم يؤخذ ذلك من أنهم تلقوا هذه الأحكام عنه صلى الله عليه وسلم ونقلوها لنا فهذه منزلة لا يشاركهم فيها أحد وفيه ﴿ نكتة صوفية ﴾ وهو إذا كان جميع الخير والطيب له سبحانه فلم يبق للعبد إلا الفقر دائما واللجأ دائما والاحتياج إليه سبحانه دائما فانظر كيف تقول ذلك فى كل صلاتك ثم تدعو عند فراغك بكثير من الأشياء حسا ومعنى وتضيفها إلى نفسك حقيقة (يايها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) فلو جعلت حالك مثل مقالك لكنت من الأبرار لكن كثافة الران فسد به الحال

(٢٥٥) ﴿ حديث أنواع الزنا وما كتب على العبد منه لابد من نفاذه ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ وَالنَّفْسُ تَمَنَّى ذَلِكَ وَتَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ

ظاهر الحديث يدل على الاخبار بأن من كتب الله عليه من بنى آدم شيأ من الزنا لابد أن يفعله ولو تحرز بما عسى أن يتحرز والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أنه صلى الله عليه وسلم قسم الزنا على قسمين زنا الفرج وهو الزنا الحقيقى وهو الذى يوجب الحد وزنا العين بالنظر واللسان بالكلام وهو الذى يدخل تحت حد اللمم على قول بعض العلماء لأنهم قالوا مادون النكاح فهو اللمم ويستشهدون بقوله تعالى (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم) ومصداق ذلك من الحديث نفسه قوله عليه السلام ﴿ والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ﴾ فاذا كذبه الفرج فلازنا وبقى فيه ﴿ سؤال ﴾ وهو أن يقال ذكره العين واللسان هل ذلك الزنا مقصور على هاتين الجارحتين أوذكرهاتين الجارحتين من باب ذكر التنبيه بالأعلى على الأدنى الظاهر أنه من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى لأن لكل جارحة زنا وهو خروجها فى تصرفها عما شرع لها فان اليد لما لمست مالم يجز لها فقد زنت وكذلك الأذن إذا سمعت مالايجوز لها فقد زنت وكذلك الأنف إذاشم مالايجوز فقد زنا وكذلك الرجل إذامشت إلى مالايجوز لهافقد زنت وكذ جميع الحواس زنا كل جارحة بحسب خروجها عما شرع لهالكن لاتخلو كل جارحة من الجوارح أن يكون خروجها عما شرع لها مماهو من أسباب النكاح وأدواته أومن غيرذلك فان كان مماهو من أسباب النكاح وأدواته فهو الذى يكون الفرج يصدقه أو يكذبه وهو الذى أشار إليه سيدنا صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى نحن بسبيله وإن كان خروجها عما شرع لها لايمكن أن تكون تلك المخالفة إلا منها وهى التى تحققها إن كانت لها مشاركة مع غيرها من الجوارح فيها أوتكذبها فليس من هذا الحديث الذى نحن بسبيله ولها حكمها منصوص عليه فى موضعه مثال ذلك الغيبة التى هى مختصة باللسان وهى من الكبائر بلاخلاف لقوله صلى الله عليه وسلم «الزنا إثنان وسبعون بابا أدناه مثل أن يطأ الرجل أمه وان أربى الربى استطالة لسان المسلم فى عرض أخيه» فمن وقع فى الغيبة بلسانه فقد تحقق عليه إثم الغيبة ولا يحتاج فى ذلك لجارحة أخرى تصدقه أو تكذبه وعلى هذا النوع فانظر جارحة جارحة تجد القاعدة مطردة والحكم فيها واحد وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ أدرك ذلك لامحالة ﴾ لايختص هذا بالزنا وحده بل كذلك حكم الله فى جميع أنواع الخير والشر من كتب له من

أحد الوجهين شيئا واجبا فلا بد له منه لا يرده عنه راد لأنه قد نص العلماء على أن ماقدر على العبد على ضربين قدر قدر وقدرأن يرده وجه من الوجوه فذلك الذى ينفع أثر الحكمة فيه وهى التسبب فى دفعه وماقدر له أو عليه حتما فذلك لا يرده شىء من الأشياء ومنه خوف الرجال وأهل العقول وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ والنفس تتمنى ذلك وتشتهى ﴾ يعود على جميع ماذكر فى الحديث لأنها مطبوعة على تمنى جميع الشهوات حلالا كانت أو حراما لكن لا يضر ذلك إذا زجرها صاحبها ولم يوافقها على ذلك ودخل تحت تضمن قوله تعالى (ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) فان لم ينهها ولم يقع ماطلبته منه بحكم الوفاق لم يكن من أحد القسمين ولم يكن ممن ينطلق عليه اسم زان لأنه لم يقع الفعل بالفرج الذى هو يصدقه ولم يكن أيضا ممن زجر النفس عن الهوى فتكون الجنة له مأوى وكذلك كلما حدثت به النفس من غير ذلك إنما هو مفتقر إلى ظهوره على جارحة من الجوارح التى ذلك الفعل يختص بها فان هو زجرها ونهاها كان هو من المفلحين وإن هو وافقها حتى ظهر ذلك على تلك الجارحة كان من الخاسرين وإن هو لم ينهها ولم يفعل بحكم الوفاق فكان من المدنين كما تقدم التقسيم وكذلك تعدى الحكم إلى ماهو الشخص فيه مؤاخذ بعقدانية الذى هو من الأمور القلبية إذا وافقها على ماسولت له عقد نيته على ذلك كان من الخاسرين وإن نهاها عن ذلك كان من المفلحين التقسيم بعينه مثال ذلك الحسد المنهى عنه شرعا إذا دعته النفس إليه مشى فيه ذلك التقسيم وكذلك ماأشبهه مما هو مختص بالقلب ليس إلا فتكون النية وعقدها هى التى تصدق ذلك أو تكذبه ﴿ وفيه دليل ﴾ لطريق أهل الصوفة الذين يرون مخالفة النفس وحديثها جملة واحدة يؤخذ ذلك من نصه صلى الله عليه وسلم فى الحديث إن من الذى طبعت عليه أنها تتمنى ذلك الحرام . تشتهيه فمن هذه صفتها وجبت مخالفتها عقلا ودينا فانها تفضى بصاحبها إلى الهلاك وقد قال نفسك وإن صلحت لا تأمنها فان الشرع يلمع من أقشدتها ويترتب على فهم الحديث لشرحه فائدتان إحداهما أن تجتهد فى أعمال الخير لعله يدفع عنك بها من الشر مالا نعلمه وقد كتب عليك فتكون ممن وقاه معروفه مصارع السوء . والأخرى دوام الخوف وإن كنت على أرفع الأحوال أو على أى حالة كنت خوفا أن يكون قد سبق عليك فى الكتاب الختم بما لا تطيقه وأنت لا تعلم ومن أجل هذه الاشارة قال جل جلاله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) جعلنا الله ممن يخشاه وكانت خشيته سببا إلى سعادته بمنه

(٢٥٦) ﴿ حديث النهى عن أن يقام الرجل من مجلسه ﴾

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ نَهَى عَنْ أَنْ يُقَامَ الرَّجُلُ مِنْ مَجْلِسِهِ وَيَجْلِسَ فِيهِ آخَرُ وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما النهى عن أن يقام الرجل من مجلسه الذى جلس فيه ويجلس فيه غيره والثانى الأمر بالتفسح فيما بين الجلاس والتوسع إذا دخل عليهم والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال هل هذا على عمومه فى كل مجلس أو هو على الخصوص فى مجالس مخصوصة وهل هذا أيضا عام فى كل الرجال أو لا ومنها هل هذا تعبد أو لحكمة فان كان لحكمة فما هى وهل النهى عن ذلك على الكراهة أو التحريم ﴿أما قولنا﴾ هل ذلك عام فى كل المجالس أو هو فى مجالس مخصوصة صيغة اللفظ تعطى العموم وقواعد الشرع تخصصه لأنه قد تقرر من الشرع أنه من جلس فيما ليس له ملك ولا له فيه سبب يؤخذ ذلك من أنه يقام ويخرج ولا ينزل منزلة من له ذلك أو أذن فيه من له الاذن فى ذلك فما بقى أن يكون ذلك إلا خاصا فى المواضع المباحة للناس دخولها أو الجلوس فيها أما على العموم للناس كلهم مثل المساجد ومجالس الحكام والعلم الذى هو لله أو مايشبه ذلك وما يشبه ذلك أو على الخصوص مثل من يدعو قوما مخصوصين إلى منزله فى وليمة أو غيرها مما أجازته الشريعة فهذه المجالس من جلس فيها مجلسا فلا يقام منه ويجلس فيه غيره ﴿وأما قولنا﴾ هل هذا عام فى كل الرجال أو لا فظاهر اللفظ العموم وما يقرر من الشريعة أيضا يخصصه مثل إزالة المجانين من المساجد لقوله صلى الله عليه وسلم «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم» ومثل آكل الثوم النيء والاحرم فهؤلاء يقومون ويخرجون من المساجد إذا تأذى بهم الجلاس وكذلك كل من يكون فيه إذاية للجلاس فانه يخرج لقوله صلى الله عليه وسلم «لاضرر ولاضرار» ويشترط أن يكون ذلك الضرر مما يراه الشارع صلوات الله وسلامه عليه ضرر لا بحظ نفسانى ولا بحظ دنياوى وكذلك يقام السفهاء من مجالس الحكام والعلم وأعنى بالسفهاء الذين يسفهون بالألسنة حتى يخرجوا لما ينافى مجالس العلم والحكم ومايشبه هذا ﴿وأما قولنا﴾ هل هو تعبد أو لحكمة فان كان تعبد فلا تعليل ولا توجيه وإن كان لحكمة وهو الظاهر فما هى فنقول والله الموفق للصواب أن الحكمة فيه ظاهرة من وجهين أحدهما منع تكبر بعضنا على بعض لأن إزالة هذا من مجلسه وإجلاس غيره فيه استنقاص بالقائم واستصغار له وترفيع الجالس فى مجلسه وتكبر منه وقد قال صلى الله عليه وسلم «أنه أوحى إلى أن لا يفخر بعضكم على بعض ولا يتكبر بعضكم على بعض» أو كما قال عليه السلام وهو أيضا مما يوجب الضغائن فى الصدور والاحقاد وقد نهينا عن ذلك وماهو السبب إلى شيء فهو مثله والوجه الآخر إن المباح كله الناس كلهم فيه على حد سواء الرفيع والوضيع فمن سبق إلى شيء منه فقد استحقه ومن استحق شيئا من الأشياء بوجه شرعى فاذا أخذ منه بغير وجه شرعى فقد غصبه والغصب حرام بدليل الاجماع فلما جلس هذا مجلسه من تلك المجالس المتقدم ذكرها فقد استوجبه بوجه شرعى فلا يقام منه لأنه هو المستحق له ﴿وأما قولنا﴾ هل النهى على التحريم أو على

الكراهية فعلى التوجيه الأول يكون على الكراهية وعلى التوجيه الآخر يكون على التحريم وهو الظاهر لأنه يمكن الجمع بين التعليلين فاذا كان الجمع بين التعليلين ممكنا اندرجت الصغرى التى هى النهى فى الكبرى التى هى التحريم وبقى هنا ﴿ بحث ﴾ وهو أنه إن فعل الجالس ذلك من تلقاء نفسه هل يدخله شيء من النهى أو ليس أما إن كان سالما من الشوائب فالظاهر أنه ليس فيه كراهية وإن دخله شيء من الشوائب مثل أن يفعله لخوف أو باشارة تهديد أوماهو فى معنى ذلك فيكون مثل أصحاب السبت لما نهوا عن الصيد فيه عملوا الحيلة للصيد فى يوم الجمعة وأخذوا يوم الأحد فكان من أمرهم ما أخبر الله عز وجل عنهم فى كتابه فكان حقيقة صيدهم يوم السبت لأن بتلك الحيلة أمكنهم أخذ الصيد يوم الأحد وما لا يوصل إلى شيء إلا به فهو منه , إن اختلف نوعهما وقد ذكر لى عن بعض أهل الفضل بجزيرة الأندلس وكان ممن فتح عليه فى دنياه أنه دعى إلى عقد نكاح فلما دخل المنزل لم يجد فيه أين يقعد فبقى واقفا خجلانا ولحقه الدهش لأن المجلس كان حفلا وكان ممن كان قاعدا فى المجلس شخص كان للداخل عليه دين مائة دينار فقام الذى كان عليه الدين من مجلسه وأجلس فيه ذلك السيد فلما انفض المجلس وجه ذلك السيد الذى كان دخل آخر الناس ولحقه الدهش لذلك الشخص الذى كان قام له من مجلسه وأجلسه فيه عقده الذى كان عليه بالمائة دينار وهو قد أشهد على نفسه بتبرئته منها مكافأة له على زوال خجلته فى ذلك المجلس ﴿ تنبيه ﴾ فى الحكاية إشارة إلى أن من تأخر عما دعى إليه يلحقه الخجل فاحذر ما يخجلك يوم الوفد ولا محيص وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولكن تفسحوا وتوسعوا ﴾ هل هما لفظان مترادفان لمعنى واحد أو لكل لفظ معنى حتمل الوجهين معا لكن الأولى أن يحمل كل واحد منهما على معنى فان ذلك أكبر فائدة فيكون معنى تفسحوا أى يوسعوا فى ما بينهم للداخل أن يقعد ويكون معنى توسعوا أى توسعوا عنه بأن ينضم بعضكم إلى بعض حتى يبقى له فى المجلس أين يقعد فان السنة أن الداخل يجلس حيث انتهى به المجلس فلما لم يبق لهذا الداخل من المجلس أين يجلس أمرنا بأن ينضم بعضنا إلى بعض فيتوسع بذلك المجلس فيبقى فى آخره لهذا الداخل أين يجلس فيكون صلى الله عليه وسلم قد خير أهل المجلس أن يفعلوا مع الداخل أحد هذين الوجهين أيهما فعلوا فقد أصابوا السنة لكن بشرط أن يكون المجلس يحمل هذا بلا ضرر على الجلاس لأنه قد قال صلى الله عليه وسلم لا ضرر ولا ضرار مثال ذلك أن يدخل شخص والمجلس قد غص بأهله فيفسحوا له ويوسعوا ثم ثان كذلك ثم ثالث كذلك ثم رابع فاذا لم يطيقوا لكثرتهم وضيق المجلس أن يفسحوا أو يوسعوا إلا وعليهم ضرر فى ذلك فلا يلزمهم من ذلك شيء لكن من حسن المعاملة أن يعتذر له حتى ينصرف وهو طيب النفس لقوله تعالى (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)

(٢٥٧) ﴿ حديث بيان كفارة من حلف بغير الله تعالى وكفارة من طلب المقامرة ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ حَلَفَ مِنْكُمْ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أُقَامِرْكَ فَلْيَتَصَدَّقْ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما أمره صلى الله عليه وسلم أن من قال فى حلفه باللات والعزى أن تكفير ذلك أن يقول لاإله إلا الله والثانى أن من قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق فذلك كفارته والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ هل أمره عليه السلام لمن حلف باللات والعزى أن يقول لاإله إلا الله هل هذا خاص بهــــذه اللفظة أو عام فى كل من حلف بصنم من الأصنام أو شىء من الطواغيت وما فى معناها وكذلك لمن قال لصاحبه تعال أقامرك هل الأمر بالصدقة لقائل هذا اللفظ ليس إلا أو هذا هو الحكم فى كل ماهو فى معنى هذا وطريقه وهل هذا تعبد أوالحكمة فى ذلك معقولة المعنى وهل الأمر بهذين عام فيمن قالها معتقدا أوغضبانا أو خطأ على حدسواء أو بينهما فرق ﴿ أماقولنا ﴾ هل هذا خاص بمن ذكر فى يمينه اللات والعزى أو هو عام فى كل من حلف بشىء من الطواغيت أو ماهو فى معناها ظاهر اللفظ يقتضى أنه خاص به وما يفهم فى معناه وما جاء عنه عليه السلام فى غير هذا الحديث يقتضى تعدى الحكم إلى أنه من كان حلفه بشىء من الطواغيت أوالأصنام التى تعبد من دون الله أوما فى معنى ذلك أن يقول صاحب هذا القول لاإله إلا الله فان ذلك كفارة لما قاله لأنه من جهة المعنى قد تلفظ بما يشبه الردة فان الحالف بشىء هو معظم له فهذا قد عظم شيئا سوى الله على نحو مايفعله الكفار بالله تعالى فينبغى له أن يظهر إبطال ماقاله ويحتقره . ظم أر يعلن بقول لاإله إلاالله فكأن إعلانه بها رجوعا إلى الاسلام وتوبة من ذلك الخلل الذى ظهر منه وما فى معناه كذلك ينبغى الحكم فيه وقد جاء ذلك نصا عنه صلى الله عليه وسلم وهو قوله صلى الله عليه وسلم « من قال هو يهودى أو نصرانى فليقل لاإله إلا الله » أو كما قال عليه السلام وكذلك يلزم فى كل من قال عن نفسه أنه على غير دين الاسلام الحكم كالحكم سواء مثل أن يقول هو مجوسى أو غير ذلك مما يشبهه لأنها ردة فى الظاهر فينبغى الرجوع عنها باظهار كلمة الاخلاص وكذلك البحث على قولنا هل أمره بالصدقة خاص بمن قال لصاحبه تعال أقامرك فأما ظاهر اللفظ فيقتضى أن هذا حكم هذا القائل وإن نظرنا إلى المعنى عدينا الحكم حيث وجدنا العلة لأن قول الشخص لصاحبه تعال أقامرك أى نأكل أموالنا بيننا بالباطل على وجه حرام فحيث ماوجدنا هذه العلة عدينا الحكم على المعروف من عادة الفقهاء فى ذلك وبقى ﴿ بحث ﴾ وهو هل هذا الأمر بالصدقة هنا على طريق الندب أو على طريق الوجوب أما على مذهب مالك ومن تبعه فان الصدقة هنا على طريق الندب لأن

قاعدة مذهبه أن كل أمر أمر به لم يكن محدودا بالكتاب والسنة فانه من باب الندب مثل الأمر بالمتعة لما أمر بها مولانا سبحانه فى كتابه ولم يحدها ولا وجد فى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم لها حدا حملها مالك ومن تبعه على الندب وكذلك كل ما أمر به ولم يحد فيه شيء مثل هذه الصدقة وما فى معناها ومذهب الشافعي ومن تبعه فى ذلك حمله على الوجوب على قاعدة مذهبهم وكذلك قالوا فى المتعة أنها على الوجوب ويجزىء فيها أقل الأشياء لأن ذلك قاعدة مذهبهم ﴿ وأما قولنا ﴾ هل الأمر عام فيمن قالها متعمدا أو حرجا أو غالطا فاللفظ يقتضى العموم لكن بينهم فرق أما من قالها متعمدا معتقدا لذلك فيجب عليه أن يدخل فى الأسلام لخروجه منه بما جرى ويجدد التوبة من ذلك على ما قد بينا من حدود التوبة قبل فى غير ما حديث فان كان غضبانا أو غالطا فينبغى له قول ما أمر به أو فعله هذا هو الظاهر ولا ينبغى تخصيص لفظ الحديث بغير مخصص ﴿ وفيه دليل ﴾ على الأخذ بسد الذريعة فى غلق باب الشيء بالجملة الكافية حتى لا يقع من المؤمن شيء ينافى الايمان والاسلام لا بقول ولا بفعل ولا يسامح فى ذلك بشيء ومما يؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم «لا تتشبهوا بأهل الكتاب» وقوله عليه السلام «ثلاثة يبغضهم الله وعد فيهم من استن فى الأسلام سنة الجاهلية» أو كما قال عليه السلام وقوله عليه السلام «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الشر لا يبالى بها يهوى بها فى النار سبعين خريفا» والأثر فى ذلك كثير ومجموع ذلك يدل على حفظ المؤمن نفسه مما يخالف دينه وقع ذلك منه جدا أو هزلا ﴿ وفى هذا دليل ﴾ لأهل السلوك لأنهم منعوا أنفسهم من الأخذ فى المباح وجعلوا ذلك حماية بينهم وبين المكروه قد اتهموا النفوس ما أعرفهم بها أكبر اهتمامهم بالدين وطرق النجاة وقد قيل نفسك فرضها وعلى الخير فاحملها ولا تغفل عن سياستها فالعذر من شأنها

(٢٥٨) ﴿ حديث سيد الاستغفار ﴾

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ

ظاهر الحديث إخباره صلى الله عليه وسلم أن هذه الألفاظ المذكورة فى هذا الحديث هى أعلا أنواع طرق الاستغفار وأقربها إلى الله عز وجل والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل جعله صلى الله عليه وسلم هذه الألفاظ سيدة الاستغفار تعبد لا يعقل له معنى وهل تفهم الحكمة فى ذلك وهل إن سبك معناه إذا فى ألفاظ أخر بزيادة أو نقص والمعنى باق على حاله هل تبقى له تلك الرفعة والمنزلة أم لا وهل المستغفر بهذه الألفاظ يكون استغفاره أرفع ممن

استغفر بألفاظ غير هذه وكانت نيته أرفع من نية صاحب هذه الألفاظ أم لا وكذلك فى الأوقات أيضا هل فضيلة الأوقات فى الاستغفار تفضل هذه أو هذه تفضلها ﴿ أما قولنا ﴾ هل هذا تعبد أو الحكمة تفهم ﴿ فالجواب ﴾ أنه لحكمة ألا ترى حسن ألفاظه وماجمعت من بديع معانى الايمان فانه جمع فيه بين الاقرار لله بالالوهية وحده والاعتراف له عز وجل أنه خالقه واعترف على نفسه بالعبودية لله عز وجل واعترف بالعهد الذى أخذ عليه والرجا فيما وعده مولاه والاشارة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة بقوله ﴿ وأنا على عهدك ووعدك مااستطعت ﴾ فان الحكمة وهى الشريعة وما كلفتنا من التكاليف إنما يحصل إذا كان فى ذلك للعبد العون بقدرة من القادر الذى تعبدنا وهى التى تكنى عنها بالحقيقة إذا أراد القادر الحكيم ضد ذلك وهو ماقدر على العبد من القدر الحتم لم ينفعه فى ذلك أثر الحكمة وغلبت الحقيقة العبد فى نفسه حتى يجرى عليه ما قدر عليه وقامت الحجة عليه بمقتضى الحكمة والعدل التى هى الشريعة ولم يبق له شىء يدفع به عن نفسه إلا إما عقاب بمقتضى العدل وظهور الحجة وإما عفو بمجرد الفضل من الله والرحمة وهذه أرفع الطرق كما تقدم والكلام على ذلك فى غير ماموضع من الكتاب ويتبين ذلك بالكتاب والسنة ثم استعاذته بمولاه الجليل من شر ما جنى على نفسه وإضافة النعماء التى عليه إلى مولاه سبحانه وإضافة ذنبه إلى نفسه ورغبته فى مغفرة ذنبه والاقرار أنه ليس يقدر أحد على مغفرة الذنوب إلا الله سبحانه فيحق أن يطلق عليه سيد الاستغفار ولأن صيغة الاستغفار المعلوم لغة وعادة هو أستغفر الله فانظر بكم وجه تفضل هذا الاستغفار المشار إليه هذه الصيغة المعروفة لغة وعادة تبين لك حقيقة الحكمة فى ذلك عيانا ﴿ وأما قولنا ﴾ إذا سبك ذلك المعنى بألفاظ غير هذه ولا ينقص من المعنى شىء هل يبقى لحقيقة هذا الاسم أم لا فاعلم وفقنا الله وإياك أن المعانى التى أخذت من ألفاظ الشارع صلى الله عليه وسلم أنها إذا أذيلت تلك الألفاظ المباركة عن تلك المعانى أن ذلك الخير لا يوجد له مثل لأن الله عز وجل قد جعل الخير فيه صلى الله عليه وسلم وعلى يديه الكريمتين وفى لفظه وإشارته وكل ما يكون عنه أو به لا يخلفه فى ذلك غيره صلى الله عليه وسلم أما ترى إلى احتلاف العلماء فى نقل كلامه عليه السلام هل ينقل بالمعنى بشرط أن لا يخل فيه بشىء أو لا ينقل إلا بالفاء والواو كما ينقل القرآن وعلى هذا هم جمهور العلماء لأنه كله عن الله وما بينهما إلا أن الكتاب بالوحى بواسطة الملك وهذا عن الله بطريق الالهام والارشاد قال عز وجل فى حقه ﴿ وماينطق عن الهوى ﴾ فكيف فيما جعلت فيه فضيلة فانما حصلت تلك الفضيلة لمجموع الأمرين وهما حسن المعنى وبركة لفظه عليه السلام فانه كذلك شأنها الحكمة والقدرة الربانية لاتبديل لحكم الله وهذا جار فى هذا الحديث فى كل ما جاء عنه عليه السلام بلفظ مخصوص فلا يبدل ذلك اللفظ بغيره أصلا ﴿ وأما قولنا ﴾

هل يكون المستغفر بهذا الاستغفار ونيته ليست بتلك الجودة سيدا على من استغفر بغير هذا الاستغفار ونيته صالحة مباركة على ما أريد منه من الحضور والأدب فاعلم وفقنا الله وإياك أن حسن النية فى الأعمال لايكون شىء خيرا منها لقوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» ولقوله عليه السلام «أوقع الله أجره على قدر نيته» وإنما قال سيدنا صلى الله عليه وسلم إن هذا سيد الاستغفار فى الذين تساوت نياتهم وأحوالهم فاذا تساوت النيات والأحوال ففى كل نوع منها الذى يستغفر بهذا الاستغفار فاستغفاره سيد نوعه وكذلك جميع التعبدات من فرض ونفل وغيره من التفضيل فى كل نوع منه وجهين إما بما وضع له من حده وإما بحسب نيات الفاعلين له وأحوالهم وبحسب اختلافهم فى ذلك ومن أجل ذلك قال صلى الله عليه وسلم فى الصلاة المفروضة التى هى فى الدين بمنزلة الرأس من الجسد «أنه يكتب له نصفها ثلثها ربعها عشرها» وفى لفظ آخر «منهم من تطوى كالثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها وتقول له ضيعتنى ضيعك الله» أو كما قال عليه السلام فدخل المسكين فى الصلاة لأن يأتى بخير العبادات فانعكس عليه الأمر من أجل سوء حاله أين هذا (قل هو من عند أنفسكم) ﴿وأما قولنا﴾ هل المستغفر بهذا الاستغفار يفضل الذى يستغفر بغيره فى الأزمنه المرغب فى الاستغفار فيها أم لا ﴿فالجواب﴾ على هذا كالجواب على النية وحسنها لأن تلك الفضيلة التى جعلت فى الزمان لاتقاس بفضيلة الألفاظ والنيات وإنما هذا سيد الاستغفار إذا تساوت المراتب من كل الوجوه وإلا إذا كان هذا قد استغفر بغير هذا الاستغفار فى الأسحار مثلا فقد حصل له فضيلة السحر فى استغفاره لقول مولانا جل جلاله (وبالأسحار هم يستغفرون) واستغفر شخص آخر بهذا الاستغفار بالنهار حصل له سيد استغفار من استغفر بالنهار بمثل حاله وليس للعقل طريق أن يحكم أيهما أفضل عند الله تعالى هل الذى استغفر فى السحر بغير هذا أو هذا الذى استغفر فى النهار بهذا الاستغفار لأن هذه التحديدات لاتؤخذ بالعقل ولا بالقياس وإنما طريقها ما يلقى فى ذلك من الشارع صلى الله علية وسلم وهذا لم يأت عن الشارع صلى الله عليه وسلم فيه شىء فيرد الأمر فيه إلى الله لاغير ويترتب على النظر فى هذا الحديث وأشباهه أن الحكمة الربانية كما اقتضت التفضيل بين العباد وجميع الحيوان وكذلك سائر المخلوقات على ما هو متلقى من طريق الرسل عليهم السلام وأخبارهم فكذلك اقتضت الفضيلة بين أنواع العبادات وتضعيف الأجور فى ذلك من ﴿وجوه سبع﴾ فمنها بنوعها ومنها بحسن المعانى بين النوع الواحد فى أنواعه أيضا ومنها من طريق الألفاظ ومنها من جهة الأماكن ومنها من جهة الأزمنة ومنها من جهة النيات والمقاصد ومنها من جهة الأحوال والشيم وقال عز وجل فى كتابه حضا على طلب الأعلى فالأعلى من هذه تنبيها للمكلف عليها وحضا له على طلبها وتحصيلها أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم

الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) وحضت السنة على ذلك بتبيين فضيلة كل قسم منها وتعيينه وبما للعامل فى ذلك بأتم بيان ثم أكد عليه السلام ذلك بلفظ مجمل وهو قوله صلى الله عليه وسلم «كفى بالعبادة شغلا» لأنه من جعل همته أن يأخذ الأعلى فالأعلى من تلك السبعة وجوه لا يسعه مع ذلك شغل غيره لأنه ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وفيما نبهنا عليه حجة لأهل السلوك على طريق السنة والسنن لأنهم بهذا عمروا أوقاتهم وبالبحث عليه والاهتمام به شغلوا أنفسهم حتى أن بعضهم سئل عن الصباح والمساء فقال لا أعرفهما فسأل عنهما غيرى لأنه رأى الأخذ فى هذا من قبيل اللغو وشغل الوقت بما لا يعنى من الله علينا بما به من عليهم بكرمه وفضله

(٢٥٩) ﴿ حديث بيان خوف المؤمن من ذنوبه وعدم اهتمام الفاجر بها ﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هٰكَذَا قَالَ أَبُو شِهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما إخباره صلى الله عليه وسلم بحال المؤمن وكبر ذنوبه فى عينه حتى يراها مثل جبل واقع عليه والآخر إخباره صلى الله عليه وسلم بحال الفاجر واحتقاره لذنوبه حتى يراها كذباب مر على أنفه والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن فيه دليلا لأهل السنة لأنهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب وردا على القدرية الذين يكفرون بالذنوب يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿إن المؤمن يرى ذنوبه﴾ فسمى هذا المذنب باسم الايمان ولم يخرج بذنوبه من دائرة الايمان ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الفجور أمر قلبى مثل الايمان لأنه أمر قلبى أيضا يؤخذ ذلك من أنه صلى الله عليه وسلم وصفه بالذنوب كما وصف المؤمن بالذنوب فجاءت التفرقة بين المؤمن والفاجر بأمر قلبى وبيان ذلك من جهة النظر والعقل أنه لما كان المؤمن قلبه منور بالايمان ورأى من نفسه ما يخالف ما تنور به قلبه وهو الايمان عظم الأمر عليه لأنه لا شيء أثقل على الأشياء من ضدها عقلا ونقلا قال تعالى (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) من أجل النسبة التى بينهم خفت عليهم وكذلك أهل التوفيق خفت عليهم الطاعات حتى صاروا يتنعمون بها ويجدون لها حلاوة حتى أنه روى عن جماعة من أهل هذا الشان أنهم يحسون بالحلاوة تنسكب على قلوبهم عند إستغراقهم فى الطاعات مثل ما يجدون حلاوة الشهد على قلوبهم فى حين شربهم له بل أعطر وأرق وأحلى هذا موجود خلف عن سلف إلى هلم جرا ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة «أرحنا بها يا بلال» وقوله صلى الله عليه وسلم «وجعلت قرة

عينى فى الصلاة » لما كان يجد فيها فانه صلى الله عليه وسلم القدوة فى كل خير حالا ومقالا ولما كان الفاجر قلبه مظلما بما فيه من الفجور وضعف الايمان خفت عليه ذنوبه من أجل النسبة التى هذه ولذلك قد كثر فى زماننا هذا إذا جئت تعظ بعض من قد ظهرت عليه علامات الفجور فى ذنب وقع فيه فيكون جوابه هذا قريب اشتهينا أن لايكون إلا هذا فهذا قريب وعدم الاهتمام بذنبه ظاهر عليه أعاذنا الله من ذلك بمنه ﴿ ويترتب ﴾ على هذا الحديث أن الدليل على فجور الشخص قلة حزنه على ذنوبه وتهوينها عليه وخفتها وأن الدليل على إيمانه حزنه على ذنوبه وخوفه منها وإن قلت وبقدر قوة إيمانه تكون شدة حزنه وخوفه يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « ماأصبح المؤمن فيها يعنى دار الدنيا إلا حزينا ولا أمسى إلا حزينا » أو كما قال عليه السلام لأنه من ذا الذى لم يقع منه قط مخالفة ولو صغيرة إنما ذلك مقام الانبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين ومن من الله عليهم من الصديقين وهم قليل فجاء إخباره صلى الله عليه وسلم على الغالب وعليه أثبتت الشريعة غالبا وقد يكون على عمومه فيكون حزن الرسل والصديقين من أجل الغير لما يروا منهم مما اقتحموا بأنفسهم من المهالك لكثرة ماأودع الله تعالى فى قلوبهم من الشفقة والرحمة كما قال مولانا جل جلاله لسيدنا صلى الله عليه وسلم (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فالعاقل يقيم هذا الميزان على نفسه حتى يتبين له من أى الفريقين هو (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ومما فى معناه مايذكر عن بعض قضاة الخير ممن تقدم أنه كان له شاهدان عدلان وكان الذى له الأمرة فى وقته ظالما فجبر ذلك الظالم ذلك الشاهدين أن يأكلا على مائدته فأسقط القاضى شهادة أحدهما وأبقى الآخر على عدالته فقال له الذى أسقطه لم أسقطت شهادتى فقال له القاضى لأنك أكلت من مائدة الظالم فقال له وإن صاحبي أكل معى عليها فقال له إن صاحبك أكل وهو يبكى وأنت أكلت وأنت تضحك فلحظ القاضى هذا المعنى الذى أشرنا إليه فدل تهاون الذى كان يضحك بما وقع فيه على فجوره وكان سببا إلى تجريحه وهنا ﴿ بحث ﴾ وهو أن يقال فى الجواب لم مثل عليه السلام خوف المؤمن من ذنوبه بالجبل يقع عليه وما الحكمة فى ذلك ولم يكن بغيره ﴿ والجواب ﴾ أن غير ذلك من المهلكات مثل الغرق أو الحرق أو القتل أو غير ذلك قد يتسبب بعض الناس فيما يحل بهم من ذلك وقد ينجوا منه بلطف من الله تعالى وقد وقع من ذلك ماروى عيانا فانه حكى عن بعض من لحقهم الغرق أنهم نجوا أو نجا منهم بعضهم وكذلك فى الحرق والهدم وكذلك فى القتل وجد فى بعضهم من فيه النفس فعولج زمانا حتى برىء وهذه الأشياء أعظم المهلكات بعد هذا الجبل ولولا التطويل لذكرنا منها حكايات جملة ووقوع الجبل ليس معه حياة أصلا فالهلاك فى ذلك مقطوع به فلذلك مثل به صلى الله عليه وسلم لأن المؤمن إذا رأى من نفسه ما يخالف الايمان خاف على نفسه أشد الأشياء وهو النفاق الذى الهلاك معه مقطوع به إن مات عليه

وخاف من قول الله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون) فحزنوا من أجل كبر هذا المقت لأن ما كبره الله سبحانه فهو أمر عظيم لا يحمله أهل الايمان ويصعقون منه ولذلك لما علم مولانا سبحانه خوفهم من ذلك طمعهم ورجاهم بقوله تعالى (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وهنا ﴿بحث آخر﴾ وهو أن يقال لم شبه ذنوب الفاجر بالذباب وما الحكمة فى ذلك ولم لم يكن مثل بالذر أو ماهو فى شبهه مثل الحشرات وغير ذلك ﴿والجواب عنه﴾ أنه لما كان الذباب أخف الطير وأقله ضررا وهو مما يعاين ويندفع بأقل الأشياء وإن عض فليس لعضته ضرر بخلاف الذر الذى هو أقل الحشرات لأن التحفظ منه عسير وفيه شدة وانفعاله بطىء وإذا عض فلعضته حرارة وفيها إذاية فى الأموال حتى إذا كثر يكون بسبب ضررهم جائحة كثيرة وليس ذلك فى الذباب فلذلك مثل صلى الله عليه وسلم به وفى تمثيله عليه السلام بالأنف من بين سائر الجوارح وإشارته عليه السلام بيده لدفع الذباب عنه وجهان من الفقه ﴿أحدهما﴾ المبالغة فى تخفيف ذنوبه عليه لأن الأنف قل ماينزل الذباب عليه وإنما يقصد فى الغالب العينين وإزالته بيده تأكيد فى الخفة أيضا حتى لا يلحقه منه شيء من التشويش ﴿والوجه الآخر﴾ أن يستعمل فى التمثيل ماهو أقوى لأن إشارته عليه السلام هنا بيده أقوى من القول فكنى بالاشارة عن الكلام لقوتها فى الموضع ﴿وفى هذا دليل﴾ على ما أعطى صلى الله عليه وسلم من كثرة معرفته بالأشياء وإدراكه ذلك على البديهة متى شاء فان كان آدم عليه السلام علم الأسماء كلها فقد وهب سيدنا صلى الله عليه وسلم معرفة الأشياء كلها وفايدة معرفة الأشياء أكبر من معرفة أسمائها (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) ﴿وفيه دليل﴾ على جواز ضرب المثل بكل ماهو ممكن بحسب قدرة القادر وإن كان لا يقع وإن وقع فيكون بخرق العادة لا بجريانها المتعاهد يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه﴾ لأن هذا من جهة القدرة ممكن وما وقع هذا إلا لبنى إسرائيل حين رفع الله عليهم الجبل وهم يخافون أن يقع عليهم حتى امتثلوا ما أمروا به فجاء بخرق العادة لموسى عليه السلام ﴿وفائدة﴾ إخباره صلى الله عليه وسلم لنا بهذا الحديث إرشاد لنا إلى أن لا نغفل عن محاسبة نفوسنا وأن نختبر العلامات الدالة على بقاء نعمة الايمان علينا فانه قد جاء فى الصحيح «إن الرجل ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام النومة فيقبض أثر الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شيء ثم أخذ حصاة ودحرجها على رجله فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد منهم يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله

وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان أو كما ورد الوكت - سواد اللون والمجل مجلت يده إذا أصابها العمل والنبر ورم فى الجسد كله - جعلنا الله ممن أكمل نعمة الإيمان فى الدارين بمنه فانه منان كريم

(٢٦٠) ﴿ حديث شدة فرح الله تعالى بتوبة العبد إذا تاب ﴾

عَن بن مَسعُودٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَلّٰهُ أَفرَحُ بِتَوبَةِ العَبدِ مِن رَجُلٍ نَزَلَ مَنزِلًا وَبِهِ مَهلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأسَهُ فَنَامَ نَومَةً فَاستَيقَظَ وَقَد ذَهَبَت رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشتَدَّ عَلَيهِ الحَرُّ وَالعَطَشُ أَو مَاشَاءَ اللّٰهُ قَالَ أَرجِعُ إِلَى مَكَانِي فَرَجَعَ فَنَامَ نَومَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِندَهُ

ظاهر الحديث الاخبار بشدة فرح الله عز وجل بتوبة العبد إذا هو تاب والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن يقال مامعنى فرح الله سبحانه بتوبة العبد ﴿ فالجواب ﴾ أنه قد تقدم فى غير ماموضع من الكتاب أن هذه الأوصاف التى هى من صفات المحدثات مثل الفرح والحزن والحب وماأشبه ذلك أنها فى حق الله سبحانه وتعالى مستحيلة وإنما معناها ماتضمنته تلك الصفة بجرى العادة عندنا لأنا لانفهم مايراد منا إلا بالتمثيل بما نعلمه من عادتنا وأوصافنا فكنى صلى الله عليه وسلم عن كثرة إحسان الله سبحانه للتائب وكثرة تجاوزه عنه وعظيم الافضال عليه بقوة هذا الفرح الذى لاشىء عندنا فيما نعلمه من عوائدنا أعظم من هذا الفرح الذى لحق صاحب هذه الراحلة عند وجودها بعد ذلك الكرب العظيم الذى لحقه والمعلوم من عوائد الملوك الكرام إذا فرحوا بشىء إن صاحب ذلك الشىء الذى فرحوا به يحسنون إليه الاحسان الذى يخرق العقول ويرفعونه المنازل الرفيعة التى ليس فوقها منزلة وكذلك جاء عن مولانا سبحانه فى حق التائب بالنص فى ذلك من الكتاب ومن السنة فى غير ما موضع فمن الكتاب قوله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) وقوله تعالى (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات) ومن السنة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «التوبة تجب ماقبلها» وقوله عليه السلام «إذا تاب العبد يباهى الله به الملأ الأعلى ويوقد له سراج بين الارض والسماء وينادى مناد من قبل الله عز وجل إن فلان بن فلان قد صالح مولاه» أو كما قال والآى والأحاديث فيه كثير فأجمل هنا صلى الله عليه وسلم بهذا المثل العجيب كما جاء مفسرا فى الكتاب والسنة فى مواضع عديدة ليكون أقرب للفهم وأحض على الرغبة فى التوبة وأيسر للحفظ ومما يبين ماأشرنا إليه حكاية معن (١) لأنه كان من الملوك الأول وكان قد اشتهر بكثرة الجود والكرم فكثرت عليه القصاد حتى احتجب عن الناس فأتاه أحد الأدباء فقيل له إنه احتجب منذ زمان وكان له بازاء قصره بستان يتفرج فيه فى بعض الأيام

---

(١) هو معن بن زائدة أحد الأمراء فى الدولتين الاموية والعباسية

فقال ذلك الأديب لأحد حجابه إن أنت أخبرتنى بيوم خروجه إلى البستان لك عندى جائزة كذا وبقى يواظب الباب حتى قال له ذلك الحاجب إنه اليوم فى البستان فكتب على خشبة :

أيا جود معن ناد معنا بحاجتى * فمالى إلى معن سواك شفيع

وأتى خلف البستان ووضعها فى ماء كان يدخل البستان فبينما الملك قاعد على ذلك الماء أبصر الخشبة تعوم على وجه الماء فأمر بأخذها ونظر ما فيها فلما أخبر بالكتب الذى عليها فرح به فرحا شديدا وسر به سرورا عظيما وخرج من حينه وأمر بحضور أرباب دولته وبحضور كاتب هذه فلما أبصره قال له أنت القائل هذا والخشبة بين يديه قال له نعم فأمر له بعطاء عظيم أبهت الحاضرين وجعل له منزلة عظيمة يكثر لها الحساد فلما كان من الغد خرج وأمر بحضور أرباب دولته وبحضور ذلك الشخص وأعطاه مثل ماأعطاه بالأمس وكذلك فى اليوم الثالث فلما كان فى اليوم الرابع خرج وأمر باحضاره وطلبه فلم يوجد فقال لأرباب دولته أما إنه لو قعد كنا ندفع له كل يوم لمثل مادفعنا له أول يوم حتى لا يبقى لنا شىء نعطيه فانه يشفع لنا بما يقصر ملكنا عن مكافأته عليه فكثرة جوده أوجب كثرة عطائه هذا من ملكه محصور يفنى وهو مثله ينفد ويفنى وخزائنه محصورة معدودة وجوده محدود وكل معدود محدود محصور يفنى فكيف بمن لا ينقضى أبده ولا ينحصر ملكه ولا تفنى خزائنه ولا يشبه كرمه كرما فاذا فعل العبد مافيه موجب لاحسانه عز وجل من طريق المن والفضل لا من طريق الوجوب والالزام كيف يكون إحسانه لهذا العبد وكيف يكون ترفيعه له وتجاوزه عنه جعلنا الله من أهله لذلك بمنه واحتمل ﴿ وجها آخر ﴾ وهو مثل مااختلف العلماء فى ذكره سبحانه وتعالى عن نفسه الوجه واليدين فمن أهل السنة من تأول الوجه بمعنى الذات لأن العرب تقول وجه الطريق بمعنى ذاته واليد بمعنى النعمة ومنهم من قال يمر اللفظ على ظاهره مع نفى الجارحة ونفى التحديد والتكييف ويجرى هذا الوجه فى هذا الحديث وما فى معناه من الحب والغضب والرضا والضحك وكلما جاء فى الأحاديث من هذا النوع مع نفى ماتضمن تلك الصفة منا مثل الفرح يقر اللفظ على حاله مع نفى المعنى الذى نحذره نحن من المسرور به والميل إلى ذلك الشىء المفروح به والطرب به والبشاشة إليه وإثاره على غيره وكون ذلك كما يليق بجلاله سبحانه مع نفى الشبه والمثال وإبقاء ماينالنا من تلك الصفة من الخير على جرى عادتنا فان من أجل ذلك ضرب لنا المثل وكذلك يمشى هذا الوجه فى الغضب والرضى والضحك لأن القاعدة قد تقررت بمدلول العقل والنص أنه جل جلاله ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ وقد تقدم بيان ذلك بأدلته أول الكتاب فى حديث عبادة بن الصامت فأغنى عن إعادته هنا فلما تقعدت تلك القاعدة لم يضر إطلاق هذه الألفاظ ولا يقع بها على العقول فى معتقدها البأس ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز السفر منفردا يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه

وسلم ﴿من رجل نزل منزلا وبه مهلكة﴾ فوصف بأنه كان فى تلك المهلكة وحده فانه عليه السلام لايضرب مثلا بما لايجوز فى شريعته ويعارضنا النهى منه عليه السلام أن يسافر الرجل وحده ويمكن الجمع بينهما بأن يكون هذا الحديث دليلا على الجواز وذاك نهى كراهية وشفقة ومن أجل ما كان هذا فى تلك المهلكة وحده جرت عليه تلك الشدة لأنه لو كان معه رفيق ماحصل فى تلك الشدة حتى أبقى بالهلاك فانه لوذهبت راحلته بقيت رواحل رفقائه فقد كانوا يقومون بضروراته فلم يكن يجد لذهاب راحلته ذلك الهم الكبير فبان بهذا الحديث وإن كان يدل على الجواز فائدة نهيه عليه السلام عن السفر منفردا ﴿وفيه دليل﴾ على جواز دخول موضع الهلاك إذا كان مع داخلها مايقى به نفسه من تلك المهلكة على ماجرت به العادة فى ذلك الوجه يؤخذ ذلك من دخول هذا تلك المهلكة ومعه ماينعه مما فيها من المهالك وهى راحلته عليها طعامه وشرابه ولوكان هذا غير جائز ماضرب صلى الله عليه وسلم المثل به وسكت عن الاشارة إلى منعه كما فعل فى المجاهد حين وصفه أنه غرر بنفسه لأنه عليه السلام هو المشرع فلا يتكلم إلا بالشىء الجائز ومن تتبع كلامه صلى الله عليه وسلم يجده فى المواضع التى يكون فيها الاشكال ماقد تحرز من ذلك إما بقول أو باشارة أو ما كان فى معناهما ﴿وفيه دليل﴾ على أنه حيث يعدم الطعام والشراب يسمى مهلكة يؤخذ ذلك من أن صاحب الراحلة لم يكن له شىء يخافه فى تلك المهلكة إلا عدم الطعام والماء الذى كان على راحلته ولو كان له خوف مما سوى ذلك كان يذكره لأنه كان يكون زيادة فى قوة كربه فيكون فرحه براحلته أكثر ولا كان يمكنه نوم مع ذلك كما هو المعهود من الناس ذلك لأنه لو كان له خوف من سباع أو لصوص لم يمكنه النوم مع ذلك لأن الخوف من مثل هذا يذهب بالنوم على العوائد الجارية فى الناس ﴿وفيه دليل﴾ على أنه من ركن إلى ماسوى مولاه فانه يقطع به أحوج مايكون إليه يؤخذ ذلك من نوم هذا فى تلك المهلكة لثقته براحلته التى عليها طعامه وشرابه الذى يظن أنه ينجيه من تلك المهلكة فأحوج ما كان إليها لم يجدها وهو عند استيقاظه من نومه أكثر اضطرارا لحاجته إذ ذاك بشرابه وطعامه ولذلك قال بعض أهل التوفيق «من سره أنه لايرى مايؤلمه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا» أى من عول على غير من لايحول ولا يزول فلا بد له من الاضطراب غالبا ومن كان عدته مولاه فلا يفقده حيث يحتاج إليه أبدا بل يجده به رؤفا رحيما قال عز وجل فى كتابه (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ﴿وفيه دليل﴾ على أن هم البشرية وفرحها غالبا إنما هو على ماجرت به أثر الحكمة من العوائد المعتادة بينهم إلا أهل التحقيق وقليل ماهم يؤخذ ذلك من أن حزن هذا صاحب المهلكة على ذهاب راحلته إنما كان خوفه من الموت من أجل عدمه الطعام والشراب وفرحه بهما إنما كان من أجل وجوده الطعام والشراب الذى ينسبون الحياه إليه وقد يكون الأمر بالعكس أن تكون الحياة مع عدم الطعام

والشراب كما قال أبو حامد الغزالى رحمه الله إن الرزق الذى ضمنه الله عز وجل لعباده ليس من شرطه أن يكون محسوسا فقد يكون محسوسا وقد يكون غير محسوس وإنما ضمن لهم أن يرزقهم قوى لهذا الجسد بما يعبدونه فيجعله كيف شاء والذى يقع لى أن لهذا المعنى هى الاشارة بقول سيدنا صلى الله عليه وسلم « إنى لست كهيئتكم إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى ، أى إن إيمانى ويقينى ليسا مثل إيمانكم ويقينكم فانى أعلم أن الذى يقوينى بالطعام والشراب هو الذى يقوينى بلا طعام ولا شراب ولو كان يأكل أكلا حسيا لم يقع عليه إسم مواصل ، لا يمكنه أن يكون يواصل بهم ويكون هو عليه السلام يأكل ، يشرب وأصحابه يواصلون ولا يأكلون ولا يشربون ليس هذا من خلق غيره فكيف خلقه السنية التى لا يمكن أحد طوقها أبدا وقد يكون الموت بسبب أخذ الطعام والشراب وقد وجد هذا فى الأخبار المنقولة كثير ﴿وفيه دليل﴾ على أن الأحكام والأمثال إنما تستعمل على الغالب من أحوال الناس لأنه لما كان الغالب من الناس إنما فرحهم بالمحسوس وحزنهم على فقده ضرب صلى الله عليه وسلم المثال بهذا ﴿وفيه دليل﴾ على بركة الاستسلام لأمر الله عز وجل وسرعة النجح عند ذلك يؤخذ ذلك من أنه لما ترك صاحب الراحلة جده وطلبه وسلم لله أمره واستسلم له برجوعه إلى موضعه فأزل خبراته إرسال النوم عليه لأنه من علامات الرحمة عند الوقوع فى الشدائد وأرفق لمن وقعت به كما أخبر سبحانه عن الصحابة رضى الله عنهم فى كتابه بقوله (إذ يغشاكم النعاس أمنة منه) ولما أرسل الله عز وجل عليهم النعاس كما أخبر بقى المنافقون لم يرسل عليهم من النعاس شيئا ، بقوا فى كرب عظيم ثم بعد ما استيقظ صاحب المهلكة من نعمة النوم وجد راحلته عنده قائمة فتمت النعمة عليه بوجودها ﴿وفيه تنبيه﴾ على أن يقدم العبد أثر الحكمة وهى عمل الأسباب على ما شرعت وبينت فاذا لم يرها تنجح له فى قصده يرجع على مقتضى التسليم للقدر رضاء وتسليما ويعلم أن ذلك هو المقصد منه فعند ذلك ييسر له مقصده بلا كلفة يؤخذ ذلك من كون صاحب الراحلة لما ذهبت أخذ فى نظرها والبحث عليها فلما لحقه فى ذلك ما لحقه من العطش وما شاء الله ورأى أن ذلك لا ينجح له مطلبا أخذ فى الاستسلام للقدر ورجع إلى موضعه وترك ما كان بسبيله من أثر الحكمة فأتاه ما أمله من الخير وهو إتيان راحلته وفى رجوعه إلى الموضع الذى ذهبت منه راحلته إشارة إلى الثقة بعظيم قدرة القادر لعل من الباب الذى كان منه الكسر بالعدل يكون منه الجبر بالفضل حالة يعقوبية كما ذهب بصره بقميص يوسف عليهما السلام فبالقميص كان رجوع بصره إليه ولذلك قال (إنى أعلم من الله ما لا تعلمون)

(٢٦١) ﴿ حديث مثل الذاكر لربه والغافل ﴾

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ

ظاهر الحديث تمثيله ﷺ الذى يذكر ربه بالحى والذى لا يذكره بالميت والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال مامعنى الذكر هنا هل الذكر باللسان أو الذكر بالأفعال وهو اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه لأن العلماء قد قالوا فى معنى قوله جل جلاله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) إنهم الذين إذا كان عليهم الحق أعطوه وإذا كان لهم الحق أخذوه كل ذلك على الحد الذى شرع بلا زيادة ولا نقصان وقال عمر رضى الله عنه « ذكر الله عند نهيه وأمره خير من ذكره باللسان » أو كما قال رضى الله عنه وفى أى نسبة يكون الشبه فيما شبه به على أحد الوجهين وما يترتب على ذلك من الفائدة

﴿ أما قولنا ﴾ أى وجه عنى بالذكر احتمل الوجهين كل واحد على حدة واحتمل أنه عنى بذلك الوجهين معا فان كان عنى المجموع فهو للفائدة أتم وإن كان عنى أحد الوجهين فبين الذكر بالقول والذكر بالفعل فرق كبير لأن الذكر بالفعل مثل الطهارة الكبرى تندرج فيها الصغرى لأن الذى يمتثل الأوامر وينتهى عن النواهى فلابد له من الذكر باللسان لامحالة فان حاله يحمله على ذلك جبرا وإن كان لايقع ذلك منه فالذى فعل من امتثاله الأوامر أجزأه عن ذكر اللسان كالطهارة الكبرى تجزىء عن الصغرى والذى يذكر باللسان مثل الطهارة الصغرى لا تدخل تحتها الكبرى ولا تجزى عنها وهو مطلوب بها ﴿ وأما قولنا ﴾ من أى وجه يكون النسبة بين هذا وبين المثل أما إن كان الذكر بالفعل على ما تقدم بالنسبة بينهما من أجل عدم الفائدة بهذا التارك لما أمر به فى حياته فان فائدة الحياة فى هذه الدار إنما هى الكسب لتلك الدار الباقية فانما جعلت هذه مزرعة للعباد لأن يتزودوا منها للمعاد فاذا ماتوا انقطع من هذه المزرعة كسبهم فلما كانت حياة هذا فى هذه المزرعة بغير كسب لمعاده كان كالميت الذى لم يبق له فيها عمل وكانت حياته كأن لاحياة ، مما يوضح ذلك قوله عز وجل فى كتابه العزيز حكاية عن قول من ختم عليه بالشقاء (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) وبالضرورة أنهم حين كانوا فى هذه الدار كانوا يسمعون ويعقلون فلما كان سمعهم وعقلهم لم يجدوا لهما منفعة فى تلك الدار نفوا ذلك عن أنفسهم بقولهم (لو كنا نسمع أو نعقل) وأما إن كان المعنى الذكر باللسان فالنسبة بينهما من أجل ما حرموا من ذكر مولاهم لهم لأنه قد جاء عنه جل جلاله «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منهم» ومن كان أعطى هذه الرحمة العظمى مع من حرمها كنسبة الحى من الميت لأن من ترك هذا الخير العظيم بأيسر الأشياء وهو تحريك اللسان أو إمرار ذلك بالقلب فقد عدم فائدة الحياة التى هى موضوعة لكسب هذه الخيرات وأشباهها وقد قال الله عز وجل فى شأن الذكر (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) فمن يحرم نفسه من هذا الخير العظيم كيف لا يوصف بالموت بل هو أحق بذلك وبل الموت له على خير خير من هذه الحياة المغبون صاحبها وإن كان

المعنى فى الحديث الوجهين معا فكان الأمر فى حق هذا المغبون أشد وأعظم أعاذنا الله من الحرمان بفضله ﴿ وأما قولنا ﴾ مايترتب على ذلك من الفائدة فغير واحدة منها الحض على امتثال الأوامر ومنها الحض على الذكر والعلم بما فيه من الخير ومنها تنبيه على أن الحياة الحقيقية إنما هى حياة الآخره فيكون معظم الفائدة الحض على نبذ هذه الدار والاهتمام بتلك الدار لأن هناك هى الحياة الطيبة والعيش الرغد كما أخبر جل جلاله فى كتابه العزيز بقوله (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ﴿ وفيه دليل ﴾ لأهل الصوفة المتبعين للسنة والسنن لأن طريقهم الجد فى اتباع الأوامر واجتناب النواهى ودوام الذكر شأنهم وبه فرحهم فهم الذين فهموا ماإليه خلقوا حتى صار حالهم ومقالهم على حد سواء فهموا فسعدوا إذ علموا وعملوا بما علموا وغرسوا الشجرة فجنوا ثمرها أولئك موضع نظر الله من خلقه بهم يرحم العباد والبلاد أعاد الله علينا من بركاتهم فى الحياة والممات

(٢٦٣) ﴿ حديث فرح المؤمن عند موته للقاء ربه ﴾

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ فَقَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ لَيْسَ ذَاكِ وَلَـكِنْ الْمُؤْمِنُ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَىْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَإِنَّ الْـكَافِرَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَىْءٌ اكره إليه مما امامه فكره لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللهُ لقاءه

ظاهر الحديث يدل على حكمين (أحدهما) أن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه (والثانى) إخباره صلى الله عليه وسلم أنه لاتنجح نفس من هذه الدار حتى تعرف مالها فى تلك الدار من خير أوضده والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ الكلام على معنى أحب ومعنى كره والكلام على هذا المؤمن أى مؤمن هو فأما الكلام على معنى الحب ومعنى الكراهية فهو على نحو ماتقدم الكلام عليه فى الحديث قبله على أحد الوجهين المذكورين بعلتيهما ﴿ وأما قولنا ﴾ أى مؤمن هو فظاهره يعطى أن المراد به المؤمن الكامل الايمان الذى إيمانه بتوفية ما أمر به ونهى عنه لأنه جاء ذكره عليه السلام هنا للطرفين معا الطرف الواحد من جهة الايمان والطرف الآخر طرف الكفر والحرمان التام وبقى الكلام على المتوسطين ذلك وهو المؤمن الذى شاب إيمانه

بالمعاصى والآثام ﴿والجواب﴾ عليه مثل ماتقدم الجواب على المتوسط فى حديث فتنة القبر فيما تقدم من الكتاب حين أخبر صلى الله عليه وسلم إن الموقر هو الذى يجاوب بالحق ثلاثا ذلك الناجى وأن المرتاب الذى لا يعرف دينه يقول «سمعت الناس يقولون شيئا فقلته» فذلك الهالك وبقى القسم المتوسط بين ذلك وتكلمنا عليه هناك والكلام عليه هناك مثله يكون شأن المتوسط هنا ﴿وفيه دليل﴾ على فضل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وعليهن أجمعين وفقههن يؤخذ ذلك من مراجعتهن للنبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الموطن بحسن الأدب بقولهن (إنالنكره الموت) فانظر إلى اختصار هذا اللفظ وماتحته من الآداب والفوائد ويترتب عليه من الفقه جواز مراجعة العالم إذا بقى على السامع فى فهمه إشكال ويكون بأدب ﴿وفيه دليل﴾ على جواز إطلاق اللفظ المحتمل وإن كان الذى قصد المتكلم من محتملاته ليس هو المستعمل بجرى العادة يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه﴾ وظاهر المستعمل بين الناس والذى يسبق إلى الفهم هو الذى راجعت به هذه السيدة وكان قصد سيدنا صلى الله عليه وسلم بذلك وجها خاصا وهو ما أبداه صلى الله عليه وسلم وبينه عند مراجعة هذه السيدة ﴿وفيه دليل﴾ على جواز إلقاء العلم للنساء ولو واحدة منهن يؤخذ ذلك من إلقائه صلى الله عليه وسلم هذه القاعدة الشرعية لهذه السيدة وإلقاؤه ذلك إليها يدل على جواز أخذه منها لأن علم الشريعة لا يحل كتمه ويؤخذ منه جواز إلقاء المعلم المسألة المحتملة ليختبر بها أصحابه أو يسألوه عن بيانها يؤخذ ذلك من هذه اللفظة المتقدم ذكرها ﴿وفيه دليل﴾ على أنه لا يجوز لأحد أن يعمل على لفظ محتمل على أحد محتملاته حتى يدل الدليل عليه أنه هو المقصود يؤخذ ذلك من مراجعة هذه السيدة حتى زال الاحتمال وأقرها صلى الله عليه وسلم على ذلك ﴿وفيه دليل﴾ على تهوين الموت على المؤمن يؤخذ ذلك من فرحه بما أمامه مما بشر به من رضى مولاه عنه وإحسانه فانه من فرح بشىء هان عليه مالقى عليه أو دونه من الشدائد وهذا ندركه حسا فى أهل الدنيا فانهم ماحملوا فيما حملوا من المشاق والشدائد إلا لفرحهم بما وجبهم لها فكيف بالفرح الذى ليس مثله فرح جعلنا الله من أهله بفضله ﴿وفيه دليل﴾ على تشديد الموت على الكافر يؤخذ ذلك من همه وحزنه على ما أمامه فتضاعفت عليه الهموم والشدائد ومما فى معنى ما أشرنا إليه أن بعض الناس مر فى بعض طريقه بشخص نحيف البدن وهو يضرب بالسياط ضربا شديدا وهو مع ذلك لا يتكلم ولا يلتفت لها حتى إلى آخر سوط صاح واستغاث استغاثة شديدة فتعجب من كان حاضرا من شدة صبره أولا ثم تعجب منه آخرا مما ظهر منه فلما خلى عنه تبعه فقال له ناشدتك الله ماشأنك إنى تعجبت منك أول ضربك وحملك ذلك البلاء العظيم ثم تعجبت منك من كونك آخرا من سوط واحد ظهر منك ضد ما كنت عليه فقال له إن العين

التي كنت أعذب من أجلها كنت أشاهدها فلم أحس بتلك الأمور التي جرت على البدن مع ضعفه فلما احتجب عني وجدت ألم الحجاب أشد من تلك الآلام فاجتمعت على المحن فلم أحلها فظهر ذلك الذي ظهر مني أعاذنا الله من المحن جميعا بمنه وكرمه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن عند بوادي أمور الآخرة يقع هناك التصديق للمؤمن والكافر بلاشك ولا ارتياب يؤخذ ذلك من فرح المؤمن بما يبشر به وحزن الكافر وكراهيته بما يبشر به فلولا أنهما في التصديق على حد سواء ماحزن هذا وفرح هذا وبقي ﴿ بحث ﴾ وهو أن يقال متى يكون ذلك ﴿ فالجواب ﴾ إما من الحديث فلا يؤخذ تعيين الوقت لكن يؤخذ من حديث غير هذا وهو قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن الله يقبل توبة عبده المؤمن مالم يغرغر ﴾ أو كما قال وهو إذا كانت الروح في الحلقوم وعاين مبادىء أمور الآخرة فهناك يكون وقت البشارة ولأنه لو كانت البشارة للكافر قبل ذلك الوقت الذي تقبل منه التوبة والاسلام وحصل له التصديق كان إذ ذاك يسلم الكافر ويتوب العاصي فلما كانت البشارة في وقت لاينفع فيه التوبة ولا الاسلام حصل له التصديق في وقت لاحيلة له في الخلاص فاشتد لذلك الحزن عليه والله أعلم وقد أخبرني من أثق به بما يقوي ما أشرنا إليه أنه كان له بعض من يقرب منه وكان مسرفا على نفسه فابتلي في بدنه فتاب ورجع إلى الله وبقي معه الخوف بما تقدم فكان يقول لذلك الشخص مع مرور الأيام يافلان كيف يكون قدومي على الله وبماذا ألقاه ويحزن لذلك كثيرا فلما مرض مرض الموت واحتضر التفت إلى ذلك الشخص بعد ما نظر إلى السماء وتبسم وتهلل وجهه فرحا فقال يافلان أبشر فما ثم إلا خيرا وشهق شهقة طلعت منها روحه وفيه قيل :

للموت فاستعد إن كنت عاقلا وبالتقوى فتزود إن كنت راحلا
وإلى الله فارجع فانك عليه قادم عاجلا وفي البشارات إشارات بها السعيد حافلا

جعلنا الله ممن احتفل بها وبها سعد بمنه

(٢٦٤) ﴿ حديث مايتبع الميت إلى قبره ﴾

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ

ظاهر الحديث أن الميت يتبعه الأهل والمال والعمل فلا يبقى معه إلا عمله ويرجع الباقي والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ الكلام على الاتباعية كيف هي وما الحكمة في الاخبار بهذه الثلاثة ونحن نعرف ذلك ونشاهده ﴿ أما قولنا ﴾ في الاتباعية كيف هي فالتقسيم يقتضي أن يتكلم على كل واحدة من الثلاثة

على حدته فاتباع الأهل هوحملهم جنازته وصيغة اللفظ تقتضى أن يكون الماشون مع الجنازة خلفها والسنة أن يكون الماشون مع الجنازة أمامها وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يضرب الناس بالدرة على المشى خلفها، يقول إنما أنتم شفعاء لها والشفيع يكون أمام المشفوع له أو كما قال رضى الله عنه والجمع بين ذلك أن يقول إن الذى يخرج من أجل شخص حيا كان أو ميتا فانما هو تابع له وإن كان يمشى أمامه ألا ترى أنه ليس له اختيار أن يقصد موضعا إلا الموضع الذى يقصد الذى خرج معه فهو تابع له فلما كان خروج الميت ومشيه إلى قبره فمشى أهله معه إلى القبر إنما هو من أجله فانهم لا حاجة لهم فى القبر نفسه فهم فى مشيهم وإن كانوا أمامه تابعون له حيث كان قبره مشوا معه إليه فبان فى حقهم إسم التبعية له وتقدمهم أمامه اتباعا لسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وأما اتباع المال ففيه ﴿ بحث ﴾ وهو أن الميت عند خروج نفسه رجع المال لغيره فكيف يصح أن تقول ماله تبعه وهو لغيره وماذا من المال يتبعه إلى قبره فمن كانت له دور أو بهائم أو عين كيف يتبعه إلى قبره ﴿ والجواب ﴾ إن ذلك الزمان الذى بين دفنه وخروج الروح المال فيه مضاف إليه لأن السنة أحكمت أن لا يقتسم ماله إلا بعد ما يخرج منه كفنه وما يحتاج إليه من جهازه إلى قبره ووصية ودين إن كان عليه وبعد ذلك إن فضل من المال فضل اقتسمته الورثة بمقتضى ما فرض لهم والسنة تعجيل دفن الميت كما قال صلى الله عليه وسلم « إنما هو خير تقدمونه إليه أو شر تضعونه عن رقابكم » أو كما قال عليه السلام فبان أن يقال له فان أمره فيه عامل . هو إليه فى الوقت مضاف من أجل أنه إنما يكنى عن المال فى الوقت تركة فلان الذى هو الميت ولم يحصل يد أحد ممن له فيه حق على شىء منه بعد ﴿ وأما قولنا ﴾ ماذا يتبعه من ماله فان العرب تسمى البعض باسم الكل والكل باسم البعض فيتبعه من ماله عبيد إن كان له وما يحمل عليه وما يحفر به قبره من الآلة وما يشبه ذلك فيصح أن يطلق عليه اسم ماله ومن جهة المعنى إذا رجعوا من دفنه إنما يأخذون فى تقسيم المال إلى من له حق فرجع الاسم معه إلى وقت وصولهم إلى منزله وتوزيعه على من له فيه شىء فعند ذلك رجع المال لمن حصل له بعد يصح أن يقال تبعه ماله من جهة الحس ومن جهة المعنى وأما اتباع عمله له ففيه (بحث) أيضا وهو أن عمله قد رفع وكتب ومونه جاء بعد نفاذ عمله ورفعه فكيف يكون المتقدم تابعا للمتأخر ﴿ فالجواب ﴾ أنه لما كان العمل وإن كان قد رفع فصاحبه به مطلوب وبه مأخوذ لا يمنعه عنه مانع حيث كان فصح أن تقول عنه تابع وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فى غير هذا الحديث « إن كان صالحا لم يتأنس إلا به وإن كان سيئا لم يستوحش إلا منه » أو كما قال عليه السلام وقد جاء « إن العمل إذا كان صالحا دخل على المرء فى قبره فى صورة شخص حسن الصورة طيب الرائحة نورى فيأنس به من وحشة القبر فيقول له من أنت الذي قد من الله على بك فيقول له أما تعرفني فيقول له لا أعرفك فيقول

له أنا عملك الصالح فى دار الدنيا لاأفارقك وإن كان العمل سيئا دخل عليه فى صورة وحشة منتنة ذو ظلمة فيستوحش منه زيادة لوحشة القبر فيقول له من أنت الذى روعتنى فيقول له أما تعرفنى فيقول له لاأعرفك فيقول له أنا عملك السيء فى دار الدنيا لاأفارقك» أوكما ورد عافانا الله من سيء الأعمال بمنه ﴿ وأما قولنا ﴾ ماالحكمة فى الاخبار بهذا ونحن نشاهده ونعرفه فالحكمة فى ذلك من وجوه ﴿منها﴾ أنه إنما يعاين من جهة الادراك بالحواس رجوع الأهل والمال إنما يعرف من طريق الايمان بما أخبرنا من ذلك فاعادته هنا بعد العلم به لأن ذلك من لازم الايمان فهو تأكيد فى الأخبار حتى يوضح أمر الغيب عندنا فى ذلك مثل نشاهده حسا من الأهل والمال ومنه التنبيه على الاهتمام بتحسين العمل وإيثار الاشتغال به إذ هو الذى يبقى معنا وغيره يرجع عنا فتقديم من يبقى معك على من يرجع عنك ضرورى إن عقلت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الويل كل الويل لمن ترك عائلته بخير وقدم على ربه بشر» أوكما قال عليه السلام ﴿ومنها﴾ التنبيه إلى الزهد فى دار أنت خارج منها على هذه الحالة لامحالة والاقبال على دار ليس لك فيها إلاماقدمته من هذه الذاهبة عنك فاغتنم زمان المهلة قبل وقت الندم ولا ينفع وتطلب الرجوع لتجبر فيقال لك فى «الصيف ضيعت اللبن» ﴿وفيه دليل﴾ على جواز اتخاذ الأهل والمال ولايضران إذا كان العمل صالحا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ يتبعه ماله وأهله ﴾ فلو لم يكن ذلك جائزا ماجعله من التابعين له ويترتب عليه من الفقه أن يذكر الانسان بالخير وإن كان يعلمه ويحذر من الشر وإن كان يعرفه فان الغفلة غالبة علينا ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا تلاقوا يقول بعضهم لبعض تعالوا نؤمن أى نتحدث فى الايمان وأنواع تكليفاته لأن يذكر بعضهم بعض فيقوى إيمانه فيكون ذلك من باب التعاون على البر والتقوى كما قال جل جلاله (وتعاونوا على البر والتقوى) وفى هذا دليل لأهل السلوك فان هذا شأنهم إذا اجتمع أحد منهم مع صاحبه لم يكن أخذهم إلا فى الايمان وأنواع الأعمال والأحوال فان افترقوا اشتغلوا بما به تحدثوا أولئك الذين فهموا معانى الكتاب والسنة جعلنا الله من التابعين لهم باحسان بفضله

(٢٦٥) ﴿ حديث النهى عن سب الأموات ﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا

ظاهر الحديث النهى عن سب الأموات والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هذا النهى على عمومه فى المؤمن والكافر أو فى المؤمن خاصة ﴿فالجواب﴾ أن ظاهر اللفظ يعطى العموم ومايفهم من قواعد الشريعة يخصصه بالمؤمنين لأن الكافر لاحرمة له فى حياته فكيف بعد مماته والمؤمن لما كانت غيبته فى الحياة ممنوعة أمر الشارع صلى الله عليه وسلم

، ستصحاب تلك الحرمة بعد الموت وزاد ذلك بيانا بتعليله عليه السلام النهى بقوله ﴿ فانهم قد أفضوا إلى ماقدموا ﴾ وفى تعليل النهى الذى نهى عنه عليه السلام دليل على تبيين تعليل الأحكام لمن تلق إليه ليكون فى أحكام الله عز وجل على بصيرة ﴿ وفيه دليل ﴾ على فضيلة الايمان وحرمة أهله يؤخذ ذلك من نهيه عليه السلام عن سب الميت من أهل الايمان وإن كان مجرما ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز ذكر الموتى بخير لأن النهى عن الشيء دليل على جواز ضده على أظهر الأقاويل ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه حين خروج الميت من هذه الدار يلقى عمله والمجازاة عليه خيرا كان أوضده يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فانهم قد أفضوا إلى ماقدموا ﴾ كما نبهنا عليه فى الحديث قبل ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن ليس للمرء فى تلك الدار إلا ماقدم من هذه كما أشرنا إليه فى الحديث قبل يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام « أفضوا إلى ماقدموا » ويشهد لذلك قوله تعالى (وأن ليس للانسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى) وفى قوله عليه السلام فانهم قد أفضوا إلى ماقدموا تنبيه لمن بلغه هذا النهى أن ينظر فى عمله خيفة أن يكون سيئا فيقدم عليه ولا بد له من الجزاء عليه فيكون فيه اجتماع أمرين أمر بابقاء حرمة المسلم بعد موته وإن كان مسيئا يستحق السب وتنبيه للحى أن ينظر فى صلاح عمله بينما هو فى دار المهلة خيفة أن يكون فيه مايسوءه فيغفل حتى يقدم عليه فلا يقدر لخلاص نفسه بحيلة من الحيل ومن تبصر انتفع وإلا فالأمر جد والحاكم عدل ولات حين مناص

(٢٦٦) ﴿ حديث صفة أرض المحشر ﴾

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ

ظاهر الحديث يدل على أن الأرض التى يحشر الناس عليها يوم القيامة غير هذه الأرض وأنها بيضاء مستوية مدورة لم يتقدم فيها لأحد ملك ولا تصرف والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال ماالحكمة فى إخبارنا بهذا أوهل هذه الأرض خلقت أولم تخلق بعد وإنما يكون خلقها فى ذلك الوقت وهل نفهم ماالحكمة أيضا بأن لايكون الحساب على هذه الأرض أوليس لنا طريق لذلك وما الفائدة بأن نعت صلى الله عليه وسلم تلك الأرض بصفتين ومعناهما واحد لأن عفراء معناها بيضاء ﴿ أماقولنا ﴾ ماالحكمة فى أن أخبرنا بذلك فاعلم وفقنا الله وإياك أن ذلك لوجوه منها أن فيه دليلا على عظم القدرة وما فيه مما يدل على صفة من صفاته عز وجل يقوى بها الايمان وكل ما فيه زيادة ما فى الايمان فهو من أعظم الفوائد والقرب إليه عز وجل ومنها

الاعلام بجزئيات ذلك اليوم حتى يكون المؤمن فى أمره على بصيرة فيتأكد تصديقه بذلك اليوم حتى يرجع العلم به كأنه عين يقين حتى إذا كان ذلك الوقت لم يزده الأمر شيئا غير أنه انتقل من علم اليقين إلى معاينته ويكون أيضا علمه بجزئياته عونا له على نفسه وعلى عدوه فى القهر لهما وأخذ الأهبة لما يخلص به نفسه فانه يكون علمه على يقين وتحفظ وذلك أزكى فى الأعمال وأبرك ولذلك قال أبو بكر رضى الله عنه « لو كشف الغطا ما ازددت يقينا » لأنه قد حصل له من العلم بذلك اليوم وجزئياته مالا يزيده العيان فيه شيئا ومثل ذلك ماقاله المؤمنون يوم الأحزاب (هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) وكان غير المؤمنين كما أخبر الله عز وجل (أعينهم تدور كالذى يغشى عليه من الموت) فشبه الفريقين فى ذلك اليوم كشبههم يوم القيامة ومعرفة جزئيات الأمر قبل وقوعه فيه رياضة النفس على حملها على مافيه خلاصها هناك وتهوينا عليها أيضا فى ذلك بخلاف الأمر إذا جاء فجأة ولا علم لها به يعظم الأمر عليها أضعاف ماهو وفوائد عديدة إذا تتبعتها ووقفت عليها وجدتها ﴿وأما قولنا﴾ على هذه الأرض خلقت أو إنما تخلق فى ذلك الوقت الذى يحتاج إليها فليس فى الحديث ما يدل على واحد من ذلك والقدرة صالحة غير أنه قد جاء إن الله سبحانه ثمانية عشر ألف عالم والاخبار تقتضى أن تلك الأرض أكبر من هذه بدليل أنه قد جاء أن كل مافى هذه الأرض وما عليها يحشرون يوم القيامة وكل من فى الأرضين السبع وكل من فى السموات من الملائكة وغيرهم وأن هذه الأرض بنفسها تحشر أيضا بدليل أن بقاعها تشهد بما فعل عليها من خير وغيره ولا تشهد إلا وهى حاضرة يشهد لذلك قوله عز وجل (يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها) ونستفيد من الاخبار بأن لله عز وجل ثمانية عشر ألف عالم فان كانت تلك الأرض مخلوقة فتكون واحدة من هذا العدد المذكور وإن لم تكن مخلوقة فليست من هذه العوالم وتخلق بعد والله أعلم بحقيقة ذلك ﴿وأما قولنا﴾ هل تفهم الحكمة فى أن الحساب لا يكون على هذه الأرض فنقول والله أعلم أنه لما شاء القادر أن يستنطق بقاع الأرض بما فعل عليها فتكون شاهدة بذلك والشاهد إنما يكون وظيفته الاشتغال بأداء الشهادة و﴿وجه ثان﴾ وهو أنه لما كان ذلك اليوم يوم عدل وظهور حق فينبغى بمقتضى الحكمة أن يكون المحل الذى يكون فيه طاهرا كما يليق بالحكم وهذه الأرض قد توسخت بالمعاصى والمظالم والتخاصم فيها فلا يليق أن تكون ظرفا لذلك الأمر الحق والخطب العظيم ولوجوه أخر وهو أنه لما كان الحكم فى ذلك اليوم لله وحده خالصا بلا واسطة فينبغى من طريق الاجلال والترفيع لجلاله عز وجل والحكم الحق أن يكون المحل الذى يكون فيه ذلك الحكم الخاص لله وحده لا يتقدم فيها دعوى ملك لأحد وهذه فيها الدعاوى كثيرة ومما روى فى ذلك أن رجلين تخاصما فى أرض فأنطق الله تلك الأرض وقالت فيماذا تختصمون وقد ملكنى قبلكم ألف أعور دون الأصحاء أو كما ورد فى الخصام والتشاجر فيها على هذا القدر الذى لا يعلمه إلا الله

تعالى فكيف يكون عليها حكم أعدل العادلين فتبدلها بتلك الأرض النقية بمقتضى الحكمة واحتمل وجه آخر وهو أنه لما كان ذلك اليوم يوم يتجلى الله سبحانه لعباده المؤمنين، ينظرون إلى وجهه الكريم فلا يكون تجليه عز وجل لعباده إلا وهم على أرض تليق بالتجلى واحتمل مجموع التوجيهات كلها وهذا هو اللائق بالحكمة والتعظيم لحكم رب العالمين وتجليه عز وجل لعباده فسبحان الذى خلق كل شيء وأتقنه ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الفائدة بأن نعت صلى الله عليه وسلم الأرض بصفتين ومعناهما واحد فانما فعل عليه السلام ذلك لرفع الالتباس لأن العرب تقول أسود كالح وأحمر قان وأصفر فاقع فذلك تحقيق لتلك الأسماء من أجل الاشتراك الذى يلحقها فى اللغة مع غيرها إذا لم يؤكدها بزيادة تلك الصفة الرافعة للاشتراك العارض لها وهذا مثله ويترتب على هذا من الفقه أنه ينبغى للمتكلم أن يجرد ألفاظه ويحرزها من الاحتمالات الممكنة فيها وقوله نقية أى ليس فيها جبال ولا عليها شجر ولا نبات ولا فيها خنادق إلا مستوية وقد جاء أنها تمتد مد الأديم فدل هذا على حسن إستوائها وفى كونها بيضاء دليل على أن البياض هو خير الألوان لأن مااختاره الله عز وجل لانفاذ حكمه وتجليه لعباده من الألوان هو خيرها وقد قال صلى الله عليه وسلم «خير لباسكم البياض» ومامنها وجه من الوجوه إلا وفيه دليل على عظم قدرته سبحانه وعظم سلطانه تبارك وتعالى علوا كبيرا

(٢٦٧) ﴿حديث صفة الناس فى الحشر يوم القيامة ﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَقَالَ الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكَ

ظاهر الحديث يدل على أن الناس يحشرون يوم القيامة بلا ثوب يسترهم ولا شيء فى أرجلهم يقيهم من ذلك الهول العظيم وأنهم يكونون على الحالة التى خرجوا عليها من بطون أمهاتهم غير مختونين ولا مقصوصة أظفارهم على وضع الخلقة التى كانوا عليها عند تمام خلقهم وهم فى الأرحام والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ ما الفائدة فى الاخبار بهذا وما الحكمة فى ذلك ومامعنى يحشرون هل الجنس أو النوع ﴿ أما قولنا ﴾ ما الفائدة فى الاخبار بذلك فلوجوه منها المعرفة بأحوالنا فى ذلك الوقت وذلك مما يزيد فى قوة الايمان ﴿وفيه دليل﴾ على عظم قدرة الله عز وجل وذلك مما يوجب زيادة تعظيم جلاله سبحانه فى القلوب وهو مما يقرب العبد إلى مولاه ﴿ وفيه إشارة﴾ إلى أن الخروج إلى الدارين أولا الفاضل والمفضول فى ذلك الوقت على حد سواء وبعد ذلك يكون الترفيع بالتفضيل بحسب ماشاء

الحكيم فخروجنا إلى هذه الدار عراة حفاة غرلا وفى تلك كذلك وبعد وقوع الأمر يكون التفضيل وقدجاءأن أول من يكسى يوم القيامة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعده من شاء الله على ماجاءت به الآثار فسبحان من أبهرت حكمته العقول ﴿ وأماقولنا ﴾ ماالحكمة فيه فهى والله أعلم تصديق لقوله عزوجل (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) وهى أيضا من أعظم الأدلة على عظم قدرته جل جلاله ﴿ وفيه دليل ﴾ لأهل السنة الذين يقولون أن التقبيح والتحسين ليس للعقل فيه مدخل وإنماذلك بحسب ماحد وشرع لأن هذه الدار كشف العورة فيهاممنوع محرم قبيح ﴿ وأماقولنا ﴾ مامعنى يحشرون يعنى هل النوع أو الجنس احتمل الوجهين معا لكن آخر الحديث يبين أنه الجنس وهو جوابه صلى الله عليه وسلم إليها بقوله ﴿ الأمر أشد من أن يهمهم ذاك ﴾ فدل أنه صلى الله عليه وسلم أراد جنس الآدميين وفى قولها رضى الله عنها ﴿ الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ﴾ دليل على أن استصحاب الحكم معلوم عندهم ولا يترك بالمحتمل حتى يأتى أمر لااحتمال فيه ويترتب عليه من الفقه أن مايقعد فى الأحكام بالنص لايزال بالمحتمل وإن كان ظاهرا ويؤخد من مراجعتها جواز مراجعة المفضول للفاضل إذا بقى عليه فى كلامه احتمال لكن يكون ذلك بأدب كما هو ظاهر كلامها وفى قوله صلى الله عليه وسلم الأمر أشد من أن يهمهم ذلك فوائد منها ماذكرناه آنفا من تحقيق ما أراد عليه السلام بقوله يحشرون ﴿ ومنها ﴾ التخويف والارهاب من ذلك اليوم العظيم ليكون ذلك سببا للاستعداد إليه ﴿ ومنها ﴾ أن معاينة الأهوال العظام تنقل الطباع عن عادتها المألوفة لها لأن عادة البشرية إذا نظر الرجل إلى النساء وهن باديات العورات أن ذلك يحرك عنده شهوة الاستمتاع لهن وكذلك النساء أيضا إذا رأين الرجال على تلك الحالة وفى ذلك اليوم من عظم مايعاينون من الأهوال انتقضت الطباع عن عادتها المعلومة منها ويترتب عليه من الفقه إن الخوف ان كان حقيقيا يذهب باغواء النفس وخدعها المعلوم منها وينقل الطباع السوء إلى الحسن والتقويم واليه هى الاشارة بقوله تعالى (ذلك يخوف الله به عباده ياعبادى فاتقون) فلولا أن الخوف يحدث فى الطباع السو شيئا حسنا ماجعله الله تعالى سببا إلى تقواه الذى هو أجل الأحوال السنية ولذلك قال أهل السلوك إن القلب إذا خلا من الخوف خرب وقد ذكر عن بعض الرجال أنه كان إذا آوى الى فراشه يتذكر النار ومافيها فينتفى عنه النوم فيقوم إلى محرابه وينادى ويقول « اللهم إنك تعلم أن خوف نارك منعنى الكرى فيتم ليله مصليا » أو كما قيل ومثل ذلك عنهم كثير وقلة الخوف أوجب لأهل الدنيا التنافس فيها والغفلة عن هذا الخطر العظيم جعلنا الله ممن خاف فازدجر وتذكر فاعتبر وعمل وادخر بمنه وأسعدنا بذلك لارب سواه

(٢٦٨) ﴿حديث العرق الذى يلحق الناس يوم القيامة من شدة هول الموقف﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعاً وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ

ظاهر الحديث الاخبار بشدة الأمر الذى يلحق الناس يوم القيامة حتى يعرقوا فيذهب عرقهم فى الأرض سبعين زراعا ثم يلجمهم حين يبلغ آذانهم والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هذا الأمر للناس عامة أو اللفظ عام والمعنى فيه الخصوص وهل الذراع المذكور فيه من هذا الذراع المعروف عندنا أو غير هذا ﴿أما قولنا﴾ هل هو على العموم فى جمع الناس أم لا ظاهر اللفظ يعطى العموم وقد جاءت أحاديث تخصصه فمنها أنه قد جاء « أن من الناس من ساغ عرقه إلى الكعبين ومنهم إلى الركبتين وإلى وسطه ومنهم من إلى الصدر ومنهم من إلى الثديين ومنهم من يسبح فى عرقه » أى يعوم فيه أو كما ورد وقد جاء أن هناك من لا يحضر تلك المواطن مثل الشهداء لأنه قد جاء أنهم يقومون من قبورهم إلى قصورهم أو كما ورد وقد جاء أن الأنبياء والرسل عليهم السلام على كراسى فى ظل عرش الرحمن وأن العلماء دون الأنبياء بدرجة والصديقين دونهم أو كما ورد وهذه كلها أخبار والخبر لا يدخله نسخ ويسوغ الجمع بينهما أن يقال هذا الحديث هو حال الأغلب من الناس وأن غيرهم ممن ذكرناهم قوم مستثنون ممن ذكروهم فلائل ويبقى هذا على عمومه فيمن بقى لأن الأكثر من الناس يوم القيامة هم الكفار كما جاء أن الله عز وجل يقول يوم القيامة لآدم عليه السلام « أخرج بعث النار من بنيك فيقول يارب وما بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد إلى الجنة » أو كما ورد ثم أصحاب المعاصى بعدهم وهم الذين دون الكفار فى العرق بحسب معاصيهم والله أعلم والذين يسبحون فى عرقهم أشدهم وقد يكونون من جبارة الكفار ورؤسائهم فى الضلالة وهم بالنسبة إلى غيرهم قلائل لأنهم هم «الأريسيون» والله أعلم لأن بهذا التوجيه تستعمل جميع الأخبار وهو الأصلح عند أهل الحديث لأن الوجه الذى يمكن فيه جميع الاحاديث هو الأحسن عندهم إذا لم تكن أخبارا فاذ كانت أخبارا فمن باب أحرى فان الأخبار لا يمكن إسقاط أحدها لعدم النسخ فيه ﴿وأما قولنا﴾ هل الذراع هو هذا الذراع المعلوم عندنا فهذا هو الظاهر والله أعلم وإن كان بعض العلماء قد قال أنه بالذراع الملكى الذى هو ضعفان من هذا وهذا يحتاج إلى توقيف من الشارع صلى الله عليه وسلم والأظهر أنا لا نخاطب إلا بما هو معروف عندنا وإذا كان الخطاب بخلاف ذلك بين لنا بوجه نعرفه أو نعرف نسبته بتقريب ما. هذا هو المتعاهد فى الشريعة غالبا وأما قوله صلى الله عليه وسلم ﴿يلجمهم﴾ أى يبلغ موضع اللجام وهو

أفواههم ﴿ وهنا إشارة ﴾ إذا نظرناها يزيد المرء بها تهويلا وتعظيما وهو أنه قد أخبر ﷺ « أن النار تدور بالمحشر كالخاتم بالأصبع وأن الشمس تقلب وجهها إلى الناس وتدنوا من رؤسهم حتى يكون بينها وبينهم قدر الميل » وهو المرود الذى يكحل به العين فانظر كيف يكون حرارة تلك الأرض التي يكون الناس عليها وماعسى أن يرونها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعا ثم بعد ذلك يلجمهم وكيف تكون حرارته فسبحان الذى حبس أرواحهم مع هذا البلاء العظيم أعاذنا الله منه بجاه نبيه محمد الكريم صلى الله عليه وسلم « تنبيه » إذا نظرت إليه تبين لك من عظم قدرة الله تعالى مايبهر العقول أنظر إلى إخباره عليه السلام بحالة هؤلاء فى عرقهم وتنويعهم على ماذكرناه بحسب الأخبار الواردة فى ذلك ومع هذا قد جاء « أن الناس يحشرون مثل السهام فى الجعبة قدم الرجل على قدم المرأة وقدم المرأة على قدم الرجل ولا يعرف أحدهم الآخر » فتأمل كيف يكون هذا القدر من اجتماع وتلاصق وهم متفاوتون فى العرق ومتفاضلون فى الآلام هذا مايبهر العقول ويدل على عظم قدرة الله تعالى وإن أمور الآخرة ليس للعقل فيها مجال وإنما تؤخذ بالقبول والتصديق الذى لاشك يدخله ولاريب ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس ولا عادة جارية ولا حكمة ولا بشىء من الأشياء ومن وقع له شىء من ذلك فهو دليل على حرمانه وخسرانه إلا أن يتداركه الله بالتوبة قبل الممات وفائدة الاخبار بهذا الحديث وأشباهه أن يتنبه السامع لها لنفسه ويأخذ فى الأمور التى تخلصه من هذه الأهوال على نحو ماشرع له ويلجأ إلى المولى الكريم بالصدق والضراعة الدائمة عساه يمن عليه بالعون على ذلك وينجيه من تلك الأهوال وإلا كانت الفائدة عليه معكوسة وظهرت إقامة الحجة عليه ببيان الأمر الذى هو سائر إليه وتبيين الطرق المنجية له من ذلك يشهد لذلك قوله جل جلاله (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) لأن الرسل عليهم السلام بينوا ماذكرناه فمن لم يفعل قامت الحجة عليه بالهلاك ولا دافع له ولا واق منه أعاذنا الله من ذلك بمنه وفضله

(٩٦٢) ﴿ حديث الحث على الصدقة وأنها ترفع حر النار يوم القيامة ﴾

عَنْ عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْأً قُدَّامَهُ ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما إخباره صلى الله عليه وسلم بأن مامنا من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان أى أنه يشافهه بذاته الجليلة بلا واسطة بينهما والآخر أشار له صلى الله عليه وسلم إلى أن يتقى النار بالصدقة ولو بما قل منها ولو بشق تمرة والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن فيه دليلا على أن احتجابه جل جلاله عن عباده بغير حائل حسى بل بقدرته عز وجل لا غير يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ثم ينظر فلا يرى شيئا قدامه ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار﴾ فلو كان الحجاب بشيء محسوس لكان الناظر يبصره وكذلك حجابه جل جلاله فى هذه الدار أيضا بالقدرة والعز والجبروت لا بالمحسوسات وماجاء فى ذكر الحجاب فى الحديث فتعظيم لمملكة الملك الذى ليس كمثله شيء ومن ليس كمثله شيء فلا يحجبه شيء ومن هذا يستدل على أن المولى سبحانه ليس بمتحيز ولا فى جهة من الجهات فان كل من هو متحيز أوفى جهة من الجهات بحائل محسوس مرئى ﴿وفيه دليل﴾ على أن رؤيته سبحانه أو كلامه أوما كان من صفاته عز وجل إذا تجلى لعبده بذاته أو بصفة من صفاته لايقدر أن يرى معه أو مع صفة من صفاته شيئا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿لا ينظر﴾ وذلك بعد فراغه من سمع الكلام فدل على أن عند مايتجلى عز وجل لعبده بصفة من صفاته وهى الكلام لم يمكنه مع ذلك أن ينظر إلى شيء ومما يقوى ذلك ويوضحه ماجاء فى الذين أكرمهم الله تعالى فى دار كرامته بدوام النظر إلى وجهه الكريم لأنهم لايقدرون معه أن يلتفتوا إلى الجنة ولا إلى نعيمها ولا إلى الحور والولدان ولا لشيء من ذلك حتى يشكوا الحور والولدان إلى الله تعالى كثرة غيبتهم عنهم فيقول جل جلاله « إن الحور والولدان أن قد شكوا طول الغيبة فيقع الحجاب بينهم وبينه » فيرجعون إلى الحور والولدان ثم يستغيثون إلى الله سبحانه من الحجاب فيمن الله جل جلاله عليهم برفعه هكذا دأبهم أوكما ورد ﴿فيه تنبيه﴾ صوفى يدل على أن المحجوب هو الذى ينظر ويلتفت يؤخذ ذلك من أن هذا لم ينظر حتى حجب ﴿وفيه دليل﴾ لأهل الصوفة المتحققين المتبعين للسنة لأنهم يقولون الملتفت هالك يؤخذ ذلك من أن هذا لما نظر أمامه وبين يديه وهذه صورة الالتفات استقبله الهلاك وهو النار أعاذنا الله منها بمنه ﴿وفيه دليل﴾ على قرب النار من أهل المحشر يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام « ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار » فمن استقبله الشيء بين يديه فهو أقرب الأشياء إليه ﴿وفيه دليل﴾ على فضل الصدقة يؤخذ ذلك من كونه صلى الله عليه وسلم أخبر أنها الواقية من النار بقوله عليه السلام ﴿اتقوا النار ولو بشق تمرة﴾ فاذا كانت هى الواقية من ذلك الأمر الخطر فدل ذلك على عظم فضلها وفى هذا دليل لأهل الصوفة المتحققين لأنهم بنوا طريقهم على كثرة البذل والايثار وقد قال صلى الله عليه وسلم عن الصدقة فى هذه الدار وفضلها فيها أيضا « ادفعوا البلاء بالصدقة » وجعله مطلقا من أى نوع كان أعنى دفع البلاء وقال عليه السلام « استعينوا على قضاء حوائجكم بالصدقة » أوكما قال عليه السلام فأخبر عليه السلام عنها بأنها فى الدارين دافعة للبلاء بحسب ماذكرناه آنفا وقد قال الله سبحانه فى كتابه العزيز مايشهد لهذا (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا إنا نخاف من ربنا يوما

عبوسا قمطريرا فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) ﴿وفيه دليل﴾ على قبول الخير من العبد وإن قل يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «ولو بشق تمرة» وبقى هنا إشارة وهى لمن هذا الخير هل لكل متصدق وبكل صدقة كانت من أى نوع كان كسب المتصدق بها أم لا ﴿فالجواب﴾ أنه ليس المراد ذلك بل ذلك للذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم على أوامر ربهم يحافظون بدليل قوله صلى الله عليه وسلم «إن أول من ينظر فيه من عمل العبد الصلاة فان قبلت منه نظر فى سائر عمله وإلا لم ينظر فيه» أوكما قال عليه السلام فمن لم تقبل صلاته ولا نظر فى باقى عمله فأى شىء يقيه من النار وقد استوجب دخولها وكذلك كل فرض لم يفعله لم تغنه النوافل عنه واستحق بتركه دخول النار والعقاب على ذلك بقدر جرمه فكذلك إذا كانت الصدقة من مال غير طيب لم تقبله لقوله صلى الله عليه وسلم «ان الله لا يقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول» وكذلك ان كان فيها شائبة لغير الله تعالى لا تقبل أيضا لقوله تعالى يوم القيامة لمن خلط فى عمله لغير الله شيئا «أنا أغنى الشركاء اذهب فاطلب الأجر من غيرى» فليتنبه المرء لنفسه وعمله ويصلحهما على حسب ما بينته الشريعة وأوضحته وإلا دخل تحت قوله عز وجل (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وبقى ﴿بحث﴾ فى قوله صلى الله عليه وسلم ﴿منكم﴾ هل يعود ذلك على جنس بنى آدم أو هو لجنس المؤمنين ظاهر اللفظ محتمل وما جاء فى الكتاب العزيز يخصصه وهو قوله تعالى فى حق الكفار (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فبهذا يتخصص هذا اللفظ وبقى الكلام للمؤمنين خاصة صالحهم وغيره وبهذا فرح أهل الصوفة وتنعموا لما أيقنوا بسمع كلامه جل جلاله بلا واسطة وتجليه سبحانه لعباده المؤمنين بلا حجاب حتى أنه قد روى عن رابعة العدوية أنها قالت أليس يوبخنى ويقول لى ياأمة السوء فعلت كذا وكذا أوكما قالت فهذا كان عندها من أكبر النعيم أن تسمع كلام الجليل بلا واسطة وإن كان بالتوبيخ فكيف به أن يكون بالعطف والتأنيس كما أخبر عز وجل فى كتابه بالقول لهم (وكان سعيكم مشكورا) ياله من فرح وسرور حارت لديه العقول جعلنا الله من أهله بمنه وفضله

(٠٧٢) ﴿ حديث خلود أهل الجنة فى الجنة وخلود أهل النار فيها إلى الأبد ﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ وَلِأَهْلِ النَّارِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما الأعلام بدوام خلود أهل الجنة وتأبيدهم فيها دواما لا انقضاء له دون موت يلحقهم فيها يشهد لذلك من الكتاب العزيز قوله تعالى (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم) والحكم الثانى الاخبار بدوام خلود أهل النار فى النار خلودا لا انقضاء له ولا موت يلحقهم فيها يشهد لذلك من الكتاب العزيز قوله تعالى

(خالدين فيها لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون) والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال ما الحكمة فى أن أخبرنا بالخلود وما الحكمة فى أن أخبر بوصفين وكل واحد منهما يدل عليه الآخر لأن الخلود يدل على عدم الموت وعدم الموت يدل على الخلود ﴿ والجواب ﴾ أن فى الاخبار لأهل النعيم بدوامه زيادة فى نعيمهم ورفعا لتشويش ممكن وقوعه من خوف سلب ماهم فيه فيضاعف بتحقيق ذلك السرور عليهم ومثل ذلك أهل الشقاوة والعذاب تضاعفت الأحزان عليهم واشتد ألم العذاب عليهم لعلمهم بدوامه تضاعفت الحسرات والآلام ﴿ والجواب ﴾ عن الثانى هو أن فيه لأهل السرور تأكيدا فى الاخبار حتى لايبقى فيه احتمال بوجه من الوجوه ويحصل لهم بذلك أكبر النعيم وهو القطع بدوام نعم المنعم عليهم بلا تعب يلحقهم ولا ألم بوجه من الوجوه المحتملة بحسب ماعهدوا فى هذه الدار لأن نعيمها وإن دام لأحد فالموت يقطعه فأخبروا أن ذلك النعيم بخلاف هذا لأن دوامه لاينقضى ولا لهم فيها موت يقطعه ومثل ذلك فى ضده أهل دار الشقاء لأن يحصل لهم العلم أن عذاب تلك الدار دائم وأنه ليس كعذاب هذه الدار لأن عذابها وإن دام فالموت قاطعه كما قال السحرة لفرعون « إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » وهى منقطعة فلا نبالى بعذابك إفعل مابدالك هذا بلسان الحال الذى هو أبلغ من لسان المقال وأنه ليس هنا موت يقطع لكم ماأنتم فيه فأيقنوا بدوام عقاب الله لهم ونقمه ثم مع هذا القدر من التحقيق فى الاخبار لم يكفهم ذلك حتى زيدوا أن يؤتى بالموت فى مثل كبش وينادى لأهل الدارين جميعا « هل تعرفون هذا فكلهم يقرون أنهم يعرفونه فيذبح عند ذلك بين الجنة والنار » وكل من أهل الدارين يعاينونه حتى يرجع لهم العلم بما قيل لهم من الخلود وعدم الموت عين يقين فينقطع إذ ذاك رجاء أهل النار من رحمة أرحم الراحمين ويرجع لأهل الجنة بدوام نعم الله عليهم ورحمته لهم عين يقين وفى هذا الحديث تضمن الاخبار الحث على الأعمال الموجبة لدار الخير والاحسان والنهى والتحذير عن الأعمال التى توجب الحيرة والهوان وهو حقيقة فقه الحديث وفائدته العظمى لمن فهم وإلا كان حجة عليه لاله (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فماللظالمين من نصير) جعلنا الله ممن ذكر فوعى وسبقت له الرحمة بدار الرضى لارب سواه وهو الولى الحميد

(١٧٢) ﴿ حديث توبيخ الكافر يوم القيامة على عدم إيمانه بالله تعا

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقُولُ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئاً فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي

ظاهر الحديث التوبيخ لأهل النار يقول الله جل جلاله لأقلهم عذابا ﴿ لو أن لك ما فى الأرض من شيء أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقول أردت منك ماهو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت أن لا تشرك بى ﴾ والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال من هو المتكلم مع هذا وما معنى أردت منك وما الحكمة فى أن يكون الكلام مع أقلهم عذابا وما الفائدة لنا فى الاخبار بهذا ﴿ أما قولنا ﴾ من هو المتكلم مع هذا هل الحق سبحانه أوغيره عنه ممن شاء من ملائكته أوغيرهم احتمل الوجهين لأن العرب تقول كلم زيد عمرا وما كلمه إلا غلامه أو رسوله فاذا أرادوا الحقيقة فى أنه كلمه بنفسه قالوا كلمه بنفسه وقد يطلقون المجاز على الحقيقة فيقولون كلمه كلمه وهم يريدون بنفسه فاذا لم يؤكد الكلام بالمصدر احتمل الحقيقة والمجاز وإذا أكدوه بالمصدر كان حقيقة ولا يمكن فيه المجاز والكلام هنا غير مؤكد فهو محتمل للوجهين معا والقدرة صالحة لذلك ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى أردت فهل بها الارادة حقيقة أوهى بمعنى ثان الارادة هنا ولا تكون إلا بمعنى الأمر لأنه سبحانه إذا أراد شيئا كان لا راد لأمره إذ الملك له سبحانه وتعالى لا يكون فى ملكه مالا يريد ولو أراد الله سبحانه وتعالى إسلام الكافر لكان سلما لكن لم يرد عز وجل ذلك منه مع أمره له به فالفرق بين الأمر والارادة ظاهر بين وقد يعبر بالارادة عن الأمر وذلك موجود فى لسان العرب وعلى هذا تأولوا قوله تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) أى لآمرهم وأنهاهم وإلا فلو كان خلقهم لارادة العبادة منهم لكانوا عن آخرهم وكذلك لأنه لا يقع فى الوجود غير ما يريد سبحانه وتعالى والله الموفق ﴿ وفيه دليل ﴾ لأهل السنة الذين يقولون بأن العبد له إرادة ولولا ذلك ما اقتضت الحكمة تكليفه لكن هى متعلقة بارادة الله عز وجل وحكمته فى عباده ويشهد لذلك قوله عز وجل (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) فأثبت عز وجل بهذا لعبده مشيئة ثم أعقب ذلك بقوله تعالى (وما تشاؤن إلا أن يشاء الله) فعلق عز وجل مشيئة عبده بمشيئته سبحانه فصح بمدلول الآيتين التكليف بمقتضى الحكمة ونفوذ حكمه عز وجل فى عباده بالحق الواجب وتصرفه جل جلاله فيهم بالقدرة القاهرة التى لا يبقى لأحد حجة بل لله الحجة جميعا فيا معشر البطالين والملحدين (أنفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) فى سكوت هذا المعذب المخاطب الذى كذبت دعواه دليل على ظهور حجة الله عز وجل على عباده فى الآخرة ولا مخالف منهم فى ذلك يؤخذ ذلك من أنه من يكون يبلغ به شدة العذاب أن لو كان له مافى الأرض جميعا افتدى به فسكت إذ ذاك ولم يدع حجة فلو كانت له حجة يقدر أن يدفع بها عن نفسه ما سكت عنها لا يشك فى ذلك من له عقل ولذلك جاء أنه لا يدخل أحد النار إلا وهو راض عن الله عز وجل لما يرى من ثبوت الحق عليه وأنه مستحق بما يفعل به ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى الكلام مع من هو أقل عذابا منهم فهو إعلام لنا بتهويل الأمر

وعظمه فانه إذا كان هذا حال من هو أقلهم عذابا فما بالك بالذى هو أشدهم عذابا لايجد مايفتدى به أن لو قيل فلا شيء يعدل ماهو فيه وقد يمكن أنه لايقدر أن يتكلم للهول الذى هو فيه ومايوافق هذا الحديث من الكتاب قوله عز وجل (لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم) ﴿وأما قولنا﴾ ماالفائدة بأن أخبرنا بذلك فلوجوه منها الاشارة إلى حقارة الدنيا وجميع مافيها من متاعها لأنه إذا كانت هي وجميع ماذكر لايؤخذ فداء عن أقل أهل النار عذابا فأى شيء خطرها وقد جاء مايوضح ذلك ويزيده بيانا وهو أنه « إذا كان يوم القيامة تقول الدنيا يارب اعطني لبعض أوليائك فيقول لها جل جلاله اذهبي يالاشيء » أوكما ورد وقد قال صلى الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها جرعة ماء » أوكما قال عليه السلام ومنها التحذير عن هذا الأمر الخطر الذى لايؤخذ فيه فداء ولايخلص منه شيء ولا يقدر عليه وفيه حض على الوفاء بالعهد الذى قد ألزمناه أنفسنا وإن هذا عاقبة من نكثه وفيه الاعلام بعظم قدر الايمان بالله تعالى وأنه هو الذى ينجي من ذلك الأمر العظيم لابغيره ولو كان ماعسى أن يكون قال الله عز وجل فى كتابه (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وفيه أيضا الاخبار بتيسر الايمان على من وقف لأنه ليس هو الاعتقاد بالقلب وهذا شيء لاتعب فيه ولولا ذلك ما كان الله عز وجل يقول (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما) ﴿وفيه دليل﴾ على عظيم قدرة الله تعالى يؤخذ ذلك من هذا الخير العظيم القدر الخفيف الحمل لايقدر عليه من حرمه الله منه ويجده عليه أثقل من الجبال الرواسخ فسبحان من خص بالسعادة من شاء بفضله وقضى على من شاء بالشقاوة بعدله ﴿وفيه إشارة﴾ إلى أهل الايمان الذين من الله عليهم به بفضله إلى أن يشكروه على نعمة الايمان لعلها تبقى عليهم ويزدادون منها لأن الله عز وجل يقول (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) ﴿وفيه دليل﴾ على أن القدرة طبعت البشرية على طلب راحة نفوسها يؤخذ ذلك من أن هذا المعذب لو وجد ماعسى أن يجد كان يبذله فى راحة نفسه وهذا المطلب هو الذى أشقى أهل الدنيا لأنهم أرادوا ماطبعت عليه النفوس من طلب راحتها فلم يحسنوا طلب ذلك وأرادوا استعمال الراحة فى غير موضعها فلحقهم التعب فى الدارين معا وجاء أهل السلوك والتوفيق فأبصروا مواطن الراحة وكيف الطريق إليها فعملوا على ذلك فنالوا الراحة فى الدنيا والآخر حتى إنه قيل لبعض المتعبدين أالك كثير ماتتعب نفسك فقال لهم راحتها أريد وقال الامام أبو حامد الغزالى رحمه الله مساكين أهل الدنيا طلبوا الراحة فأخطوا الطريق فاستقبلهم العذاب بين ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن والرغبة فى الدنيا يكثر الهم والحزن » أوكما قال عليه

السلام جعلنا الله ممن رزقه راحة الدنيا والآخرة بمنه

(٢٧٢) ﴿حديث النهى عن النذر وفيه خمسة أحكام﴾

عَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهما قَالَ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّذْرِ وَقَالَ إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيأً وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ مَالِ الْبَخِيلِ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما النهى عن النذر والآخر إخباره صلى الله عليه وسلم أن النذر لايرد شيأ من القدر وإنما يستخرج به من البخيل والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل النهى على الوجوب أو الكراهية وقوله هذا على عموم النذر أو من النذر المعين وما معنى يستخرج به من مال البخيل ومن المستخرج له ومن هو البخيل وأى شيء العلامة التى نعرفه بها وما معنى لا يرد شيأ وما الشيء الذى لا يرد ﴿أما قولنا﴾ هل النهى على التحريم أو الكراهية اللفظ يحتمل لكن ما جاء فى الشرع بالزام النذر لمن نذره والوفاء به يدل على أن ذلك ليس بحرام لأنه لو كان حراما ما الزم صاحبه الوفاء به لأن الله عز وجل يقول فى كتابه « يوفون بالنذر » فمدحهم بالوفاء بالنذر ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا على العموم فى جميع وجوه النذر أو هو على الخصوص فى وجه من وجوهه فاعلم أن النذر على خمسة وجوه منه حرام لا يجوز وما لا يجوز فعله لا يجوز نذره ولا الوفاء به وقد جاء « لا نذر فى معصية » ومن نذره هل يلزمه كفارة يمين أم لا قولان للفقهاء ومنه نذر لا يلزم الوفاء به ولا على قائله شيء وهو نذر ما لا يملكه لقوله صلى الله عليه وسلم « لا نذر فيما لا يملك » أو كما قال عليه السلام ومنه نذر مباح إن شئت فعلت وإن شئت لم تفعل ولا شيء عليك وهو ما نذرت من الأفعال المباحات من أن تنذر أن تمشى اليوم للسوق أو تلبس الثوب الفلانى أو ما فى معناه ومنه نذر مستحب وهو أن تنذر لله طاعة ولا تعلقها بشيء تطلبه من الله تعالى بفعله لك فيلزم الوفاء به والدليل على لزوم ما كان منه طاعة بغير عوض تطلبه وترك ما هو غير طاعة لله ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم « أنه مر على ناس مجتمعين على شخص قائم فى الشمس فقال ما بال هذا فقالو إنه نذر أن لا يتكلم ولا يستظل ولا يجلس ويصوم فقال مروه فليتكلم وليستظل وليجلس وليتم صومه » أو كما قال عليه السلام وكل ما كان من طريق المباح وكان عليه فيه مشقة لم يلزمه منه شيء والذى كان لله فيه طاعة وهو الصوم أمره باتمامه وأما المكروه منه فهو الذى الاشارة إليه فى هذا الحديث وهو الذى ينذر النذر وهو يعتقد أنه يرد عنه شيئا يخافه أو يجلب إليه شيئا يحبه ويعتقد أن ذلك يؤثر على زعمه فهذا لا يرد عنه شيئا يكرهه ولا يقرب إليه شيئا يحبه فأما إن كان نذره ذلك على طريق الشكر لله وهو أن يقول إن قدر لى بكذا وكذا الشيء يحبه أو يدفع عنى لشيء يكرهه فلله على شكر هذه النعمة كذا وكذا لشيء

يسميه من أنواع البر فذلك من قبيل الحسن وقدفعله على وفاطمة رضىالله عنهما فانه مرض الحسن والحسين فقالا إن شفاهما الله تعالى نصوم شكرا لله تعالى ثلاثة أيام فلما شفاهما الله وأخذوا فى صوم نذرهما فعند فطرهما جاء مسكين إلى الباب فأخرجا له جملة طعامهما وطويا ليلتهما وأصبحا صائمين فعند فطرهما أيضا جاءهما يتيم فأخرجا له جميع طعامهما وطويا الليلة الثانية فأصبحا صائمين فعندفطرهما جاءهما أسير فاعطياه أيضاجميع طعامهما وطويا الليلة الثالثة فأنزل الله عزوجل فى حقهما (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكورا إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) ﴿وأما قولنا﴾ مامعنى يستخرج به من البخيل ومن المستخرج له ومن هو البخيل وما علامته فأما البخيل شرعا فهو الذى يبخل بزكاة ماله ومافرض عليه هذا قول فقهاء الدين وأئمته وأمامن المستخرج له فالقدر المحتوم عليه بوساطة الشيطان وتسويله لأن الله عز وجل جعله واسطة لكل شر مقدور كما جعل الرسل عليهم الصلاة والسلام الوسائط إلى كل خير مقدور وكذلك متبعوهم باحسان إلى يوم الدين ﴿وأماقولنا﴾ مامعنى استخراجه فهو ذهابه عن يده ﴿وهنا إشارة﴾ إلى أنه من كان على السنن المباركة والطريقة المرضية فلايخرج ماله إلافيما يرضى ربه ويعود عليه نفعه فى الدارين ومن كان غير ممتثل لأمر ربه يخرج ماله إمافيما لا يرضى ربه أوفيما لا ينفعه حتى تكون النفقة بحسب الحال (الخبيثات للخبيثين) الآية بكمالها يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم «من جمع مالا من تهاوش أذهبه الله فى نهابير» أوكما قال عليه السلام ﴿وأما قولنا﴾ لا يرد شيئا ما معناه فهو بمعنى أنه لا يرد عنه شيئا قدر عليه وكما لا يرد عنه شيئا قدر عليه كذلك لا يوصل إليه شيئا لم يقدر عليه بخلاف الصدقة لأنه قال صلى الله عليه وسلم «ادفعوا البلاء بالصدقة واستعينوا على قضاء حوائجكم بالصدقة» وهنا ﴿بحث﴾ هذه الصدقة تدفع البلاء وتأتى بالحوائج والنذر صدقة أيضا ولا يرد شيئا من البلاء ولا يأتى بشىء من الخير لأن تيسير الحوائج من أعلا وجوه الخير ﴿والجواب﴾ من وجهين (أحدهما) أن الأحكام لله سبحانه يجعل ما يشاء كيف يشاء وليس ذلك لغيره فمن جعل لشىء حكما من الأحكام من تلقاء نفسه أورأيه لم يصح من ذلك شيئا فشاء الحكيم أن جعل للصدقة هذه المنزلة المباركة ولا يلهم إليها إلا من سبقت له سابقة خير ولم يجعل للنذر الذى هو من قبيل المكروه كما تقدم فى الفائدة شيئا غير الاستخراج من البخيل (والوجه الثانى) من طريق النظر وكيف يجب أن يكون أدب العبودية مع الربوبية وهو أنه لما أمر الله عزوجل بالصدقة وأخبر أنها ترد البلاء فجاد هذا العبد بماله الذى هو معلق بقلبه تصديقا لوعد مولاه ورجاء فى فضله فى دفع ما يخافه أو تيسير ما يرجوه فجاد الله تعالى عليه بما أمله من ذلك

بفضله وجاء صاحب النذر المكروه وأساء الأدب مع مولاه وقال إن أنت دفعت عنى ما أخافه من كذا أوبلغتنى ماأريده من كذا لشىء يسميه فانى أعطيك من مالك الذى خولتنى وقد حبست منه الحقوق التى أمرتنى بها كذافلسوء أدبه لم ينفعه نذره شيئا وأخرج ماله عن يده ولم يبلغ به ماأمله عقابا على سوء أدبه وتعديه فى منع ماأمره به ويترتب على هذا من الفائدة أنه لاينال ماعند الله إلا بما أمر به ونهى عنه وحد وشرع من الواجبات والمندوبات والمستحبات لا بغير ذلك جعلنا الله ممن هدى إلى مابه أمر وجنبنا البدع والآثام بمنه

(٢٧٣) ﴿حديث الأمر باتمام الصيام لمن أكل ناسيا﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَكَلَ نَاسِياً وَهُوَ صَائِمٌ فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ

ظاهر الحديث يدل على أن الآكل ناسيا وهو صائم أنه لاشىء عليه فى ذلك ويمسك بقية يومه وصومه مجزىء عنه والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هذا على العموم فى الفرض والنفل أوفى النفل فقط وهل يقصر ذلك على الآكل وحده أو يتعدى إلى غيره من مفسدات الصوم إذا فعلها ناسيا وهل يكون ذلك فى المرة الواحدة فى اليوم الواحد وإن تكرر الفعل منه مرارا فى اليوم الواحد ينتقل الحكم إلى حكم ثان أوالحكم واحد وأن يكون ذلك منه مرارا فى اليوم الواحد وهل هذا أيضا لمن يندر منه النسيان ولمن هومستنكح النسيان على حد واحد وهل هذا خاص لمن يندر منه النسيان لاغير ﴿أما قولنا﴾ هل ذلك على العموم فى صوم الفرض والنافلة أولا فقد اختلف العلماء فى ذلك فمذهب الشافعى ومن تبعه أن ذلك على العموم فى الفرض والنفل ومذهب مالك ومن تبعه أن ذلك فى النفل لاغير وتعليله فى ذلك والله أعلم الأخذ فى الجمع بين الآية والحديث فأما الآية فقوله عز وجل (فمن كان منكم مريضا أوعلى سفر فعدة من أيام أخر) فأوجب الله عزوجل القضاء على المريض والمسافر والناسى فى معنى المريض لأن النسيان من جملة الأمراض إذ أنه عاهة تلحق الذهن الذى هو المقصود من الشخص حتى ينسى ماهو مشروع له ومكلف به فتقع منه المخالفة فى ذلك والنسيان من جملة ماامتحن به بنوا آدم وقد قال الله عز وجل فى حقه (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) قال أهل العلم فى ذلك سلط عليه النوم والنسيان فكانا عاهة تلحقه فى حسن خلقته لحكمة اقتضتها حكمة من لايشبهه شىء وأما الحديث فهو الاحتمال الذى يتطرق للحديث الذى نحن بسبيله عند قوله عليه السلام ﴿فليتم صومه فانما أطعمه الله وسقاه﴾ هل هذا الاتمام لايكون معه إعادة لعدم قصده

الأكل والشرب أوهذا الأمر من أجل حرمة الصوم لايستبيح الأكل لكونه قد أكل ناسيا وانقطع عليه صومه فيتم اليوم مستصحبا للأكل والشرب فأمره عليه السلام باستصحاب الامساك وإن كان قد أكل لحرمة الصوم ولعدم قصده الأكل ويبقى الأمر بالقضاء لذلك اليوم بالقاعدة المتقدمة وأصل مذهبه وسد الذريعة، وهى الأخذ بالأحوط فى النوازل وهو أبرأ للذمة واستعمل الحديث على ظاهره فى النافلة فوقع له الجمع بين الآية والحديث ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يقصر ذلك على الأكل وحده أو يتعدى إلى غيره من مفسدات الصوم إذا فعلت نسيانا فالكلام على هذا يحتاج إلى تقسيم المفسدات للصوم والمتفق فيها والمختلف فيها فاعلم أن مفسدات الصوم ثلاثة الأكل وما فى معناه من الشرب أومايجرى مجراهما وهذا قد يقع بالقصد وقد يقع بالنسيان وأما الجماع فهو يفسد الصوم بذاته وهل يقع ذلك على طريق النسيان أم لا قولان وذلك للخلاف فى أسبابه هل حكمها حكم الجماع نفسه أم لا قولان والثالث الغيبة وهذا مختلف فيه فالجمهور على أنها ليست تفطر الصائم بل هى من جملة الكبائر وهى فى حق الصائم أشد ومن العلماء من يقول أنها مفسدة للصوم وإن كانت من المفسدات للصوم فليس الواقع فيها معذور بالنسيان فلا يدخل تحت مانحن بسبيله وبقى الكلام على الأكل والجماع لاغير فمن يقول إن الجماع يقع بالنسيان كما يقع بالأكل والشرب فيلزمه تعدى الحكم وهو مذهب مالك رحمه الله ومن تبعه فانه يجعل فى عمده وعمد الأكل والشرب القضاء والكفارة وفى نسيانه ونسيان الأكل والشرب القضاء لاغير ومن قال إن النسيان لايمكن فى الجماع وهو مذهب الشافعى رحمه الله ومن تبعه فلا يجرى فيه هذا الحكم ويكون حكمه كله عنده حكم العمد فيلزمه القضاء والكفارة ﴿وأما قولنا﴾ هل ذلك لمن وقع منه فى اليوم الواحد مرارا أوليس إلا لمن وقع ذلك منه مرة واحدة فى اليوم الواحد اللفظ يقتضى العموم مهما وقع ذلك منه على وجه النسيان حقيقة فالعلة بعينها موجودة فالحكم كالحكم على حد واحد ﴿وأما قولنا﴾ هل ذلك على العموم أيضا يتناول كل إنسان النسيان يندر منه أو كان مستنكحا به ظاهر اللفظ يقتضى العموم وما يعرف من قواعد الشرع من الأحكام خلاف ذلك لأن الأحكام لم تأت إلا على الغالب من أحوال الناس . عاداتهم الجارية والعادة من الناس فى أمر النسيان إنما يندر من الشخص مرات يسيرة وأما الذى هو مستنكح به فنادر فينبغى أن يحتاط لذلك لأن ذلك علة بنفسها ﴿ ولوجه آخر ﴾ وهو مما عرف من فعله صلى الله عليه وسلم أنه لما سحر وكان يظن أنه فعل الشىء ولم يكن فعله جعل يسأل أهله هل فعلت كذا أم لا فيعمل بحسب مايقولون له فى ذلك فدل بهذا أن هذا هو حكم الذى يستنكحه السهو فبين عليه السلام بما فعله هنا هذا الحكم كما بين عليه السلام بقوله فى الذى يندر منه السهو ولذلك قال الفقهاء فى الذى لا يمكن أن يعقل من طهارته أو صلاته شيئا مما عليه لكثرة استيلاء السهو عليه أنه يجعل شاهدين عند تلبسه

بالعبادة ويعمل على حسب مايقولان له ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا على وجوه الندب أو الوجوب فهذا موضع بحث والخلاف فيه محتمل ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن المتكلم ينبغى له مراعات من يفهم ومن فهمه بطىء ليجتمع للكل الفائدة المقصودة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام أول الحديث ﴿ من أكل وهو صائم ﴾ ثم قال فى آخره ﴿ فانما أطعمه الله وسقاه ﴾ واللفظ بحكم الأكل والشرب حكم الشرب كله أكل ومما يبين ذلك ماروى فى الحديث أنه كان صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعاما وفرغ منه حمد الله وقال «اللهم أبدل لنا خيرا منه» وإذا أكل لبنا وفرغ منه قال «اللهم زدنا منه» واللبن مما يشرب فسمى شربه أكلا لكن لما كان الآكل يحمل على ظاهره فيما يؤكل دون مايشرب أتى فى الحديث بقوله «فانما أطعمه الله وسقاه» ولهذا وقع الخلاف بين العلماء فى الحديث الذى ذكر فيه أنه أتى صلى الله عليه وسلم بصبي لم يأكل الطعام فبال على ثوبه فقال بعضهم لم يكن شرب من لبن أمه شيئا وأتى به ليكون أول مايدخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم معنى لم يأكل الطعام أنه كان يرضع اللبن ولم يأكل الطعام الذى هو خلاف اللبن فأزال عليه السلام بقوله فانما أطعمه الله وسقاه الخلاف فى ذلك حتى اجتمعوا فى فهم الفائدة جميعا فسبحان من أيده بالفصاحة والبلاغة ﴿ وهنا إشارة ﴾ فى النظر فى هذا الحديث وما هو فى معناه وفى المعارض له وما يترتب على ذلك من الفائدة لمن له فهم وعقل راجح النظر كيف عذرنا بالنسيان فى هذه العبادة العظمى وأبقى لنا حكمها ومافيها من الخير والأجر مع وقوع المخالفة منا بالفعل لذلك وكذلك إذا تتبعت قواعد الشريعة تجدنا بفضل الله قد عذرنا فى النسيان وما عليه استكرهنا بمثل قوله صلى الله عليه وسلم «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» أوكما قال عليه السلام وقال الله سبحانه فى شأن الايمان الذى هو أصل الدين (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) وهذا كله تجده فى الأمور التى بين العبد وبين مولاه وأما المعارض لهذا فهو ماجاء فى عدم العذر بالنسيان فى الأمور التى بين العبيد فتجدنا قد أخذنا فيها بالنسيان والخطأ يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الخطأ والعمد فى أموال الناس سواء» وماجعل فى قتل الخطأ من غرم العاقلة دية المقتول وماجعل فى جرح الخطأ من عدم أرشه بدلا من القصاص فيه وما جعل فى الغيبة من الاثم فى الخطأ والعمد سواء فلم يسامح فى الحقوق التى بيننا كما سومحنا فى الحقوق التى بيننا وبين مولانا جل جلاله على مافسرنا قبل ويترتب على ذلك من الفائدة المحافظة على حقوق الغير لأن تبقى ذمته منها خلية فيكون القصاص أهون عليه فان وافق مع ذلك لتوفية حقوق مولاه فتلك الدرجة العليا وإن نقصه منها شىء على طريق النسيان أو ماغلب عليه بالاستكراه فالعذر له عند مولاه قائم وإن كان ذلك بالقصد فالخروج منه يسير بفضل الله وهو وقوع التوبة ولو عند آخر نفس بخلاف حقوق الغير فان الخلاص منها إذا ترتبت فى الذمة عسير جدا أعاذنا الله من ذلك

بمنه ولهذا كان أهم ما عند أهل السلوك التحفظ على براءة الذمة وحينئذ يأخذون فى العبادة والترقى وإلا عسر عليهم الأمر من هذا الباب وفيما ذكرناه دليل على استغناء الله عز وجل عن عبادة العابدين وتنزيهه عن الضرر بمعصية العاصين لأنه لو كان محتاجا لشيء من ذلك أو يتضرر بشيء منه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا لكان الأمر بالعكس فيكون الذى بين العبد وربه الحكم فيه أشد من الذى بين العباد بعضهم مع بعض فسبحان من بذاته تنزه عن الغير وبها جل وتعالى

(٢٧٤) ﴿ حديث حكم جلد الميتة بعد دبغه ومذهب العلماء فيه ﴾

عَنْ سَوْدَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ مَاتَتْ لَنَا شَاةٌ فَدَبَغْنَا مَسْكَهَا ثُمَّ مَازِلْنَا نَنْبِذُ فِيهِ حَتَّى صَارَ شَنًّا

ظاهر الحديث يدل على أن الدباغ يطهر جلد الميتة ويجوز استعماله والانتفاع به والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا التطهير عام أو فى وجوه مخصوصة وهل الانتفاع به عام أيضا أو خاص ﴿ أما قولنا ﴾ هل الطهارة فيه عامة أو خاصة ففيه خلاف بين العلماء وإن كان اللفظ محتملا لذلك فمذهب مالك ومن تبعه أنها خاصة ومذهب الشافعى ومن تبعه أنها عامة ويقوى مذهبه فى ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث غيره « أيما إهاب دبغ فقد طهر » ﴿ وأما قولنا ﴾ هل الانتفاع عام فى كل الوجوه أو خاص ففى ذلك خلاف فمذهب الشافعى ومن تبعه أن الانتفاع به عام فى كل الوجوه وبيعه جائز ومذهب مالك ومن تبعه أن الانتفاع به خاص فى اليابسات ولا يستعمل فى المائعات إلا فى الماء وحده ومن أجل هذا الحديث جعل قولها فننبذ فيه مبينا ومخصصا للوجه الذى يستعمل فيه وعند الشافعى كونهم استعملوه لأن ينبذوا فيه حكم الوفاق وأن ذلك لا يعتبر ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن تملك المال واقتناء الماشية لا يخرج عن الزهد لأن سيدنا صلى الله عليه وسلم قدوتهم وقد كانت الشاة عندهم حتى ماتت حتف أنفها وفيه رد على من يزعم أن الزهد إنما هو بالخروج عن جميع ما يمتلك وهذا يحكم بغير دليل وقد بين صلى الله عليه وسلم هذا أتم بيان بقوله « ليس الزهد بتحريم الحلال وإنما الزهد بأن تقطع إياسك مما فى أيدى الناس وأن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك » أو كما قال عليه السلام فحقيقة الزهد أمر قلبي والاشارة فى ذلك حتى لا يكون فى القلب ميل إلى الدنيا ولا إلى حطامها وإن كان فى يدك منها شيء كما قيل فى وصف القوم استوى عندهم بذرها وذهبها وفضتها وجميع متاعها أى أنهم لا يبالون بشيء من ذلك وإن تصرفوا فيها فبحسب امتثال الأمر كما ذكر عن بعض السادة أنه كان له غنم وبقر فسمع بعض الناس عنه فأتى لزيارته فدخل عليه والغنم التى كانت له والبقر قد خرج بها الرعاة وهو مشمر يجعل العجاجيل فى بيت ويغلق عليها ويحال الغنم فى بيت ويغلق عليها وهو يرمى بدجاج كانت عنده علفها فقال .

الشخص فى نفسه هذا الذى يوصف بالزهد وهو يحرص على الدنيا بمثل هذا الحرص فرفع إليه رأسه وقال يابنى ليس هذا هو الحرص وإنما أنا أرفق بهؤلاء الضعاف فان أمهاتهم قد خرجوا وهم لايطيقون المشى معهم وهؤلاء أعطيهم قوتهم فانى عنهم مسئول وأخبره بأشياء كانت فى خاطره فاستحى ذلك الشخص وحصل له حال مبارك وإنما هرب من هرب من رؤية حطامها وتملكه لأنه رأى نفسه أنه لايقدر أن يعرض عما فى يده فتركه من أجل تلك العلة هذا حال غير المتمكنين وأما من تركه وهو يظن أن ذلك دين الزهد فليس الكلام عليه وقد أقمنا عليه الحجة قبل ﴿وفيه دليل﴾ على أن من السنة تنمية المال يؤخذ ذلك من أخذهم جلد الشاة ودبغه ولم يتنزهوا عنه مع كثرة كرمهم صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم أجمعين وقد جاء هذا نصا منه صلى الله عليه وسلم بقوله « إن الله نهاكم عن إضاعة المال وكثرة السؤال والقيل والقال » أو كما قال عليه السلام ﴿وفيه دليل﴾ على أن من السنة استعمال أثر الحكمة إذا قدر عليها يؤخذ ذلك من قولها ﴿نتبذ فيه﴾ فان ذلك مما يوافق هواهم فهذا استعمل أثر الحكمة وقد كان صلى الله عليه وسلم فى وقت غير هذا يقعد الشهر والشهرين وليس لهم طعام إلا الأسودين التمر والماء ويترتب على هذه الآثار المختلفة عنه عليه الصلاة السلام فى تطوير أحواله المباركة أن السنة إذا وجد العبد بما يفعل به أثر الحكمة أن يستعمل من الأطعمة والأشربة مايصلح به مزاجه لأن يكون ذلك عونا له على عبادة الله لأن ذلك الأقرب إلى الله عز وجل وهو فى ذلك متبع للسنة وإذا لم يجد على ذلك قدرة لايشغل نفسه بطلب ذلك والاهتمام به إلا أنه يرضى بما تيسر له فى الوقت من رخاء وشدة ويوافق فى ذلك القدر بالتسليم والرضا ويعلم أن القدرة قد تبلغه بغير أثر الحكمة أكثر مما يبلغ به أثر الحكمة فى ذلك النوع بحسب ماجرت به العادة له أو مثل ذلك أو أقل لاتتوقف قدرة القادر عن شيء عجزا ولا بخلا ﴿وفى هذا دليل﴾ لأهل السلوك فى اقتدائهم العجيب الذى لايقدر أحد أن يضاهيهم فيه ومما يحكى فى ذلك أن بعضهم مرض من إنزال الدم فعجز عن محاولة أمر نفسه وكان له أخ فى الله مبارك وكان قادرا على وقته فوقع له أن يمر إليه ويكون مرضه عنده فلما دخل عليه فرح به فأول طعام قدم له لحما بخل فقال فى نفسه وكيف يوافق هذا المثل هذه الشكاية من طريق أثر الحكمة ثم قال لنفسه القدرة صالحة لما شاءت وأنت قد أتيت إليه من أجل الله فلا ترد عليه ولا تمتنع عما يسوق لك فهو أبصر فأكل ذلك الطعام وبقى أياما متواليات لايأتيه إلا بذلك الطعام أو مثله مما هو مخالف لشكايته وشكايته كل يوم تنقص حتى برئت فى أقرب زمان وحينئذ رفع عنه أكل طعام الخل ﴿وفيه دليل﴾ على جواز دوام أكل الطيب من الطعام إذا وجد وليس بمناف للزهد ولا للعبادة يؤخذ ذلك من قولها ﴿مازلنا ننبذ فيه﴾ فدل ذلك على دوامهم للانتباذ وهو من أطيب شرابهم بحسب أهوية بلادهم وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه

كان يأكل الطيب من الطعام فى وقته والغليظ منه ولم يذم قط طعاما ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز تخصيص بعض الأوانى ببعض الأطعمة إذا رأى صاحبها فى ذلك مصلحة يؤخذ ذلك من قولها مازلنا ننبذ فيه حتى صار شنا أى باليا فدل ذلك على اتخاذهم ذلك الجلد للانتباذ وتخصيصه به ودوام ذلك حتى صار باليا ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز إضافة الشىء إلى الشخص بأدنى ملابسة مايؤخذ ذلك من قولها ﴿ شاة لنا ﴾ ومازلنا ننبذ فيه بصيغة الجمع والشاة إنما كانت لصاحب البيت أولها فلما كان كل مايكون فى البيت وإن كان الذى يملكه واحد لكن تعود المنفعة فيه على الكل حصل فيه بلازم جرى العادة اشتراك ما فجاز أن يضيفه الشخص إلى نفسه مع الذى هو مالكه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن المصائب تصيب الرفيع والوضيع فى المال والنفس يؤخذ ذلك من موت هذه الشاة وهى فى ملك سيد الأولين والآخرين فان ذلك إصابة فى المال وقد كان صلى الله عليه وسلم يصاب فى بدنه باعتراض الأمراض وهذا ترفيع له فى الدرجات وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله يبغض العفريت الذى لم يرزأ فى بدنه وماله » أوكما قال عليه السلام وقد قال الله عز وجل فى كتابه (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) وقال عز وجل (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه رجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فقد بانت فائدة الامتحان فى الأموال والأبدان بالكتاب والسنة والحكمة فى ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب وقد كان بعض الرجال يقول نحب المرض لتكفير سيآتى ونحب الموت من أجل لقاء ربى فانتبه إلى حال القوم كيف هى من حال الغير يبين لك الخير ويتضح جعلنا الله ممن هداه فى سرائه وضرائه إلى الطريق المبلغ إلى رضاه بمنه وكرمه لارب سواه

(٢٧٥) ﴿ حديث ابن أخت القوم منهم ﴾

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ابْنُ أُخْتِ القَوْمِ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ

ظاهر الحديث يدل على أن ابن أخت القوم منهم وأنه يضاف إليهم والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن يقال ما معنى منهم هل ذلك على العموم فى كل من انقطع عن نسب أبيه أو ذلك فى وجه خاص وما الحكمة فى أن أتى بصيغة القوم وما أراد بها هل القبيلة أو غير ذلك من الرجال دون النساء وهل لهذه النسبة أمر لا يعقل معناه فيكون تعبدا أو لحكمة تعرف ﴿ أما قولنا ﴾ ما معنى منهم وهل ذلك على العموم أو فى أمر خاص اللفظ محتمل وتخصيصه يؤخذ من غير هذا الحديث ويتبين أيضا تخصيصه من قواعد الشريعة فاما تخصيصه من جهة قواعد الشريعة فقد قال صلى الله عليه وسلم « من انتسب إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » أو كما قال عليه السلام فلا يكون على عمومه حتى ينقطع الابن من أبيه ونسبه وأما تخصيصه من غير هذا الحديث فقد قال

صلى الله عليه وسلم « الخال أحد الأبوين » معناه فيما يجب من بره وتوقيره لا أنه اشترك هو والأبوان فى الصبي ولا له معهما فى ميراثه نصيب فكذلك ابن الأخت من القوم أى مثل بنيهم لأنه ما يكون من القوم إلا بنيهم فهو كبنيهم فى الشفقة عليه ولذلك قدم فى الحضانة الأم وأهلها من بعدها على الأب وأهله ويلزم الصبي من البر لهم والاكرام مثل ما يلزم من جهة الأب وقد قال بعض العلماء إذا أردت النصرة فأت العمومة والقبيلة فهم أشد فى الحماية لك وإن أردت الأكل والحاجة من جهة بذل المال أو ما فى معناه فأت الخوولة فهم أحن عليك وأشفق ومما يبين ما ذكرناه أنه صلى الله عليه وسلم دخل على عائشة رضى الله عنها وهى تبكى فقال لها ما يبكيك فقالت ليس لى بما أكنى وعادة العرب يكنون بالأكبر من بنيهم فقال لها « تكنى بابن أختك عبد الله » فجعل ابن أختها مثل ابنها ﴿ وأما قولنا ﴾ ماذا أراد بقوله القوم هل الرجال دون النساء أو الجميع ﴿ فالجواب ﴾ أنه لما كان الحكم فى هذا للرجال والنساء سواء وعادة العرب إذا كان مذكر ومؤنث وأرادوا جمعهما غلبوا المذكر وإن كان هو الأقل وجمعوهما جمع المذكر فلذلك جمع هنا صلى الله عليه وسلم بصيغة جمع المذكر ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا تعبد أو لحكمة تعرف فالحكمة والله أعلم ظاهرة لأن العرب كانوا لا يلتفتون لجهة النساء ولا يعنون بهن وكانوا يقولون فى ابن البنت الذى هو أقرب منه أعنى من ابن الأخت

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

فأراد ﷺ بهذا الحديث وما فى معناه فى نسخ أحكام الجاهلية والألفة بين الأهل والأقارب والله أعلم ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز المخاطبة باللفظ العام والمراد منه الخصوص إذا علمت من فهم المخاطب أنه فهم ما ألقى إليه يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام « ابن أخت القوم منهم » والمقصود بقوله منهم ما أشرنا إليه باللفظ الخاص ﴿ وفى هذا دليل ﴾ لمالك حيث يقول بالمعانى أستعبدنا لا بالألفاظ إشارة منه إلى هذا المعنى فلا نشاحح فى الألفاظ ﴿ وفى هذا دليل ﴾ على فضل الصحابة رضى الله عنهم وتحريهم فى النقل يؤخذ ذلك من قول الراوى ﴿ منهم أو من أنفسهم ﴾ وهذا دأبهم فى النقل ﴿ وفيه دليل ﴾ لمن يقول إن الحديث إنما ينقل مثل القرآن بالواو والفاء يؤخذ ذلك من قوله « منهم أو من أنفسهم » لأن المعنى فى اللفظين سواء فلو لم يكن الأمر عندهم أنه ينقل بالفاء والواو ما فعل هذا ﴿ وفيه دليل ﴾ لمن يقول إن للعالم أن يعلم قبل أن يسأل يؤخذ ذلك من أن سيدنا صلى الله عليه وسلم أخبرهم بهذا الحديث من غير سؤال تقدم ولو تقدمه سؤال لذكره الراوى فان هذا هو المعروف من عادتهم رضى الله عنهم ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن لسيدنا صلى الله عليه وسلم أن يقرر من الأحكام ما شاء بغير وحى فى ذلك يؤخذ ذلك من أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بهذا الحديث ولم يذكر بأنه بوحى وبأى طريق أمرنا من هذين الوجهين يلزمنا العمل بذلك لقول الله عز وجل فى كتابه (لتحكم بين الناس بما أراك الله) وإن كانت المسئلة مختلف فيها لكن هذا هو الظاهر والذى عليه الجمهور وهو المستقر أيضا من أحكام الشريعة لمن تتبعها غالبا

(٢٧٦) ﴿ حديث يحرم على المرء أن ينتسب إلى غير أبيه ﴾

عَنْ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ

ظاهر الحديث المنع من أن ينتسب المرء إلى غير أبيه وهو يعلم ذلك وإن من فعل ذلك لا يدخل الجنة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هو ممن يخلد في النار أو كيف حاله وهل يلحق به الناسي والمكره أو لا وهل الذي يفعله غير مجد هل يلحق به أم لا وهل هذا تعبد أو لحكمة تعرف وهل يتعدى الحكم إلى غير هذا أم لا ﴿ أما قولنا ﴾ هل يخلد في النار مع الكفار أم كيف يكون حاله أما إن مات على الايمان فلا يخلد في النار ويكون معنى الحديث مثل ماقيل في معنى قوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جنهم خالدا فيها) قال علماء السنة معناه فجزاؤه إن جازاه فيكون هذا كذلك لأنه من حرمت عليه الجنة فالنار مأواه لأنه ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ويكون حكم هذا بمقتضى الشريعة التخليد في النار فيكون من الذين يخرجهم الله تعالى بشفاعته الجليلة كما جاء في الحديث إن الله عزوجل يقول بعد مايشفع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرجع إلى النار عن ثلاث مرات يقال له في أول مرة « أخرج من في قلبه مثقال ذرة من الايمان » وفي الثانية «أدنى ذرة من الايمان» وفي الثالثة « أدنى أدنى ذرة من الايمان فلا يبقى في النار إلا من حبسه القرآن فيقول الله جل جلاله شفعت الأنبياء والرسل وشفعت الملائكة وبقيت شفاعة أرحم الراحمين فيقبض الله قبضة من أهل النار ممن حبسهم القرآن فيخرجهم بشفاعته الجليلة ويسمون عتقاء الله من النار » والذين حبسهم القرآن في النار هم على نوعين كفار وغير كفار فغير الكفار مثل صاحب هذا الذنب الذي في هذا الحديث ومثل الذي في الآية وهو القاتل للمؤمن عمدا ومثل المتلاقيين بسيفيهما وما في معناهم مما نص الكتاب أو السنة على تخليدهم في النار فيكون الجمع بين ذلك بأن تقول إن الكفار لايخرجون من النار أبدا و ذلك بنص الكتاب والسنة وإجماع علماء المسلمين فتكون الشفاعة التي هي من قبل الله عز وجل لهذا القسم الثاني ويصدق عليهم أنهم « ممن حبسهم القرآن » حقيقة لأنه ماأخبرت السنة به فالكتاب مخبر به لأنه صلى الله عليه وسلم « ماينطق عن الهوى » وقد تقدم أول الكتاب في هذا بيانا شافيا وما أعدنا منه هذا إلا لضرورة الموضع ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يلحق بالعامد في هذا الحكم الناسي والمكره أما بنص الحديث فيحتمل وأما ماتقرر في الشريعة بقوله صلى الله عليه وسلم « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » أو كما قال عليه السلام وذلك يعطي أن لايلحقوا به في وقوع الاثم والله أعلم ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يلحق بهذا الذي نفعله غير مجد لفظ

الحديث يعطى العموم ويزيد ذلك تأكيدا فى حق اللاهى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل يتكلم بالكلمة من الشر يلهى بها أهله لا يبالى بها يهوى بها فى النار سبعين خريفا » أوكما قال عليه السلام ولوجه آخر من جهة الفقه لأنه يلعب بدين الله ويهزأ بقول الشارع عليه السلام وهذا أعظم الذنوب ﴿وأما قولنا﴾ هل الذى يفعل ذلك مع غيره أى ينسب إلى غير أبيه هذا لا يدخل تحت هذا الحكم وهو من باب القذف وحكم القاذف قد تقرر بحسب ما علم من الشريعة ، وهو بحيث لا يجهل فلا يحتاج إلى بيان ﴿وأما قولنا﴾ هل هذا تعبد لا يعقل له معنى أو لحكمة نعرفها فان قلنا تعبد فلا بحث وإن قلنا لحكمة فما هى فنقول والله الموفق للصواب لما خالف هذا حكمة الله سبحانه وتعالى فى عبيده ويترتب على ما فعله تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله ويترتب عليه هذا الوعيد العظيم ولو اعتقد أن ذلك جائز لكان كافرا بيان ذلك أن الله عز وجل يقول (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) « وحلل من النسب وحرم منه ما شاء » أعنى فى التناكح بينهم حسب ما يعرف ذلك من أحكام الشريعة وقد تقرر الحكم به فلا يحتاج إلى ذكره فاذا انتسب هذا إلى غير أبيه فقد أحرم هذا النظام البديع وحرم على نفسه وعلى غيره نكاح من قد أحله الله له ولغيره وحلل لنفسه ما قد حرمه الله عليه وعلى غيره فانه يتزوج بتلك النسبة التى انتسبها ذوى محارمه الحقيقين وهم عليه حرام ويحرم على نفسه أو على غير محارمه الزوريين بحسب انتسابه فيكون حرم من ذلك ما أحله الله تعالى ﴿وأما قولنا﴾ هل يتعدى الحكم إلى غير هذا أم لا فحيث وجدنا من خالف حكم الله تعالى مثل ما فعل هذا قلنا له الحكم فيه كالحكم فى هذا سواء لأنه بواحدة مما فعل هذا يكون الخلود فى النار أعنى من الاعتقاد لقول الله تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) وباجماع الأمة أن من أحل واحدة مما حرمه الله سبحانه أو حرم واحدة مما أحله الله عامدا لذلك مستبيحا لذلك أنه كافر يستتاب فان تاب وإلا قتل كفرا وفيه معنى آخر وهو سوء أدب العبودية مع الموالية لأن حكم العبودية اتباع كل ما أمرت به الموالية فالعبد إذا خالف حكم مولاه وجب أدبه ولذلك قال بعض أهل التوفيق أعظم الكرامات الاتصاف بأوصاف العبودية وامتثال أمر الربوبية جعلنا الله من أهلها بمنه

(٢٧٧) ﴿حديث إخباره ﷺ بانقطاع النبوات ولم يبق إلا الرؤيا الصالحة﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنهُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ قَالَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ

ظاهر الحديث يدل على انقطاع النبوة ولم يبق منها إلا المبشرات وهى الرؤيا الصالحة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال كيف نفهم قوله ﴿ لم يبق ﴾ وكيف نفهم مامعنى ﴿ الصالحة ﴾ وهل الذى ما بين هذه الرؤيا والنبوة من تضعيف الأجر أو النسبة هل نأخذه تعبدا أو لنا طريق لمعرفة ذلك والتى ليست بصالحة إن كانت حقا فهل تكون من النبوة أم لا وهل هذه المبشرات على عمومها كان الذى يراها كيف كان تقيا أو غير ذلك وما الحكمة فى أن قال ﴿ من النبوة ﴾ ولم يقل من الرسالة ﴿ أما قولنا ﴾ كيف نفهم قوله عليه السلام ﴿ لم يبق ﴾ وهذا إنما يستعمل فى الماضى إعلم أن العرب تأتى بالماضى وتريد به المستقبل إذا كان فى الكلام ما يدل عليه كقول الله تبارك وتعالى (وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس) وهذا إنما يكون يوم القيامة وقد بين صلى الله عليه وسلم هذا فى حديث غيره فقال « لم يبق بعد من النبوة إلا المبشرات » أو كما قال عليه السلام ﴿ وأما قولنا ﴾ مامعنى « الصالحة » فمعناها الحسنة كما قال عز وجل فى قصة موسى مع شعيب عليهما السلام (ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) ولم يرد شعيب عليه السلام مدح نفسه بالخير وإنما أراد به معنى الخير والاحسان لموسى عليه السلام فما فيه خير لك يسوغ فيه أن يقال هذا صالح لك أو يصلح به أمرك أو شأنك ﴿ وأما قولنا ﴾ كيف النسبة بينهما وبين النبوة ومن أين يكون الجمع بينهما وبين النبوة فاعلم أن النسبة بينهما وطريق الجمع من وجهين الواحد من طريق أن النبوة حق لاشك فيها فهذه كذلك حق لاشك فيها وقد نبه صلى الله عليه وسلم على ذلك فى الحديث بعد هذا بقوله « وما كان من النبوة لا يكذب » (والوجه الآخر) هو أنه لما كانت بداية نبوته عليه السلام قبل أن يأتيه الوحى « بالرؤيا الصالحة » كما هو مذكور أول الكتاب « فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » فما كان بدؤها أولا هو الذى يبقى منها آخرا (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا) ﴿ وأما قولنا ﴾ هل التى ليست بصالحة إن كانت حقا تكون من النبوة أم لا فان فهمنا من قوله صالحة الخير الذى فيه سرور للنفس وفرح به لا غير فلا نحكم لها بأنها من النبوة فعلى هذا فتقسم الرؤيا على ثلاثة أقسام فما كان منها يسر فمن النبوة وما كان حلما فهو من الشيطان وما كان منها بين ذلك وهو الذى ليس بحكم ويكره فهو محتمل أن يكون حقا فتلحق بالنبوة لأنه حق فجاءت النسبة ويحتمل أن تكون باطلا فتلحق بالذى هو من الشيطان وهى الأضغاث والأحلام لكن هذا لا يعلم الحق منه من الباطل إلا بحسب ما تستقر به العاقبة وإن قلنا إن معنى صالحة ما يصلح به حالك فان مما يصلح به الحال أن يبين للمرء ما يصلح به حاله من خير يبشره أو شر يحذر عنه فان بهذا أتت النبوة معلمة بطريق الخير ومحرضة عليها ومبينة لطريق الشر ومحذرة عنها فتكون الرؤيا على هذا على نوعين ما يكون منها حق بحسب دليل التعبير فى ذلك فهى من النبوة وما كان مخوفا ولا يعلم له معنى من طريق أدلة العبادة فهى من الشيطان ومما يبين ذلك ما ذكر أنه أتى شخص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنى رأيت فى المنام كأن رأسه قطع والرأس يتدحرج . هو

يجرى خلفه فزجره وقال له «هذه من الشيطان أأحد يقطع رأسه ويبقى حيا يمشى» أو كما قال عليه السلام والوجه الأول أظهر والله أعلم وما ذكرناه من التقسيم والتفسير بين الحسن وضده يحتاج ذلك إلى معرفة علم العبادة على مقتضى الكتاب والسنة وحينئذ نعرف الفرق بينهما وإن لم يكن لنا بذلك علم فلا يحل لنا أن نتكلم فى شىء من ذلك بغير علم فهو من باب الهزل بآثار النبوة وهذا ممنوع ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذه المبشرات على عمومها كان الذى يراها كيف كان تقيا أو غير ذلك أما هذا الحديث فلا يفهم منه من ذلك شىء وقد جاء هذا عنه صلى الله عليه وسلم فى حديث غيره بقوله عليه السلام «يراها الرجل الصالح أو ترى له» لأن الغالب من غير الصالح إما أن يكون من شياطين الانس فكفى بها أو يكون مستغرقا فى دنياه فالغالب عليه حديث النفس وشهواتها فلم يبق مع هؤلاء فى هذا الباب كلام هذا هو الغالب وعليه تحمل الاحكام وما يندر من ذلك فالنادر لا حكم له وإذا ندر يعلل بوجوده بحسب الحال والوقت وإن كنا قد نبهنا على هذا فيما تقدم من الكتاب ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى أنه قال صلى الله عليه وسلم «من النبوة» ولم يقل «من الرسالة» فاعلم أن هذا من أكبر الدلائل على ما خصه الله عز وجل به من حسن البلاغة وسرعة الادراك لغوامض الفوائد على البديهة وذلك أن الأنبياء عليهم السلام منهم من هو مرسل للغير ومنهم من تنبأ وليس بمرسل فلما كانت المرائى منها ما يكون فيما يخص المرء فى نفسه ومنها ما يراها لغيره كما ذكرنا عنه عليه السلام آنفا بقوله عليه السلام «يراها الرجل الصالح أو ترى له» فلهذه النسبة ذكر عليه السلام «النبوة» ولم يذكر «الرسالة» وإنما هى حق مثل ما هى النبوة وبقى فيها احتمال هل تخص أو تعم كما أن النبوة قد يكون معها الارسال فتكون عامة أولا يكون معها إرسال فتكون خاصة ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز مراجعة العالم إذا لم يفهم كلامه يؤخذ ذلك من قولهم ﴿ وما المبشرات ﴾ ويترتب على هذا من الفقه التثبت فى العلوم الشرعية حتى تعلم على تحقيق ويقين والبحث عن ذلك مع الرفيع والوضيع على حد سواء بالأدب لأن ذلك هو الطريق اللائق بالعلم وإلا فصاحبه يدعى زائغ عن العلم وسيرة السلف الصالح من الصحابة رضى الله عنهم وأتباعهم باحسان إلى يوم الدين جعلنا الله من المتبعين لهم بمنه ﴿ وفيه دليل ﴾ على كثرة رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته يؤخذ ذلك من إدخاله عليه السلام السرور عليهم بتحقيق الرؤيا التى هى خير بوجه لا يبقى فيه شك وهو كونه عليه السلام جعلها من النبوة فندخل بذلك المسرة عليهم إلى يوم القيامة ونفى عنهم ما يهتمون به ويتخوفون من الحلم فجعله من الشيطان الذى ليس له قدرة غير التخويف أو التهويل وعلمهم المخرج من ذلك حسب ما تقدم ذكره فى الكتاب وبحسب ما يذكر فى الحديث بعد وترك لهم التى تدل على الشر وليست بحلم من قبيل المحتمل وما هو من قبيل المحتمل فليس يكون عند ذلك له خطر وإذا تتبعت النظر رأيت عظيم الرحمة من المولى الكريم

الذى من علينا بهذا النبي الكريم بهذه الشفقة علينا والرحمة لنا وقد شهد الحق عز وجل له بذلك بقوله تعالى (لقد جاكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم) ربنا تممها نعمة علينا واجعلنا لها من الشاكرين ﴿ ويترتب ﴾ عليه من الفائدة أن إدخال السرور على المؤمنين من السنة ولأهل السلوك فى هذا أقوى دليل لأنهم بنوا طريقهم على جبر القلوب وإدخال السرور على المؤمنين عامة وفيما تقدم آنفا من استشهادنا بقوله صلى الله عليه وسلم « يراها الرجل الصالح أو ترى له » تنبيه على أن الخير فى هذه المبشرات إنما هو للصالحين وكذلك فى كل وجوه الخير فى الدارين هم المقصودون به وقد قال تعالى (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) فياعبد شهوته وأخا غفلته بعت كل خير بصفقه بخس فهلا حكمت حاكم العقل لحل الك عقدة بيعك البخس قبل تصرف يد المنايا فى جميع بضائع حسك ومعناك فلا تجد للحل محلا ولا وقتا

(٢٧٨) ﴿ حديث من رأى المصطفى ﷺ فى النوم يراه فى اليقظة ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما أنه من رآه صلى الله عليه وسلم فى النوم فسيراه فى اليقظة والثانى الاخبار بأن الشيطان لا يتمثل به عليه السلام والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا على عمومه فى حياته عليه السلام وبعد مماته أو هذا كان فى حياته عليه السلام ليس إلا وهل يتمثل بغيره من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين أو هذا من الأمور الخاصة به عليه السلام وهل ذلك لكل من رآه مطلقا أو خاصا لمن فيه الأهلية والاتباع لسنته عليه السلام ﴿ أما قولنا ﴾ هل هذا على العموم فى حياته عليه السلام وفى مماته أو فى حياته لا غير اللفظ يعطى العموم ومن يدعى الخصوص فيه بغير مخصص منه صلى الله عليه وسلم فمتعسف وقد وقع من بعض الناس عدم التصديق بعمومه وقال على ما أعطاه عقله وكيف يكون من هو فى دار البقاء يرى فى دار الفناء وفى هذا القول من المحذور وجهان خطران (أحدهما) أنه قد يقع فى عدم التصديق لعموم قول الصادق عليه السلام الذى لا ينطق عن الهوى (والثانى) الجهل بقدرة القادر وتعجيزها كأنه لم يسمع فى سورة البقرة قصة البقرة وكيف قال الله عز وجل (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى) فضرب قبر الميت أو هو نفسه ببعض البقرة فقام حيا سويا وأخبرهم بقاتله وذلك بعد أربعين سنة على ماذكره أهل العلم لأن بنى إسرائيل تأخر أمرهم فى طلب البقرة على الصفة التي نعتت لهم أربعين سنة وحينئذ وجدوها وكما أخبر أيضا فى السورة نفسها فى قصة العزير

وقصة إبراهيم عليه السلام فى الأربع من الطير وكيف قص علينا فى شأنهما فالذى جعل ضرب الميت ببعض البقرة سببا لحياته وجعل دعاء إبراهيم عليه السلام سببا لاحياء الطيور وجعل تعجب العزير سببا لاحيائه وإحياء حماره بعد بقائه مائة سنة ميتا قادر على أن يجعل رؤيته صلى الله عليه وسلم فى النوم سببا لرؤيته فى اليقظة وقد ذكر بعض الصحابة وأظنه ابن عباس رضى الله عنهما أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم فتذكر هذا الحديث وبقى متفكرا فيه ثم دخل على بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأظنها ميمونة فقص عليها قصته فقامت وأخرجت له جبة ومرآة وقالت له هذه جبته وهذه مرآته صلى الله عليه وسلم قال رضى الله عنه فنظرت فى المرآة فرأيت صورة النبي صلى الله عليه وسلم ولم أر لنفسى صورة وقد ذكر عن السلف والخلف إلى هلم جرا عن جماعة ممن كانوا رأوه صلى الله عليه وسلم فى النوم وكانوا ممن يحملون هذا الحديث على ظاهره فرأوه بعد ذلك فى اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متخوفين فأخبرهم بتفريجها ونص لهم على الوجوه التى منها يكون فرجها فجاء الأمر كذلك بلا زيادة ولا نقص والمنكر لهذا لايخلو أن يصدق بكرامات الأولياء أو يكذب بها فان كان ممن يكذب بها فقد سقط البحث معه فانه يكذب ما أثبتته السنة بالدلائل الواضحة وقد تكلمنا على هذا أول الكتاب وبيناه بما فيه كفاية بفضل الله تعالى وإن كان مصدقا بها فهذه من ذلك القبيل لأن الأولياء تكشف لهم بخرق العادة عن أشياء فى العالمين العلوى والسفلى عديدة فلا تنكر هذا مع التصديق بذلك ﴿وأما قولنا﴾ هل جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام مثله عليه السلام فى ذلك لا يتمثل الشيطان على صورهم أو هذا خاص به صلوات الله وسلامه عليه عليهم أجمعين فليس فى الحديث مايدل على الخصوص قطعا ولا على العموم قطعا ولا هذه الأمور مما تؤخذ بالقياس ولا بالعقل وما يعلم من علو مكانتهم عند الله تعالى يشعر أن العناية تعمهم فانهم صلوات الله عليهم أجمعين أتوا إلى إزالة الشيطان وخزيه فأشعر ذلك أن الشيطان لا يتمثل بصورهم المباركة كما أخبر عليه السلام فى كرامته وكرامتهم « أن لحومهم على الأرض حرام » حتى تخرجهم كما جعلوا فيها كذلك تساويهم فى هذه الكرامة والله أعلم ﴿وأما قولنا﴾ هل ذلك على عمومه لكل من رآه عليه السلام أو خاص فاعلم أن الخير كله المقطوع به والمنصوص عليه والمشار إليه بأدلة الشرع قواعد إنما هو لأهل التوفيق ويبقى فى غيرهم على طريق الرجاء للجهل بعاقبتهم فلعلهم ممن قد سبقت لهم سعادة فى الأزل فلا يقطع عليهم باليأس من الخير لاسيما مع قوله عليه السلام « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لم يبق بينه وبين الجنة إلا شبر أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لم يبق بينه وبين النار إلا شبر أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » لكن كيف يراه من لا يصدق بقوله هذا من طريق الأدلة فبعيد وأما من

فيه مخالفة لسنته عليه السلام فاختلف العلماء فى رؤياه له ﷺ إذا ادعى أنه رآه هل هى حق أم لا وقد تقدم البحث على هذا فى الكتاب فكيف تكون الرؤية فى اليقظة مع عدم التسليم فى رؤيا النوم هذا فيه مافيه وفى هذا الحديث ﴿ إشارة ﴾ وهى أنه لما أخبر صلى الله عليه وسلم أن فى فى آخر الزمان من أمته من يود أنه خرج عن أهله وماله بأن يكون رآه أبقى لهم هذا التأنيس العظيم بأنه من رآه فى النوم فسيراه فى اليقظة فطمعت لذلك نفوس المحبين الصادقين غير المصدقين فرأوا مابه أخبروا كما أخبروا لكن صاحب الشك لايثبت له فى خير قدم وإذا تتبعت أحوال الذين روى عنهم أنهم رأوه صلى الله عليه وسلم تجدهم مع التصديق بهذا الحديث محبين فيه صلى الله عليه وسلم حبا يزيدون فيه على غيرهم وقد صح عندى عن بعض الأشخاص الذين ذكرتهم قبل فى أول الكلام على الحديث أنه صح عنده من طريق لاشك فيه أنه لما رآه فى بعض مرائيه أقبل عليه صلى الله عليه وسلم إقبالا عجيبا فقال له يارسول الله بما استوجبت أنا هذا فقال له صلى الله عليه وسلم « بحبك » فلم يجعل له سببا إلى رفع منزلته غير حبه له ﴿ وهنا إشارة ﴾ لو عرفها المنكر ماأنكر وذلك أن المحب فيمن أحبه فان قد أخرجه اشتغال بمن أحب عن هذه الدار وأهلها فلما كان معدودا فى الفانيين لحق بأهل دار البقاء رؤية أهلها والتنعم بمشاهدتهم وكانت جثته فى هذه الدار كظاهر القبر فى الدنيا وباطنه فى الآخرة لأنه أول منزل من منازل الآخرة وقد تلوح مرارا على ظاهر القبر علامات مما هو داخله من خير أو غيره وهذا من الشهرة بين الناس خلف عن سلف من حيث لايحتاج أن يذكر له حكاية ولا خبر ﴿ وفيه دليل ﴾ على عظم قدرة الله تعالى كيف جعل للشيطان القدرة على أن يتصور فى أى صورة شاء ويتشبه بمن شاء يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ ولا يتمثل الشيطان بى ﴾ فدل على أنه يتمثل بغيره ومثل ذلك جاء عن الملائكة عليهم السلام أن الله عز وجل أعطاهم التطوير يتمثلون على أى صورة شاؤا فانظر إلى حالة ما بين الملائكة وحالة الشيطان وقد أعطيا معا هذه الحالة العجيبة فمن أجل هذا لم يلتفت أهل التوفيق إلى الكرامات بخرق العادة وطلبوا التوفيق لما به أمروا ولطف الله بهم فى الدنيا والآخرة لأن خرق العادة قد يكون للصديق والزنديق وهى للزنديق من طريق الاملاء والاغواء وإنما تقع التفرقة بينهما ماهو منها كرامة أو بلاء وإغواء بالاتباع للكتاب والسنة وقد تقدم من الكلام فى هذا الكتاب مافيه شفاء والحمد لله

(٢٧٩) ﴿ حديث رؤيا النبي ﷺ وإن الشيطان لايتمثل به ﴾

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَايَتَخَيَّلُ بِي وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءً مِنَ النُّبُوَّةِ

ظاهر الحديث يدل على حكمين (أحدهما) أنه من رآه عليه الصلاة السلام فى النوم فقد رآه حقا فان الشيطان لا يتمثل به صلى الله عليه وسلم (والثانى) أن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما معنى ﴿جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة﴾ وما الحكمة فى أن قال فى الحديث قبل «ولا يتمثل الشيطان بى» وقال ههنا ﴿ولا يتخيل بى﴾ أى على احدى الروايتين ﴿أما قولنا﴾ ما معنى جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة فقد قال بعض الناس فيه انه اختلف فى كم سنة أوحى إليه صلى الله عليه وسلم فقيل عشرين سنة وقيل ثلاثة وعشرين سنة فعلى القول بأنه أوحى إليه ثلاثا وعشرين فيجىء الجزء منها نصف سنة لأن ثلاثا وعشرين إذا قسمت كل سنة منها على جزأين جاءت ستة وأربعين وهذا عندى ماله تلك الفائدة ولا على هذا المعنى تكلم صلوات الله عليه وسلامه الذى أيده الله بالفصاحة والبلاغة وإنما المتكلم بهذا أراد أن يجعل بين الرؤيا والنبوة نسبة ما بحسب ذلك المثال كانت له فائدة أم لا وهذا التوجيه الذى رأى لا يجرى على الاطلاق فى جميع الأحاديث التى جاءت فى هذا النوع حتى أنه روى عن بعض القائلين بهذا أنه جاء «أنها جزء من اثنين وسبعين» وقد جاء أنها «جزء من خمسة وأربعين» وجاء «أنها جزء من أربع وأربعين» وجاء أنها جزء من إثنين وأربعين وجاء أنها جزء من أربعين وجاء: أنها جزء من سبع وعشرين: وجاء: أنها جزء من خمس وعشرين: وقد قال بعض الناس إن هذا الاختلاف الذى جاء فى هذه الأجزاء إنما هو بحسب الرائى لها وهذا نوع منه آخر وقد ذكرت فيها أقاويل كلها متقاربة فى النوع الذى أشرنا إليه والذى يظهر لى والله الموفق للصواب أن النسبة التى بينها وبين النبوة من وجهين أحدهما أن النبوة كلها جاءت بالأمور البينة الواضحة ومن الأمور ما يكون بعضها مجملا ثم بينتها النبوة بعد حتى لم يبق فى الشريعة شىء فيه إشكال كما أشرنا إليه فى أول حديث من الكتاب والمرائى منها ما هو نص لا يحتاج فيه إلى شىء ومنها أشياء مجملة فتلك الأشياء المجملة ما يفهم منها الذى له معرفة بطريق [العبارة من الحق الذى يخرج منها إلا كما جاءت الأجزاء منها وذلك الجزء الذى فهمه وهو الحق جزء من النبوة فمرة يكثر ذلك الجزء ومرة يقل فيكون قرب الجزء من النبوة أو بعده بحسب فهم المعبر عنها فأعلاه يكون بينه وبين النبوة خمسا وعشرين جزء وأقلهم فيهما يكون بينه وبين النبوة إثنين وسبعين جزء وما بين هذين الحديثين يتفاوت فيه فهوم الناس ومما يبين هذا الوجه أن شخصا أتى النبى صلى الله عليه وسلم وقص عليه رؤيا رآها وأبو بكر قاعد عنده فقال له دعنى يا رسول الله أعبرها فقال له «إفعل فلما عبرها قال يارسول الله أصبت فيما قلت فقال له صلى الله عليه وسلم أصبت بعضا وأخطأت بعضا فقال أبو بكر أقسمت عليك فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لا تقسم» رواه الترمذى وقد قال أهل العلم بالتعبير

لا يطرأ لأحد أو على أحد شيء فى هذه الدار إلا وهو يراه فى نومه علمه من علمه وجهله من جهله فبهذا يقوى ما وجهناه بفضل الله تعالى ﴿ والوجه الآخر ﴾ هو أن النبوة لها وجوه من الترفيعات والفوائد دنيوية وأخروية فيما يخص ويعم منها مانعرفه ومنها مالا نعرفه والرؤيا ما بينها وبين النبوة نسبة إلا فى كونها حق فهى وما دلت عليه حق كما أن ما دلت عليه النبوة وأخبرت به حق وبقى لمقام النبوة التفضيل بينها وبين الرؤيا بتلك الأجزاء المذكورة فى الحديث ليعلم فضل النبوة إذ الجزء من ستة وأربعين منها يخبر بالحق فى الأمور الحاضرة والغائبة لأن الرؤيا منها ما يدل على ذلك الذى أنت فيه ومنها ما يدل على ما قد مضى ومنها ما يدل على ما يكون وفى كل الوجوه يدل على الحق ويخبر عنه على ما هو عليه إن كان أو يكون فدل هذا على تعظيم مقام النبوة وأنه ليس لقولنا قوة إلى الوصول لذلك فيقوى بذلك إيماننا ويعظم به أجرنا لأنه كلما زاد فى النفوس للأنبياء عليهم السلام تعظيما زاد العبد بذلك لله عز وجل قربة لأن الله عز وجل يقول فى كتابه (ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) وأى شعيرة أرفع من تعظيم مقام أنبياء الله عز وجل ويكون الفرق بين الأحاديث التى ذكرنا فى اختلاف الأجزاء التى هى من خمسة وعشرين جزءا إلى إثنين وسبعين جزءا بحسب ترفيع درجات الأنبياء عليهم السلام بعضهم على بعض لأن الأنبياء عليهم السلام منهم مرسلون وغير مرسلين وليس درجة من هو نبى غير مرسل مثل من هو نبى مرسل والمرسلين منهم صلوات الله عليهم أجمعين بعضهم أعلى من بعض وهذا بحث لا خفاء فيه وكفى فيه قول الله عز وجل (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) فنسبتها من أعلا الأنبياء المرسلين لنسبة إثنين وسبعين ونسبتها من أقل النبيين غير المرسلين نسبة خمسة وعشرين جزء وما بقى بين هذين الحديثين بحسب تفاوت الأنبياء والرسل عليهم الصلاة السلام فى الدرجات بينهم ولذلك ذكر صلى الله عليه وسلم النبوة على العموم ولم يذكر واحدا منهم ولا ذكر نفسه المباركة ولا أشار إليها واحتمل الوجهين وزيادة لمن زاده الله فى ذلك فهما لأنه لا يكون كلامه صلوات الله عليه وسلامه إلا وتحته من الفوائد ما يكثر تعدادها وقد تعجز الفهوم عن إحصائها فأقل مراتب الايمان أن يكون هذا اعتقاد الناظر فى كلامه صلى الله عليه وسلم وما فتح له فيه من الفهم يقول إلى هذا وصل فهمى ولا يقول هذا هو المعنى الذى يدل عليه هذا لا غير ويمنع الزيادة على ذلك لمن فتح الله عليه فى شىء من ذلك بفضله ومنه ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى أن قال فى هذا الحديث على إحدى الروايتين ﴿ فان الشيطان لا يتخيل بى ﴾ وفى الذى قبله ﴿ ولا يتمثل الشيطان بى ﴾ فنقول والله الموفق للصواب وذلك أن مقتضى الحديثين يدل على أن الشيطان له مع الذى يتراءى له فى النوم حالتان إحداهما أنه يتصور ويتطور ويتمثل بنفسه للذى يتراءى له على الصورة التى يريد ما عدا صورة سيدنا محمد صلى

الله عليه وسلم وأنه مرة أخرى توهم للذى يترآى له على أنه على صورة ما وهو فى ذاته على صورته التى هو عليها لم يتغير عنها ومثل هذا يشاهده الناس من الذين يشتغلون بالسحر فى هذا العالم يرى الناظرون أشياء على خلاف ماهى عليه والشىء فى نفسه على ماهو عليه لم يتغير مثل ماروى عن سحرة فرعون مع موسى عليه السلام أنهم أتوا بوقر ثلاثمائة جمل حبالا وعصيا فلما ألقوا حبالهم وعصيهم ظهرت فى عين موسى عليه السلام وجميع الناظرين أن الأرض قد ملئت ثعابين وقال الله عز وجل فى حقهم (وجاءوا بسحر عظيم) وتلك الحبال والعصى باقية على حالها لم تتغير أعيانها كما كانت عليه يشهد لهذا ماذكرناه فى الحديث قبل فى الذى أتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له إنه رآى فى النوم كأن رأسه قطع وهو يتدحرج وهو يجرى خلفه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا من الشيطان لايقطع رأس أحد ويبقى يجرى خلفه » أو كما قال عليه السلام فالشيطان لايتمثل له فى هذه الرؤيا بنفسه على هذه الصورة التى لاتقبلها العقول وإنما خيل له ذلك لكى يفزعه والحديث الذى نحن بسبيله يدل على هذه التخيلات ﴿ وفيه دليل ﴾ على ماذكرناه فى الأحاديث قبل حتى أوردنا من السؤال هل تلحق بذلك تشكله عليه السلام فى خواطر المباركين وأصحاب القلوب والخواطر أم لا فهذا يدل على أنه كما يتمثل على صورته عليه السلام كذلك لايتخيل بها لافى كلام ولافى خاطر ولا فى نوع من الأنواع لأنك إذا نظرت تجد ما تخيل به إلا قسمين إما بالذات أو بما يدل على الذات من كلام أو إشارة أو حديث فى السر أو خاطر فى القلب فدل بالحديث الذى قبل هذا على منعه فى التمثل بصورته عليه السلام المباركة وأنه يتصور على صورة غيره ودل بهذا الحديث على أنه لايتخيل بشىء مما يدل عليه من جهة ما من صفة من الصفات أو لمحة من اللمحات أو خطرة من الخطرات أو إشارة من الاشارات وأن الله عز وجل قد منعه من هذا كله وأنه فى غير جهة سيدنا صلى الله عليه وسلم يعمل من ذلك كله مايشاء وأن الله عز وجل قد أعطاه ذلك وهذه بشارة عظيمة والبحث فى هذا التخيل فى حق غير سيدنا صلى الله عليه وسلم من الأنبياء عليهم السلام كالبحث فى الحديث قبله وهذا كله بشرط يشترط فيه وهو ماقد منا ذكره فيما تقدم عن العلماء فى أن كل مايقع من الأمر والنهى والزجر والمخاطبة وغير ذلك كله فانه يعرض على سنته عليه السلام فما وافقها مما سمعه الرائى فهو حق وماخالفها فالخلل فى سمع الرائى فانه صلى الله عليه وسلم ماينطق عن الهوى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فيكون رؤيا الذات المباركة حقا ويكون الخلل وقع فى سمع الرائى وهو الحق الذى لا شك فيه فكذلك فيما نحن بسبيله من تشكله عليه السلام للمباركين فى أسرارهم ورؤيته عليه السلام فى اليقظة ومخاطبته عليه السلام والخواطر تمر بهم ممن قبله ومايقع من هواجس النفوس من قبله عليه السلام ومايقع

من التخيل والتمثيل عنه عليه السلام فكل ذلك يعرض على كتاب الله وسنته عليه السلام كما تقدم والله الموفق للصواب ﴿وفيه دليل﴾ على عظم قدرة القادر سبحانه مثل ما تقدم قبل ﴿وفيه بشارة﴾ للمحبين فيه عليه السلام المتبعين له فانه إذا كانت رؤياه عليه السلام حقا فكل مايكون من إشارة أوخطرة هو عليه السلام فيها أومنه أنت فانها حق على الشرط المذكور فزادهم بهذا فرحا إلى فرح جعلنا الله منهم بمنه فى الدارين فى عافية لارب سواه

(٢٨٠) ﴿حديث فضل عمر رضى الله عنه فى العلم﴾

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتَّى إِنِّي لَأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ مِنْ أَظْفَارِي ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي يَعْنِي عُمَرَ قَالُوا فَمَا أَوَّلْتَهُ يَارَسُولَ اللهِ قَالَ الْعِلْمُ

ظاهر الحديث يدل على فضل عمر رضى الله عنه وماخصه الله به من العلم والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال مامعنى هذا العلم الذى خص به عمر رضى الله عنه وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال «أنا مدينة الشجاعة وعمر بابها وأنا مدينة العلم وعلى بابها» فهل بين هذين الحديثين تعارض وهل لهما وجه يجتمعان به فاعلم وفقنا الله وإياك أن هذين الحديثين ليس بينهما تعارض وأن أحدهما يقوى الآخر وذلك أن العلم فى الشريعة علمان أحدهما العلم بقواعد الشريعة وفروعها وأحكامها واستنباط ذلك من الكتاب والسنة وفهم ذلك بالنور الذى يهبه الله من يشاء من خلقه وهؤلاء هم ورثة الأنبياء عليهم السلام وهذا هو العلم الذى خص على رضى الله عنه بالزيادة فيه على غيره من الخلفاء بحسب ماشهد له به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك كان عمر رضى الله عنه يقول «أعوذ بالله من معضلة لايحضرها على» وإن كان الكل رضى الله عنهم بذلك علماء لكن خص على رضى الله عنه بالزيادة فيه والعلم الثانى هو العلم بالله وعظم قدرته وجلاله والعلم بأنه الغالب على أمره وهذا العلم لايعلم حقيقة حتى يكون للعالم به العلم به حالا وهم القليل من الناس كما أخبر الله عز وجل فى كتابه حيث يقول (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون) وإن كان الصحابة والخلفاء لعمر رضى الله عنهم أجمعين يعلمون ذلك حقيقة لكن أعطى الله عز وجل لعمر رضى الله عنهم فى ذلك زيادة وتلك الزيادة هى التى أوجبت له الشجاعة فى الدين حتى شهد له بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «أنا مدينة الشجاعة وعمر بابها» ولم يعن صلى الله عليه وسلم الشجاعة التى هى فى القتال فى مقارعة الأبطال فانما خص الله عز وجل بها سيدنا صلى الله عليه وسلم فى هذا لايقدر أحد أن يكون لها بابا كما روى عنه عليه السلام فى ذلك حتى قال على رضي الله تعالى عنه «كنا إذا اشتد القتال

اتقينا برسول الله ﷺ ، وتلك الزيادة التى أوجبت له الشجاعة هى التى أوجبت له أن يسمى فاروقا لأن يوم إسلامه فرق الله فيه بين الحق والباطل وعبد الله جهرا وأعلى الله به كلمة الحق ومناره كما هو الحديث المأثور فى ذلك فظهر بما أبديناه كيفية اجتماع الحديثين وتقوية أحدهما الآخر ﴿وهنا بحث﴾ وهو أن يقال ماهى الحكمة بأن تأول سيدنا صلى الله عليه وسلم اللبن بالعلم الذى أشرنا إليه قبل ﴿والجواب﴾ أنه إنما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم اعتبارا بالذى بين له أول الأمر فأخذ اللبن حين أتى بقدحين قدح خمر وقدح لبن فخير أن يأخذ أيهما شاء فأخذ اللبن فقال له جبريل عليه السلام اخترت الفطرة لو أخذت الخمر لغوت أمتك يعنى بالفطرة فطرة الاسلام يعنى « فطرة الله التى فطر الناس عليها » وحقيقة الفطرة تقتضى المعرفة بحقيقة الربوبية وجلالها وكمالها وأنها الغالبة على أمرها ومانقص من نقص من ذلك إلا بالمجاورة للغير كما قال الصادق صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ﴿وفيه دليل﴾ على جواز بث الرؤيا لمن هو أقل علما من الرائى يؤخذ ذلك من ذكر سيدنا صلى الله عليه وسلم رؤياه للصحابة رضى الله عنهم ويترتب على ذلك من الفقه إلقاء العالم المسائل وسؤاله فيها لمن هو دونه فى المرتبة ﴿وفيه دليل﴾ على أن من الأدب فى علم العبارة إذا قص الرؤيا من هو أعلم بها على من دونه أن يرد الأمر فى ذلك إليه ويسأل عن معناها فانه يغلب على الظن إنما كان ذكره ذلك لمن دونه إلا أن يسألوه فيعلمهم يؤخذ ذلك من قول الصحابة رضى الله عنهم لما قص سيدنا صلى الله عليه وسلم الرؤيا لأنه عليه السلام ما أراد منهم أن يعلموه تأويلها وإنما كان قصده أن يسألوه فيعلمهم فلحسن أدبهم فهموا عنه فعملوا على ما يقتضيه الأدب فاستفادوا وأفادوا وكذلك ينبغى الأدب فى جميع العلوم فان من سنة العلم الأدب فيه ومع أهله إذا كان لله ﴿وفيه دليل﴾ على أن علم سيدنا صلى الله عليه وسلم بالله عز وجل وجلاله لايبلغه فيه غيره يؤخذ ذلك من أنه عليه السلام شرب كما أخبر حتى رأى الرى يخرج من أظفاره ثم أعطى فضله عمر فانظر بنظرك إلى الذى شرب فضله عليه السلام كيف كان قوة علمه الذى لم يقدر أحد من الخلفاء يماثله فيه فكيف بغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم وكيف بمن بعد الصحابة ثم انظر كيف يكون من شرب حتى رأى الرى يخرج من أظفاره لايمكن أن يبلغ أحد ذلك المقام فجاء شربه صلى الله عليه وسلم وشرب عمر كما مثل صلى الله عليه وسلم بقوله أنا مدينة الشجاعة وعمر بابها فان نسبة ماشرب عليه السلام من ذلك اللبن والذى شربه عمر كنسبة المدينة وسعتها من الباب وقدر مساحته وقدر سعته فما أحسن عباراته عليه السلام وما أحلى إشاراته وفى تمثيله عليه السلام فى اليقظة بالمدينة وبابها وما مثل له فى النوم بالشرب على ماهو مذكور فى الحديث وكيف ظهرت النسبة بينهما على حد سواء ﴿وفيه دليل﴾ على أن كلامه عليه السلام كله بالله وعن

الله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) ﴿وفيه دليل﴾ على ماقدمناه فى الحديث قبل أن من الرؤيا ما يكون يدل على الحال وعلى الماضى فان هذا الذى رآى سيدنا صلى الله عليه وسلم هو تمثيل بأمر قد وقع فان الذى أعطى عليه السلام من العلم بالله قد كان وكذلك عمر فكانت فائدة الرؤيا أن عرف بقدر النسبة التى بين ما أعطى عليه السلام من العلم وما أعطى منه عمر وإن كان عليه السلام السبب فيه لعمر رضى الله عنه وعلى يديه الكريمتين كان ذلك الخير ولأن يعرف به الغير حتى يقدر لكل أحد قدره بحسب مافتح الله عليه من الخير ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «نزلوا الناس منازلهم» أى بقدر ماجعل الله لهم «ولا تبخسوا ولا تتغالوا وأقيموا الوزن بالقسط وكونوا عبيدا ولا تكونوا موالى» أوكما قال عليه السلام

(٢٨١) ﴿حديث فضل عمر رضي الله عنه وعلوه فى الدين﴾

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَىَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِىَّ وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ وَمَرَّ عَلَىَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ قَالُوا مَا أَوَّلْتَهُ يَارَسُولَ اللّٰهِ قَالَ الدِّينُ

ظاهر الحديث يدل على فضل عمر رضي الله عنه فى الدين وعلو منزلته فيه والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال ما معنى الناس المعرضون هل على العموم أو على الخصوص وما معنى الدين هنا ﴿أما قولنا﴾ هل يعنى بالناس العموم أو الخصوص فالظاهر أن المراد به الخصوص لأنه لايمكن أن يكون المراد العموم لأنه إذا كان ذلك دخل تحته الكفار ولا يمكن ذلك لأن كل من رآه كانت عليهم قمص منها ما يبلغ الثدى وهو أقلهم حتى إلى الذى يجر قميصه وهو أعلاهم ثم تأول عليه السلام ذلك بالدين والكفار لايدخلون فى هذا لأنه ليس لهم من الدين مايبلغ لا الثدى ولا لغيره فهو لفظ عام والمعنى به الخصوص وهم أهل الايمان والاسلام وبقى الاحتمال هل المراد بذلك جنس المؤمنين من أمته عليه السلام وغيرهم أو المراد بذلك أمته صلى الله عليه وسلم أو المراد بذلك ناس من أمته عليه السلام لاجميع الأمة محتمل لكل ذلك والآخر هو الأظهر والله أعلم ﴿وأما قولنا﴾ مامعنى هنا بالدين فهو ماأخبر الله عز وجل فى كتابه بقوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) الذى هو اتباع الأمر واجتناب النهى وكان عمر رضى الله عنه فى ذلك كما هو المشهور عنه فى علمه وزهده وفضله ﴿وفى هذا دليل﴾ على ماذكرناه فى كثير من الأحاديث قبل أن الطريق إلى الله عز وجل باتباع أمره واجتناب نهيه وبه يكون طريق السلوك ورفعة الأحوال لأهل الأحوال وغير ذلك لاشىء وإن ظهر لصاحبه شىء من خرق العادات فذلك من طريق الاملاء له والاستدراج

﴿وفيه دليل﴾ لما يقوله أهل علم العبارة « أن الرؤيا أقلب تجد » يعنون أن الأمور التى تكون مكروهة فى اليقظه إذا رأيت فى النوم هى حسنة يعنى فى بعض الناس و بعض الأحوال يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم فى قميص عمر الذى رآه يجره أنه تأول فيه حسن دينه وهذه الحالة فى اليقظة محرمة لقوله صلى الله عليه وسلم « أزرة المؤمن إلى نصف ساقه فان زاد فالى الكعبين وما تحت ذلك ففى النار » ويترتب على تأويل سيدنا صلى الله عليه وسلم بأن جعل القميص يدل على الدين أنه كلما يرى فى النوم من حسن أو ضده فى القميص يكون ذلك فى دين لابسه فهذه قاعدة فى علم العبارة وكذلك كلما جاء عنه عليه السلام من تفسير رؤيا من الرائى إن ذلك قاعدة من قواعد علم العبارة لأنه صلى الله عليه وسلم دليل الخير كله ﴿ وفيه بحث ﴾ وهو أن يقال ما معنى الحكمة فى أن جعل القميص دالا على الدين هل ذلك تعبد أو لحكمة فتكون الفائدة بها أكثر فنقول والله الموفق للصواب اعلم أن كل من اتصف بصفة ما إما بملازمته الشىء أو بدعوى فيه فكأنه ألبس نفسه تلك الصفة وهو بصدد أن يخرج عنها أو يتصف بغيرها وحواسه وذاته باقية على حالها فلهذا أشبهه عليه السلام بالقميص فانك إذا لبست القميص فأنت بالخيار فى أن تبقيه على نفسك أو تنزيله عنك ولتلك النسبة قال صلى الله عليه وسلم لعثمان رضى الله عنه « أنهم يطلبون منك أن تخلع ثوبا كساكه الله فلا تفعل » إشارة منه عليه السلام إلى ماطلبوا من عثمان رضى الله عنه من أن يتخلع من الخلافة التى أعطاها الله له وكان أهلا لها وذلك عند قتله رضى الله عنه فلما كان المسلمون ادعوا الاسلام وقد ألبسوا أنفسهم هذه الحالة وجب عليهم بحسب دعواهم أن يكلموا تلك الصفة التى ادعوها فمن كملها جاء ثوبه كاملا ومن أخل بشىء جاء ثوبه ناقصا وكان نقص الثوب بحسب مانقص مما ادعاه من الايمان والدخول فيه ﴿وهنا إشارة﴾ لأهل المرقعة وهى إنه ماحسنت تلك المرقعة على عمر رضى الله عنه الذى كانت فى ثوبه إلا لحسن ذلك الثوب الذى كان تحتها حتى كان يجره بحسن مافضل من طول ذلك الثوب المبارك فعاد بهاؤه وجماله على المرقعة فجاءت كلها حسنة ومما حكى فى هذا النوع أن أحد الملوك بنى بيتا وأراد أن يجلب له من الدهانين من له المعرفة الجيدة لأن يصوروا فيه من التصاوير أبدع مايكون فلما حضروا بين يديه افترقوا على فرقتين كل فرقة تدعى أنها أعرف من الأخرى فقال لهم تأخذ الفرقة الواحدة جانبا من البيت تنفرد به لاتدخل الأخرى معها والفرقة الأخرى الجانب الثانى على هذا الشرط فقالت الفرقة الواحدة بشرط أن تجعل بيننا حجاب حتى لايروا منا أحدا ولانرى منهم أحدا فاذا فرغنا ينظر الملك من هو قائل الحق منا فيما ادعاه فأمر بذلك فكانت الفرقة الواحدة تطلب من أنواع الأدهان أشياء عديدة ولا تبالى بمن يدخل عليها لأن يرى مايظهر من صفتها وكانت الأخرى لاتطلب من الأدهان ولا أنواع مايصنع به شيئا

ولا تترك أحدا يدخل عليها واشتغلت بصقالة الحيطان ودلكها فلما فرغ أهل الدهان قيل للآخرين وأنتم فرغتم قالوا نعم قيل لهم فأزيلوا الستر بينكم فقالوا لانزيله إلا بحضرة الملك كما اشترطنا أولا فلما حضر الملك ونظر إلى حسن مافعله أهل الدهان والصبغ أعجبه فأزالوا الستر الذى كان بينهم فاحسن صقل الحيطان وبياضها وكثر صقالتها انعكست تلك الصورة التى فعلت فى الجانب الثانى وتمثلت فى هذا الجانب الآخر فأعجب ذلك الملك ومن كان معه واستحسنوا فسألهم عن فعلهم ذلك فأشاروا إليه بأن قالوا إنما نحن مع النقا والصفا فاذا كان هذا فى الجماد فكيف يكون فى الغير لكن بشرط أن يكون أهل المرقعة على طريقته رضى الله عنه حالا لادعوى ومن هذا الباب وقع الفرق بين الناس واللبيب فطن ﴿ تنبيه ﴾ ياهذا ثوب دينك وأجده وثيابك فاخلعها ولا تعكس الأمر فتنعكس فما للغرور فائدة إلا زيادة فى التوبيخ والخمول

(٢٨٢) ﴿ حديث صدق رؤيا المؤمن عند قرب قيام الساعة ﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ وَمَا كَانَ مِنَ النُّبُوَّةِ فَانَّهُ لَا يَكْذِبُ

ظاهر الحديث يدل على ثلاثه أحكام أحدها أنها إذا اقترب الزمان لم تكد رؤية المؤمن تكذب والثانى أن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة والثالث أنه ما كان من النبوة فانه لايكذب وإن قلت نسبته وضعفت والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال مامعنى اقتراب الزمان وأى زمان هو وقوله ﴿ لم يكد يكذب ﴾ هل قبل اقتراب الزمان يكون فى رؤيا المؤمن ما يكذب وليس بحق وكيف يجتمع ذلك مع قوله عليه السلام آخر الحديث ﴿ وما كان من النبوة فانه لايكذب ﴾ وكيف نسبة هذه الستة والأربعين من رؤيا المؤمن من أى وجه هى وما الفائدة فى تكرار هذه الأحاديث فى معنى نسبها من النبوة ﴿ أما قولنا ﴾ هو مامعنى اقتراب الزمان وأى زمان هو فأما اقتراب الزمان فهو قربه القول الله تبارك وتعالى (اقتربت الساعة) أى قربت ولذلك عرفه بالألف واللام لقوله تعالى (اقترب للناس حسابهم) أى زمان وقت حسابهم وفى الساعة ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يدل قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لم تكذب رؤيا المؤمن ﴾ على أنها قبل اقتراب الزمان فيها ما يكذب المسألة فيها خلاف بين أهل الفقه على المفهوم حجة أم لا فان لم نقل بالمفهوم فلا بحث وإن قلنا بالمفهوم فعلى هذا يكون البحث فى كيفية جمع أول الحديث أوله مع آخره فقد قدمناه فى الحديث الذى قبل هذا بحديثين أن الرؤيا فيها ما هو بين لايخفى على أحد من أهل

العلم بعبارة الرؤيا وغيرهم . منها مالا يفهمه إلا أهل العلم بعبارة الرؤيا بالرؤيا والذى يفهم منه فقليل فبقلة فهمهم لمعنى تلك الاشارات والأمور المجملة لايخرج لهم من ذلك التعبير الذى يعبرونه بحسب فهومهم إلا القليل فيصدق لغة أن يقال كذبت رؤيا فلان وإن كانت فى نفسها حقا لأنه ماهو من النبوة فليس يكذب بل هو حق لاشك فيه وإنما جاء الكذب من المعبر لها يشهد لهذا قول الله سبحانه فى حق كتابه االعزيز (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا) والكتاب كله فى نفسه حق وهدى لكن يسوقهم الضال الذى نظر فيه بغير هدى جاءه الضلال فنسب ضلاله إلى الكتاب لافترائه على الكتاب بتأويله الفاسد والعرب تضيف الشىء إلى الشىء بادنى ملاسة ما أو شبهة ما فاذا قربت الساعة لم يكن رؤيا المؤمن إلا بالأمور البينة والاشارات الواضحة حتى لايبقى فيها ولا فى تعبيرها على أحد وجه من وجوه الاشكالات فلا يقع تشببها لأحد ممن تكلم فيها إشكال ولا كذب فيصدق عليها أنها لاتكذب فبهذا الوجه يصح الجمع بين أول الحديث وآخره ﴿وأما قولنا﴾ كيف نسبة رؤيا المؤمن من النبوة أى وجه يكون ﴿فالجواب﴾ على هذا قد تقدم فى الحديث الذى قبل هذا بحديثين حيث ذكرنا الأحاديث التى وردت فى تنويع عدد الأجزاء التى أتت فيها بين رؤيا المؤمن والنبوة ومايترتب على ذلك من التأويل لجميعها بحسب ماهو مذكور هناك وبقى هذا الحديث الذى نحن بسبيله لم نذكره هناك وحديث آخر وهو قوله صلى الله عليه وسلم فى «الرؤيا أنها من النبوة» ولم تذكر فيه جزء من الأجزاء قليلا ولا كثيرا فالجواب على الحديث الذى لم يذكر فيه جزء من الأجزاء وجاء أن أهل الحديث من عادتهم إذا أتى حديث عام وآخر مقيد جعلوا المقيد مفسرا للمجمل فكيف إذا كانت المقيدات كثيرة والمجمل واحد فمن باب أحرى لكن زدنا هنا لتلك التوجيهات التى وجهناها هناك وجها آخر بمقتضى هذا الحديث وهو أن ذكره صلى الله عليه وسلم اختلاف تلك الأجزاء من خمسة وعشرين جزء إلى اثنين وسبعين جزء وقد جاء أثر آخر على مايغلب على ظنى ولا أقطع به فى الوقت بخمس وسبعين جزء أن اختلاف تلك الأجزاء تكون بحسب صلاح الزمان وفساده فعند صلاح الزمان وقوة إيمان أهله مثل الصحابة والذين من بعدهم وهم خير القرون كما أخبر صلى الله عليه وسلم تكون نسبة الرؤيا من النبوة بعيدة مثل اثنين وسبعين أو خمس وسبعين إن صح لأنهم عاملون على ماجاءت به النبوة لايلتفتون إلى شىء كما ذكر عن سحنون رحمه الله أنه أتاه بعض إخوانه مكروبا من رؤيا رآها فقال له «الشيطان أراد أن يحزنك ثم أنه وجه وراء قسيس من قسس النصارى فقال له هل رآى البارحة منكم أحد رؤيا تسره فقال له نعم فلان منا وهو كبير فى دينه رآى رؤيا سرته فقال له ألم أقل لك أنها من الشيطان ذهب إليك ليحزنك وذهب لهذا ليثبته على ضلاله أو كما قيل فانظر إلى قوة إيمانه لايعرجون على شىء بل هم مصدقون لما قيل لهم عاملون على ذلك بلا شىء

يعارضهم وإن عارضهم لم يلتفتوا إليه ولا يعرجوا وإذا كان آخر الزمن عند اقتراب الساعة وضعف الايمان وقلة أهله قويت النسبة بين رؤيا المؤمن وبين النبوة بسبعة وعشرين جزء وخمسة وعشرين جزء لأن المؤمن فى ذلك الوقت غريب كما قال صلى الله عليه وسلم «بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء» رواه مسلم فلا يكون للمؤمن فى ذلك الوقت أنيس ولا معين إلا من طريق الرؤيا غالبا وما بين ذينك الحديثين تفاوتت أحوال الناس فيما بين الزمانين على الترتيب ﴿وهنا بحث﴾ وهو ما الحكمة فى هذا التأويل بحسب ما شهد له قول الصادق صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى نحن بسبيله بقوله ﴿لم تكد تكذب رؤيا المؤمن﴾ فاعلم وفقنا الله وإياك أنه مما قد علم من حكمة الله تعالى أن الله سبحانه ما كان يبعث الرسل إلا بعد الفترات التى كانت تأتى بعد الرسل عليهم السلام فلما كان سيدنا صلى الله عليه وسلم آخر الرسل ولا نبى بعده وأن بين موته وقيام الساعة زمان أطول من الفترات التى تقدمته بين الرسل عليهم السلام وعلم الحق عز وجل من عباده أنه مع طول المدى بلا رسول بينهم يهديهم أن الايمان ينقص وأهله يقلون وأراد بفضله «أن تبقى من هذه الأمة عصابة على الحق إلى يوم القيامة لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة» وصح بنقل الرسل صلوات الله عليهم عنه جل جلاله كثرة لطفه بعباده المؤمنين ورحمته بهم ورفقه بهم فجعل لهم من أثر النبوة شيئا يتأنسون به ويتقوى إيمانهم به ويجدون فيه شفاء لبرء حالهم وعونا على مخالفهم وهى الرؤيا الحسنة التى بدىء نبيهم صلى الله عليه وسلم بها كما جاء فى أول حديث من الكتاب «كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» فبالذى بدىء به هذا الخير به ختم (كما بدأنا أول خلق نعيده) ﴿وفى هذا دليل﴾ على فضيلة سيدنا صلى الله عليه وسلم وهو أن أبقى لأمته من الخير الذى أعطى أثرا يهتدون به ويستريحون إليه حتى لا تخل بركته ولا أثره الجليل عن أمته ويبقى هديه عليه السلام لهم فى عالم الحس والمعنى ففى عالم الحس بالثقلين وهما الكتاب والسنة وفى عالم المعنى بالرؤيا الحسنة وكل واحد منهما يصدق صاحبه (فضلا من الله ونعمة) ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكمة فى تكراره صلى الله عليه وسلم هذه الأحاديث العديدة فى شأن نسبة رؤيا المؤمن من النبوة فذلك لوجوه منها أن يحصل لها قوة ولو كان ذلك كله فى حديث واحد لم يكن كذلك ولا يظهر بكثرة ذكره عليه السلام لذلك لأمته كثرة اعتنائه عليه السلام بالرؤيا والبحث عنها لكونها من النبوة لأنه كان من سنته عليه السلام إذا اهتم بالأمر يكرره مرارا ﴿وفيه من الحكمة﴾ أن الحكم إذا كان لا يظهر حقيقة إلا بجميع الآثار التى وردت فيه فلا يعلم ذلك إلا القليل لأنه لا يعلم جميع تلك الأحاديث كثير من الناس حتى يكون الأمر على ما ذكره عليه السلام أول الكتاب بقوله «إنما أنا قاسم والله يعطى» ﴿وفيه من الحكمة﴾ أن من ظهر له فى أحدهما شىء لا يقدر أن يجريه فى باقيها فذلك

دال على ضعفه وإن كان يمكن جريه فى جميعها كان ذلك دالا على صلاحه وحسنه لأن كلامه صلى الله عليه وسلم كله لا يوجد فيه خلاف ولا تناقض إلا من قلة فهم الناظر فيه ولولا تكراره' وكل واحد منها لا بد أن يوجد فيه معنى زائد على الآخر ماظهر بتوفيق الله تلك التوجيهات التى وجهناها من الفهم فى جميع الأحاديث التى وردت فاذا تأملتها تجد ها جملة عديدة ولوجوه من الحكمة عديدة لمن وفق وتأملها جعلنا الله ممن أسعده بما وهبه بفضله

(٢٨٣) ﴿ حديث تحريم الكذب فى الرؤيا والتجسس والتصوير ﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صُبَّ فِى أُذُنَيْهِ الْآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا وَلَيْسَ بِنَافِخٍ

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام (أحدها) أنه من قال أنه رأى رؤيا وهو فى ذلك كاذب ﴿ كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ﴾ ومعناه أنه يعذب طول الزمان الذى لا يقدر أن يعقد بينهما وهو لا يعقد فعذابه دائم (والثانى) أنه ﴿ من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة ﴾ وهو الرصاص المذاب (والثالث) أنه ﴿ من صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ ﴾ ومعناه أنه يعذب طول الزمان الذى لا يقدر أن ينفخ فيها وهو ليس بنافخ وقد جاء من طريق آخر « وليس بنافخ أبدا » فدل على دوام عذابه مثل الأول والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال ما الحكمة فى أن سماه عليه السلام ﴿ حلما ﴾ وما معنى ﴿ يعقد ﴾ فى هذا الموضع ومانسبة هذا مما فعله بمقتضى الحكمة لأن فى الحديث يدل على أن عذاب كل واحد مناسب لذنبه ولم جعل هذا من أعظم الذنوب لأن من طال مقامه فى النار فهو دال على عظم ذنبه وكيف استماع الحديث الذى يترتب عليه هذا العذاب المؤلم هل هو كيف ما سمعه أو هو على وجه خاص وكيف يكلف أن يعلم كراهيتهم لسمعه هل يطالب بذلك بحسب قرينة الحال أو بعلم قطعى وقوله ﴿ صورة ﴾ هل هى على العموم أو الخصوص ﴿ أما قولنا ﴾ ما الحكمة فى أن سماه عليه السلام حلما ولم يسمه رؤيا فلأنه لما كان هذا الرائى ادعى أنه رآها ولم ير شيئا فكانت كذبا والكذب إنما هو من الشيطان وقد قال صلى الله عليه وسلم فى غير هذا الحديث «إن الحلم من الشيطان» وهو غير حق فعبر عنه بحقيقة معناه لأنه غير حق ولأنه من الشيطان ﴿ وفى هذا دليل ﴾ لما قلناه فى الحديث قبله إن كلامه كله صلى الله عليه وسلم ليس فيه تناقض وأنه يصدق بعضه بعضا ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى يعقد بين شعيرتين فمعناه يصل إحداهما بالأخرى وهذا لا يقدر عليه أحد ﴿ وأما قولنا ﴾ ما نسبة ما كلف بما فعل

بمقتضى الحكمة وذلك أنه لما كذب على الله فى خلقه لأن الرؤيا خلق من خلق الله فأدخل فى الوجود صورة معنوية لم تقع كما فعل الذى صور الصورة الحسية لأنه أدخل فى الوجود فى عالم الحس صورة ليست بحقيقة لأن حقيقة الصورة المقصود منها ما جعل فيها من الروح والحياة فكلف صاحب الصورة الكثيفة أن يتم ما خلقه بنفخ الروح فيها وكلف صاحب الحلم الذى أتى بالصورة اللطيفة أمرا لطيفا وهو أن يعقد بين شعيرتين ﴿وفى هذا دليل﴾ على أن كل ماهنا من الأمور المعنويات يكون الأمر فيها فى الآخرة حسيا غير أنه يكون بينهما مناسبة ما كما جاء فى الحسنات والسيئات ومنها ما هو معنى وكلها تكون فى الآخرة حسيات لأنها توزن فى الميزان ولا يوزن فى الميزان المحسوس إلا حسى لكن يبقى بينهما نسبة ما وهى من وجهين الخفة والثقل بحسب قدرها يكون فى عالم الحس هناك قدرها أيضا واللون أيضا كذلك فجنس الحسنات نورى وجنس السيئات سواد وظلمة فلما ادعى هنا معنى لم يخلقه الله وهو تلك الرؤيا التى زعم قيل له كما فعلت هناك أمرا لطيفا لم يخلقه الله فافعل هنا أمرا لطيفا لم يشأه الله فان الله عزوجل قد شاء أن تكون هاتان الشعيرتان منفصلتين فاخلق أنت بينهما اتصالا حتى يرجعا واحدة وهذا أمر لطيف ومهما لم تقدر على هذا مع لطافته تعذب ولن تقدر على ذلك الأمر مع وقته ولطافته أبدا ﴿وفى هذا دليل﴾ لأهل السنة الذين يقولون إن الخلق كله لله فلو لم يكن كذلك لكان هذا يصل بين تينك الشعيرتين وقد تقدم فى الكتاب فى هذا ما فيه كفاية فأغنى عن بسطه هنا ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة بأن جعل هذا من أعظم الذنوب فلأنه نازع الحق جل جلاله فى قدرته وخلقه أما قدرته فلأنه ادعى بلسان حاله أنه خالق ومنازعته لله فى ادعائه أنه خالق خلقا يشبه خلق الله وليس الأمر حقا فى ذاته فامتحن بأن يخلق أهون الأشياء وهو العقد بين شعيرتين

كل من ادعى ماليس فيه كذبته شواهد الامتحان

والوجه الثانى فلأنه كذب على النبوة لأن الرؤيا جزء من النبوة وقد قال صلى الله عليه وسلم «من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» فلجمعه بين هذين الأمرين العظيمين عظم ذنبه وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون﴾ هل هذا الاستماع على العموم على أى وجه كان أو على الخصوص الظاهر أنه على الخصوص لأنه لو كان على العموم لكان الأكثر منه من تكليف مالا يطاق ومولانا سبحانه قد من علينا ولم يكلفنا هذا الأمر فى العلم بكراهية للسامع لو كنا نطلب بالعلم بحقيقة ذلك كان أيضا بعضه من تكليف مالا يطاق وإنما كلفنا فى العلم بذلك بحسب قرائن الحال التى تدل على كراهيتهم بسمعنا إلى حديثهم فالاستماع على وجه خاص وليس على عمومه وذلك مثل قوم يتحدثون فى منزلهم فان استمعت إلى حديثهم فقد دخلت تحت هذا الحد لأنهم بقرينة حالهم

وهو كونهم فى منزلهم وقد أغلقو دونك بابهم فدل ذلك على أنهم إنما أرادوا أن ينفردوا بحديثهم دونك ودون غيرك ممن خلف بابهم وكذلك إذا تسارر شخص مع آخر ومع جماعة دونك فقد كرهوا أن يسمعوك حديثهم فان استمعت إليهم دخلت تحت هذا الحد ولذلك نهى صلى الله عليه وسلم «أن يتناجى إثنان دون واحد» لما كان الواحد ممنوعا أن يسمع إلى حديثهما منعا أيضا أن يتناجيا دونه فيقع عنده منهما توهم ويظن بهما فمنعا من ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم «لا يتناجى إثنان دون واحد» وأما إن كانوا يتحدثوا أمامك جهرا وإن كان فى قلوبهم كراهية منك أن تسمع كلامهم فهذا لا يلزمك منه شيء ولا أنت مطلوب بأن تعلم كراهيتهم لاستماعك حديثهم وفيما مثلنا به كفاية فى الجواب عن المسألتين وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿من صور صورة﴾ هل هو على العموم فى كل صورة من الصور أو على الخصوص اللفظ محتمل وقرينة الحال التى بعد تقتضى الخصوص وهى قوله صلى الله عليه وسلم ﴿كلف أن ينفخ فيها﴾ فانه لا ينفخ فى صورة من الصور إلا صورة لها روح فتخصص بهذه القرينة أنها كل صورة لها روح من أى أنواع المخلوقات كانت وقد جاء معنى هذا أظنه عن عبدالله بن عباس حين سأله شخص كان يتعانا هذا فقال له «صور كل ماشئت مما ليس له روح مثل الشجر والفواكه وشبهها» أو كما قال رضى الله عنه وإذا كان الأمر كذلك فهذه التصاوير التى تعمل من الخبز والحلواء وغيرها فلا يجوز بيعها ولا شراؤها والمشترى أعظم فى المنع لأنه معين للبائع على التصوير والوقوع فى المخالفة لاسيما وإن كان ممن له بال فى دين أو دنيا الأمر عليه أشد لاقتداء الناس به فيكون عليه إثم كل من اتبعه فيدخل فى «الأريسيين» وقد تقدم ويجوز الانتفاع بها بعد كسرها وتهشيمها والتغير على فاعلها بما أمكن من ضرب أو غيره بحسب حاله حتى تعلم توبته وفى الحديث بتضمنه ﴿إشارة لطيفة﴾ وهى أنه من خرج عن وصف العبودية وجب عقابه ويكون عقابه بقدر جرمه ﴿وفيه تنبيه﴾ على أن الجاهل لا يعذر بجهله يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام أخبر عن أصحاب هذه الذنوب كيف عذابهم ولم يفرق فيه بين من يعلم تحريم ذلك وبين من لا يعلمه فالكل مؤاخذون بذنوبهم جهلوها أو علموها ﴿وفيه تنبيه﴾ على أن الذى يعمل على تأويل ليس على الوجه المأمور به أنه لا يعذر بذلك التأويل وإن كانت المسألة فيها خلاف بين العلماء ﴿وفيه تنبيه﴾ على أنه من سئل فى مسألة فأفتى فيها بغير علم وعمل عليه أنه ليس له فى ذلك عند الله عذر وأنه يعذب على المخالفة التى وقعت منه يؤخذ ذلك من عموم الاخبار من الصادق صلى الله عليه وسلم بعذاب هؤلاء ولم يستثنى فيه نوعا من هذه الأنواع ولا إشارة إليه وقد جاء النص منه عليه السلام على هذه الاشارة التى أشرنا إليها بقوله عليه السلام «اتخذ الناس رؤساءا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» ﴿وفى مجموع هذه دليل﴾ على طلب علم الكتاب والسنة لأنه لا تعلم

هذه وأمثالها إلا من هذا العلم المبارك الذى جعله الله عز وجل طريقا إلى معرفته ومعرفة أحكامه وغيره ضلال أو بطالة كما قال صلى الله عليه وسلم فى علم الأنساب «علم لاينفع وجهالة لاتضر» وفقنا الله إلى علم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وجعلنا ممن سعد به لارب سواه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

(٢٨٤) ﴿حديث الأمر بأن لاتحدث رؤيا الخير إلا من تحب ولا تحدث بالذى تكره﴾

عَنْ أَبِى قَتَادَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ اللهِ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَايُحِبُّ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَلْيَتْفُلْ ثَلَاثًا وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَاتَضُرُّهُ

ظاهر الحديث يدل على أربعة أحكام (أحدها) إخباره صلى الله عليه وسلم بان الرؤيا الحسنة من الله (الثانى) الأمر منه صلى الله عليه وسلم أنه ﴿إذا رأى أحد مايحب فلايحدث به إلا من يحب﴾ (ثالث) أمره صلى الله عليه وسلم لمن رأى مايكره ﴿أن يتعوذ بالله من شرها ومن شر الشيطان ويتفل ثلاثا ولايحدث بها أحدا﴾ (والرابع) إعلامه صلى الله عليه وسلم أنه من امتثل أمره عليه السلام فى الرؤيا التى يكرهها فانها لاتضره والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال مامعنى الحسنة وما الحكمة فى نسبتها إلى الله سبحانه وما الحكمة أيضا فى أن لايحدث بالحسنة إلا من يحب وكيفية التعوذ وصفة التفل وما الحكمة أيضا فى أن لايحدث بالمكروهة أحداً لا من يحب ولاغيره ﴿أما قولنا﴾ مامعنى الحسنة فمعناها كل مايكون لك فيها خير ويحتاج ذلك إلى العلم بالتعبير إن كانت مما يحتاج إلى تعبير لأنه قد يكون ظاهرها خيرا وهو غير ذلك وقد يكون الأمر فيها بالعكس إلا إن كانت بينة لاتحتاج إلى تعبير فحينئذ يجرى على هذا الحكم ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكمة فى نسبتها إلى الله تعالى فهذا جار على أدب العبودية وعلى ماجاء به القرآن من قوله عز وجل (ما أصابك من حسنة فمن الله) ويشهد لذلك أيضا قوله عليه السلام ﴿إنها من النبوة﴾ كما ذكر فى الأحاديث قبل لأن النبوة من الله أى من عند الله ﴿وفيه إشارة﴾ إلى أن الخير الذى من الله به على العبد من الرؤيا الحسنة أو أى نوع كان من أنواع الخير إنه من عند الله أى بفضله ورحمته لابحق لازم عليه لأحد من العباد كان العبد أى نوع كان من أنواع عبيده (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكمة فى أن لايحدث بالحسنة إلا من يحب فاعلم أن المحادثة على وجهين إما مع من تحبه ويحبك أو مع من تحبه وهو يكرهك لأنه لابد فى

الذى تحبه وهو لا يبغضك أن يكون له إليك ميل ما فهذان الشخصان هما اللذان تحدثهما برؤياك الحسنة ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى منعك أن تحدث بها من يبغضك أو تبغضه أما من تبغضه أنت فلا بد أن يجد لك بغضا ما لأن الحكمة الالهية جرت بأن تكون بين القلوب مادة تجذب بعضها من بعض بحسب ما فى هذا يجد الآخر منه نسبة ما إما أقل أو أكثر أو بالتساوى هذا متعارف عند أرباب القلوب حتى أن من كلامهم فى هذا النوع «أنظر إلى فؤادك كما تجدنا نجدك» يعنون كما تجدنا فيه من حسن أو قبح كذلك نجدك وجاء هذا الحديث شاهدا لهم وقد ذكر مما يقوى هذا النوع أن بعض التجار فى مدينة مراكش كان يجلس عنده أحد أبناء الدنيا ممن له تعلق بالملك ويظهر له التوادد فاذا انفصل عنه يقول لأصحابه هذا الرجل يعاملنى بالبر وأجد له فى نفسى كراهة فلما كان يوم عيد من الأعياد فذلك التاجر خارج إلى الصلاة بزينة العيد وكان أثر مطر وإذا بذلك الشخص خارج وهو راكب جوادا فلما قرب منه لوثت الدابة التى كان عليها ثياب ذلك التاجر وشوهتها ورجع إلى بيته على حالة مسكينة فقال لأصحابه ظهر الموجب للكراهية التى كنت أجدله فان المبغض لك إما مبغض ظاهر وإما باطن الغالب أنه لا يقصر عنك فى إذاية إن قدر عليها فلعلك إن قصصت عليه الرؤيا أن يعبرها لك على وجه مكروه وهى حسنة وقد جاء «أن الرؤيا مثل الطائر فاذا عبرت وقعت ولزمت» ومما يقوى هذا قصة يوسف عليه السلام لما أتاه الشخصان قد أبدل كل واحد منهما رؤياه برؤيا صاحبه فلما عبرها يوسف عليه السلام ورآى الذى كانت رؤياه دالة على الخير وهو قد أبدلها مع صاحبه فقال له لم يكن الذى رآى هذه إلا صاحبي هذا ولم تكن رؤياى إلا حسنة فقال لهما يوسف عليه السلام (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) أى بالتعبير قد وجب لكل واحد منكما ما عبر له فكان الأمر كذلك ﴿ ولوجه آخر ﴾ وهو أنه إن كانت قد عبرت لك بخير يحتال عليك فى ذلك الخير الذى بشرت به كيف يشوش عليك لعله يدفعه عنك فمن أجل هذين الأمرين نهى صلى الله عليه وسلم أن لا تحدث برؤيا الخير إلا من تحب ولأن الغالب ممن يحبك أو يميل إليك بقلبه من أجل حبك إليه أنه لا يحسدك ولا يريد لك إلا خيرا ولذلك منعه عليه السلام من أن يحدث بها من لا يحبه وإن كان لا يبغضك خوفا أن يحدث الشيطان عنده بذلك حسداً أو يتلفظ فى تفسيرها بلفظ يلحق منه إذاية كما ذكر عن ابن سيرين الذى كان مشهورا بعلم التعبير أنه جاءه شخص برؤيا فلم يجده فى الدار فقال له الخادم وما كنت تريده فقال له يعبر لى رؤياى فقال وما هى فقال إنى رأيت كأنى أشرب البحر فقال له الخادم ولم ينفتق بطنك فولى عن الدار وإذا بابن سيرين فذكر له الرؤيا فسأله هل ذكرتها لأحد فقال له لخادمك وقال كيت وكيت فقال احتفظ على نفسك فولى عنه فاذا ببقرة شرودة قد فلتت لصاحبها وهو خلفها يجرى فتعرض لها فنطحته بقرنها فشقت

بطنه أوكما قال ﴿ وفى هذا دليل ﴾ على كثرة شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ﴿ وفيه دليل ﴾ على التحضيض على اتباع أثر الحكمة يؤخذ ذلك من نهيه عليه السلام عن أن تحدث برؤياك من لاتحب وهو عمل سبب من أثر الحكمة فى دفع الضرر عنك وإن كان لا يرد من القدر المحتوم شيئا لكن نحن بها مخاطبون فنفعلها امتثالا ونعلم مع ذلك أنه لا ينفع منها إلا ماوافق القدر من ذلك وإلا القدر هو النافذ لذلك لامحالة ولذلك قال بعضهم « إذا فررت من مقدور فأينما توجهت فنحوه تتوجه » وهذه أجل الطرق لأنها جمعت بين الشريعة والحقيقة ومن أجل ذلك أثنى الله على يعقوب عليه السلام وقال فى حقه (وإنه لذو علم لما علمناه) ﴿ وأما كيفية التعوذ ﴾ فاعلم أن صفة التعوذ قد جاء عنه صلى الله عليه وسلم فى غير هذا الحديث وهو أن يقول « أعوذ بالله من شر ما رأيت أن يضرنى فى دينى ودنياى » والتعوذ من الشيطان معلوم ﴿ وأما صفة التفل ﴾ فقد عبر عنه بعض العلماء يشبهك إذا ألقيت نوى الزبيب من فيك حين تأكله وهو وجه حسن من التمثيل وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم فى حديث غير هذا أن تتحول عن الجنب الذى رأيت فيه ماتكره إلى الجنب الثانى وقوله صلى الله عليه وسلم « فليتعوذ بالله من شرها ومن شر الشيطان وليتفل ثلاثا » عطفه بالواو توسعة بأيها بدأت لاشىء عليك فيه ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى أن لاتحدث بالتى تكرهها أحداً لا من تحب ولا من لاتحب فان كان تعبدا فلا بحث وإن كان لحكمة وهو الأظهر فما هى فاحتملت وجوها منها أن يكون عدم تحدثك بها حتى تلقيها عن قلبك فلا يبقى لك منها حزن فيكون هذا من باب الشفقة واحتمل أن يكون هذا من أجل الغير فتحزن الذى يودك بشىء لا يضرك وإن كان مما يبغضك فيسر بها فلسروره بتحزين مسلم يكون مأثوما وتكون أنت سببا لأن تدخل على أخيك المسلم سوء فى عمله بشىء لا يضرك واحتمل أن يكون عليه السلام جعل عدم ذكرك لها دالا على تصديقه عليه السلام فى الذى أخبرك به فتصديقك له صلى الله عليه وسلم وامتثالك لأمره هو الذى يدفع عنك ذلك الضرر الذى يلحقك منها واحتمل مجموع التوجيهات كلها والآخر منها هو أظهرها والله أعلم ولذلك قال العلماء أن الرؤيا إذا كانت تدل على شر ولم تكن حلما وامتثل صاحبها السنة كما أخبر صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث أنها لاتضره ببركة اتباعه السنة وهو الحق الذى لاشك فيه لأن الله عز وجل يقول (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وهذا لفظ عام فلا يقصر على جهة واحدة ولا معنى واحد بل يبقى على عمومه لأن ذلك فضل من الله وما كان من طريق فضل الربوبية يعتقد فيه أكمل وجوه الخير لأن ذلك هو اللائق بجلاله سبحانه جعلنا الله ممن تمسك بالكتاب والسنة وتوفى على ذلك مغفورا لنا بفضله وصلى الله على محمد وآله وسلم

(٢٨٥) ﴿ حديث الأمر بالصبر على طاعة الأمير وعدم مفارقة الجماعة ﴾

عَن ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عنهما عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْأً يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْه فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً

ظاهر الحديث يدل على حكمين (أحدهما) الأمر لمن رأى من أميره مايكرهه بالصبر على ذلك ولا ينكث فى بيعته (والثانى) إخباره صلى الله عليه وسلم أنه من فارق جماعة المسلمين قدر شبر مات على سنة الجاهلية والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ الشيء الذى يكرهه من أميره هل هو على العموم فى أمور الدنيا والآخرة أو هو على الخصوص فى أمور الدنيا وما يتعلق بالأمور النفسانية وماصفة هذه الجماعة هل هم الذين تسموا باسم الاسلام كانوا على أى حالة كانوا عليها أو معناه الخصوص وكيفية هذه المفارقة ومامعنى تحديدها بالشبر وما هو معنى ﴿ ميتة جاهلية ﴾ هل يكون معناه على الكفر المحض أو على صفة من صفات الجاهلية مع بقاء الايمان ﴿ أماقولنا ﴾ الشيء الذى يكرهه من أميره وأمر بالصبر عليه هل ذلك على العموم أو على الخصوص اللفظ محتمل لكن يتخصص بالأحاديث المبينة لهذا العموم بأنه مما يتعلق بالأمور الدنيوية والأمور النفسانية تحفظا على أمر الدين الذى هو طريق الآخرة فمنها قوله عليه السلام فى الصحيح « اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » وهذه كلها أمور نفسانية ودينوية أو كما قال والحديث الآخر ذكر فيه أنهم قالوا « أرأيت إن ولى علينا أمراء فساق أنقتلهم » قال صلى الله عليه وسلم « لاماصلوا » فدل بقوله عليه السلام لاماصلوا إنهم إذالم يصلوا لاسمع لهم ولاطاعة وكذلك قال عمر رضى الله عنه على المنبر حين بيعته قال « ماأطعت الله ورسوله وإلا فلا سمع لى عليكم ولا طاعة » أو كما قال فدل بهذا أن الأمور التى يكون فيها مخالفة فى الدين لايطاع فيها أمير ولاغيره لأنه ماجعلت الامارة أن ينقا الناس لها إلا من أجل أن « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وقد قال علماء الدين أنه لايجوز لشرطى أن يؤدب أحدا بقول أميره حتى يعلم أن ذلك حق عليه بأمر الله واجبا والأحاديث فى هذا النوع كثيرة وفيما ذكرناه كفاية ﴿ وأماقولنا ﴾ ماصفة هذه الجماعة هل على العموم حتى فى الذين تسموا باسم الاسلام أو ذلك على الخصوص فى المسلمين حقا البحث فى هؤلاء والجواب عليه كالجواب على الأمير وحديث حذيفة الذى بعد بين الجماعة وهو شرح هذا الموضع حيث قال له صلى الله عليه وسلم «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» ﴿ وأما قولنا ﴾ كيف صفة هذه المفارقة فمعناها أن تسعى فى حل تلك البيعة التى للأمير

ولو بأوفى شيء فعبر عليه السلام عنه بمقدار الشبر لأن الأخذ فى حل تلك البيعة المخالفة لجماعة المسلمين المنعقدين عليها وهو مع ذلك أمر يؤول إلى سفك الدماء بغير حق وقد قال صلى الله عليه وسلم «من شارك فى قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب على جبهته آيس من رحمة الله» أو كما قال عليه السلام ﴿وأما قولنا﴾ مامعنى قوله عليه السلام فمات ﴿إلا مات ميتة جاهلية﴾ هل ذلك كفر صراح أو إنه مات على صفة من صفات الجاهلية وإيمانه باق اللفظ محتمل وقد جاء ما يبينه وهو قوله عليه السلام «من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه» أو كما قال عليه السلام فشبهه عليه السلام بالمرتد عن الاسلام وهذا أمر خطر اللهم عافنا من الخطر

(٢٨٦) ﴿حديث من علامات الساعة قلة البركة فى الزمان وكثرة الفتن والقتل﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ وَيُلْقَى الشُّحُّ وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ قَالُوا يَارَسُولَ اللهِ أَيُّمَ هُوَ قَالَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ

ظاهر الحديث يدل على خمسة أحكام (الأول) الاخبار بتقارب الزمان (والثانى) نقص العمل (والثالث) إلقاء الشح (والرابع) ظهور الفتن (والخامس) كثرة الهرج وهو القتل والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال مامعنى تقارب الزمان وكيف يكون نقص العمل ومامعنى هذا الشح الملقى هل هو على العموم أو على الخصوص وما الفتن المشار إليها وما صفة القتل الذى يكثر هل هو بحق أو بغيره وما معنى الهرج ﴿أما قولنا﴾ مامعنى تقارب الزمان فمعناه أن يقصر ويقل طوله وقد جاء فى حديث غير هذا كقوله صلى الله عليه وسلم «تكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كالساعة والساعة كالنفس» أو كما قال عليه السلام ولا يخلوا هذا القصر أن يكون المراد به معنويا أو حسيا فأما المعنوى فقد ظهر وله سنون عديدة يعرف ذلك أهل الأعمال ومن له فطنة ما من أهل الدنيا المشتغلين بالأسباب فيها فانهم يجدون أنفسهم لايقدرون أن يبلغوا من عمل أسباب الدنيا قدر الذى كانوا يعملون ويشكون ذلك ولايدرون العلة من أين هى وكذلك أهل أعمال الآخرة قد وجدوا نقص العمل ونقص تلك المعانى الخاصة بالقلوب الحاملة على الأعمال فالعلة فى ذلك والله أعلم ما دخل فى الايمان من الضعف من كثرة إظهار الأمور المخالفة للسان العلم من وجوه عديدة من حيث لايخفى على ذى بصيرة ومما دخل من أجلها فى الأقوات من الشبه بل من الحرام المحض حتى أن كثيرا من الناس ما يتوقف فى هذا الباب عن شيء وكيف قدر أن يصل إلى شيء فعل ولا يبالى فان البركة فى الزمان والرزق والبدن

منْ طريق قوة الايمان واتباع الأمر واجتناب النهى يشهد لذلك قوله جل جلاله (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وأما إن كان المقصود بتقارب الزمان أن يكون حسا ظاهرا فهذا لم يظهر بعد ولعله من الأمور التى تكون عند قرب الساعة ولعله عليه السلام عنى ذلك الوجهين معا فيكون الواحد وهو المعنوى قدظهر وبقى الآخر وهو الحسى حتى يصل وقته مع مابقى من الشروط وأما كيفية نقص العمل فعلى وجهين إن كان فى الحسى الذى لم يظهر بعد فهذا بين لايحتاج فيه إلى تعليل لأن الزمان ظرف الأعمال فاذا نقص بعض العمل لامحالة وأما نقصه فى المعنوى فمن وجهين أحدهما ما أشرنا إليه آنفا وهو من جهة المطعم وما دخل فيه من الخلل وقلة الباعث الذى هو حامل على الأعمال ومحرض عليها وذلك من ضعف الايمان والثانى من قلة المساعد على ذلك فى الخارج والنفس من طبعها أنها ميالة إلى جنسها ولذلك قال الله تعالى(وتعاونوا على البر والتقوى) ولكثرة شياطين الانس الذين هم أضر عليك من الشيطان الرجيم اللهم إلاتلك العصابة التى شاء سبحانه وتعالى بقاءها على الحق لايضرها من خالفها فهى محمولة بالقدرة واللطف الربانى وإنما جاءت الأخبار على الغالب من أحوال الناس

﴿وأما قولنا ﴾ ما معنى الشح الذى يلقى هل هو على العموم أو على الخصوص محتمل والظاهر العموم لأن الشح الخاص المستعمل عند الناس فيماعدا الفرائض لايعود منه ذلك الضرر المخوف وإنما الشح الذى يخاف منه ومن وباله الشح بالفرائض ومن يشح بها فمن باب أولى أن يشح بغيرها فيكون عاما والله أعلم يشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم «لاتزداد الدنيا إلا إدبارا ولا الناس إلا شحا» أو كما قال عليه السلام فجاء لفظ عام فى الحديثين معا ولا يسمى الفقهاء شحيحا إلا الذى يشح بالفرائض والناس يسمون الشحيح كل من لايجود عليهم ولا ينظرون هل أدى فرضه أم لا كما يزعمون أن الكنز هو ماجعل من المال تحت الأرض والعلماء يقولون الكنز هو المال الذى لم تخرج زكاته كان على وجه الأرض أو فى بطنها مدفونا وإذا كان مدفونا وهو يخرج زكاته فليس عندهم بكنز وأمثال حقوق الأموال سبب إلى ذهابها وقلة بركتها وطرو الجوائح عليها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا ينقص مال من صدقة » أو كما قال عليه السلام قال أهل العلم معناه أن المال الذى يخرج منه الزكاة لايلحقه عاهة ولا يتلف ولا يلحقه شيء من الأشياء التى تأتى على الأموال فينقص بها فان الزكاة تحرسه من ذلك ولذلك سميت زكاة فان المال يزكو بها وينمو وكذلك صاحبه ولذلك قال تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وفى هذا إشارة لأهل الطريق الذين بنوا أمرهم على الايثار لكى يسلموا من الشح على كلا الوجهين وكذلك لما لقى الشافعى شيبان رحمهما الله فسأله عن الزكاة فى الغنم فى كم تجب فقال له عندكم ففى أربعين شاة وعندنا كلها زكاة فقال الامام لأصحابه وفق لما علمناه أو كما قال

﴿ وأما قولنا ﴾ ما الفتن التى قد عرفها بالألف واللام فهى والله أعلم التى قد بينها صلى الله وسلم بقوله فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا، أو كما قال عليه السلام لأن كل فتنة يسلم فيها الدين فليست بفتنة مخوفة أعاذنا الله من جميعها بمنه وفضله والهرج يحتمل معنيين أحدهما الفتن التى تقع بين الناس ويخوض بعضهم فى بعض والثانى القتل ولذلك استفهم الصحابة رضى الله عنهم سيدنا صلى الله عليه وسلم بقولهم ﴿ أيم هو ﴾ فأزال عليه السلام الاحتمال الاول بقوله القتل ثم أكده ثانية لزوال الاحتمال الأول ﴿ وأما قولنا ﴾ مامعنى كثرة القتل هل يكون ذلك لحقوق لازمة أو لغير ذلك فاعلم ان القتل الذى هو فى الحقوق اللازمة شرعا رحمة للعباد والبلاد يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لأن يقام حد من حدود الله فى بقعة خير لهم من أن تمطر السماء عليهم ثلاثين يوما وقيل أربعين يوما » أو كما قال عليه السلام فهذا فى حد واحد فكيف إذا كثر القيام بالحدود وفشى أمرها وتعدد وإنما يكون القتل والله أعلم فى الوجهين اللذين قد ذكرهما صلى الله عليه وسلم فى أحاديث متفرقة منها قوله عليه السلام «لا تقوم الساعة حتى لا يعرف المقتول فيم قتل ولا القاتل فيما قتل » أو كما قال عليه السلام ولا يكون ذلك إلا بكثرة القتل بغير لسان العلم حتى لا يعرف القاتل ولا المقتول لم وقع بهم ذلك الأمر (والوجه الثانى) قوله عليه السلام «لا تقوم الساعة حتى ينحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتل عليه من كل مائة تسعة وتسعون » أو كما قال عليه السلام ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو ما الفائدة بأن أخبرنا بهذه الفتن فنقول والله الموفق لوجوه منها أن نستعيذ منها كما قال صلى الله عليه وسلم «اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ونعوذ بك من فتنة القبر ونعوذ بك من فتنة المسيخ الدجال ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات» وهو صلى الله عليه وسلم معافى من جميعها لكن ذلك على طريق التعليم لنا وعلى جهة الأدب منه عليه السلام مع الربوبية حتى يجعل نفسه المكرمة من جملة العبيد الذين يخافون الفتن ومنها لأن يستعمل منا من رآى منها شيئا الدواء الذى قد علمناه وهو قوله صلى الله عليه وسلم لما سأله بعض الصحابة عند ذكره صلى الله عليه وسلم الفتن فقال له ماتأمرنى إن أدركنى ذلك الزمان فقال صلى الله عليه وسلم «الجئوا إلى الايمان والأعمال الصالحات» فبين صلى الله عليه وسلم كيف العمل فيها وقد جاء من طريق آخر أنه لا يسلم منها إلا « من يكون حلسا من أحلاس بيته » ومنها لأن يتبين لنا الوجوه التى منها الفتن فنأخذ فى سد تلك الطرق مستعينين بالله على ذلك ومنها لأن تكون معجزاته صلى الله عليه وسلم متتابعة إلى يوم القيامة لأنه كلما خرجت واحدة مما ذكر عليه السلام فى هذا الحديث وغيره هى معجزة له عليه السلام فى الوقت وفى ظهورها متتابعة إلى يوم القيامة حق لله تعالى وحق له عليه السلام وحق لأمته فالحق الذى هو لله سبحانه وتعالى هو استصحاب ظهور حجته عز وجل على عباده لأن ظهور معجزة الرسول عليه السلام حجة الله تعالى لقوله عز وجل (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وحجة الرسل فى تصديق

ماجاؤا به وتصديق رسله حجة على عباده وزيادة قوة فى إيمانهم وأما الذى هو حق له صلى الله عليه وسلم فدوام معجزاته ودوام إنذاره إلى يوم القيامة بالطريقين العظيمين بالكتاب لقوله تعالى (لأنذركم به ومن بلغ) فانذاره عليه السلام عليه باق إلى يوم القيامة باظهار معجزاته عليه السلام وهى ظهور كل ما أخبر به عليه السلام فان على ظهور كل واحدة منها علما بتصديقه عليه السلام مقو لما جاء به وهذا مما خص به عليه السلام دون غيره من الأنبياء عليهم السلام وأما الذى هو حق لأمته فهو أن يكون هذا الخير الذى جاء به عليه السلام متساويا فى أمته من أولها إلى آخرها من طريقين بالكتاب العزيز الذى حفظ عليهم ولم يوكلوا فى ذلك إلى أنفسهم فكان يقع فيه التغيير والتبديل كما وقع فى الكتب المتقدمة وبمعجزاته عليه السلام التى هى من أول أمته إلى آخرها على نوعين منها ماهى ظاهرة لأهل ذلك الزمان ومنها ما يصدقون به ولم يروها حتى يكون الشاهد منها مايصدق الغائب وإن كانت كلها صدق لكن فاق الصحابة رضى الله عنهم غيرهم بزيادة الصحبة وعاينوا ما كان فى وقتهم منها وآمنوا بما أخبر به عليه السلام أنه يكون بعدهم ومن جاء بعدهم آمن بالذى شاهد منها الصحابة رضى الله عنهم وبالتى أتت بعدهم إيمان تصديق فحصل لهم بها إيمان ومشاهدة والذين يأتون فى آخر الزمان يؤمنون بما تقدم منها تقليدا وبما فى زمانهم معاينة فجاء هذا الخير الذى جاء به صلى الله عليه وسلم فى أمته من أولها إلى آخرها ولبقاء هذا الخير دائما أخبر صلى الله عليه وسلم أنه لاتزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة أو كما قال عليه السلام فان الخير إذا بقى فى الأرض لابد له من أهل له قائمين به وكذلك هى إشارته عليه السلام بقوله « أمتى مثل المطر لايدرى أيه أنفع أوله أو آخره » أو كما قال عليه السلام ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أنه لا يكون هذا الخير إلا للذين يعلمون علم الكتاب والسنة فانه لايعلم ما أخبر صلى الله عليه وسلم به إلا من سمع الحديث واعتنى به فمن اشتغل بغير ذلك من العلوم فاته هذا الخير وبقيت الحجة عليه قائمة بتضييعه لأثر النبوة التى بها الخير بدأ وعودا وأصلا وفرعا ومنها أن تكون النفوس تراض على دفعها وكراهيتها حتى إن ظهر منها شىء تجد النفس لها كراهية فاذا كرهتها أولا ووقيت أولها كفيت فيما بقى منها لقوله صلى الله عليه وسلم «تعرض الفتن على القلب عودا عودا فأى قلب آثرها نكتت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى يصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلايضره فتنة مادامت السموات والأرض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لايعرف معروفا ولاينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه » والأسود المربد هو شدة البياض فى سواد والكوز المجخى هو الكوز المنكوس ولذلك قيل قلبك فاحفظه من الفتن وإلى الله فالجأ فى ذلك وأد من عافانا الله منها أجمعين بفضله

(٢٨٧) ﴿ حديث النهى عن اتباع الفرق الضالة والمحافظة على الدين ﴾

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي فَقُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ قَالَ نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ قُلْتُ وَمَا دَخَنُهُ قَالَ قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيٍ تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ قُلْتُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا قُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا قَالَ هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا قُلْتُ فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ قَالَ تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ قُلْتُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ قَالَ فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ

ظاهر الحديث يدل على حكمين (أحدهما) الاخبار بالخلل الواقع فى الدين (والثانى) الأمر بالتمسك به مع جماعة المسلمين وإمامهم فان عدم ذلك فتبقى عليه وحدك وتفارق كل من ليس على طريقة الاسلام الحقبقى وإن آل الأمر بك إلى الخروج إلى البرية منفردا وترك الأهل والمال والقرابة والعشيرة وجميع أهل الوقت من قريب وبعيد وإن كان الأمر يضيق عليك فى البرية حتى لاتجد أين تأوى حتى تنحصر إلى أصل شجرة مع سلامة دينك فلتعض بها أى تشد عليها حتى يأتيك وأنت على ماأمرت به من أمر الله تعالى واجتناب نهيه ومنه قوله تعالى (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهادا فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره) وقوله تعالى (ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون) والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ النظر فى حكمة الله تعالى فى عباده كيف يعطى لكل شخص ماشاء الله أن يقيمه فيه يؤخذ ذلك من أنه عز وجل حبب للصحابة رضى الله عنهم سؤالهم له صلى الله عليه وسلم عن وجوه الخير كى يقتبسوها ويكونوا بابالها وحبب لهذا السيد سؤاله له صلى الله عليه وسلم عن وجوه الشر كى يحذرها ويكون سببا فى سدها عمن قدر الله تعالى له النجاة منها ومنها النظر والاعتبار فيما أعطى الله تعالى سيدنا صلى الله عليه وسلم من سعة الصدر والمعرفة بحكمة الحكيم الذى يجاوب كل شخص عما سأل ويعلم أن ذلك الذى شاء الحكيم أن يقيمه فيه ويسده له ويدخل هذا تحت

متضمن قوله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا قاسم والله يعطى » فهو صلى الله عليه وسلم الذى أرسل لقسمة الأمور على ماقتضتها الحكمة الربانية والله يقيم من يشاء فيما شاء فهو عليه السلام المبين لوجوه الخير والشر والله يعطى منها ماشاء لمن شاء كيف شاء ويترتب على هذا من الحكمة والنظر أن الذى حبب لشخص هو الذى يفوق فيه غيره يؤخذ ذلك من حال حذيفة رضى الله عنه لأنه لما حبب الله له معرفة وجوه الشر كى يتقيه ويحذر عنه غيره فضل فيه عشرة من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ولما علم سيدنا صلى الله عليه وسلم هذا الذى أشرنا إليه خصه بأن أعلمه بجميع أسماء المنافقين لأنه من هذا النوع الذى حبب إليه حتى كان عمر رضى الله عنه وهو خليفة ياتيه ليلا ويناشده الله هل هو ممن سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين أم لا فيحلف له أنه ليس منهم ورتب أهل الحكمة على هذا من الفائدة أنك إذا كان لك ابن أوغلام أومن لك عليه كفالة وأردت أن تشغله بشغل من الأشغال أوعلم من العلوم أن تعرض عليه أنواع الأشغال إن أردت أن تشغله أو أنواع العلوم إن أردت به طريق ذلك وكانت تلك الأنواع مماتجيزها الشريعة فالذى تراه يحب ويعجبه من ذلك ففيه اجعله فانه يفوق فيه أهل زمانه لأن الذى حبب إليه هو المراد منه (ربنا ماخلقت هذا باطلا) واختبروا ذلك بعلم التجربة فوجدوه لاينعكس ومن جمع الله له بين الفريقين فهو الحال الجليل وهو معرفة الخير والعمل عليه ومعرفة الشر واتقائه ولذلك كان من دعاء على رضى الله عنه « اللهم اجعلنى مفتاحا للخير ومغلاقا للشر طيبا مباركا حيث كنت » أوكما قال رضى الله عنه وفى هذا بيان الطريق لأهل السلوك والمعاملات مع الله تعالى فانهم يقولون المبتدى حاله الكسب والمنتهى حاله الترك ومعناه أن المبتدى يسأل عن وجوه الخير ويعمل عليها كما كان حال الصحابة رضى الله عنهم فى الحديث الذى نحن بسبيله وأن المنتهى يسأل عن الشر كله وأنواع المفاسد كلها فيتركها ويتقيها كما كان حال حذيفة وحقيقة المعنى فيما أشاروا إليه أن هذا هو الغالب على أحوالهم لأن المبتدى يقع فى الشر أعوذ بالله ولو كان ذلك ماصح له فعل خير وكذلك حال الصحابة رضى الله عنهم وأن المنتهى الغالب عليه تنقية النفس والبحث عن المقاصد كلها ولأنهم أيضا يتركون عمل الخير ولو كان كذلك ماصح منهم ترك الشر وكذلك كان حذيفة رضى الله عنه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن كلما كان يهدى إلى طريق الآخرة ويهدى إلى أنواع الرشاد وكلما يقرب إلى الله سبحانه يسمى خيرا لغة وشرعا وأن كل كفر وضلالة أى نوع كانت كبرى أوصغرى وكلما دعى إليها يسمى شرا لغة وشرعا يؤخذ ذلك من قول حذيفة ﴿ كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ﴾ وكرر ذلك فى الحديث مرارا ووافقه على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أما من طريق أنه لغة فلأنهم عرب وأما من طريق أنه شرع فلأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وافقه على ذلك بأن سلم له فيه وجاوبه عليه بأن جعل فيه اسم الشر سوأ للكفر والجاهلية التي كانوا عليها وسوأ للضلال الذي طرأ في الاسلام بعده صلى الله عليه وسلم من الفتن والمعاصي غير أن الفرق بينهما من طريق النظر أن الأولى وهي الكفر كبرى والتي بعد وفيها الخلل في الدين من طريق المعاصي صغرى ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه لا يطلق عليه اسم خير حتى يكون تاما لا عوج فيه ويستدل بذلك على أنه لا يطلق عليه إسم مسلم إلا من هو كامل الايمان وأن لا يكون إيمانه فيه دخن كما أخبر الصادق عليه السلام بقوله «وفيه دخن» ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن كل هدى أو علم إنما معياره وما يختبر به ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة فالذي يكون على ذلك بلا زيادة ولا نقصان فهو طريق الحق والمبلغ إلى الله عز وجل وأن لا يكون من أحد القسمين أما من القسم الذي فيه الدخن وأما من أهل القسم الذين من على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «وفيه دخن» ثم فسر ذلك الدخن بكونهم يهدون بغير هديه صلى الله عليه وسلم فاحذر هدى قوم جعلوا للدين أصلا خلاف الكتاب والسنة وجعلوا الكتاب والسنة له فرعا لقد عم دخنهم الأرض حتى تناهى فيه قوم فوقفوا به على باب جهنم فمن أجابهم إليها قذفوه فيها ﴿ وفيه دليل ﴾ على قبول الحق حيث كان وتحقيقه يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم «تعرف منهم وتنكر» ﴿ وفيه دليل ﴾ على وجوب رد الباطل وكل ما خالف هديه صلى الله عليه وسلم ولو قال له من كان من رفيع أو وضيع يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام تعرف منهم وتنكر ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو ما هو هذا الشر الذي أشار إليه صلى الله عليه وسلم وما هو هذا الخير الذي فيه الدخن فنقول والله الموفق يحتمل أن يكون الشر الذي أشار إليه عليه الصلاة والسلام هو ما كان بعده من الفتن إلى زمان قتل العلماء وقد أخبر عليه السلام به في حديث آخر أعني بقتل العلماء فانه عليه السلام قال فيه « ياليت العلماء تحامقوا » أو كما قال عليه السلام معناه لو أظهروا ذلك سلموا من القتل وأما الهدى الذي فيه الدخن فهو ما ظهر في الأمة من الشيع والبدع يفسر ذلك قوله عليه السلام « إفترقت بنوا إسرائيل على اثنين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » فكل من حصل له من الاثنين والسبعين ولو مسألة واحدة وإن كان لا يعلم بها فقد دخل في دينه دخن وبالحديث الآخر • هو قوله عليه السلام « كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار » وبقوله عليه الصلاة والسلام « كل من أحدث من أمرنا ما ليس منه فهو رد » أو كما قال عليه السلام فكل من حصل على بدعة من البدع فقد حصل في دينه وهديه دخن ولا يغيره كثرة عمل الناس لتلك البدعة وانتشارها فانها من جملة الدخن وقد قال صلى الله عليه وسلم في شأن تجنب الفتن « وعليك بخويصة نفسك » أو كما قال عليه السلام ولا يغرك صاحب البدع

وإن كانت لديه علوم جمة أوأعمال صالحة ونسك وتعبد أو مجموعها فقد قال صلى الله عليه وسلم فى القدرية «يحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وأعمالكم مع أعمالهم يقرؤن القرآن لايجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية تنظر فى النصل فلا ترى شيئا وتنظر فى القدح فلا ترى شيئا سبق الفرث الدم » أو كما قال عليه السلام وقوله عليه السلام ﴿دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها﴾ أى أنهم يرشدون إلى الطرق التى يدخل بها النار من الاعتقادات والأعمال المخالفة للسنة وهم يظهرون أنها هى المبلغة إلى الله تعالى وهم الذين قال عليه السلام فيهم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسألوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا فمن صدقهم واتبعهم دخل النار وفى قوله عليه السلام ﴿ هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ﴾ دليل على أنهم من هذه الملة وبزيها وعلى طريقها ولونها لأن معنى من جلدتنا أى على لغة العرب حتى لايتنكر أحد منهم شيئا ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن أهم ماعلى المرء فى الدين نفسه يؤخذ ذلك من قول حذيفة رضى الله عنه ﴿فما تأمرنى إن أدركنى ذلك﴾ فما سأل إلا عن نفسه كيف يكون خلاصه ويترتب على هذا من الفقه أن كل وجه يعلمه الشخص من وجوه الخير كان يدركه أولا يدركه يعتقد فعله إن أدركه فيكون على ذلك مأجورا وأى وجه عمله من وجوه الشر يكون بحيث يلحقه أولا يلحقه يعتقد أنه لايفعله وأن يتبع السنة فى الأعمال والأسباب المنجية منه فان هذا هو طريق السنة ومن كان مرتكبا طريق السنة فانه مأجور ويقوى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن أبلغ من عمله » لأنه ينوى عملا من أعمال الخير أو ترك عمل من أعمال الشر وقد لايدرك من ذلك شيئا لقصر عمره فكانت نيته أكثر من عمله ولكونه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ من فتنة الدجال وهو بالعلم القطعى عنده أنه لايدركه وقد قال عليه السلام « إن يخرج وأنا فيكم فأنا أكفيكموه » فقد علمه عليه السلام أنه إن لحقه فلا يضره بل هو عليه السلام يكفى المسلمين ضرره ومع ذلك كان عليه السلام يستعيذ من فتنته فهذا من باب الارشاد لنا إلى ماأشرنا إليه وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ تلزم جماعة المسلمين ﴾ يعنى الفرقة الناجية من الثلاثة والسبعين الذين هم على ماهو عليه وأصحابه صلوات الله عليه وعليهم أجمعين جعلنا الله منهم ومعهم فى الدارين بمنه وفضله وقوله ﴿ وإمامهم ﴾ يعنى الذى يقتدون به ويكون على تلك الطريق المباركة أيضا ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن من السنة أن لايكون جماعة إلا ولها إمام وقوله ﴿ فان لم تكن لهم جماعة ولا إمام ﴾ يعنى أن الموضع الذى يكون فيه ليس فيه من أهل الخير جماعة ولا إمام لأن هذه الأمة لاتزال جماعة من أهل الخير فيها باقية وكذلك آية الخير لاينقطعون منها لكن قد يقلون أو يكونون فى موضع من الأرض دون غيره يشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله »

أو كما قال عليه السلام وقوله عليه السلام فى نزول عيسى بن مريم عليه السلام « وإمامكم منكم » أى أنه يكون على طريق هدى متبع للكتاب والسنة ﴿وفيه بحث﴾ وهو أنه إن كان واحدا لأحد الطرفين إما جماعة على الخير ولا إمام معهم أو إمام على خير ولا جماعة له فالبقاء مع أحدهما خير من الانفراد لأنه أعون على الدين ولفظ الحديث يدل على ذلك فان الأمر بأن تتبع الجماعة والامام لا ينفى إذا لم يجد إلا الواحد منهما أن لا يتبعه غير أنه يأخذ أولا الأكمل فالأكمل فاذا كانا فى موضع مجتمعين وكان فى موضع آخر أحدهما فحيث جمعهما أولى فان لم يجد إلا أحدهما فهو خير من أصل الشجرة فان تلك هى الغاية فى الهروب والاحتياط للدين وقد قال صلى الله عليه وسلم « الجليس الصالح خير من الوحدة والوحدة خير من الجليس السوء » ففقه الموضع أن يكون صلاح الدين هو المعول عليه ويكون الصلاح على مقتضى الكتاب والسنة فان قدر على الاجتماع باخوانه المسلمين وبالامام أو بأحدهما إن أمكنه ذلك مع الاقامة مع الأهل فحسن وإن لم يكن ذلك وأمكنه الجلوس فى العمارة منفردا فحسن أيضا وإلا فالبرية على هذه الحالة الموصوفة فى الحديث يقوى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « بشر الفرارين بدينهم من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق أنهم معى ومع ابراهيم فى الجنة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى » أو كما قال عليه السلام فقدم عليه السلام الفرار من العمارة إلى العمارة على الفرار إلى الجبال ويقويه أيضا من كتاب الله عزوجل قوله تعالى (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) وفى تسمية ما جاء به صلى الله عليه وسلم خيرا دليل على ما سمينا به الكتاب الذى هذا شرحه بجمع النهاية فى بدء الخير وغايته أن ذلك موافق بفضل الله لما قاله الصحابى رضى الله عنه ووافقه عليه سيدنا صلى الله عليه وسلم فقوى عند ذلك رجائى فى فضل الله أن يكون كل ما سكت فيه وفى شرحه موافق لما يرضى الله ورسوله ودالا على الخيرات وأبوابها ومسدا للشر وأبوابه بفضل الله ورحمته

(٢٨٨) ﴿حديث إذا نزل عذاب بقوم يعم الصالح منهم ويبعث كل على عمله﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَنْزَلَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ

ظاهر الحديث يدل على أن العذاب إذا أرسل على قوم عمهم الجميع و يبعثون فى الآخرة على قدر أعمالهم وعليها يجازون والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما معنى ﴿قوم﴾ هل يكونون مؤمنين أو غير مؤمنين وما معنى ﴿من كان فيهم﴾ وما الحكمة بأن يأخذ القوم ومن فيهم فى هذه الدار على حد سواء ثم عند البعث تقع الفرقة

بينهم بحسب الأعمال هل هذا تعبد أو لحكمة تعلم فيتحذر من هذا الأمر العظيم ﴿أما قولنا﴾ مامعنى قوم هل يكونوا مؤمنين أو غير مؤمنين أما المؤمنون حقيقة فلا يرسل الله عليهم عذابا بل بهم يدفع الله العذاب كما جاءت فى ذلك الآثار والآى تبين ذلك أما الآى فقوله تعالى (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) وقوله تعالى (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وأما الآثار فمثل قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله يحفظ الرجل الصالح فى أهله ودويرات من جيرانه» أو كما قال عليه السلام فقوله صلى الله عليه وسلم هنا «على قوم» يعم الكفار والعصاة وغيرهم ممن هم على مايشبه حال هؤلاء الذين يرسل عليهم العذاب ﴿وأما قولنا﴾ مامعنى «من كان فيهم» ﴿فالجواب﴾ ان معناه أن يكون معهم وليس على حالهم لأنه لما خالف المجالس معهم الأمر لأن الله عز وجل يقول (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) وقال الله تعالى (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم) وقال صلى الله عليه وسلم «من والى قوما فهو منهم» أو كما قال عليه السلام والآى والآثار فى هذا كثيرة وهذه سنة الله تعالى أبدا فى عباده وقد ذكر عن عيسى عليه السلام أنه مر فى سياحته على قرية وأهلها صرعى موتى فقال للحواريين لو كان موت هؤلاء من غير أخذ بلاء لدفن بعضهم بعضا ثم ناداهم ياأهل القرية فلم يجب منهم أحد ثلاث مرات ثم جاوبه واحد فقال له عليه السلام ماشأنكم قال له كانوا فى عافية فأصبحوا وهم فى الهاوية فقال له مابالك أنت تكلمت وأصحابك لم يتكلموا قال إنى لم أكن منهم وإنما مررت عليهم فبت عندهم فأخذنى الأمر معهم فكل واحد منهم ملجم بلجام من نار لايقدر أن يتكلم وأنا ليس مثلهم فتعجب هو والحواريون وتركوهم وذهبوا أو كما جرى ﴿ويترتب على هذا من الفقه﴾ الهروب من بين الكفار ومن بين الظالمين لأنفسهم بالمعاصى لأن الجلوس بينهم من إلقاء النفس إلى التهلكة هذا إذا كان معهم ولم يعينهم على ماهم فيه أو يرضى من أفعالهم شيئا فان وقع فى واحد من ذلك فهو منهم وبالله العياذ ولذلك كان سيدنا صلى الله عليه وسلم حين مر هو وأصحابه على حجر ثمود قال لهم «أسرعوا فى الخروج من هذا ولا تدخلوها إلا وأنتم باكون» أو كما قال عليه السلام وحين عجنوا العجين من بئر ذلك الموضع أمرهم عليه السلام أن لا يأكلوه ويطعمونه للبهائم وهذا منه صلى الله عليه وسلم خوفا من أجل أن يعود عليهم من شؤم تلك البقعة وبالجميع ماذكر كله خوف من القرب من أهل المخالفات والمغضوب عليهم وإن كانوا قد دفنوا ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكمة فى أن يؤخذ فى هذه الدار مع أهل البلاء من كان فيهم ثم فى الآخرة يبعث على عمله كل منهم بحسب ما كان عليه فهذا حكم بمقتضى مادلت عليه الشريعة لأن الله تعالى يقول (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل

مثقال ذرة شرا يره) وقال عزوجل (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) ومس النار لهم إذا ركنوا إليهم بقدر ركونهم فلما لم يركن هؤلاء الذين أرسل عليهم العذاب إلا بالجلوس معهم أصابهم من النار أن أخذوا معهم وكانوا فى البرزخ الذى هو مابين موتهم إلى حين بعثهم فى ذلك العذاب الذى هم فيه ثم يبعثون عند البعث كل على ماكان عليه من خير أو ضده فدل ذلك على أن قدر عذابهم على ذلك الجزء اليسير وهى الاقامة معهم هو أن يؤخذوا معهم وأن يكونوا معهم على حالهم المهلكة حتى إلى وقت البعث فعند ذلك يرجع كل إلى حاله المختص به أولا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ثم بعثوا على أعمالهم﴾ واحتمل البعث هنا أن يكون بعث سؤال القبر لأنه إن حملنا ثم على المهلة الطويلة فيكون بعثهم على أعمالهم عند بعث النفخ فى الصور والله أعلم لأن سؤال القبر مع الموت بسرعة ليس بينهما طول زمان وإن حملنا ثم على المهلة القصيرة فى الزمان فيكون بعث سؤال القبر لأن ذلك هو الذى بعد الموت لاشىء آخر بينهما والله أعلم ومما يقوى ماقلناه قوله صلى الله عليه وسلم فى غير هذا الحديث «يموت المرء على ماعاش عليه ويبعث على مامات عليه» فهؤلاء أخذوا على ماكانوا عليه من مخالطة أهل العذاب فماتوا على تلك الحالة ثم عند البعث لم يبعثوا عليها وبعثوا كل منهم على حالته التى كانوا عليها قبل إرسال العذاب وذلك كان على قدر عذابهم على مخالطتهم بالجلوس بينهم ولا يكون هؤلاء المأخوذون مع أهل العذاب المرسل الذين قد عذرهم الله عز وجل بقوله (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) لأن من جعل الله له عذرا فلا يؤخذ على ماقد عذره فيه بفضله ورحمته فعلى هذا يكون لفظ الحديث عاما فيما عدا أهل الاعذار الذين بين الله عزوجل عذرهم أونقول هو عام ومعناه الخصوص فيمن لم يقدره الله سبحانه وتعالى ﴿وفيه تخويف عظيم﴾ بالضمن وهو أن إرسال العذاب على المخالفين لأمره سبحانه وتعالى ونهيه باق متوقع كما كان فيمن تقدم ومما يقوى هذا قول عائشة رضى الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم «أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث» فيا الله ياالله يارباه أغثنا فقد كثر الخبث ولا مهرب إلا إليك ياأرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(٢٨٩) ﴿حديث الأمر بصوم يوم عاشوراء﴾

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ أَذِّنْ فِى قَوْمِكَ أَوْ فِى النَّاسِ يَوْمَ عَاشُورَاءَ أَنَّ مَنْ أَكَلَ فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَكَلَ فَلْيَصُمْ

ظاهر الحديث يدل على حكمين (أحدهما) أن صوم يوم عاشورا يجزىء لمن أمسك فيه عن الأكل والشرب وإن لم يكن بيت صومه من الليل بخلاف غيره من الصوم لقوله صلى الله عليه وسلم فى غير

عاشوراء «لاصوم لمن لم يجمع على الصوم من الليل» أوكما قال عليه السلام (والحكم الثانى) أن حرمته ليست كحرمة غيره من النوافل بل هو مثل حرمة الفرض لأن غيره من النوافل إذا أكل أحد فيه متعمدا لا يمسك بقية يومه والفرض إذا أكل أحد فيه متعمدا يمسك بقية يومه والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا الحكم فيه مستصحب إلى هلم جرا أو ذلك كان فى ذلك اليوم لكونهم لم يكونوا يعلمون حرمته فيفوتهم ولا يكون ذلك بعد بلوغ العلم به وأما صومه لمن لم يعلم به إلا بعد طلوع الفجر أو الشمس أو علم ونسى ولم يبيت صومه فالظاهر أنه يجزيه صومه إذ أمسك ولم يأكل ولم يشرب بعد والدليل عليه من الحديث أنه سماه صلى الله عليه وسلم صوما وقد قال بعضهم إنما ذلك حين كان هو الفرض قبل فرض رمضان وأما الذى أكل وشرب وهو عالم هل يمسك أولا موضع خلاف أيضا لأن منهم من قال إنما ذلك حين كان فرضا صومه فكان حكمه حكم الفرض «أما اليوم فلا» وأما هل يكون له أجر صومه فكذلك أيضا «موضع خلاف» وليس فى الحديث ما يدل عليه لأن قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ من أكل فليتم بقية يومه ﴾ احتمل أن يريد فليتم بقية يومه صائما أو ممسكا عن الأكل فمن جعله صوما قال هو فيه مأجور ومن لم يجعله صوما قال ليس له أجر الصوم وعلى كلا الوجهين قد ثبتت له حرمة ليست لغيره لاسيما مع قوله ﷺ فى صومه «أنه يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده» ومنها أى يوم هو فقد اختلف العلماء فيه فقيل اليوم التاسع وقيل اليوم العاشر فمن أراد الخروج من الخلاف جمع بين اليومين لكن ظاهر الحديث يدل على أنه اليوم العاشر وكذلك ما نقل عنه صلى الله عليه وسلم أن اليوم الذى صامه كان العاشر وأنه صلى الله عليه وسلم قال إذا كان إن شاء الله فى السنة الآتية أصوم التاسع فانتقل إلى كرامة ربه عز وجل قبل وصوله إليه صلى الله عليه وسلم وأما قوله ﴿ أذن فى الناس أو فى قومك ﴾ الشك هنا من الراوى وهذا مما قد تكرر الكلام عليه مرارا أنه مما يدل على صدقهم وتحريهم فى النقل وأذن بمعنى أعلم ويؤخذ منه الدليل على جواز النيابة فى تبليغ العلم لأن سيدنا صلى الله عليه وسلم إستناب هذا الرجل من أسلم أن يعلم الناس عنه ويؤخذ منه أن من السنة أن يعظم ما عظم الله تعالى من أى المخلوقات كان من جماد أو حيوان أو زمان اتباعا لحكمة الحكيم يؤخذ ذلك من تعظيم سيدنا صلى الله عليه وسلم لهذا اليوم لأنه عليه السلام لما دخل المدينة وجد اليهود يصومونه فسأل لم يصومونه فأخبروه أنه اليوم الذى نجى الله فيه موسى عليه السلام وأغرق فيه فرعون فقال عليه السلام «فنحن أحق وأولى بموسى منكم» فصامه وأمر بصومه وكان هو الفرض حتى فرض رمضان ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن تعظيم ما عظمه الله تعالى من هذه الأزمنة والأماكن إنما هو بعمل الطاعات فيها لله تعالى بحسب ما تقتضيه الشريعة مع اعتقاد الايثار له على غيره من جنسه ﴿ وفيه دليل ﴾ لمن

يقول من العلماء أن لسيدنا صلى الله عليه وسلم أن يشرع من الأحكام ماشاء وإن ذلك حكم الله تعالى يجب العمل به وهو الحق يؤخذ ذلك من أمره عليه السلام بصوم هذا اليوم ولم يذكر فيه عن الله شيئا لأن الأمور التى أمر عليه السلام بها عن الله مخبر أنها عن الله وهذا مستقر من السنة وفى قوله عليه السلام « فنحن أحق وأولى بموسى منكم » دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد عليه نسخ فى شريعتنا وعلى هذا جماعة من العلماء ويقويه قوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وفى ترفيع الله تعالى بعض الأزمنة على بعض وكذلك الأماكن إلى غير ذلك دليل على عظيم رحمته عز وجل بعباده المؤمنين يؤخذ ذلك من إرشاد الرسل عليهم السلام إلى تعظيمها وإلى أعمال البر فيها وزيادة الأجور فى ذلك للعاملين وذلك مثل ماقال عليه السلام « صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أنه يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده » متفق عليه فظاهر ماقصد منها كثرة الأجور والخير لنا فضلا من الله ونعمة لله الحمد على ذلك

(٢٩٠) ﴿ حديث شهادة الأمة المحمدية على الأمم السابقة يوم القيامة ﴾

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجَاءُ بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ يَارَبِّ فَتُسْئَلُ أُمَّتُهُ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ فَيُقَالُ مَنْ شُهُودُكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا قَالَ عَدْلاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

ظاهر الحديث الاخبار بفضل هذا النبى صلى الله عليه وسلم وفضل هذه الأمة وأنهم الشهود على من تقدمهم من الأمم والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال كيف يشهد متأخر على متقدم وما الحكمة فى ذكر نوح عليه السلام من بين سائر الأنبياء عليهم السلام أجمعين وهل الأمة كلها برها وفاجرها يشهدون أولا يشهد إلا من هو لذلك أهل ﴿أما قولنا﴾ كيف يشهد متأخر على متقدم فقد جاء فى حديث غير هذا أن هذه حجة قوم نوح صلى الله عليه وسلم يقولون يا ربنا وكيف يشهدون علينا وهم آخر الأمم فيقول الله عز وجل لهم « كيف تشهدون عليهم وأنتم آخر الأمم فيقولون ربنا إنا وجدنا فيما أنزلته فى كتابك علينا أن نوحا عليه السلام بلغ أمته » ﴿وفيه دليل﴾ على أن حكم الله تعالى بيننا فى الآخرة على ماهى أحكام الشرع هنا يؤخذ ذلك من طلبه عز وجل الشهود من نوح عليه الصلاة والسلام وهو العالم بصدقه ومن استفسار الشهود كما ذكرنا ﴿وفيه دليل﴾ لمذهب مالك رحمه الله تعالى فى أن القاضى لايحكم

بعلمه فاذا كان العالم الذى لايخفى عليه شىء لايحكم بعلمه فيما بيننا ذلك اليوم فكيف بالغير ﴿ وفيه دليل ﴾ على تساوى الأحكام فيما بين الناس على حد واحد القوى والضعيف والرفيع والوضيع يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ يجاء بنوح عليه السلام ﴾ أى أنه يساق للحكم كما يساق غيره وهو حيث هو من مكان الرسالة ثم أنه يطلب منه الشهود ولايخلى عنه إلا بعد قبول شهادتهم وقد جاء أن أول ما يساق للحساب إسرافيل عليه السلام الذى العرش على كاهله والوحى يتحدر على جبينه فيقول الله جل جلاله «ما صنعت فى عهدى فيقول يارب بلغته جبريل فيؤتى بجبريل فيقول له الحق جل جلاله هل بلغك إسرافيل عهدى فيقول نعم يارب فيخلى عن إسرافيل ويسئل جبريل فيقول عزوجل له ماصنعت فى عهدى فيقول يارب بلغت الرسل فيؤتى بالرسل فيقال لهم صلوات الله على جميعهم هل بلغكم جبريل عهدى فيقولون نعم فحينئذ يخلى عن جبريل فأول من يسأل من الرسل نوح عليه السلام» فيكون من قصته ماهو نص الحديث فلايخلى عنه إلا بعد قبول شهادة هذه الأمة ثم الذى بعده كذلك واحدا بعد واحد ويعارضنا هنا قوله عليه السلام «أول من يحاسب من الأمم أنتم وأول من يجوز من الأمم الصراط أمتى» أو كما قال عليه السلام ﴿ فالجواب ﴾ أنه ليس بينهما تعارض لأن حساب الأمم هو على نوعين وبذلك يجتمع الحديثان ولا يبقى بينهما تعارض وهو أن النوع الأول أن تسأل الأمم هل بلغت الرسل عن الله أم لا فهذا الذى يتقدم جميع الأمم فيه على هذه الأمة لأنهم هم الشهود عليهم فلا بد من حضورهم إلى آخر الأمم والنوع الآخر هو سؤال الأمم كل شخص منهم منفردا عن عمله بمقتضى شريعته فهذا الذى يكون هذه الأمة أول من تحاسب عليه وسيدنا صلى الله عليه وسلم شاهد عليهم ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى أن ذكر نوحا عليه السلام دون غيره من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فيحتمل أن يكون إنما ذكر نوحا عليه السلام لأنه أول الرسل فاذا كانت هذه الأمة تشهد على الأول من الانبياء فمن باب أحرى غيره واستغنى عن ذكر الغير صلوات الله عليه وعليهم أجمعين بذكر الآية آخرا وهى عامة فهذا من الاختصار والبلاغة ﴿ وأما قولنا ﴾ هل الأمة تشهد كلها برها وفاجرها أولا يشهد إلا من هو أهل لذلك أما لفظ الحديث فمحتمل لأن العرب قد تسمى البعض باسم الكل لكن التخصيص يظهر فيه من وجهين (أحدهما) من الحديث الذى أوردناه شاهدا فى قولهم وجدنا فى الكتاب الذى أنزلت فهذا لايكون جوابا إلا ممن يكون له علم بالكتاب وكثير من هذه الأمة لايعلمون من الكتاب شيئا ومن طريق النظر من يكون من هذه الأمة إذ ذاك من هو فى نوع من أنواع العذاب المتقدم ذكره فى الأحاديث كيف يستشهد بهم وكيف يقبل لهم شهادة ويتضمن الآية أيضا قوله ﴿ وسطا ﴾ أى خيارا فلا يشهد منها إلا خيارها أوكما أشرنا إليه أولا أن الحكم هناك كالحكم هنا

وكما لا يقبل هنا إلا العدول الخيار كذلك هناك بقوله تعالى (ممن ترضون من الشهداء) فلما كان هنا لا يؤخذ إلا المرضى الحال فلا يؤخذ هناك ضده هذا ما تقتضيه الحكمة ﴿ وفيه إشارة لطيفة ﴾ وهي أن إعلامك بهذه المرتبة الرفيعة عناية بك لتحافظ عليها لعلك ممن تكون يشهد إذ ذاك لأنه يرجى من فضل الكريم أن من قبلت شهادته أن يسامحه ويتفضل عليه بالخلاص من ذلك الهول العظيم ﴿ وفيه تنبيه ﴾ إلى أن الشهود وإن اختلفت مراتبهم في الرفعة إذا لم يخرجوا من دائرة العدالة قبلوا كلهم يؤخذ ذلك من قول نوح عليه السلام حين يسئل عن شهوده قال ﴿ محمد وأمته ﴾ فجعله صلى الله عليه وسلم من جملة الشهود وبه صحت العدالة لمتبعيه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن المخالف للسنة لا يكون ممن يشهد معه ولا يشهد معه إلا من تبعه بالاحسان لأن أولئك هم العدول وغيرهم أطراف لا وسط ولا عدول يقوى ذلك قوله عليه السلام ﴿ كلها في النار إلا واحدة ما أنا عليه وأصحابي ﴾ فمن يكون في النار أنى له بالوسط من الأمة والتعديل هذا في تجريحه أتم دليل ﴿ تنبيه ﴾ يا أخا البطالة والتلويث لنفسك انتبه الحاكم قد زكاك وأنت بما ارتكبت من قبيح الأوصاف تخرج نفسك وبذلك تفرح فقد خضت بحر المهالك وعلى عقبك من الخير نكصت ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن أقوى الأدلة في الأحكام كتاب الله تعالى يؤخذ ذلك من ترك سيدنا صلى الله عليه وسلم تمام الكلام الذي أبداه وأتى بالآية من الكتاب العزيز ومما يقوى ذلك قول معاذ له صلى الله عليه وسلم حين وجهه إلى اليمن قال له عليه السلام «بماذا تحكم قال بكتاب الله تعالى قال فان لم تجد قال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فان لم تجد قال أجتهد رأيي فقال صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي وفق رسول رسوله إلى ما يحب الله ورسوله» أو كما ورد وفقنا الله في جميع الأمور إلى ذلك بمنه وأسعدنا به

(٢٩١) ﴿ حديث مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى ﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ لَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ

ظاهر الحديث يدل على هذه الخمسة المذكورة في الحديث لا يعلمها إلا الله والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن يقال ما الحكمة في أن استعار للغيب مفاتيح وما الحكمة في أن جعلها خمسا وهل للغيب زيادة على تلك الخمس مفاتيح أم لا وما الحكمة في أن لم يذكر من أمور الغيب إلا تلك الخمسة ﴿ أما قولنا ﴾ ما الحكمة في أن استعار للغيب مفاتيح فلوجوه منها الاقتداء بما به نطق الكتاب في ذلك بقوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر) ومنها لتقريب الأمر على المخاطب لأن أمور الغيب

لا يحصيها أحد إلا عالمها وكل شيء حيل بينك وبينه فهو غيب وأقرب الأشياء في ذلك هي الأبواب والأبواب أقل مايحبسها عن الفتح وأيسرها المفاتيح فاذا كان أيسر الأشياء التي يعرف بها الغيب لا يعرف لها احد موضعا فكيف يقدر أن يعرف ماهو أكبر من ذلك هذا محال وهذا من أبلغ البيان وأخصره ﴿ومنها﴾ أنه أراد بالغيب الغيب الذي لا يعلمه أحد حقيقة لأن الغيوب على ماهي عليه وإن كانت لبعض الغيوب أسبابا قد يستدل في بعض المراد بها عليه أن ذلك ليس بحقيقي في علم تلك الغيوب وأما حقيقتها فلا يعلمها أحد إلا الله تعالى يشهد لهذا التوجيه قوله صلى الله عليه وسلم كناية عن الله سبحانه «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب» فعلى هذا فالغيب على نوعين غيبه سبحانه عنا بذاته وصفاته وغيب بالأمور الجارية في مخلوقاته فلما كانت تلك الأمور غائبة عنا لا نقدر على العلم بها ولا الوصول إليها وهي محصورة بالكتاب بقوله تعالى (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) ولقوله تعالى (قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) فلما كان جميع الوجود محصورا في علمه سبحانه شبهه عليه السلام بالمخازن وكل مخزن لابد له من باب وكل باب لابد له من مفتاح فاستعار عليه السلام له المفاتيح يشهد لهذا التوجيه قوله تعالى (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) فاذا كانت الخزائن عنده سبحانه والمفاتيح واحد لا نعلم المفاتيح أين هي فكيف يخبر بما في المخازن هذا لا يتعقل وإذا كانت هذه التي هي أثر قدرته سبحانه ولا يقدر أحد أن يعلم منها شيئا إلا أن يخبره سبحانه بها كما قال تعالى في كتابه (إلا من ارتضى من رسول) فكيف بقدرته جل الله أو بصفة من صفاته على ماهي عليه من الجلال والكمال فكيف بذاته التي «ليس كمثلها شيء» هذا ممنوع عقلا وشرعا ومن تعاني شيئا من المعرفة في شيء مما قسمنا من الغيوب أو نوع من أنواعه أو تشبيه أو تمثيل بدليل من الأدلة فمحال دعواه وهو ضرب من الحمق ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكمة في أن جعلها خمسا وهل للغيب زيادة على هذه المفاتيح فاعلم وفقنا الله وإياك أن الحكمة في أن جعلها خمسا الكلام عليه مثل ماتقدم الكلام على قول عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم «يحب التيامن في شأنه كله» ثم قالت «في طهوره وترجله وتنعله» فأتت من الفرائض بآكدها وهو الطهور ومن السنة كذلك وهو الترجل ومن المباح كذلك وهو التنعل فحصرت بهذه الثلاث جميع مايتصرف فيه المرء وكذلك هذه الخمس حصر بها صلى الله عليه وسلم العوالم فقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ماتغيض الأرحام﴾ دليل على مايزيد في النفوس وينقص وذكر منها الأرحام لكونها للناس في ذلك عوائد يعرفونها وقد تقررت على

ذلك أحكام شرعية فهذه أعلاها فاذا كانت هذه التي قد تقررت عليها الأحكام بحسب جرى العادة لا يعرف حقيقتها لامتى تزيد ولا متى تنقص فغيرها من باب أحرى . قد قال تعالى (وما تغيض الأرحام وماتزداد وكل شيء عنده بمقدار) فدل بهذا أن غيره سبحانه لا يعلم ذلك ومن هذا الباب كلام العلماء فى عدة الحرة بثلاث حيض فهل ذلك دلالة حقيقة على براءة الرحم أو ذلك تعبد بحسب ماهو مذكور فى كتبهم ولذلك قال جل جلاله (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فاذا كان الشيء الذى هو فيك لا تعرفه فكيف غيره من باب أحرى ودل بقوله ﴿ ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ﴾ على أمور العالم العلوى وذكر منها المطر لأن لنا أسباب قد تدل عليه ونجدها فى بعض المرار يجرى فيها مايغلب على الظن من جرى العادة المتقدمة فى مثلها وهو أيضا كثير كما يتردد إليها وجعل لنافيه وبأثره بحسب مقتضى الحكمة الالهية رزق وخير لا نعرفه حقيقة فكيف غيره من باب أحرى وكذلك جاء الحديث الذى قد ذكرناه وهو قوله « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى » وكان أبو هريرة رضى الله عنه إذا أصبح وقد مطر الناس يقول مطرنا بنوء الفتح ثم يتلو هذه الآية (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) ودل بقوله (وماتدرى نفس بأى أرض تموت) على الجهل بهذه الأمور الأرضيات وذكره موضع الموت منها لأن العادة قد جرت غالبا أن أكثر الناس موتهم بالأرض التى هم بها والحكم فى الأمور يعطى للغالب وإن مات بها لا يدرى حقيقة ضريحه منها أين هو فاذا كان هذا المقدار الذى يخصه منها على قلته ونـزارته لا يعلمه فمن باب أحرى غيره من رزق أو خير أو ضده ولذلك قال عز وجل فى كتابه (وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) ودل بقوله ﴿ ولا يعلم مافى غد إلا الله ﴾ على أنواع الزمان ومافيه من التقلبات والعوالم الطارئة فيه والحوادث وخص منه غدا على غيره لأنه أقرب الأزمنة من يومك فاذ ماتعرفه فى يومك بظهوره كان أوله أو آخره كأنه شيء واحد لأن عادة العرب مايكون فى ساعة واحدة أو فى بعضها ينسبونه كله إلى يوم مثل قولهم جاء زيد يوم الخميس ولم يكن مجيئه إلا فى ساعة منه أو فى بعضها وكذلك أيضا أحكام الشريعة غالبا منها العدد ومنها الحيض إذا رأت المرأة الدم فى اليوم ولو دفعة واحدة حسبت ذلك اليوم يوم دم فاذا كنت فى أقرب الأزمنة وهو غد لا تعرفه فمن باب أحرى غيره ودل بقوله ﴿ ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ﴾ على علم الآخرة بأجمعها وذكر يوم القيامة منها لأنه أولها وأقربها فاذا كنت لا تعلم أقرب الأشياء منها وهو يوم ظهورها وبدايتها فمن باب أحرى غير ذلك وقد قال الله تعالى (لا تأتيكم إلا بغتة) أى على غفلة وقد قال تعالى (ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة) أى عظم أمرها على أهل السموات والأرض والكل جاهلون بها ومما يشهد لذلك قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام حين

سأله عنها «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن أخبرك بشروطها أن تلد الأمة ربتها فذلك من أشراطها وأن ترى الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذلك من أشراطها وأن ترى رعاة البهم يتطاولون فى البنيان» أوكما قال عليه السلام فهذا من أبدع الكلام وأبلغه الذى حصر فيه جميع أنواع الغيوب وأزال به جميع الدعاوى الفاسدة والأدلة كلها ماعدا أدلة الشريعة على الحد الذى جعلتها وعلى الوجه الذى بينتها وتحقق به لأهل الايمان إيمانهم وحسن اعتقادهم بغير سير ولا تقسيم ولا تنويع ولا تخييل ولا تحديد ولا تكييف ولا دعوى ولا اعتراض ولا مقدمة ولا نتيجة ولا هياكل ولا عناصر ولا أعراض ولا جواهر ولا حكمة ولا طباع إلا بفضل كريم وهاب عليم قدير مدبر حكيم «ليس كمثله شيء وبيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير وهو اللطيف الخبير» ﴿ وفيه تنبيه ﴾ لطريق أهل الفضل والسلوك وهو ترك الالتفات إلى ماسواه عز وجل والاشتغال بما به أمروا والانتهاء عما عنه نهوا ولم يدعوا مع مابه من عليهم من الأحوال السنية والعلوم الجليلة شيئا ما لدوام الفقر والافتقار وخوف العدل العظيم والتعلق بجناب الفضل العميم ولا يرون خلاصا إلا به سبحانه من الله علينا بذلك لارب سواه يشهد لطريقهم المبارك واعتقادهم الحسن الموافق الكتاب والسنة أما الكتاب فمعلوم فى غير ما آية وأما السنة فقوله عليه السلام إخبارا عن ربه عز وجل بقوله ﴿ ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ياعبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ياعبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد مانقص ذلك من ملكى شيئا ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد وسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته مانقص ذلك ماعندى إلا كما ينقص المخيط إذا دخل فى البحر ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ﴾ أو كما قال عليه السلام فتحقق بمتضمن ما أوردناه أوصاف الربوبية وجلالها وفضيلة سيدنا صلى الله عليه وسلم وحسن هديه لأمته وأوصاف العبودية ونقصها وحقارتها وعظم افتقارها للربوبية ودوام اضطرارها كما قال الكليم عليه السلام (رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) جبر الله تعالى بغناه فقرنا وأزال بفضله جهلنا وتجاوز برحمته عنا لارب سواه ولا مرجو إلا إياه والحمد لله رب العالمين

(٢٩٢) ﴿ حديث ذكر الله تعالى لعبده إذا ذكره ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً

ظاهر الحديث يدل على حكمين (أحدهما) إخبار الصادق صلى الله عليه وسلم أن المولى سبحانه مع عبده على قدر ظنه بمولاه (والثانى) الاخبار بأنه معه بحسب معاملته أو عبادته له والزيادة على ذلك بحسب التضعيف المذكور فى الحديث والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا الظن على بابه أو هو بمعنى العلم والقطع وهل الذكر هنا بمجرد الذكر بالقلب أو باللسان وإن كان لا يعلم من الأوامر شيئا أو يكون ذكره بالأفعال بالأمر والنهى لأن الذكر بساطها وما تأويل الصفات المذكورة فى الحديث من قبل المولى سبحانه ﴿ أما أولنا ﴾ هل الظن هنا على بابه أو هو بمعنى العلم القطعى ﴿ فالجواب ﴾ أنه لا يمكن أن يكون الظن هنا على بابه بل معناه العلم الحقيقى كقوله تعالى (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) وهم قد علموه علما حقيقيا ولأن هذه الأمور القلبية كلها ما نحن فيه مطلوبون إلا بتحقيق الاخلاص لقوله عز وجل (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) والتصديق القطعى فى كل ما به أخبرنا عن الاله وما به أنعم علينا من قبيل ما كلفنا من التعبدات والتحقيق بجزيل الثواب الذى وعدنا والخوف مما به توعدنا لمن خالف أمره عز وجل ذلك كله بلا شك ولا ريب وكذلك ما به من أمور الآخرة أخبرنا ولذلك قال تعالى فى صفتهم (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا) إلى قوله تعالى (إنك لا تخلف الميعاد) وقال تعالى (ومن أوفى بعهده من الله) فالاشارة هنا إلى هذا بقرينة الحال وهى ما ذكر بعد فى باقى الحديث من قوله تعالى ﴿ إذا ذكرنى ﴾ إلى قوله ﴿ أتيته هرولة ﴾ حتى يفهم معانى تلك الألفاظ ويصدق بها حتى لا يدخل على المرء فيها شك ولا ريب فيعامل مولاه بجد وتحقيق بما وعده ويتحقق أن ذلك فضل منه سبحانه على عباده وهو الغنى المستغنى ولأجل هذا قال صلى الله عليه وسلم « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشىء وقر فى صدره » وقال عليه السلام فى حديث تعليم الايمان « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » وقد روى فى الاسرائيليات أن أخوين كان أحدهما عابدا مشهورا بالتعبد والآخر مشهورا بضده

فماتا معاً فأخبر موسى عليه السلام أن العابد منهما من أهل النار وأن المسرف منهما من أهل الجنة فتعجب موسى عليه السلام وبنوا إسرائيل من ذلك ثم أن موسى عليه السلام بعث إلى امرأة العابد فسألها عن حاله فقالت لاأعرف منه إلاماتعرفون أنتم غير أنه كان إذا فرغ من تعبده ودخل فراشه قال أفلحنا إن كان ماجاء به موسى حقا فقال موسى عليه السلام من هذا أتى ثم سأل زوجة المسرف فقالت لاأعلم منه إلامثل علمكم ولكنه كان إذا أفاق من نشوته مع آخر الليل يخرج إلى ساحة الدار ويقر لله بالوحدانية ولك بالرسالة ويبكي ويقول يارب أى زاوية من زوايا جهنم تملأ بهذا الجسد الخبيث فقال موسى عليه السلام بهذا سعد أو كما روى ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يريد بالذكر أن نذكره كيف كان أو يريد به الذكر بالأعمال اللفظ يحتمل لكن الذى تدل عليه الأدلة الشرعية أن الذكر على نوعين ذكر مقطوع لذاكره بهذا الخبر الذى فى الحديث الذى نحن بسبيله وذكر ثان الأدلة فيه متعارضة منها مايدل على أنه فى جملة الذاكرين لقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وأدلة أخر تمنع ذلك كقول مولانا سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام (قل للظالمين لا يذكرونى فانى آليت على نفسى أن من ذكرنى ذكرته فاذا ذكرونى ذكرتهم بالغضب) ولقول سيدنا صلى الله عليه وسلم فى المصلى الذى لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا فكيف بالذكر وحده ولم يجعل عز وجل الذكر فى كتابه إلا بعد تحقيق الايمان بقوله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات إلى قوله تعالى والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) فهذه مبينة لما نحن بسبيله وأما ذكره عز وجل بالأفعال فهو الأفضل ويكفى فى ذكر ذلك قول عمر رضى الله عنه « ذكر الله عند أمره ونهيه خير من ذكره باللسان » إلا إن كان هذا العاصى ذكر مولاه بخوف وخجل مما هو فيه فيرجى له فضل المولى مثل ماتقدم من ذكر أحد الأخوين المسرف على نفسه منهما ولقول مولانا سبحانه «أطلبونى عند المنكسرة قلوبهم من أجلى» ﴿ وأما قولنا ﴾ ماتأويل الصفات التى فى الحديث من قبل مولانا سبحانه فهذه من التى لها تأويل غير ظاهرها ونحتاج أن نتكلم عليها واحدة واحدة أما قوله ﴿ وأنا معه إذا ذكرنى ﴾ فمعناه إذا ذكرنى فأنا معه بحسب ماقصد فى ذكره فان ذكرنى بالتعظيم كنت معه بالانعام عليه والاحسان كقوله تعالى فى كتابه (فاذكرونى أذكركم) أى أرحمكم إذا ذكرتمونى وقد قال تعالى (ولذكر الله أكبر) أى هو أكبر العبادات وإذا ذكرته فى خوف ذكرك بالرحمة لك والخلاص مما خفته لقوله عز وجل (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) ولقوله تعالى فى الحديث القدسى « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ماأعطى السائلين » لأن شغلك فى خوفك واضطرارك عن مسألته سبحانه بذكره أوجب لك النجاة مما تخافه وكذلك فقس فى كل الأمور تجده لاينكسر فان ذكرته عند وحشتك آنسك بذكره وقد جاء عنه سبحانه أنه قال «وأنا جليس من ذكرنى» ولذلك لما أن دخل على بعض

المباركين وهو وحده وهو يذكر فقيل له وحدك فقال لهم الآن أنا وحدى لأن هذه كلها دالة على ماقلناه أولا من أن الظن يكون بمعنى العلم القطعى ومما يقويه أنه سئل بعض المباركين مانلت من عبادتك. قال الأنس بالله تعالى فقال له السائل حسبك فلم ينل منه الأنس إلا مع صدقه وتصديقه بما قيل له ووعد به وقد قال تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أى التى من الله سبحانه عليها بالعلم والعمل والحضور لأن صاحب القلب الغافل لسانه يذكر وقلبه فيما هو بسبيله يجول وكيف يجد هذا بذكر الله طمأنينة وأنى له ذلك وقد قال عليه السلام « إن الله لاينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » وقوله ﴿فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى﴾ احتمل أن يكون هذا إشارة إلى فضيلة الذكر الخفى على الذكر الجلى لأن ماينفرد به المولى سبحانه وحده بذاته الجليلة أفضل مما سواه وقد جاء هذا نصا منه صلى الله عليه وسلم بأن قال «الذكر الخفى يفضل الجلى بسبعين درجة » أو كما قال واحتمل أن يحمل على ظاهره فيكون المعنى أن الذى يذكر الله فى نفسه من جملة ما أنعم الله عليه من أجل أن ذكره فى نفسه أن مولاه سبحانه ذكره فى نفسه أعنى الله يجازيه على ذكره بثواب. لايطلع عليه غيره سبحانه وتعالى وإن ذكره فى ملأ ذكره الله بجزاء الثواب بحضرة الملأ الأعلى وشهادتهم ونبه هنا بالأعلى مما من به على عبده على الأدنى فان ماسوى ذلك من الحسنات والخير هذا أعلا منه وقوله ﴿ فان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ﴾ أى فى العالم العلوى فدل بهذا على تفضيل العالم العلوى على هذا العالم وسكت عما له من الأجر فى ذلك لأنه قد ثبت بالكتاب والسنة أن ذكر المولى سبحانه عبده رحمة له والآى فيه والأحاديث كثيرة ﴿وفى هذا أعظم دليل﴾ على أن المولى جل جلاله (ليس كمثله شىء) يؤخذ ذلك من قوله تعالى ﴿ فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منهم ﴾ وبالعلم القطعى أن فى الزمان المفرد بذكره جل جلاله جمع كثير فى أنفسهم فى مشارق الأرض ومغاربها وفى ذلك الزمان نفسه يذكره تعالى جمع كثير بالجهر ولا يعلم قدرهم إلا هو سبحانه وهو عز وجل يذكر الجميع واحدا واحدا بحسب ذكره له من سر أو جهر مع ماهو سبحانه فيه من حمل جميع الموجودات بقدرته وحكمته على ماجرى فيهم سابق علمه هذا لاتحده العقول ولا تخيله الأذهان ولا يحد ولا يوصف جل جلاله وتقدست أسماؤه ومن أجل الايمان بهذا ومايشبهه استفتح عليه السلام الحديث بقوله سبحانه ﴿أنا عند ظن عبدى بى﴾ وأما قوله تعالى ﴿وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا﴾ إلى آخر الحديث فهذا ليس على ظاهره بدليل أنك تجد ذلك من نفسك الذى أنت محدود متحيز على غير ظاهره فكيف فى جانب من لايحد ولا يكيف وإلا فأين الموضع الذى تقرب فيه من مولاك كشبر أو ذراع أو باع أو أى موضع يأتيه يمشى لأنه عز وجل ليس له جهة محدودة فيقرب من تلك الجهة بحسب هذه التنويعات.

فما بقى إلا التأويل من الجهتين ويكون المعنى فى ذلك انك مهما تقربت إلى مولاك بجهة من وجوه القرب فهو بفضله يجازيك على ذلك بأكثر مما جئت به رفد بين عز وجل ذلك بقوله (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقد جاء أن الحسنة بعشر وجاء بسبعين وجاء بسبعمائة وجاء بأكثر من ذلك بقوله تعالى (والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) ﴿وهنا بحث﴾ فى تبيين هذه الحالات من الشبر إلى المشى هل هذه الدرجات من جهة الأعمال المحسوسة أو من جهة النيات أو من مج. وعهما احتمل والأظهر المجموع بدليل قوله سبحانه على لسان نبيه عليه السلام «لن يتقرب إلى المتقربون بأحب من أداء ماافترضت عليهم ثم لايزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها» وجاء قوله صلى الله عليه وسلم «أوقع الله أجره على قدر نيته» فبان بهذا أن الأعمال فى نفسها بعضها أقرب إلى الله تعالى من بعض ولذلك قال تعالى (يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) وبان أن حسن النية يزيد العمل رفعة وقربا إلى الله سبحانه ولذلك قال سبحانه (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) فما أثنى عز وجل عليهم إلا بحسن نياتهم وجميل قصدهم ﴿ويترتب على هذا من الفقه﴾ أن يكون للمرء اعتناء بترفيع عمله بأن ينظر الأعلى فالأعلى فى أعيان الأعمال وفى تحسين النية فيها ما أمكنه ولايخلى قلبه من ذكر مولاه والشغل بما يقرب إليه لأن هذه هى الفائدة التى تترتب على معرفة هذا الحديث مع قوة اليقين وخالص الايمان والصدق والتصديق الذى لايخالطه شك ولاريب وإلا كان الأمر عليه لاله جعلنا الله ممن هداه ووفقه لما يقربه إليه ونفعه به بمنه

(٢٩٣) ﴿حديث الحث على قيام الليل﴾

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً فَقَالَ لَهُمْ أَلاَ تُصَلُّونَ قَالَ عَلِىٌّ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ فَاذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَىَّ شَيْأً ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام (أحدها) الحض على قيام الليل (والثانى) أن استيقاظ النائم إنما هو بيد الله تعالى لاعمل فيه للخلق (والثالث) أن الجواب بالقدرة على الحكمة ليس من طريق التكليف والقصد أن يكون الجواب على الحكمة بمقتضى الحكمة وعلى القدرة بمقتضى القدرة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ جواز المشى بالليل إلى دور القرابة وذوى الأرحام يؤخذ ذلك من قوله ﴿ طرقه وفاطمة ليلة ﴾ لأن كل ما يأتى بالليل يقال له طارق وكذلك بالنهار ولذلك كان من دعائه ﷺ أنه كان يستعيذ من «طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير»(١) ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه إذا تكلم العالم بمقتضى الحكمة وكان ذلك فى غير واجب فوقع الجواب على ذلك بالقدرة أن ذلك كاف فى الجواب ويقطع البحث يؤخذ ذلك من أنه لما طالبهم سيدنا صلى الله عليه وسلم بأثر الحكمة وهو قيام الليل وجاوبه على رضى الله عنه بأثر القدرة وهو إخباره بقوله ﴿ إنما أنفسنا بيد الله فاذا شاء أن يبعثنا بعثنا ﴾ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال له ذلك ولم يراجعه بشىء ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الرجل إذا كان الخطاب له ولأهله هو أولى بالجواب يؤخذ ذلك من خطاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنته ولعلى صلوات الله عليه ورضى الله عنهم أجمعين فجاوبه على رضى الله عنه وسلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بانصرافه من حينه ولم يقل له شيئا ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز محادثة الشخص نفسه بأمر الغير يؤخذ ذلك من قول سيدنا صلى الله عليه وسلم بعد ما ولى عنهم وهو وحده ﴿ وكان الانسان أكثر شىء جدلا ﴾ ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز ضرب المرء بعض أعضائه ببعض على أمر يتعجب أو يعلم به غيره إشعارا له أنه ما رأى منه لم يوافقه ولا يعجبه يؤخذ ذلك من ضربه صلى الله عليه وسلم فخذه بعد ما ولى عنهم وكلامه إذ ذاك بقوله (وكان الانسان أكثر شىء جدلا) لأن يعلمهم أن ذلك الجواب لم يرتضه منهم ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن يقال لم لم يقل لهم ذلك مشافهة ﴿ فالجواب ﴾ أنه لما علم سيدنا صلى الله عليه وسلم أن عليا رضى الله عنه لا يجهل أن الجواب بالقدرة عن الحكمة أنه ليس من الحكمة فاحتمل إن كان لهما عذر يمنعهما من الصلاة واستحى أن يذكره للنبى صلى الله عليه وسلم ولا يمكنه عدم الجواب له فدفع الخجل عن نفسه وعن أهله بذكر القدرة ولذلك الامكان ولى النبى صلى الله عليه وسلم عنهم مسرعا من أجل أن لا يشغلهم عن أخذ الأهبة للصلاة واحتمل أن يكون ذلك من على رضى الله عنه استدعاء جواب من النبى صلى الله عليه وسلم لا يزيده فائدة فكان ضرب فخذه صلى الله عليه وسلم وهو مولى وكلامه بما به تكلم جوابا لعلى رضى الله عنه لأن يحقق عنده الأمر على

(١) عن يحيى بن سعيد أنه قال لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه فقال له جبريل أفلا أعلمك كلمات تقولهن إذا قلتهن طفئت شعلته وخر لفيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى فقال جبريل فقل ﴿ أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات اللاتى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها وشر ما ذرأ فى الأرض وشر ما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمان ﴾ رواه إمام الأئمة فى موطئه والنسائى فى سننه والبيهقى فى الأسماء والصفات

ماهو عليه وأن العبودية شأنها أن لا يطلب انفسها عذر مع الشريعة أبدا إلا الاعتراف بالتقصير والأخذ بالاستغفار والاعتذار ﴿وفيه دليل﴾ على فضل على رضى الله عنه يؤخذ ذلك من روايته لهذا الحديث وقد يسبق لفهم من لا يعرف قدره مايحتمل الحديث من العتب عليه وحاشاه من ذلك فلما كان الاخبار به مما يترتب عليه فى الدين فوائد لم يبال بشىء من ذلك ﴿وفيه إشارة﴾ إلى أن من حقيقة الصحبة والقرابة التذكار عند الغفلة يؤخذ ذلك من كون سيدنا صلى الله عليه وسلم لم يطرقهم ليلا إلا ليذكرهم بالصلاة لأن الليل وقت غفلة وإن كان حالهم جميعا لا يقتضى غفلة لكن فى زمان الغفلة ينبغي أن يلتفت فيه إلى حال القرابة والاخوان وهذا من السنة وإن كانوا لا يغفلون غالبا لكن ذلك الخوف ماطبعت عليه البشرية ﴿وفيه إشارة﴾ إلى الالتفات إلى الأصل وإن كان الظاهر خلافه لأن الأصل من الغفلة وأشباهها والتوفيق والتزكية فضل ربانى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا) فينبغي على هذا أن يتفقد المرء نفسه وأحبابه بتذكار الخير والعون عليه وإن كان سبحانه قد من عليهم بذلك لكن ذلك من أجل ماذكرناه ولكى يحصل فضل آخر وهو دخولهم بذلك تحت حد قوله عز وجل وتعاونوا على البر والتقوى) وكذلك كانت سنة سيدنا صلى الله عليه وسلم يتفقد الصحابة رضى الله عنهم بالموعظة فى بعض الأيام وهم على ماهم عليه من قوة الايمان وكانوا يودون أن لو كان ذلك كل يوم فقال لهم « مايمنعنى من ذلك إلا خوف السآمة والملل عليكم » فبهداهم اقتده جعلنا الله ممن اهتدى بهديهم بمنه

(٢٩٤) ﴿حديث اذا أحب الله عبدا أمر جبريل بأن يحبه﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِى جِبْرِيلُ فِى السَّمَاءِ انَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِى أَهْلِ الْأَرْضِ

ظاهر الحديث يدل على أن الله عز وجل إذا أحب عبدا خلع عليه خلع العناية فيأمر جبريل عليه السلام بأن يحبه ثم ينادى جبريل فى أهل السماء يحب الله عبده ويأمرهم بحب ذلك العبد المحبوب عند مولاه ويضع له فى أهل الأرض القبول والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال مامعنى حب الله تعالى للعبد وما معنى حب جبريل عليه السلام له وحب الملائكة وما معنى القبول ﴿فأما قولنا﴾ مامعنى حب الله لعبده فقد تقدم الكلام على هذا المعنى وما يشبهه أن حقيقة الحب من الله لعبده ليس كحب العبيد بعضهم لبعض بالولوع به والأنس به وميل القلب إليه وإنما معناه رضاه حاله وما هو عليه وكثرة إحسانه لقوله عز وجل (يحبهم

ويحبونه) أي يحبهم فيحسن إليهم على حبهم له فلكثرة الاحسان منه عز وجل عبر عليه السلام عنه بالحب لأنه مما عرفنا بيننا أن كثرة الاحسان منا بعضنا لبعض إنما بساطه الحب من المحسن الذي إليه الاحسان ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « حبك الشيء يعمى ويصم » أي يعميك عما سواه وكذلك يصمك عما سواه فلا تكاد ترى ولا تبصر إلا هو ويعميك أيضا عن عيوبه وهذه صفة المحدثين وهي في حق المولى جل جلاله مستحيلة وفي تعبيره عليه السلام عن كثرة الاحسان بالحب تأنيس للعباد وإدخال مسرة عليهم لأن العبد إذا سمع عن مولاه أنه يحبه هو أعلا السرور عنده وتحقق بكل خير ونعمة زائدة على ذلك وهذا الخطاب إنما هو لمن في طبعه فتوة ومروءة وعروبية وفضيلة وخير وإنابة ولذلك قال عز وجل (وما يتذكر إلا من ينيب) ومن في نفسه شراهية ورعونة ولمشهوة غالبة فلا يردعه إلا الضرب والزجر والتعنيت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ينتزع الله بالسلطان ما لا ينتزع بالقرآن » لأن السلطان هو الذي جعل له الزجر والتعنيت بالضرب والقتل وغير ذلك ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى حب جبريل عليه السلام فهو يحتمل وجهين أن يكون حب ولوع بالشخص يخلقه الله فيه عند أمره له بحب العبد ويكون من جملة فوائد حبه له أن يكون يواليه ويدعو له بالخير كما جاء « إن الملائكة تحب صاحب العلم الذي هو لله وترغب في صحبته وتدعو له وبأجنحتها تمسحه » وقد يحتمل أن يكون معنى حبه له ترفعته وتكرمته لكونه له عند الله تعالى مكانة حسنة لأن العبيد في الحب والبغض للمولى متبعون وكذلك في الغضب والرحمة للمولى متبعون أيضا ولذلك جاء في حق الزبانية أنه « إذا أمر الله عز وجل بالمجرمين أن يقذفوا في النار فتأخذهم الزبانية فيتمزقون في أيديهم فيقولون لهم ألا ترحمونا فيقولون لهم إذا كان أرحم الراحمين لم يرحمكم فكيف نرحمكم نحن » أو كما ورد فالعبيد كلهم أهل العالم العلوي والسفلي تابعون لما به يؤمرون إما بالمقال وإما بالوضع ولذلك لم يشتغل أهل العقول الوافرة إلا بالعمل على رضى مولاهم ولم يبالوا بغيره حتى أن من كلام بعضهم فياليت ما بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

ومثل الجواب عن حب جبريل عليه السلام الجواب على حب الملائكة عليهم السلام بالسواء لكن في تقديم الأمر لجبريل عليه السلام قبل غيره من الملائكة إظهار لترفيع منزلته عند الله تعالى على غيره من الملائكة ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى القبول احتمل أن يكون على ظاهره وهو معنى الترفيع له والاكرام يقال أقبل فلان على فلان إذا أكرمه ورحب به وقد جاء من طريق آخر في حديث غير هذا « ويوضع حبه على الماء » فعلى هذا يكون جميع من في الأرض من إنس وجن وملائكة وقد جاء أن « ما من موضع شبر في السماء إلا وملك واضع جبهته فيها ساجد لله تعالى » أو كما ورد(١) « وما من حيوان

(١) ولفظ الحديث قال رسول الله ﷺ « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله » رواه الترمذي في جامعه عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه وأدرج فيه « لوددت أني كنت شجرة تعضد » على ما اختاره القاضي عياض في شفائه خلافا لأبي بكر بن العربي في العارضة

على اختلافهم إلا بقبل عليه ، وقد جاء ما يفسر هذا فى حق صاحب العلم الذى هو لله أنه يستغفر له كل شيء فى الأرض حتى الطير فى الهوى والحوت فى البحر وهوامه وجميع الأنعام وحشرات الأرض وشجرها ومدرها وكل مافيها هولاء كلهم يدخلون تحت قوله هنا أهل الأرض أى كل مافيها فانه إذا جمع من يعقل مع من لا يعقل يجمع بلفظ من يعقل فقد يكون معنى ماذكرناه فى حق العلم الذى هو لله فان هذه المنزلة أرفع المنازل عند الله تعالى لأن هؤلاء السادة هم ورثة الأنبياء (١) عليهم السلام ويكون فى غير العالم فى غير أهل جنسه وهو تفسير القبول الذى يوضع له فى الأرض وقد ذكر الامام يمن بن رزق رحمه الله أن الله تعالى لا يزال بعبده الصالح حتى يحببه لعباده ويلقى خوفه فى قلوبهم ويسهل عليه طاعته ويرزقه حلاوتها ويشهد لقول هذا الامام هذا الحديث الذى نحن بسبيله مع قوله صلى الله عليه وسلم « من خاف الله خوف الله منه كل شيء » فاذا جمع الله فى قلوب عباده الحب والخوف جاء ماقاله الامام سواء بسواء فلا يكون فى هذه المنزلة إلا وقد خفت الطاعة عليه وأنس بها فيحصل له من ميراث « أرحنا بها يا بلال » نسبة الصدق الاتباع والتصديق فيامبصر نشر رياح المحبوبين هذه ثمرة أغصان فؤادك هل تجد من تلك الرياح نسمة تنعش بها أسماع قلوب المشتاقين ولو نسمة ما يرتاحون إليها كان بعض أهل الصدق والتصديق والتوفيق إذا كان عند انشقاق الفجر وهو تحت السقف بين الجدران يقول لمن حضره قد طلع الفجر فيخرجون فيبصرون الفجر كما انشق رتق جوه لأنه جاء وإذا كان عند السحر يرسل الله عز وجل من تحت العرش ريحا عطرة تنور وجه كل من كان يقظانا فى طاعة مولاه ، ويؤخذ بقوة الكلام من مفهوم هذا الحديث الندب على توفية أفعال البر على اختلاف أنواعها من فرض وسنة وندب إلى غير ذلك من أنواعه إذ أن بذلك يحصل للعبد بفضل الله هذه المنزلة الرفيعة ويفهم منه أيضا كثرة الحذر وشدة النهى عن المعاصى والبدع التى بهما يحرم العبد هذه المنزلة الجليلة فمن فهم آناب لما صفت القلوب تلمحوا روائح القرب وإن كشفت حجب الجدران عللا قلبى بذكراهم فالقلب لهم والله مشتاق

(١) روى الترمذى فى سننه عن محمود بن خداش البغدادى قال حدثنا محمد بن يزيد الواسطى حدثنا عاصم ابن رجاء بن حيوث عن قيس بن كثير قال قدم رجل من أهل المدينة على أبى الدرداء رضى الله عنه وهو بدمشق فقال ما اقدمك يا اخى فقال حديث بلغنى انك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اما جئت لحاجة قال لا قال اما قدمت لتجارة قال لا قال ماجئت إلا فى طلب هذا الحديث قال فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من سلك طريقا يتبغى فيه علما سلك الله له طريقا إلى الجنة وان الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم وان العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ان العلماء ورثة الانبياء ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم فمن اخذ به اخذ بحظ وافر » وهذا فى العلماء العاملين الذين يريدون بعلمهم ماعند الله تعالى كما سيأتى للشارح مصححه عفى الله عنه

(٢٩٥) ﴿ حديث أمر الله تعالى للحفظة بكتب حسنات العبد وسيئاته ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام (أحدها) أمر الله سبحانه ملائكته أن العبد من بنى آدم إذا أراد أن يعمل سيئة فلا يكتبونها عليه حتى يعملها فاذا عملها يكتبونها بمثلها (والحكم الثانى) أمره تعالى للملائكة أن العبد إذا أراد فعل سيئة فتركها من أجل الله تعالى يكتبون له بها حسنة (والثالث) أمره تعالى إذا أراد العبد أن يعمل حسنة فلم يعملها يكتبونها له حسنة واحدة فان عملها كتبوها له بعشر أمثالها حتى إلى سبعمائة مثلها والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل العبد على العموم فى المؤمن وغيره ومن المأمورون بذلك ومن أين تعلم الملائكة ما فى قلب هذا العبد وهذا من باب علم الغيب ولا يعلمه إلا الله عز وجل وكيفية الترك من أجله سبحانه وقوله ﴿ فاكتبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة ﴾ هل هذه التفرقة بين الأجور تعبد لا يعقل له معنى أو يعرف سببه وهل يزاد على السبعمائة أو لا ﴿ أما قولنا ﴾ هل هذا على العموم فى جميع العباد اللفظ محتمل لكن يخصصه ما يعلم من قواعد الشريعة فان الله عز وجل يقول (والعمل الصالح يرفعه) أى أن كلمة الاخلاص هى التى يرفع بها العمل الصالح ومن ليس من أهلها فلا يقبل منه عمل هذا على قول من يقول أنهم مخاطبون بفروع الشريعة وعلى قول بأنهم مخاطبون بفروع الشريعة فلا يدخلون تحت هذا الحد وقد جاء فى بعض الآثار « عبدى المؤمن » فارتفع بهذا النص الاحتمال الذى فى اللفظ ﴿ وأما قولنا ﴾ من المأمورون بالكتب فقد نص عليهم الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله عز وجل (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون) وأما السنة فقوله عليه السلام « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ثم يعرج الذين باتوا فيكم » الحديث رواه الأئمة ﴿ وفى هذا تنبيه ﴾ لك لعلك تستحى من مباشرتهم لك وقعودهم معك فتكف عما فيه هلاكك من سوء عملك وأنت مع عملك بهذا معرض كأنك لا تعلم إن من العلم لجهلا ﴿ وأما قولنا ﴾ من أين تعلم الملائكة ما فى قلب العبد فقد جاء « إن الله عز وجل أجرى لهم عادة إذا أراد العبد أن يعمل سيئة يخرج على فيه رائحة ونتنة فيعلم الملك أنه قدهم بسيئة فلا يكتبها حتى يفعلها وإذا أراد أن يعمل حسنة يخرج على فيه رائحة حسنة فيعلم الملك أنه أراد أن يعمل حسنة فيكتبها له حسنة كما هو مذكور فى الحديث » أو كما قال عليه

السلام « لاحيا الله أخا البطالة عطر رياشه بالمسك والطيب وقد طبق الآفاق نتن فمه وجوارحه » هلا عبرت هذه الحالة بطيب (ونهى النفس عن الهوى) ﴿وأما كيفية الترك﴾ الذى هو لله فكيفيته أن لايرده عن تلك السيئة التى أراد فعلها إلا خوف الله تعالى من أجل عقابه أوحياء منه لأنه أهل أن يستحيا منه أو طمع فى وعده الجميل وهو قوله الحق (ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) كما ذكر عن أصحاب الغار وهو أنه كان فى غار ثلاث أناس فنزلت على بابه صخرة عظيمة سدته فقالوا ماينجينا من هذا إلا أن يدعو كل واحد منا بخير عمل عمله خالصا لله تعالى فدعى أحدهم وسمى عمله الذى أخلص فيه لله فتفرج من تلك الصخرة بعضها ثم الثانى فعل مثل صاحبه فتفرج بدعائه من الصخرة مثل ما انفرج بدعاء صاحبه ثم الثالث قال فى دعائه اللهم إنك تعلم أنى أحببت امرأة وراودتها عن نفسها فأبت حتى أدفع لها مائة دينار فلما دفعت لها المائة دينار أمكنتنى من نفسها فلما قعدت بين شعبيها قالت لى اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فاستحييت منك وتركت لها المائة دينار فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك خوفا منك وحياء ففرج عنا ما بقى علينا من هذه الصخرة فانفرجت عنهم من جنبها وخرجوا من الغار » أوكما ورد وقد جاء « إن الله عز وجل جعل ملك اليمين يكتب الحسنات وملك الشمال يكتب السيئات وأن ملك اليمين مقدم على ملك الشمال وحاكم عليه فاذا فعل العبد السيئة وأراد ملك الشمال أن يكتبها قال له ملك اليمين اصبر عليه لعله يستغفر أو يتوب » فان تاب أو استغفر لم يكتب عليه شيئا وإن فعل حسنة خاصة منها بقدر السيئة وكتب باقى آخره فان لم يفعل شيئا من ذلك فحينئذ يكتبها عليه كما فعل بغير زيادة على ذلك ﴿وفى هذا أتم دليل﴾ على عظم لطف المولى بعباده المؤمنين وكثرة رحمته لهم وقوله ﴿اكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة﴾ هل هذا تعبد لا يعرف له معنى يعطى الله من شاء ماشاء وذلك لسبب يعلم ظاهر اللفظ محتمل لكن يظهر ذلك من غير هذا الموضع وهو قوله صلى الله عليه وسلم « أوقع الله أجره على قدر نيته » وقد يكون مع حسن النية زيادة أسباب من الخير فى الحسنة نفسها توجب لصاحبها التضعيف فى الأجور مثل ما جاء « أن الذى يقرأ القرآن له بكل حرف عشر حسنات وأن الذى يقرؤه ويعلم لم خفض ورفع له بكل حرف مائة حسنة » وقد جاء « أن الذى يقرأ القرآن وهو قائم فى الصلاة له بكل حرف مائة حسنة وإن كان قاعدا خمسون وإن كان فى غير الصلاة وهو على طهارة خمسة وعشرون وإن كان على غير طهارة عشراً » أوكما ورد والله يوفق من يشاء إلى أسباب الزيادة فى أجور حسناته فضلا من الله ومنة ﴿وأما قولنا﴾ هل السبعمائة هى الحد لا يزاد عليها أولا لفظ الحديث ليس فيه مايدل على الزيادة ولا منعها لكن الكتاب العزيز أخبرنا بالزيادة على ذلك بقوله عز وجل (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) وبقوله عز وجل (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) فحسبك من كريم ملى ليس كمثله شيء « يعطى من يشاء بغير حساب) هل يدخل ذلك فيما تحده العقول ويترتب من الفائدة

على العلم بهذا الحديث وجوه منها قوة الرجاء فى الله تعالى الذى قد بسط انا ظل فضله بهذا القدر من لطفه واعتنائه بالمسىء منا وبالمحسن وتضاعف الحب والتكريم لمن جعل لنا وسيلة إلى العلم بهذا الخير العميم صلى الله عليه وسلم والنظر فى الأسباب التى بها تزكوا أعمالنا والأخذ فيما به يكفر خطايانا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «ويل لمن غلبت أحاده عشراته» لأن السيئة بواحدة كما نص الحديث وأقل مراتب الحسنة عشر فتعسا لغافل يقترف عشر سيئات ثم لا يقدر أن يعمل حسنة واحدة تكفر عنه تلك العشر السيئات والويل واد فى جهنم ﴿ تنبيه ﴾ فان سمعته ولم تنتفع أو علمت ولم تعمل كنت كالحمار يحمل أسفارا أو ياليتها أسفارا بل جبال تكبه فى النار أعاذنا الله من ذلك بفضله

(٢٩٦) ﴿ حديث حسن ظن العبد بربه يوجب له ماأمله فيه ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قَالَ اللهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عبدى بى

ظاهر الحديث يدل على أن الله عز وجل مع عبده على قدر ظنه والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا عام فى جنس العبيد كلهم مؤمنهم وكافرهم أو هو خاص بالمؤمنين الظاهر أنه عام فى كل العبيد لأن الكل عبيد لله عز وجل وهل الظن هنا على بابه أو هو بمعنى العلم هذا يحتاج إلى تقسيم إما أن يكون يريد بالظن ماهو راجع إلى العلم به جل جلاله وإلى أمور الآخرة وما فيها من رحمته عز وجل وعقابه وما فى معناه أو إلى أمور هذه الدار وما أجرى عز وجل فيها من خيراته وإحسانه لعباده ومافيها أيضا من نقمه وابتلائه أو راجع إلى ما كلف سبحانه عباده من طاعته واتباع رسله صلوات الله عليهم وما وعدتهم به الرسل عنه تعالى وما بشرتهم به من الشفاء من الآلام والأمور المخوفة بأيسر الأشياء مثل الارشاد إلى الثقة به عز وجل والتوكل عليه وكيف حال من فعل ذلك وصدقه والعامل عليه وما فى معناه فالموضع يدل على كل نوع من هذا أو ما فى معناه بوجوه عديدة إذا تتبعناها لكنها كلها مندرجة تحت هذه التنويعات ليس تخرج عنها فالذى راجع منها إلى العلم به جل جلاله فيجزىء فيه الوجهين أن يكون بمعنى العلم وأن يكون على بابه وهو الظن فأهل العلم به جل جلاله هو معهم لكل واحد منهم على قدر علمه به جل جلاله وهنا تقسيم التقسيمات التى تقدم ذكرها فى الكتاب على علم العوام وعلم الخواص وعلم خواص الخواص وكل منهم يجده سبحانه على قدر علمه به وقد تقدم فى هذا مافيه شفاء ومما قد ذكرنا فيه أن بعض من علمه جل جلاله بأوصاف الجلال والكمال ونفى الشبه والمثال رأى من أمور الغيب ما أخجله فصرع وقال أين لى هذا فقيل له عملت على الحق فأريت الحقيقة وعملوا على التأويل فعوملوا بحسب ما عملوا وأما أهل الجحد له أو الجهل بجلاله وتنزيهه وهم الكفار على اختلاف مراتبهم والمنافقون فليس يجحدونه هناك بل هم محجوبون عنه جل جلاله لقوله تعالى (كلا إنهم عن ربهم

يومئذ لمحجوبون) وليس لهم مولى حتى يجدون منه هناك رحمة (ذلك بأن الله مولى الذين آمنو وأن الكافرين لامولى لهم) وهم كما قال الله تعالى (الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدلهم جهنم وساءت مصيرا) وأما أهل الشك وهم أهل الظنون به سبحانه بلا قطع لأحد الجهات فهم من جنس الكفار لأن الشك يجرى مجرى الكفر (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرديكم فأصبحتم من الخاسرين) وإن كان فيما هو راجع إلى الآخرة فان كان من جهة التصديق بها أو بما فيها فنمشى على تقسيم الايمان به عز وجل فان من شروط الايمان به عز وجل التصديق بالآخرة وبمافيها وذلك من أوصاف المؤمنين كقوله عزوجل (وبالآخرة هم يوقنون) فان كان على الرجاء فى فضله عز وجل أن ينجيهم من عذابها ويمن عليهم بنعيمها فهناك يكون الظن بمعنى الرجاء والخوف لكن لايخلوا أن يكون الخوف والرجاء لما هناك مع الأعمال المأمور بها أو مع عدمها فان كان مع عدمها فلا يسمى ذلك رجاء بل يسميه أهل العلم غرورا وذلك مظنة الهلاك وقد تقدم من البيان فيه بفضل الله ما فيه شفاء وكفى فى ذلك قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل أولئك يرجون رحمة الله) وإن كان مع امتثال الأمر واجتناب النهى فذلك الذى يدخل تحت معنى هذا الحديث وكل على قدر حاله من حال العوام والخصوص وخصوص الخصوص لأن الله عزوجل يقول (ويزيدهم من فضله) فدرجهم عزوجل إلى الطمع فيه وفى فضله على غير عوض فظن كل واحد هنا على قدر علمه به سبحانه فان كان راجعا إلى هذه الدار ومافيها من نعمه سبحانه وأرزاقه فهنا كل يجده حيث أمله إذا كان مقرا وإن كان من غير المؤمنين لأنه جل جلاله قال مجاوبا للخليل عليه السلام حين قال (رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الاخر) قال جل جلاله (ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار) معناه ارزق من آمن وارزق من كفر ثم الكافر أسوقه إلى النار وقد ذكر أن ناسا سافروا فى برية ليس يوجد الماء فيها إلا قليلا فلحقهم العطش حتى مات أكثرهم وكان فيهم ذمى وكان البحر المالح قريبا منه فأتى البحر ورفع بصره إلى السماء وقال إن كنت لاترضى بدينى فانك تعلم اضطرارى فلا تهلكنى وغرف من ماء البحر فوجده عذبا فشرب حتى روى وإن كان ممن لا يعرفه فهو سبحانه ينعم عليه بمقتضى قوله (ومن كفر) وإن كان من المؤمنين فهنا تتسع الدائرة على مقاصد المؤمنين فى هذه الدار وما فيها كل على حسب همته وحاله من عوام وخصوص ولذلك قال أهل التحقيق عدد الطرق إلى الله تعالى على عدد أنفاس الخلائق معناه أن لكل واحد منهم طريقا يخصه كما أن صفاتهم فى حواسهم الظاهرة واحدة ولكل واحد فيها صفة تخصه يمتاز بها زيد عن عمرو وبكر عن خالد حكمة حكيم وإن كان الظن هنا راجعا إلى ما كلفوا من عبادته عز وجل واتباع رسله وما به وعدتهم الرسل صلوات الله عليهم وما يبشرهم عن مولاهم من وجوه الخير على نحو ما تقدم ذكره فى الأحاديث المتقدمة وفى الكتاب والسنة ومثل ما حد لهم فى بعض الأشياء من الشفاء من

الأمور المهولة والمهلكة بأيسر شيء مثل ما تقدم فى أحاديث الكتاب الذى نحن بسبيله ومثل إرشادهم إلى التوكل على مولاهم وقوة الثقة به سبحانه ومافى معناه فهذا خاص بالمؤمنين وهم فى ذلك كل على قدر همهم وقوة إيمانهم وحسن تصديقهم وغلبة ظنهم الجميل بمولاهم الجليل والنظر إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين (ومن أصدق من الله حديثا ، ومن أصدق من الله قيلا ، ومن أوفى بعهده من الله ، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) وقوة عزمهم على حمل النفوس على العمل بالصدق والتصديق ولذلك قال أهل العلم والعمل من صدق وصدق قرب لا محالة والضعفاء منهم على حالهم كل منهم على قدر ضعفه وتلونه وكثرة ويله وترجيح العادة على القدرة ويحمل ذلك بتأويله شرعا كل على قد حاله وإذا نظرت إلى ماقدمناه من الكلام تجد كل نوع من هؤلاء قد بيناه والحمد لله بما فيه كفاية لمن نظره وهدى إلى العمل بحسب الطريق الراجحة منه ففى بعض هذه الأمور يكون الظن بمعنى العلم مثل ما ترجع إلى الطاعات والأمر والنهى فيكون الظن فيها وفيما هو فى معناها بمعنى العلم لأن ذلك من كمال الايمان وما هو منها مثل البشائر وما جعل لهم من الشفاء من الأمور المخوفة والمهلكة بالأشياء اليسيرة فذلك ومافى معناه راجع إلى أن يكون الظن فيه على بابه فمتى كان ظنه هناك قويا وجد ما قيل له وزيادة ومتى كان ظنه ضعيفا كان بحسب حاله فى ذلك يجده ومن وقع له بذلك تكذيب فذلك يلحق بالكافرين إلا أن يتوب ويرجع كما قال جل جلاله (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) لأن الظالم لنفسه هو المكذب به والشاك فيه والذى يفعل شيئا من ذلك على تجربة يعود ذلك كله على صاحبه بالخسارة وقد بينا ذلك فى ما تقدم من الكتاب وذكرنا فى بعض المواضع فعل ابن عباس حين تطلع له الدماميل ويطليها بالعسل ويتلوا الآية فى ذلك أو كما ورد وقوله صلى الله عليه وسلم فى الذى سقى أخاه العسل « صدق الله وكذب بطن أخيك » وفعل ابن عمر حين كان يرمد ويكتحل بالعسل أيضا ويتلوا الآية فى ذلك أو كما ورد وما كان من بعض المشايخ فى الشونيز والكلام عليه فى حديثه المختص به من الكتاب وكذلك كل ما أشرنا إليه هنا قد تقدم الكلام عليه فى موضعه من الكتاب بفضل الله وبقى فى هذا الحديث أن ينظر ما فيه من الايجاز لفظة واحدة جاءت جامعة لمعانى السنة كلها أعنى فى الاعتقاد فيما يقع له فى كل عمل فما من عمل إلا والنية منسحبة عليه كانت النية حسنة أو رديئة فالله تعالى يجازيه بحسب نيته فى عمله وذلك هو الظاهر المراد فى الحديث ويدل أيضا على عظمة الله تعالى وعظم قدرته وعلى جلال صفاته يؤخذ ذلك من قوله ﴿أنا عند ظن عبدى بى﴾ فاذا كان مع جميع العبيد على كثرتهم مع كل واحد واحد منفردا بحسب ظنه به فى الزمن الفرد وهذا جار على ممر الدهور والأيام وكذلك الانفاس لأن قلب ابن آدم أشد تقلبا من القدر إذا اجتمعت غليا فكل تقلب من تقلبات قلوب الجميع هو عز وجل معهم على مايكونون عليه هذا يدل على أنه تعالى (ليس كمثله شيء) ولا

يدرك بالعقل ولا يحد بالأذهان ولا يخطر بالأوهام موجود حقا (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وإذا تأملت معنى ما أشرنا إليه هنا بتوفيق الله تعالى تجتمع لك الشريعة والحقيقة وحسن العقيدة وصالح الايمان وجميع خير الدنيا والآخرة ويشعرك بكل ماخالف ماذكرناه جعلنا الله ممن فهمه ذلك وجعله من أهله بفضله لارب سواه

(٢٩٧) ﴿حديث خطاب الله تعالى لأهل الجنة ورضائه عنهم﴾

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِى يَدَيْكَ فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَارَبَّنَا وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَالَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا وَأَىُّ شَىْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِى فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا

ظاهر الحديث يدل على أن فضل نعيم الآخرة دوام رضى المولى سبحانه عن عبيده المؤمنين أهل دار كرامته والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ إثبات كلام الله سبحانه بذاته الجليلة لأهل الجنة يؤخذ ذلك من قوله ﴿إن الله سبحانه يقول﴾ فدل بقول سبحانه أنه عزوجل المخاطب لهم ثم بقرينة أخرى وهى جواب أهل الجنة بقولهم ﴿لبيك ربنا وسعديك والخير كله فى يديك﴾ وبقولهم أيضا ﴿وما لنا لانرضى يارب﴾ وبقولهم ﴿وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك﴾ وبقوله سبحانه ﴿ألا أعطيكم أفضل من ذلك﴾ وبقولهم ﴿ربنا وأى شيء أفضل من ذلك﴾ وبقوله سبحانه ﴿أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا﴾ فهذه كلها دلائل على أنه عزوجل هو المتكلم معهم بذاته الجليلة ﴿وفيه دليل﴾ على ماتقدم أول الكتاب من مذهب أهل السنة فى كتابه العزيز أنه كلامه القديم الأزلى ميسر بلغة العرب وأن النظر فى الكيفية فى ذلك ممنوع ولا نقول بالحلول فى المحدث التى هى الحروف والأصوات ولا نقول إنه دال عليه وليس بموجود بل الايمان بأنه منزل حق ميسر باللغة العربية صدق يشهد لذلك هنا خطاب مولانا جل جلاله لأهل الجنة وكيف ييسر لهم سمع كلامه القديم الأزلى بلغة العرب لأن الألفاظ التى فى الحديث هى علم مقتضى اللغة العربية وكذلك جاء أن كلام أهل الجنة بلغة العرب فيسر لهم عزوجل سمع كلامه القديم القائم بذاته الجليلة لأن الصفة الجليلة لاتفارق الموصوف فأسمعهم إياه بالنوع الذى هو لغتهم ليفهموا عنه سبحانه ماأراده لهم بفضله ولا يمكن لأحد أن يتعرض للكيفية فكما

لايمكن هنا على ذلك فكذلك الحكم فى كتابه العزيز لأن هذا كلامه الجليل فالحجة لأهل السنة والحمد لله قائمة ﴿ وفيه دليل ﴾ على إضافة المنزل لساكنه وإن لم يكن الأصل له يؤخذ ذلك من قوله سبحانه ياأهل الجنة والجنة لله عز وجل فى الحقيقة ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن يقال لم ذكر جل جلاله لهم دوام رضاه بعد استقرارهم فى الجنة ولم يكن ذلك عند أول دخولهم ﴿ فالجواب ﴾ والله الموفق أنه جل جلاله لو أخبرهم برضاه أولا قبل سكناهم والتمتع بما هنالك لكان ذلك إخبارا على ماتقدم عندهم من علم اليقين وعين اليقين أبلغ فلما أن حصل لهم عين اليقين بما رأوا فيها مما لايقدر أحد منا أن يذكره بعقل ولا نقل ولافهم ولادليل أعنى حقيقة تلك الأعيان أخبرهم بذلك وكفى على ذلك دليلا قوله عز وجل (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين) وقول مولانا سبحانه لما وصف فرش الجنة قال (بطائنها من استبرق) لأنه ليس فى هذه الدار مايشبه الوجوه ولما كانت العادة عند أهل هذه الدار أن بين بطائن الفرش ووجوهها بونا عظيما عبر لهم أن البطائن هناك من استبرق إذ هى أعظم الملبوسات فى هذه الدار ولو كان عندنا شىء أرفع منه لشبه به فدل على عظم قدر الوجود وحقيقة ذواتها لأنا لانعرف كيف صفتها فلما عرفوا ماهناك عيانا أخبرهم بما من عليهم بفضله من رضاه عليهم ليقدروا للنعمة بعض قدرها لأن حقيقة قدرها لايمكن معرفتها لأن مالا آخر له كيف يعرف له قدر هذا من وجه واحد وهو طريق التحديد لأنا لانعرف قدر الأشياء إلا إذا كانت محدودة وأما من جهة أخرى وهى حقيقة رضاه فلا نقدر على معرفته ولا نشبهه غير أن ما الأثر الدال عليه نعرف أنه عز وجل عظيم فى ذاته الجليلة بلا تكييف فجعل حسن الدار التى هى من أثر قدرته سبحانه وتعالى دالا على عظمة فضله وجلاله جعلنا الله بحرمته من أهله فى الدارين بلا محنة لارب سواه ﴿ ويترتب على هذا من الحكمة ﴾ أن لايخاطب أحد بشىء حتى يكون عنده ثم يستدل عليه أو على بعضه ولذلك قال على عليه السلام «خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتحبون أن يكذب الله ورسوله» أى على قدر ماتفهمون وكذلك ينبغى أن يكون الشخص فى نفسه لايأخذ من الأمور إلا قدر مايحمله عقله ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه ليس فى الآخرة دار إلا الجنة أو النار يؤخذ ذلك من قولهم ﴿ وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ﴾ وقد جاء هذا عنه صلى الله عليه وسلم بقوله «ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار» أوكما قال عليه السلام ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن من لم يعرف حقيقة ماخوطب به فانه يسأل بأدب يؤخذ ذلك من قولهم (وأى شىء أفضل من ذلك) فلما لم يعلموا فى تلك الدار أفضل مما هم فيه استفهموا عن هذا الشىء الذى لايعلمونه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن لفظ الآية هو دال على انقطاع الشىء يؤخذ ذلك من قوله عز وجل ﴿ لاأسخط عليكم بعده أبدا ﴾ فلولم يكن هذا دليلا على عدم الانقطاع ما كانوا يخبرون أنه أفضل مما هم فيه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن طبع البشرية

إنما تنظر لوقتها يؤخذ ذلك من فرح أهل الجنة بما هم فيه ونسوا ما كابدوا من أهوال القيامة قبل ذلك ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الخير كله إنما هو فى رضى المولى سبحانه وتعالى ، أن دونه من النعيم على اختلاف انواعه فى كلا الدارين إنما هو من أثر ذلك الخير وهو النعيم الحقيقى ﴿ وفيه دليل ﴾ لأهل الطريق العارفين لأنهم لم يعملوا على نعيم الجنان . إنما عملوا على طلب رضاء الرحمن ومما يدل على ذلك من كلامهم « وهل نعيم فى الخلد أشهى من الرضى والقرب » ومن أجل التحقيق لهذه المراجعة العجيبة طاشت قلوب المحبين وتعاموا عن نعيم الدارين فضلا عن نعيم هذه الدار وللجهل به عميت بصائر أهل الدنيا حتى تفانوا عليها ولم يحصلوا منها وحصلوا على صفقة خاسرة خسروا الدنيا والآخرة ولتصديق أهل التوفيق بهذه الأخبار الجليلة وجدوا الحلاوة فى الذى هو فى نفس الطاعة إلى هذا الحال الجليل وتنسموا تلك الروائح العطرة بقلوب زكية ونفوس أبية ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن رضى أهل الجنة كل منهم بحاله مع اختلاف منازلهم يؤخذ ذلك من كون جوابهم الكل على حد واحد بقولهم وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ﴿ تنبيه ﴾ وعند بسط جناح الرحمة وإظهار خلع القرب والانبساط تساوى الرفيع فى النعيم والدنىء يؤخذ ذلك من قوله سبحانه ﴿ ياأهل الجنة ﴾ عموما للرفيع المنزلة وغيره على حد سواء فاجهد نفسك لعل أن يكون لك فى القوم نسبة مالعلك تدخل فى ضمن الخطاب الجليل لأن سمع خطاب المولى الجليل بهذا الخير العميم أعلا النعيم ﴿ إشارة وتنبيه ﴾ يحق أن يسمى كلما جاءت به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم خيرا لأنها أسباب إلى البلوغ المبلغة إلى هذا الخير العظيم وكل ما لا يوصل إلى الشىء إلا بمفهومه كقول العلماء مالا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب

﴿ خاتمة الكتاب للمؤلف رضى الله عنه ﴾
(بالدعاء له ولمن قرأ كتابه أو اقتناه أو انتفع به)

إلهى دعوتك وأنت الكريم كما مننت علينا بالأسباب المبلغة إلى هذا الخير العميم وعرفتنا بدايته ونهايته ورزقتنا التصديق بفضلك بما به أخبرتنا أن تتم بفضلك ما به من التصديق رزقتنا بأن تعيننا على ما فيه رضاك ودوامه فى الدارين علينا بلا محنة وأتوسل إليك بجاه من على رسالك اصطفيته والمقام المحمود وعدته أن تنعم علينا بما فيه رغبتنا وأن تنعم علينا بالشكر لما به نعماءك خولتنا وأن تجعلها رحمة لنا ولوالدينا ولمعلمينا ولمن تعلم منا ولمن استمع لما به فتحت علينا ولمن اقتناه ابتغاء مرضاتك وتصديقا لما به عن الصادق الكريم أخبرتنا وتعرفنا جميعا فى الدارين بركته وأن تحشرنا بحرمته فى زمرة عبادك المتقين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين برحمتك ياأرحم الراحمين وتجعل كلما فتح به هذا الكتاب وفى أصله على عبدك الفقير المضطر إلى نوالك وغفرانك وجودك وإحسانك ياعلى ياعظيم ياأرحم الراحمين خالصا لوجهك الكريم مقبولا بفضلك العميم قبولا لا يعقبه خزى ولا تبديل وتجعل ذلك سنة فيمن قرأه أو سمعه

أوعمل به أو اقتناه إنك ولى حميد وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وسلم وشرف وكرم ورحم الله من سمعه أو قرأه فأمن وأخلص فى التأمين آمين آمين يارب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم ووالى ورفع

﴿ دعاء آخر ﴾

اللهم أنت مننت على بهذا الشرح أخبرتنى فى النوم أنك أخبرت به آدم عليه السلام قبل موته فاجعله لى نورا فى الدنيا والآخرة واجعله لى حجة ولا تجعله حجة على واجعل لى نوره تاما إلى يوم القيامة واجعله لمن قرأه أو سمعه أو تملكه نورا تاما إلى يوم القيامة ولى مثلهم ومن كذب به فلا تملكه إياه واحرمه بركته ومن ملكه ولم يعمل به ولا ببعضه فاجعله عليه حجة واجعله لنا دليلا وإماما للحق وقائدا إليه ومؤنسا لنا فى قبورنا ومنورا لقلوبنا وأرنا فضله فى الدنيا والآخرة واجعلنا ممن رحمته به ولا تجعلنا ممن حرمته وأعد علينا بركته فى الدنيا والآخرة برحمتك ياأرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما

﴿ وهذا الدعاء الآخر ﴾ هو بأمر من مولانا سبحانه فى النوم للعبد الفقير بعد ما فرغ من الكتاب وأمره أن يختم به الكتاب بعد ما وعد به بفضله من الخير الجزيل عليه وعلى من قرأه وعمل به أو ببعضه أو تملكه حسب ما هو مذكور فى المرائى (١) التى رأيتها فى خير هذا الشرح وقد جعلت لذلك كتابا خاصا به جعله الله نعمة تامة بمنه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

---

(١) كان المصنف رضى الله عنه من الصالحين المخلصين فى علمهم وعملهم ولما ألف هذا الشرح المبارك كان يرى المصطفى صلى الله عليه وسلم فى النوم يبشره بخير عمله فى شرح هذا الكتاب الجليل حديثا حديثا فجمع تلك المرائى التى رآها بخصوص هذا الشرح فى جزء كتابا سماه (المرائى الحسان) وقد قمنا بطبعه لرغبة المشتركين والمحبين ولتمام النفع به وأنه تمامه عنوان وتعريف بحق الكتاب وتحقيق نفعه وفقنا الله تعالى لما فيه الخير لنا وللمسلمين آمين

﴿ قال ملتزم طبعه حفظه الله تعالى ﴾

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وبفضله وحسن معونته تنمو البركات وتكثر الحسنات كيف لا وهو المنزل للكتاب والملهم للصواب والمسبب للأسباب مبدع البدائع ومرسل الرسل بالشرائع فله الحمد على ما أنعم وأعان وتمم والصلاة والسلام على أشرف مبعوث وأكمل مخلوق وأفصح ناطق وأفضل شافع ومشفع سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه العاملين بسنته والمحبين له إلى يوم الدين آمين ﴿ أما بعد ﴾ فيقول الراجى من ربه تعالى غفران المساوى إسماعيل بن عبد الله المغربى الصاوى قد تم كتاب ﴿ بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها ﴾ للامام الحافظ المحدث الجليل أبى محمد عبد الله بن سعيد بن أبى جمرة الأزدى الأندلسى على مختصره لصحيح البخارى أسكنه الله أعلى جناته فلقد أودع كتابه أحكاما فقهية وأصولا شرعية ولطائف ربانية

وإشارات صوفية وضرب عن النحو صفحا ولوى عن الأعاريب كشحا وهذه طريقة مثلى لو اقتصر عليها المصنفون وتجنبوا خلط العلوم بعضها ببعض ألهمهم الله سلوكها بجاه سيدنا محمد الشفيع لنا يوم العرض
وقد طبعته معتمدا على نسخة مخطوطة برواق المغاربة بالجامع الأزهر ونسخة مخطوطة أخرى مع مراجعتى لنسخة بمكتبة الجامع الأزهر وأخرى بدار الكتب المصرية عند التباس الخطوط ويعلم الله ماتكبدنا من المشاق فى مراجعة المخطوطات حرصا على صحة المعنى والمبنى وخدمة للعلم وأهله وقد أعانني على تصحيحه أخي فى الله تعالى المحدث النابه والعالم الأجل الشيخ الهادى عبدالقادر التونسى والعالم العامل الشيخ عبدالصمد الحسيني السنان الأزهرى وكان تمام هذا الطبع البهى الجميل فى السابع والعشرين من رجب سنة خمس وخمسين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة صاحب القدر الجليل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه مالاح بدر التمام وفاح مسك الختام بمطبعتى ﴿ مطبعة الصدق الخيرية ﴾ رقم ٤ بدرب الأتراك بجوار الجامع الأزهر الشريف بمصر القاهرة

﴿ وقد قال العالم العامل الشيخ عبد الصمد الحسيني السنان مقرظا ومؤرخا عام طبعه ﴾

﴿حديث خير المرسلين المنتقى ✽ به إلى أوج المعالى يرتقى﴾
﴿ويهتدى بنوره إلى الهدى ✽ ويكتفى به الردى ويتقى﴾
﴿فاعمل بما قدصح منه وهو فى ✽ ست لأسفار أتى محققا﴾
﴿منها البخارى الذى على السوى ✽ بصحة الاسناد قد تفوقا﴾
﴿لكن لرغبة الورى فى حفظه ✽ مجرداً وذا أراه أوفقا﴾
﴿جرد منه العزم لاختصاره ✽ ابن أبى جمرة سامى المرتقى
﴿وحينما تم له اختصاره ✽ وصار غيث النفع منه يستقى
﴿أتى على المعنى بشرح لم يدع ✽ فيه على الألباب شيئا مغلقا﴾
﴿سماه «بهجة النفوس» وهوذا ✽ فكن به مبتهجا أخا التقى﴾
﴿واسأل له وللبخارى الرضا ✽ من عباب فضله تدفقا﴾
﴿واطلب لاسماعيل من بطبعه ✽ قدقام حفظا دائما من الشقا﴾
﴿وقل بقيت الدهر ياخير امرىء ✽ لطبع ما ينفعنا موفقا﴾
﴿طبعت هذا الشرح طبعا متقنا ✽ إلى اقتنائه النفوس شوقا﴾
﴿وزان حسن الطبع تاريخ بدا ✽ لبهجة النفوس طبع منتقى﴾
١٣٥٥ ٧ ٤٤٠ ٢٢٧ ٨١ ٦٠٠

﴿ تم كتاب بهجة النفوس ويليه كتاب المرائى الحسان للمؤلف ﴾

تم والحمد لله